
Bibliotheca Alexandrina
0137907

دكتور مرسي سعد الدين

حفيدتي.. وأنا

رحلة السنوات الست

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية



اقرأ

[٦٠١]

رئيس التحرير: رجب البنا

دكتور مرسى سعد الدين

حفيدتي.. وأنا

رحلة السنوات الست



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشـاء هـذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

مدخل

لا أدعي أن هذا كتابٌ علميٌّ .. لقد جاء أولاً نتيجة لمراقبتى لحفيدتى وهى تكبر ، وهو إلى حد كبير تسجيل للنمو الذى مرت به منذ الولادة حتى سن الخامسة .. وهو أيضًا نتاج عمل مع الأطفال وزيارات لعدد كبير من البلدان التى تهتم بالأطفال .

وقد حاولت أن أضع ملاحظاتى نتيجة لمراقبة حفيدتى فى إطار القراءات العديدة التى قمت بها عن الأطفال ، وخاصة قبل بدء التعليم الرسمى أو فترة ما قبل المدرسة كما تسمى ، وعن تنمية حواسهم وإعدادهم لمواجهة العالم الذى سيعيشون فيه ، والمجتمع الذى سيتعايشون معه هذا بالإضافة إلى حضور عدد من المؤتمرات الخاصة بنمو الطفل واكتسابه المعرفة ، كان آخرها مؤتمرًا فى اليابان عنوانه « النمو المبكر للطفولة » .

وحين يكتب مؤلف عن موضوع ما ، فلابد أن يفكر أولا فى قرائه أو لمن يكتب ، وقد وجهت لنفسى هذا السؤال أكثر من مرة ، ليس فقط قبل التفكير فى الكتابة والبدء فى وضع الأفكار على الورق ، وإنما أيضًا فى أثناء عملية الكتابة نفسها . كنت أتوقف بعد كل

فصل ، بل وأحيانًا بعد كل فقرة لأسأل هل سأستطيع أن أصل إلى القارئ ؟ .

فمن هو هذا القارئ ؟ !! إنه الأب والأم ، وهما أكثر قربًا واقترابًا من الطفل عن أى شخص آخر ، ومعهما يقضى الطفل أطول فترة زمنية ، إنهما يعرفان طفلهما معرفة تامة ، فى نومه ، فى صحوه ، وهو عار أو مرتدٍ ملابسه ، وهو فى حمامه وعلى مائدة الطعام .. إنهما يعرفان الكلمات التى يعرفها ، والأشياء التى يتعرف عليها .. أقول إنهما يعرفان هذا وإن كان من الأصح أن أقول : يجب عليهما أن يعرفا هذا . ولكن هل فى استطاعتهما حقًّا أن يتعرفا على عوائد وسلوك طفلهما أو أطفالهما ، هذا هو لب الموضوع .

إن الآباء – واللغة العربية هنا تعنى بلفظ (الآباء) الأب والأم – يأخذون أطفالهم كأمر مفروغ منه .. إنهم يسبغون عليهم من الحب أكثره ، ومن التدليل أكبره .. إن الأطفال بالنسبة إلى معظم الآباء ، ولا أقول كلهم ، جزء من حياتهم ، وعادة من عاداتهم .. يرونهم كل يوم يكبرون وينمون دون أن يحاولوا أن يعرفوا كيف ولماذا ومتى ؟ ..

إن الكثير من الآباء لا يحسُّون بهذه العملية الإلهية ، تلك المعجزة الخارقة معجزة نمو أطفالهم ، ولعل لهم العذر فى هذا ، لأن من يعيش مع أى نمو قد لا يلاحظه بقدر ما يلاحظه ، من هو بعيد عنه . فإذا نحن غبنا عن أطفالنا شهرًا مثلا ثم نشاهدهم لعرفنا فى

الحال أنهم كبروا ونموا ، بينما نحن إذا عشنا معهم كل يوم وكل ساعة فقد لا نلاحظ هذا النمو ، تماما إذا ما نحن عشنا مع زهور مثلا ، فقد لا نتعرف على مدى نموها ، ولكن إذا غبنا عنها فترة وعدنا لوجدنا البراعم قد تفتحت ، والفروع الضعيفة قد قويت وأصبحت نضرة للناظرين .

هذا الكتاب موجه للآباء ، وهو عن الطفل قبل أن تبدأ عملية وضعه فى قالب مفصل ومحدد .. إنه عن الطفل فى بدء فترة انطلاقية وتلقائية تدوم منذ الولادة حتى يلتحق بالحضانة ، أى حتى سن الخامسة تقريبًا . إنها المرحلة الأولى من فترة ما يسمى بالتعليم الأولى أو الابتدائى حين يبدأ الطفل فى التعرف على ما حوله ، وفى اكتساب المعارف والقدرات دون قيود أو ضغوط ، أو هكذا يجب أن يكون .

وإنى لا أدعى أنى أقدم شيئًا علميًا ، فليس هناك عينة عشوائية كالتى تحتاج إليها البحوث ، بل إنه لا يتعدى كونه محاولة مخلصة نابعة عن حبى للأطفال متمثلا فى حفيدتى ، ونتاج لمراقبتى لها منذ الولادة .. ومن حسن الحظ أنى أسكن فى نفس العمارة ، وأسعد بها كل يوم ، ولأنى على المعاش لم أعد مقيدًا بأوقات مكتبية منتظمة ، مما أعطانى الفرصة أن أكون معها دائما .

وقد حاولت أن أرجع بملاحظاتى على ما تقوم به حفيدتى إلى المراجع العلمية ، وأعطى الشرح العلمى له دون أن أحاول أن أضع الملاحظة فى قوالب جاهزة ، كما يضع بعض أصحاب الأيديولوجيات ..

ومما حفزني إلى هذا الاهتمام ، إحساس أن تربية أطفالنا تسير بطريقة عشوائية أقل ما يقال عنها أنها غير مدروسة أو واعية .. هناك محاولات عديدة جادة لوضع أسس ومفاهيم لتنمية الطفل ، وقد عقدت مؤتمرات عديدة لمناقشة أحسن السبل لتحقيق هذا ، ولكن لا توجد اهتمامات بتوجيه العاملين مع الأطفال سواء أكانوا الآباء أم المدرسين .

وقد يوجه البعض نقدًا لكثير مما جاء فى هذا الكتاب ، وإنى أرحب بهذا النقد ، خاصة إذا جاء نتيجة لتجارب محددة مع الأطفال ، وأود أن أؤكد أنى لم أجرؤ على إعداد هذا الكتاب إلا بعد العديد من اللقاءات والمناقشات مع أخصائيين ومتخصصين ..

الكتاب إذن ليس تأليفًا بقدر ما هو تسجيل للملاحظات ثم تنسيق للآراء والأفكار العديدة التى قد يبدو بعضها متناقضًا ، ولكن هكذا الحياة مليئة بالمتناقضات .

الطفولة قبل كل شىء

يصل الطفل إلى هذا العالم وهو على استعداد كامل للتعلم ، بل إن هناك بعض النظريات التى تقول : إن الطفل يتعلم بعض الأسس الضرورية وهو لا يزال فى بطن أمه ، ويفرق علماء النفس بين نوعين من التعلم الابتدائى والثانوى .. التعلم الابتدائى يأتى عن طريق البديهة والتقليد أو المحاكاة ، دون أن تصحبهما عملية تفكير أو مجهود ذهنى ، وهذا هو النوع الوحيد الذى يقدر عليه الطفل فى هذه السن ، ولكنه فى نفس الوقت يترك آثارًا دائمة فى نفس الطفل ، بل إن النشاطات الذهنية المستقبلة مبنية أساسًا على هذه الفترة التلقائية .

وأول هذه الحركات هى ابتسامة الطفل ، وإنى لأذكر أول مرة ابتسمت لى حفيدتى ، وكانت لم تتعد أسابيع عديدة . لقد اعتقدت آنذاك أنها تخصنى بالابتسامة ، ولكن سرعان ما وجدت أنها توجهها إلى الجميع .. وحين جاء الطبيب عرفت منه أن هذه الابتسامة ليست أكثر من حركة عضلية من جانب حفيدتى ، وأنها لا ترتبط بأى مؤثر خارجى ، وإنما هى مجرد انعكاس لنوع من الإحساس الداخلى للطفل ، ولكن بمرور الوقت يتحول هذا التعبير العضلى إلى عملية مقصودة ، وذلك إذا وجد الطفل تجاوبًا من الأب أو الأم أو الاثنين معًا . فإذا ابتسم الأب أو ابتسمت الأم ، فإن الطفل سرعان ما يتعلم

أن يتجاوب مع الابتسامة ويرد عليها بابتسامة أخرى ، ويكون هذا أول عمل يتشارك فيه الطفل مع الكبار .

وبعد مرحلة الابتسامة يبدأ الطفل فى إحداث أصوات معينة تبدأ بالصريخ عند الولادة وينتهى بالكلام .. ونحن نعرف أن الكلام من أهم القدرات الأولية التى يتعلمها الطفل . وحين يبدأ الطفل فى الصراخ ، فهو يفعل ذلك دون غرض معين ، ولكن سرعان ما يصبح لذلك الصراخ معانٍ لا يعرفها إلا الآباء ، أو من هم حول الطفل .

وقد مرت حفيدتى بهذه المراحل المختلفة ومنها : القهقهة والهديل والصراخ العالى ، ثم إخراج بعض التكوينات اللغوية غير المقصودة ، وعلى الرغم من أنها غير مقصودة إلا أن الآباء يأخذونها بمأخذ جاد . وعلى سبيل المثال من الكلمات الأولى التى يتكلمها الطفل ، أو بمعنى أصح من الأصوات الأولى كلمتى « دادا » — « ماما .. » إن جميع الآباء يعتقدون أن الطفل ينادى عليهما ولكنها فى بادئ الأمر ليست أكثر من مجرد انطلاق لغوى ، ولسبب رد فعل الأم والأب حين ينطق طفلهما بهذين التعبيرين تبدأ فى الارتباط بمعنى محدد هو « الأب والأم » ويكون هذا هو أول عملية اتصال إنسانى .

وتتميز هذه الفترة الأولية بميل الطفل إلى التقليد ، وعن طريقه يتعلم أشياء عديدة ، وحين يقلد الطفل عملا أو حركة ما فإنه لا يعرف مكنون ما يفعل ولا يعرف المعنى المختفى وراء العملية ، وقد كان الطفل فى الماضى يقلد آباءه وبعض الأقارب الذين يحيطون به ، أما الآن وبعد ظهور التليفزيون فقد أصبح فى إمكانية الطفل أن يقلد عشرات من الشخصيات التى تظهر فى التليفزيون .

وهنا أود أن أذكر تجربتى مع حفيدتى ومع هذا الجهاز السحرى الذى ينقل العالم إلى الطفل ، لقد أجريت تجارب عديدة حول تأثير التليفزيون على الطفل ، ولم تأت هذه التجارب بأية آراء مؤكدة ، ولكن من تجربتى مع حفيدتى أستطيع أن أقول : إن مشاهدة التليفزيون – وهى مغرمة به تماما – ساعدت على توسيع مداركها إلى درجة مخيفة ، وأصبحت تقلد معظم من يظهرون فى التليفزيون ، وخاصة فى إطار الموسيقى والرقص ، فقد حفظت عددًا من الأغانى الوطنية وأهمها (بلادى بلادى) ونشيد (الأرض) وأخيرًا (مصر اليوم فى عيد) ، كما أنها تقلد حركات الرقص الشعبى ، سواء فرقة رضا أو الفرقة الشعبية ، بطريقة تكاد تكون مطابقة لحركات الراقصين المحترفين ، وحين شاهدت شادية تغنى (مصر اليوم فى عيد) ، كانت تقلدها – بعد أن حفظت الأغنية – فى كل حركاتها بما فى ذلك حركة شعرها التى كتب عنها النقاد .

والموسيقى هامة جدًّا فى هذه المرحلة المبكرة .. وتجربتى مع حفيدتى هى اهتمامها بالموسيقى إلى درجة أنها مهما كانت تفعل بمجرد أن تسمع الموسيقى ، سواء فى الراديو أو التليفزيون ، فهى تترك كل ما فى يدها ، وتبدأ فى الرقص على النغم المعزوف .

وهذا يثبت نظرية أبوكا اليابانى من أن الطفل وهو لم يبلغ الشهر الخامس فى استطاعته أن يحب ويميز ويستمتع بقطعة موسيقية ما حتى ولو كانت من الموسيقى الكلاسيكية . بل وأكثر من هذا أن الطفل يمكن وهو فى سن الثانية من عمره أن يطلب قطعًا موسيقية معينة ..

وحفيدتى ، على سبيل المثال ، تطلب بالاسم الأغانى التى تحبها والتى ذكرتها بالإضافة إلى أغنية « دبدوبة التخينة » وهى دائما تصاحب هذه الأغانى برقصات إيقاعية ممتازة متمشية مع الموسيقى تماما ، ولها تقليد غريب لما شاهدته من رقصات .

وكما قلت : إن هذه الفترة من أكثر مراحل الطفل اتجاهاً إلى التقليد والقدرة فعلا على التقليد ، إن ما يتعلمه الطفل فى هذه المرحلة يبقى مع الطفل حتى يصبح بالغًا ، وهو يبقى معه ليس كمجرد ذكريات عن الماضى وإنما كانطباعات ثابتة ، يحدث كل هذا فى المرحلة الأولى التى تنتهى فى سن ٩ أو ١٠ سنوات ، حين يبدأ ما يسمى بالتعليم الثانوى وهو لا يهمنا هنا ، وإن كان لابد أن نذكر أنه يرتبط ارتباطًا عضويا بما نحن نحاول أن نحققه .

إن الطفولة هى أكثر فترات التلقى والحساسية والقدرة على التقليد ، إن ما نتعلمه كأطفال سيبقى معنا طوال حياتنا ، ليس كمجرد ذكريات ، وإنما كانطباعات تؤثر على تشكيلنا . وفى هذه المرحلة يلعب الأب والأم - وخاصة الأم - دورًا هامًا ، فهما أكثر قربًا واقترابًا من طفلهما من أى شخص آخر، ومعهما يقضى الطفل أطول فترة زمنية ، إنهما يعرفان طفلهما معرفة تامة ، فى نومه وفى صحوه ، وهو مرتدى ملابسه وبدونها ، وهو فى حمامه وعلى مائدة الطعام ، إنهما يعرفان الكلمات التى يعرفها ، والأشياء التى يتعرف عليها . أقول إنهما يعرفان هذا وإن كان من الأصح أن أقول يجب عليهما أن يعرفا هذا .

عملية النمو

لقد أثبتت بحوث التربية والطب أن الطفل يمر فى سنواته الأولى بمراحل نمو واستيعاب للمعرفة بتعمق لا يصل إليه بعد ذلك ، وأن السنوات من الولادة إلى سن الخامسة هى التى ينمو فيها الطفل فكريا ومن ناحية قدراته الخلاقة .. ففى هذه الفترة يبدأ المخ فى النمو ، وفى مد فروع تربطه بجميع الخلايا العصبية . وتبدأ هذه العملية بعد الولادة مباشرة وبسرعة عالية فى الشهور الستة الأولى التى يتضاعف فيها وزن المخ ، وحين يصل الطفل إلى سن الثالثة يكون نمو المخ قد وصل إلى ٦٠٪ من تكوين البالغ ، وحين يصل الطفل إلى سن الثامنة أو التاسعة يصل إلى ٩٥٪ من البالغين .

ونحن نعرف أن حركات الحيوانات المستقلة تبدأ بعد أيام أو ساعات من ولادتها .. وصغار القردة مثلا تستطيع أن تقوم بحركات القردة البالغة بعد أسبوع واحد من ولادتها .. والعديد من الحيوانات تبدأ المشى بمجرد ولادتها . ولكن مخ الطفل المولود لا يستطيع أن يستوعب الحياة أو يتعامل معها بهذه السرعة .

إن التعليم الذى يتلقاه الطفل عن طريق الدوافع الخارجية فى السنوات الأولى هى التى تقرر إلى حد كبير المستويات التى يصل إليها الطفل فيما بعد ، إن جميع الدوافع والإثارات الخارجية

الموجودة في بيئة الطفل هي من العوامل التي تحدد إمكانيات الطفل المستقبلية .

وحين يولد الطفل فإنه يمتلك جميع خلايا المخ وعددها ١٤ بليون خلية .. وهذه الخلايا وإن كانت موجودة إلا أنها لم ترتبط ببعضها بعد ، ولكن بعد فترة وجيزة من الولادة ، وبسبب دوافع تبدأ الخلايا في الارتباط ببعضها ، ويبدأ المخ في القيام بوظيفته في نواح مختلفة ، وهذا يشبه الكومبيوتر الذي يحتوي على ١٤ بليون ترانزيستور لم يتم ربطها بعد في شبكة واحدة ، وبعض الحيوانات تولد بشبكة مخية جاهزة .

ونظام التعليم في العالم كله أساسه تعليم من تمَّ نمو أمخاخهم ، ويرى علماء الطفولة أنه من الضروري تغذية هذه الخلايا أثناء عملية الربط بين الخلايا ، أي أنه لا يجب أن ننتظر ارتباط الخلايا لكي نبدأ عملية التعليم ، ويرى أبوكا مثلا أنه لابد من تغذية مخ الطفل بالمعلومات في هذه المرحلة الأولى ، بينما يكون الطفل في رعاية الأم .. وقد أثبتت بعض البحوث التي قدمتها أمهات في اليابان مثلا أن الطفل في شهره الرابع يمكنه التعرف على بعض القطع الموسيقية والاستمتاع بها .

والسبب في هذا هو أن الموسيقى تساعد على تنمية هذه الشبكة ، وبمجرد أن تنمو فإن الموسيقى تصبح مسرة للطفل ، ويصبح في قدرة مخ الطفل أن يتلقى أية تأثيرات خارجية بدون أية مقاومة ،

بشرط أن تتكرر هذه التأثيرات .. ومن ثم فإن هذه التأثيرات تبدأ في إدخال السرور إلى نفس الطفل .

وبنفس الطريقة نجد أن الطفل يشاهد وجه أمه كل يوم ، وما إن تمر خمسة شهور حتى يستطيع أن يتعرف عليه ، وإذا نحن فكرنا فى هذا لوجدناه نوعًا من المعجزة ، إذْ تعرف الطفل على وجه أمه يعد خطوة كبيرة فى نموه ، وهذا يعنى أن تنمية ذهن الطفل يعتمد على التأثيرات الخارجية ، وإلا لكان الارتباط فى خلاياه بدأ وهو فى داخل أمه ، وإذا عزل الطفل عن التأثيرات الخارجية لمدة سنتين فإنه سيصبح بلا قدرة على رد الفعل أو التعلم .. ومن ثم فإن ما يحبه الطفل وما يكرهه لا يولد بها الطفل ، وإنما تتكون بعد الولادة عن طريق تكرار التأثيرات الخارجية ، وهذه هى التى تساعد على تحديد شخصية الفرد .. ويبدأ الطفل فى استساغة أشياء تتكرر له فى طفولته .. ولذلك فلكى ننمى الخلق الحسن فى الطفل يجب أن نحيطه بتأثيرات إيجابية منذ شهوره الأولى ، ولا شك فى أن خلق بيئة حول الطفل تساعده على أن يحب ما هو خير ويكره ما هو ضار من الأمور المهمة ..

ويصف المتخصصون الفترة من ولادة الطفل حتى سن الثالثة « سن الأنماط » ففى هذه الفترة يتلقى الطفل وحدات متكاملة من التأثيرات ليست فى صورة تحليلية ، وإنما فى شكل أنماط متكاملة . وعلى سبيل المثال : إذا تعرض الطفل لنفس الموسيقى لمدة شهور متوالية أو أن يشاهد وجه أمه بصورة منتظمة ، فإنه يستطيع أن يتعرف على الموسيقى وعلى وجه أمه ككل وليس كأجزاء منفصلة ، والطفل

لا يفكر فى اللغة مثلا كحروف أبجدية أو هجاء أو جمل ، ولكنه يفكر فيما يقال ككل متكامل ، ونحن نرى مثلا كيف يتعرف الطفل على عدد كبير من نماذج السيارات على الرغم من تعدد هذه النماذج ، أو سهولة تعرف الأطفال على أعلام الدول .. وحين يصل الطفل إلى سن السابعة أو الثامنة فإنه يبدأ فى الحفظ واستعمال المنطق ومن ثم تبدأ صعوباته ..

وحين يبدأ الطفل فى تكلم لغته فإنه يتعلمها عن طريق أنماط صوتية ، وقد أثبت علماء اليابان مثلا أنه من السهل تعليم الأطفال فى سن مبكرة جدًّا اللغات الأجنبية عن طريق تكرار أنماط صوتية ، بل إنهم استطاعوا أن يقضوا على بعض عيوب نطق اللغة الإنجليزية عن طريق جهاز صغير يكرر الأنماط الصوتية للطفل . وحتى حين يتوقف الطفل عن تعلم الإنجليزية فإن الأنماط تبقى فى ذهنه ، وهذا يختلف عن تعلم الكبار ، فإذا تعلم الفرد لغة من طفولته فإنه يستطيع أن يستوعب هذه الأنماط ، ومن ثم يمكنه فى مرحلة الطفولة أن يتعلم أكثر من لغة .

وبمثل الطريقة التى يتعلم بها الطفل التعرف على الكلام والموسيقى والأنماط الأخرى ، فإن فى استطاعته أن يتعلم الأخلاقيات ويبنى شخصيته ، وذلك عن طريق تكرار أنماط معينة ، وإذا استطعنا أن نقدم للطفل بصفة مستمرة ومتكررة إثارات أخلاقية ، فإن هذه القيم سيمتصها وتنمو معه حتى يصبح بالغًا . ولأن الطفل يبدأ استيعابه للأشياء فى هذه السن المبكرة ، فإن دور الأم على غاية من الأهمية ،

إذ عليهن تقع مهمة مساعدة أطفالهن على النمو بالطريقة المناسبة ، وهذا ينطبق على نمو الشخصية والقدرات والفكر ، والأم وحدها هى التى تستطيع أن تخدم طفلها فى هذه المرحلة .

وقد أثبت د . بلوم فى جامعة شيكاجو عن طريق أبحاث على ألف حالة أن كل صفة إنسانية تنمو بطريقة فريدة . ووجد أن النمو الذهنى مثلا والنمو الفكرى يصل إلى نصفه فى سن الرابعة ، بينما يتم النصف الآخر من سن أربعة إلى سبعة عشر ، وبعد سن الرابعة قد يكون من السهل تغيير طريقة النمو ، ولكن بمرور السنوات تصعب هذه العملية ، ولعل من أكثر العمليات ضررًا أن نحاول فرض أحكامنا على الأطفال على أساس أننا نشعر حين يكون الطفل مستعدًّا للاستيعاب ، ونحن بذلك ننسى أن مفهوم ما هو سهل أو صَعْبٌ لدينا مختلف عن مفهوم الطفل .. إن الطفل يتمتع بتفتح لكل ما هو جديد مما يساعده على الاهتمام بالمعلومات واستيعابها من أشياء قد نرى أنها لا تهمه أو أنها أعلى من فهمه . ولما كان الطفل غير مكبل بآراء جاهزة فإن فى استطاعته أن يهتم بأى شىء يثيره أو يقترب من حواسه . وقد لا يرى الطفل الأشياء كما نراها أو يعالجها بطريقة معالجتنا لها ، إلا أنه يتعلم عن طريق حب الاستطلاع ، ولذلك فلا يجب أن نحدد أو نضيق المناطق التى يستكشف بها ، فحين نفعل هذا ، فإننا نضيق ونحدد إمكانيات نمو الطفل .

وقد أثبت علماء اليابان مثلا أن صغار الأطفال فى استطاعتهم تعلم الحروف الصينية ، وذلك لأن الطفل يتعلم عن طريق الأنماط

مهما كانت هذه الأنماط معقدة ، وأثبتت عالمة فرنسية مثلاً أن الطفل يستطيع أن يتعلم نظرية المجاميع والمصفوفات عن طريق ألعاب البناء وفصل المربعات عن المثلثات .

إن قدرة الطفل على الاستيعاب خلال السنوات الأولى لاحد لها ، ولا يجب أن نفرض على الطفل أن يفهم شيئًا ، وكل ما يجب أن نفعله هو أن نوفر له التأثيرات ، فالطفل سيستوعب الأشياء حتى درجة التشبع ، وحينئذ سيتوقف عن قبول المزيد من المعلومات ، ولا يجب أن نقلق بسبب تقديم تأثيرات عديدة للطفل ، بل يجب أن نقدم له دائما المزيد وهو سيقرر بنفسه متى يتوقف عن قبولها ، ولا يجب أن نقرر نحن ما هو صعب على الطفل .

وهناك أشياء هامة يجب أن ينقلها الطفل لكى يصبح طبيعيا وأولها اللغة ، وقد أجريت تجارب عديدة فى كندا حيث تستعمل اللغتان الإنجليزية والفرنسية .. ولكن اللغة التى يتعلمها الطفل هى التى تصبح بعد ذلك لغته الأساسية أو الأولى .. أما اللغات التى يتعلمها الفرد بعد ذلك فلن تكون خالية من مشاكل النطق مثلا . ويرى بعض العلماء أن التأثيرات التى يتلقاها الطفل فى سنواته الأولى تلعب دورًا هامًّا فى التأثير على نمو الطفل ، وقد يزيد هذا الدور على الوراثة نفسها .. وقد أثبتت الدراسات فى اليابان أن التوائم قد يختلفان تماما عن بعضهما إذا هما تربيا فى بيئتين مختلفتين .. وهذا يثبت أهمية البيئة التى يتربى فيها الطفل ، والتى عن طريقها يمكن إثارة اهتماماته العديدة فى داخله ، ولهذا فإن دور الكبار هام جدًّا ، إذ

فى استطاعتهم أن يخلقوا بيئات حول الطفل مليئة بالإثارات ، لكى تواجه تفتح الطفل وحب استطلاعه ، وهذا يعطى أهمية خاصة لدور الوالدين وخاصة الأم .

ولهذا السبب نجد اهتمامًا كبيرًا فى بعض الدول بجمعيات الأمهات ، وقد شاهدت تجربة فريدة فى اليابان حيث يوجد الآن عشرات من هذه الجمعيات تابعة لهيئة النمو المبكر ، فقد بدأت الهيئة بنشر إعلانات فى الصحافة تطالب السيدات فى الشهر الثانى من الحمل للاتصال بها للقيام بمشروعات تهمهن .. وتقدمت للإعلان ألف أم تمَّ اختيار خمسة عشر منهنّ ليكنَّ بذرة برنامج « بحوث الأم » الذى تبنته ونظمته الهيئة أيضًا ، وهو برنامج خاص بالأطفال وآبائهم وأمهاتهم أسمته « جماعات المشى » وفيه تدعو الأطفال وآباءهم وأمهاتهم إلى الخروج فى نزهات سيرًا على الأقدام ، وبهذه الطريقة يستفيد الجميع من الهواء الطلق ، وفى نفس الوقت تعطى فرصة للأطفال مع ذويهم للمشاركة فى الاستمتاع بالطبيعة ، وفى نفس الوقت بتنمية علاقاتهم ببعضهم ، كما أن المشى يعطيهم الفرصة على إضافة معلومات جديدة لمخزونهم الذى يكاد يشبه الكومبيوتر .

إن مراقبة الطفل عملية مهمة لأجل فهمه وتفهم مراحل نموه ، إذ أن سلوك الطفل التلقائى يحتوى على معان عديدة ، وحتى قبل أن يبدأ الطفل فى الكلام فإن رد فعله للأحداث ولما يدور حوله يحمل معه معان كثيرة ، وبعد أن يبدأ فى الكلام فإنه سيستطيع أن يعطى رد الفعل هذا منطوقات لغوية . ويميل الآباء إلى إعطاء صفات

عامة جامعة للأطفال ، فيقولون مثلاً إن « طفلنا عنيد » دون محاولة معرفة الأسباب التى تدعوه إلى رفض شىء مّا أو مقاومته .

ولعل السبب فى موقف الآباء هو أننا كبشر لنا تحيزاتنا ومفاهيمنا وفهمنا للأمور ، ونحن نحاول أن نطبق هذه التحيزات والمفاهيم على الطفل ، بالإضافة إلى أن هذه قد تختلف من أم إلى أم ، ومن أب إلى أب ، وما يراه والدان صوابًا قد يراه آخران خطأً . ومن ثم فإن على الآباء — وخاصة الأم — أن تحاول أن تفهم ما يسمى « لغة السلوك » أى سلوك الطفل ، إذ أن كل حركة وكل إيماءة من الطفل لها معنى لديه يجب على الأم أن تفهمه ، فالطفل يعلم نفسه ، وجسمه هو الأداة الأولى لهذا التعلم ، ولكن هذا لا يعنى أن ذهن الطفل لا يعمل ، فهو يعمل طوال الوقت ولكن الطفل لديه القدرة على تعلم شىء واحد فى وقت واحد .

وقد استطعت أن أراقب حفيدتى فى نموها منذ ولادتها حتى عامها الخامس ، ويتميز العام الأول بالنمو السريع وبما يسمى الإنجازات ، فالطفل حين يولد يعتمد اعتمادًا كاملا على الآخرين ، ولكنه فى نفس الوقت لا يهتم إلا بنفسه ، وخلال هذا العام يبدأ فى أن يعرف أن هناك علاقات ما بينه وبين الآخرين ، ومن ثم تبدأ عملية الاتصال والاستيعاب . وأول قدرة يعكسها الطفل فى سنته الأولى هى الربط بين ما تشاهده عيناه وبين ما تفعله يداه ، فنراه يرفع أى شىء بيده ويتابعه بنظره ، وفى هذه المرحلة يتعرف الطفل على جسمه وخاصة يديه وقدميه لسهولة تحريكها ونلاحظ ، كما لاحظت مع حفيدتى كثرة نظرها إلى يديها واللعب بقدميها .

إن الطفل يولد ولديه القدرة الإعجازية على التعلم ، ومرحلته الأولى هى مرحلة عضلية أساسها تحريك اليدين والرجلين والجذع والجلوس ، ومن المعروف أنه بعد ثمانية أو عشرة أسابيع يستطيع الطفل أن يستعمل عضلاته ، فيضع يده فى فمه أو يمسك بقدمه ويحاول أن يضعها فى فمه ، وهذه هى أول خطوة فى طريق المعرفة ، معرفة استعمال الأيدى والأقدام . تأتى بعد ذلك الخطوة الثانية وهى معرفة الأشياء الموجودة حوله ، وقد لاحظت - وتؤيدنى كتب سيكولوجية الطفل - أن الألوان الزاهية هى أول ما تشد انتباه الطفل . وتبدأ مرحلة التنسيق بين النظر والعمل ، ويميل الطفل إلى وضع كل شىء فى فمه ، إن هذا الربط بين العين واليد والفم يعد خطوة عامة فى نمو الطفل لم يعلمها له أحد ، بل عرفها بنفسه .

ومن المعروف أنه بعد شهرين أو ثلاثة شهور ، تبدأ العلاقة بين الطفل وأمه ، وتتوثق هذه العلاقة بمرور الأيام . والطفل يتقبل من أمه ما لا يتقبله من الآخرين ، وعلى الرغم من ارتباطى الوثيق بحفيدتى من لحظة ولادتها .. إلا أن علاقتها بأمها كانت دائما فى المقدمة ، وليست هذه العلاقة بسبب حب الطفل لأمه أو العكس ، وإنما لوجود نوع من الثقة الطبيعية .

وأود هنا أن أتحدث عن دور الأم فى تربية الطفل ونموه وخاصة فى المراحل الأولى . فالطفل يرى وجه أمه كل يوم ولساعات طويلة ، ومن المعروف أنه بعد خمسة شهور فى استطاعته التعرف على وجهها الذى يصبح له معنى بالنسبة إليه . وتعرف الطفل على وجه أمه يعد

خطوة هامة فى طريق نموه ، إذ أنه يعنى أن الموجات الذهنية للطفل قد بدأت تصل ، ومنذ هذه اللحظة تصبح الأم هى الوسيلة الأولى لتعلم الطفل ونموه ، وهذا يضع على عاتقها مسئولية كبرى ، إذ بقدر فهمها لطفلها وتفهمه وبقدر معرفتها وعلمها سيتشكل الطفل ويكبر .

إن ابتسامة الطفل لأمه ، وخوفه من الغرباء هى دليل على نمو الإحساس بالأمن فى داخله . وهذا يعنى أن الطفل فى مراحله الأولى فى حاجة إلى شخص يتعود عليه ، وهناك بحوث عديدة تثبت ذلك .

ويصف د . إدوارد روزنبرج بحثًا قام به فى إحدى بيوت الأيتام أثبت به أهمية هذه العلاقة . ففى هذا البيت الذى يعد نموذجيًا على كل المستويات ، فالبناء جميل ويقع فى وسط حدائق غناء ، ويقوم بالإشراف فيه مجموعة من الممرضات المتخصصات اللاتى يبذلن أقصى جهودهن فى رعاية الأطفال ، ولكن بسبب التغيير المستمر للممرضات ، فإن الأطفال افتقدوا صورة الأم التى ينتمون إليها ، وقد أظهر البحث أن بعض الأطفال من سن ستة شهور إلى سنة لم يتقدموا جسمانيًا مثل نظرائهم الذين يعيشون مع أمهاتهم . وخرج د . روزنبرج من هذا على أن الحب وحده لا يكفى ، فالطفل يتعرف على العالم الذى حوله بالوسيلة الوحيدة التى يعرفها وأولها الأم ، إنه فى حاجة إلى أم ، وبمجرد أن يجد الطفل الأم فإنه يجد الأمان ومن بعده يكون على استعداد لأن يوسع من دائرة من حوله من الآدميين ..

وقد لاحظت ذلك فى حفيدتى ، فحتى سنتها الأولى لم تكن تنظر إلا إلى أمها ، وكانت لا تطيق البعد عنها ، ولكن بعد ذلك

وبعد أن اطمأنت من الوجود الدائم لأمها بدأت تنظر إلى الآخرين ويدأ ارتباطها بهم يزيد ، وإن كان لم يصل إلى ارتباطها بأمها ، كانت تترك أمها لتلعب معى أو مع الآخرين ، ولكن بمجرد أن تشعر بالجوع أو بالرغبة فى النوم ، ومهما كانت السعادة التى تعيشها معى أو مع أطفال آخرين أو بين لعبها المفضلة ، فإنها كانت دائما تطلب أمها .

والواقع أن دور الأم هو أساس نمو الطفل ، والأم الواعية هى التى تحاول أن تتعلم من طفلها منذ اليوم الأول من ولادته ، فتعرف أن صراخه يعنى أن ثمة شيء يريده ، وبعد ذلك يجب أن نتعلم كيف نفرق بين أنواع الصراخ المختلفة ، وذلك عن طريق توقيت الصراخ أو ظروفه ، وكذلك من طبيعة ذلك الصراخ ، والواقع أن الطفل يبدأ فى تكوين عادات سلوكية تعطينا معلومات كثيرة عن تقدمه ونموه ، كما أن أى تغيير مفاجئ لهذه العادات يعنى أن هناك شيئًا ما قد أقلقه ، أوأنه على استعداد للانتقال إلى مرحلة جديدة .

ومن المهم ملاحظة النمو الجسمانى للطفل ولكن دون محاولة للتدخل فيه ، فمثلا يبدأ الطفل يحبو من الشهر السادس حتى الثانى عشر ، وفى استطاعته أن يجلس ما بين الشهر السابع والثامن ، ثم تبدأ محاولات المشى من الشهر التاسع حتى ما بعد العام الأول ، بل إن بعض الأطفال لا يبدأ فى المشى حتى الشهر الخامس عشر . وقد أجمع أخصائيو الأطفال على ضرورة ترك الطفل ينمو دون دفعه إلى أية من هذه الخطوات ، وألا تحاول الأم أو الأب أن تعلم الطفل

كيف يحبو أو يجلس أو يمشى ، إذ بهذا نأخذ منه مسرة المعرفة . وإذا دقق الآباء – كما فعلت مع حفيدتى – فى أطفالهم بعد كل مرحلة من هذه المراحل لاحظوا السعادة التى يعكسها الطفل بعد أية من هذه الإنجازات ..

وعن طريق الملاحظة والمراقبة تتعلم الأم من طفلها منذ ولادته على أنواع بكاء الطفل ، وكيف أنه لكل نوع سبب ، فالبكاء هو وسيلة اتصال يخبربها الطفل أمه أو من يشرف عليه برغباته المختلفة ، فهناك بكاء الجوع وبكاء الابتلال وبكاء الألم . كل له طبيعته وله تموجاته ، وعلى الأم أن تتعرفها لتستطيع معالجتها . والنصيحة التى يوجهها علماء الطفولة هى ألا يتعجل الآباء فى تعليم الطفل . فالطفل سيشعرنا حين يكون مستعدًّا وستنعكس السعادة حين يتعلم شيئًا جديدًا ، وتزيد هذه السعادة حين يشعر الطفل أنه أسعد أبويه .

ويعد حب الاستطلاع من أهم دوافع الطفل للمعرفة .. وهو دافع صحى يجب أن نشجعه ولا نقف فى طريقه . فمثلا الطفل يُحبُّ قطع الورق ولعله بسبب صوت القطع أو إحساسه بالملمس ، ومهما حاولنا منعه من هذا فإنه سيستمر فى تقطيع الورق . والسؤال هو : هل ستستمر الأم أو الأب فى تكرار كلمة « لا » أم سيحاولان إخفاء الأوراق منه ؟ .. كلمة « لا » قد تؤدى إلى زوال حب الاستطلاع من الطفل ، والحل المثالى كما فعلت مع حفيدتى هو تحويل هذه العادة إلى عمل خلاق .

إن حب الاستطلاع هو ميزة الطفل وطريقه إلى المعرفة ، فهو يريد أن يرى ويتذوق ويسمع ويشعر ، ويبدأ فى اختبار حدود عالمه الصغير ، ونحن حين نشجعه على تنمية حب الاستطلاع فنحن نشحذ له سلاحًا ينفعه مدى الحياة بشكل أو آخر .

والطفل يشعر دائما برغبة فى سماع كلمات الاستحسان من الآخرين ، وذلك طبعًا بَعْدَمَا يشعر بوجودهم .. والتعبير عن الإعجاب مما يفعله الطفل من جانب الآباء أو الكبار يشكل دافعًا للطفل لزيادة تعلمه . وللطفل احتياجات دائمة يريد إرضاءها ، احتياجات عاطفية وهى الحب والاهتمام والاستحسان ، وإنى أذكر مثلا حين بدأت حفيدتى فى الوقوف والقفز وهى ممسكة بجوانب سريرها أنها كانت تنظر إلينا وتقول « قول برافو » ، وهذه الدوافع المختلفة تنمو مع الطفل السوى ما دامت لا توجد أية عوائق .

ولكن إذا أردنا من الطفل أن ينمى هذه الدوافع فعلينا أن نساعده على خلق شعور بالأمان والطمأنينة .. الأمان الجسمانى والأمان العاطفى والحماية ضد المجهول وضد الإحباط والتوتر ، ومن ثم هناك اتجاه بين علماء سيكولوجية الطفل بضرورة نوم الطفل مع والديه من حين إلى آخر ، إذ أن حرارة البقاء معهما تعطيه نوعًا من الحماية التى يسعى إليها .

وإذا كانت هناك نصيحة توجه إلى الآباء هى ضرورة فَهْم الطفل ومعرفة طريقة التعامل معه كما هو وليس كما نريده أن يكون . يجب

أن نوفر للطفل حرية الاستكشاف ، وفى نفس الوقت نقدر أن حرية الاستكشاف تعنى حرية الخطأ . فالطفل لابد أن يخطىء ، وسنرى مثلا أنه من مائة شيء يفعله الطفل سيخطىء فى خمسة وتسعين ، ويرى الأخصائيون أن على الآباء توجيه المدح إلى الأشياء الخمسة التى لم يخطئها ولا ننهره على الأخطاء . بهذه الطريقة سيعرف الطفل ما هو الصواب ، إذ أن إظهار الخطأ هو عمل سلبى لن يفيد وهذا معناه « تأكيد الجزاء وليس العقاب » ..

والطفل يتميز باستقلالية غريبة ، فهو يحاول دائما أن يجد بنفسه ووحده ما حوله ، وأن يكتشف ما لديه من قدرات ، وكما ذكرت حين يشعر بقدرته على الوقوف سيقف وعلى السير سيسير وهكذا . وهناك جانب آخر قد لا يشعر به الآباء وهذا الجانب هو مدى حساسية الطفل بوالديه وبرد فعلهما لما سيفعل ، وعلى الرغم من استقلاليته إلا أنه يريد دائما أن يشعر أنهما هناك حين يريدهما ، وإنى أذكر على سبيل المثال أنه مهما لعبت حفيدتى معى أو مع أقرانها أجد أنها فجأة تتوقف عن اللعب وتقول « عاوزة ماما » ، ولذلك فمن أهم واجبات الأم أن تعلم طفلها أنها تتقبله بكل ما به من عيوب ، وهذا سيؤدى إلى زيادة استقلاليته وتقبله لنفسه ، وإذا وجد الطفل سببًا يشككه فى حب والديه فإنه سيفقد الثقة فى نفسه ، وقد يتحول إلى التحدى أو الخنوع .

ومن المهم جدًّا أن يعرف الوالدان وخاصة الأم متى يكون الطفل على استعداد لتقبل شيء جديد ؟ والطريقة المثلى هى أن ينتظرا حتى

يعكس الطفل هذا ، ويأتى ذلك حين يجرب الطفل بنفسه شيئًا جديدًا ، والطفل هو الذى سيجعلهما يشعران حين يكون على استعداد لبدء ما هو جديد ، ولكن لابد لهما من توفير ذلك الشيء الجديد ، فإذا وجدا مثلا اتجاهًا من الطفل لتكوين ألعابه ، فيمكن آنذاك أن يشتريا له المكعبات التى يستعملها فى البناء ليجرب قدراته فيه ، والدرس هنا أنه لا يجب أن نجبر الطفل على تعلم شيء إلا بعد أن يكون مستعدًا له . والطفل هو الذى يجبرهما بطريقته الخاصة ، ويبين كيف يتقدم وينمو ، وعن مدى استعداده للمرحلة التالية ، إن في استطاعة الوالدين أن يعدوا الطفل إلى نافورة المعرفة ، ولكن المهم أن يكون جاهزًا للشرب منها وإلا باءت كل المحاولات بالفشل .

دور الأم إذن على درجة كبيرة من الأهمية ، وأقول الأم وليس الأب ، لأنها تتواجد مع الطفل أكثر من الأب . ولكن هذا لا يمنع اهتمام الأب بتربية طفله فى هذه المرحلة . حقيقة أن الأب يعود إلى بيته متعبًا يريد الراحة ، ولكن لابد أن يقتطع جزءًا من وقته يخصصه لطفله ، فالطفل فى هذه المرحلة فى حاجة إلى رعاية وعناية تؤهله على تنمية الإحساس بالانتماء ، الانتماء أولا إلى والديه ثم إلى بيته ثم إلى مدرسته والحى الذى يسكن فيه ، وأخيرًا الانتماء القومى الذى هو أساس المواطن الصالح الذى نسعى إلى تكوينه .

الجزاء والعقاب

من الأمور التى يناقشها المتخصصون دائما مسألة الجزاء والعقاب ، وقد سبق أن ذكرت أن إبداء الاستحسان لما يقوم به الطفل من صواب أجْدَى من إظهار الاستياء لما هو خطأ ، وهنا يثار سؤال وهو : هل نجازى الطفل حين يقوم بعمل ما ؟ ، إن الجزاء يتحول من مجرد إبداء الاستحسان إلى توجيه المدح ، ثم إلى جزاء مادى كشراء لعبة جديدة ، أو تقديم قطعة من الحلوى ، والعقاب أيضًا يبدأ من مجرد إظهار الاستياء ثم حرمان الطفل من شىء يحبه ، وقد ينتهى بالزجر والضرب .

وسواء فى الجزاء أو العقاب يجب أن يراعى الوالدان الوسط ، فإذا أسرفنا فى الجزاء فإن الطفل سيركز على الحصول على مكافأته دون النظر إلى العمل الذى استحق عليه الجزاء ، والطفل يُحبُّ المدح وخاصة من والديه ، ولكن يجب أن يفرق الوالدان بين المدح والدلع ، ويجب أن يزنا الجزاء والعقاب .

وإذا أسرف الوالدان فى العقاب ، فإن الطفل سيحاول أن يكتشف الطرق التى يتفادى بها ذلك العقاب ، بمعنى أن العقاب لن يؤدى إلى توقفه عن القيام بما يعاقب عليه ، بل سيؤدى إلى محاولته إخفاء هذا العمل ، مما قد ينتهى به إلى الكذب . ويرى علماء النفس أن

العقاب السريع هو الحل المثالى ، بمعنى أنه يمكن ضرب الطفل على مكان غير خطر لعمل شىء بدلا من « العبوس فى وجهه مدة طويلة كما يفعل بعض الآباء » ، إن الضربة السريعة تنتهى وتنقى الجو بينما يخلق العبوس جوًّا صعبًا يعقد حياة الطفل .

وتستمر عملية النمو ويستمر الطفل فى الاستكشاف والتعرف على العالم الذى يحيط به ، ويتميز كل عام بنوع جديد من المعرفة ، ففى السنة الرابعة : يستطيع الطفل أن يستعمل دورة المياه بمفرده ، كما أن عادات الأكل لديه ستتركز ، وسيعرف كيف يستعمل أدوات الطعام . وفى السنة الخامسة : وهى السن التى أتوقف عندها ، يبدأ الطفل فى التعرف على الصور وعلى الألوان والتمييز بينها ، وعلى الأحجام والمسافات ، وقد لا يستطيع الطفل أن يحسب الأرقام ولكنه سيتعرف عليها .

ودور البيئة هنا هام للغاية ، فكلما توفرت وتنوعت الأشياء المحيطة به كلما زادت معارف الطفل . الزهور الملونة والأثاث البراق والرسوم الحائطية ، كل هذه أساسية للطفل . وسيسأل الطفل دائما عن أسماء ما جد له ولا يجب أن يشعر الوالدان بالملل من هذه الأسئلة ، بل يجب أن يكون الأب والأم على استعداد للإجابة عليها .

ويرى علماء النفس أن الذكاء لا يتحدد عند ولادة الطفل إلا إذا أصيب الطفل أثناء الولادة ، وإنما ينمو وينمو خلال فترة الطفولة ، ويتشكل بوسائل مختلفة عن طريق إحساسات الطفل وجو البيت ،

وعن طريق تعامله مع والديه وتعرضه لتجارب مختلفة ، وكما يقال إن الطفل فى سنواته الأولى فى حاجة إلى المعمل لا إلى الكتاب ، إن الطفل يهمه ما يرى وما يشعر وما يحس وما يشم وما يذوق .

ويتجه الطفل ما بين الثالثة والرابعة إلى السرحان وأحلام اليقظة ، وإنى أذكر كيف كانت حفيدتى تتوقف أثناء الأكل وتنظر إلى الفضاء وتسرح لدقائق عديدة ، ولا يجدى معها أى توجيه أو نهر ، وقد يفقد الآباء صبرهم ، ويحاولون إجبار الطفل على العودة إلى الطعام دون فائدة ، وحتى إذا أكل تحت الضغط فإنه سرعان ما يتقيأه .. وفى هذا السن يبدأ الطفل فى طلب الاختلاط بأطفال آخرين ، وينصح علماء النفس بضرورة خروج الطفل من حدود حجرته بل والبيت للعب مع أولاد الجيران أو فى حديقة أو متنزه .

وتتجه بعض الأمهات إلى احتكار أطفالهن ، بمعنى أنهن لا يردن أن يتركن الأطفال ، والأم تريد دائما أن تشعر أنها مطلوبة ، وأن طفلها لا يستطيع الاستغناء عنها ، وسواء بطريقة شعورية أو لا شعورية ، تعارض استقلالية الطفل ورغبته فى القيام بكل شيء بنفسه . وتحاول بعض الأمهات فرض الانضباط على الأطفال . ومفهوم الانضباط يختلف من أم إلى أخرى ، ولذلك فمن الضرورى أن تسأل الأم نفسها من وقت إلى آخر : ماذا أريد من فرض الانضباط ؟ وهل الوسائل التى أستعملها ناجحة ، وهل تساعد طفلى على النمو ؟ .. وغالبية الآباء لا يوجهون هذا السؤال إلى أنفسهم ، فهم يعتقدون أنهم على علم بكل الأمور ..

إن الانضباط فى معناه الضيق هو فرض نظام معين على أعمال الطفل وأخلاقه (سواء فى نومه أو استيقاظه أو أكله أو لعبه) بغرض الوصول إلى ما نراه السلوك السوى . وهو فى معناه العريض مساعدة الطفل على السيطرة على رغباته ، وكيف يرضى هذه الرغبات بطرق لا تضره أو تضر الآخرين .

ومن أهم النصائح التى نوجهها إلى الآباء : ألا يحاولوا الضغط على الطفل للتعلم أو دفعه إلى معرفة القراءة أو الكتابة فى سن مبكرة ، وهو بهذه الطريقة لن يتعلم شيئًا ، بل يتحدى عملية التعلم كلها مما ينعكس فيما بعد فى كراهية المدرسة والتعليم . وليس أحب إلى الطفل من الجلوس على ركبتى أمه مسترخيًا لينصت إلى قصص تجعله يحلق بخياله إلى عوالم جديدة عليه . والطفل يحب التقليد وقد تجيئه العادات المختلفة عن طريق التقليد وخاصة تقليد والديه ، وإنى أذكر كيف فاجأتنا حفيدتى فى يوم ما بالجلوس وأمامها كتاب مفتوح وكأنها تقرأه وذلك لأنها وجدت كل من حولها يقرأون .. وقد نمى معها حب الكتاب حتى وصلت إلى المرحلة التى استطاعت فيها القراءة .

الطفل واللعب

اللعب ضرورى للإنسان ، والطفل ينمو ويتعلم عن طريق اللعب ، إن اللعب فى أشكاله المختلفة هو وسيلة الطفل فى التخلص من طاقاته من جانب ، والتعرف على ما حوله من جانب آخر ، والطفل حين يلعب فهو يعيش فى عالم يخصه وحده ، عالم يتغلب فيه الخيال على الواقع ، عالم مبنى على تهيئات ، رموز يعرفها الطفل فقط . هناك الكثير من الآباء الذين لا يطيقون لعب الأطفال خاصة إذا كان هذا اللعب يأخذ صفة التخريب أو كسر الأشياء .

ومن ثم فإن الآباء ينهرون أطفالهم إذا ما هم قاموا بلعب يرونه الكبار على أنه عمل تخريبى ، ولكن إذا أعطى الأب أو الأم بعضًا من الوقت لمراقبة طفلهم لاستطاعوا أن يتعلموا منه الكثير ولاستطاعوا أن يحولوا هذا « اللعب التخريبى » عن طريق التوجيه غير المباشر إلى عمل خلاق مفيد ، وسأعطى بعض الأمثلة من ملاحظتى لحفيدتى واهتمامى بها ، وإنى أكرر كلمة اهتمامى . والاهتمام بالطفل ليس فى إغداق الحب عليه فى دقيقة ، ثم زجره فى دقيقة أخرى ، ونحن نرى ذلك فى حياتنا ، فنرى الأم أو الأب يحمل طفله بين ذراعيه وبذلك ويقبله ، ولكن إذا قام الطفل بعمل يراه الآباء خطأ فإن الطفل يتعرض للزجر بل للضرب أحيانًا . وهذا يسبب للطفل نوعًا من التيه ، هم يقبلانه فى دقيقة وينهرانه بعدها مباشرة .

وأعود إلى أمثلة لعب حفيدتى ، كانت تحب اللعب بالماء فتملأ أكوابًا وتفرغها على الأرض أو على المنضدة ، ولم أحاول أن أنهرها وإنما حاولت أن أبدل هذا اللعب التخريبي إلى عمل مفيد ، فملأت لها جردلا بالماء وأحضرت كوزًا كبيرًا وآخر صغيرًا وخرجنا إلى الشرفة حيث يوجد الكثير من أصص الزرع والزهور المختلفة ، وبدأت أعلمها كيف تستعمل الماء فى رى الزرع ، وأصبح رى الزرع هذا عملية يومية نقوم بها معًا ، وإن نسيتها فى يوم ما تسرع حفيدتى وتذكرنى به . بهذه الطريقة استطعت أن أحتوى اللعب التخريبى .

ومثال آخر : فقد بدأت حفيدتى فى قلب كل ما تراه أمامها من كراسى ومناضد ، وكما فعلت من قبل لم أنهرها أو أوجه إليها أى لوم ، وإنما علمتها كيف تعيدها إلى وضعها الأول ، وصارت عملية قلب الشىء ، هى أيضًا ، عملية يومية تقوم بها ثم تعيدها إلى ما كانت عليه ، وبهذا استطعت أن أبدل هذا اللعب التخريبى إلى عمل مفيد .

ونفس الشىء مع الورق والألوان ، فالطفل – كل طفل – يغوى تمزيق الورق ورميه فى أنحاء البيت ، كما يغوى اللعب بالألوان واستعمالها فى كل مكان على الحائط والمناضد وأى سطح أملس يمكن تلوينه ، وطبيعى أن تزجر الأم طفلها حين يعقل ذلك ، ولكن هذا الزجر لن يأتى بنتيجة ، والطريقة المثلى التى اتبعتها مع حفيدتى هى أن نطلب من الطفل بعد أن مزق الورقة أن يعيدها إلى ما كانت عليه ، أن يلصق قطع الورقة بعضها ببعض ، وقد أدى ذلك إلى تعلم حفيدتى

الأشكال وفعلت نفس الشيء مع الألوان ، تركتها تستعمل الألوان في كل مكان ، ولكنى اخترت لها ألوانًا من السهل مسحها ، ثم بدأت أقدم لها الورق ، وكانت النتيجة أنها أصبحت تغوى الرسم وتفوقت فيه ، وقد قامت إحدى الشركات الإيطالية بإنتاج نوع من السيراميك يمكن الرسم عليه ويسهل مسحه ووضعه فى مكانه ، بل أصبحت كلما شاهدت مقعدًا مقلوبًا تسرع بإعادته إلى ما كان عليه ، ونفس الشيء مع تمزيق الورق وهى لعبة يحبها الأطفال :

أولا : بسبب الصوت الذى تحدثه عملية التمزيق .

وثانيا : لأنها تعطى الطفل فرصة استعمال طاقته .

والأطفال يحبون فتح الأدراج واللعب بما فيها ، وهنا يجب أن نفهم كيف يعيدون الأشياء إلى مكانها ، كل هذا يحتاج إلى صبر من الآباء ، وبدون هذا الصبر لن يستطيعا تربية أطفالهما كما يجب .

الطفولة إذن أكثر فترات التلقى والحساسية والمحاكاة ، وكل ما يتعلمه الطفل فى مرحلة ما قبل الخامسة يبقى معه حتى الكبر ، ليس كمجرد ذكريات وإنما كانطباعات ثابتة وأنماط سلوكية عميقة ، وفى هذه المرحلة لا يجب على الآباء الضغط على أطفالهم ، بل إن فى إمكانهم أن يوجهونهم بحنان دون إجبار أو ضغط ، وبهذه الطريقة ينسى الطفل بعض القدرات الخاصة .

إن الفرق بين الطفل وهو يلعب ، والبالغ وهو يعمل ، هو أن الطفل يستمتع دائمًا باللعب فى حين يقوم البالغون بالعمل كواجب قد يستمتعون

به وقد لا يستسيغونه ، فالطفل هو الذى يختار اللعب ويبدأ فى ممارسته بكل قوة وعزم أكثر من الكبار فى عملهم . والطفل حين يلعب فهو أيضًا يتعلم . والآباء ليسوا فى حاجة إلى تعليم أطفالهم اللعب ، أو حتى تشجيعهم على اللعب ، إن مهمتهم هى توفير الفرص لأطفالهم للعب الحر دون خطر عليهم وفى نفس الوقت توفير الأعداد والأدوات الخاصة باللعب وبالذات تلك التى تساعدهم على تنمية خيالهم .

وكنت أراقب حفيدتى وهى تلعب ، منذ كان عمرها شهورًا قليلة ، كانت تقف فى الـ play pen وتقفز قفزات قوية محركة كل عضو فى جسمها وكانت طوال القفز تغنى بأعلى صوتها وتخرج نغمات تتوافق مع حركات القفز . كانت تفعل ذلك دون أدنى توجيه ، وكنت أنظر إليها وأرى السعادة فى وجهها ، ثم فجأة بعد ذلك اللعب المضنى تغرق فى تفكير عميق ، ثم تجلس على الأرض وتبدأ فجأة فى اللعب بعروستها أو بالدب أو الحصان أو أية دمية أخرى . وفجأة أيضًا تمسك لعبة أخرى ، وهكذا تتحول من لعبة إلى لعبة دون أن تنظر إلى مرة واحدة ، وكأنها لا تريد المقاطعة .

إن استمتاعها باللعب هو الدافع القوى للقيام به ، وكانت تبدو وكأنها تكتشف قوتها الجسمانية وعضلاتها وتتعلم كيف تستعمل هذا الجسم الضئيل الذى منحه الله قوة غريبة . وهذه القوة يمتلكها الطفل منذ ولادته ، وكنت أجربها حين أضع أصبعى فى يدها الصغيرة فتقبض عليه بقوة كبيرة ، حتى إنى كنت أستطيع أن أجذبها وهى مستلقية ، فتقوم وتجلس وهى قابضة على أصبعى .

ومهمة الوالدين كما قلت هي توفير معدات اللعب من ورق وقطع قماش وصناديق فارغة ، بالإضافة طبعًا إلى الدمى المختلفة ، وفى حالة حفيدتى كانت العروسة والدب هما أفضل لعبها ، وينعكس حب استطلاع الطفل فى طريقة تعامله مع ألعابه ، وإنى أذكر حين قامت حفيدتى بخلع ذراع عروستها وإحدى رجليها . وهى لم تفعل ذلك وتترك العروسة ، بل جعلت تحضن فى الذراع والرجل المخلوعتين وفى الثقوب فى العروسة وكأنها تحاول أن تعرف المزيد من تركيب ذلك الجسم ، فليس خلع الرجل والذراع عمل تدميرى وإنما هو محاولة للوصول إلى أسرار الحياة وغوامضها .

والطفل لا يتعلم المهارات والقدرات وحدها عن طريق المحاكاة ، وإنما ينمى فى نفس الوقت عواطفه وإحساساته ، تماما كما ينمى عضلات جسمه ، والطفل حين يولد ليس له قدرات عاطفية ، فهو إما متوتر أو مسترخٍ ، والتوتر والاسترخاء هنا نتيجة لحالة الطفل الجسمانية .. ولكن من هذه البدائية تنمو أحاسيس الطفل وعواطفه المركبة ، ويرى علماء النفس أن أصوب طريقة لخلق توازن للنمو العاطفى هى أن يجمع الآباء ما بين التدليل لأطفالهم ، بمعنى إعطائهم ما يريدون وبين الرفض من وقت إلى آخر .. وبهذه الطريقة يتعود الطفل على أن يبذل جهدًا ما للحصول على شىء ما .

ويبدأ الطفل بعد ذلك فى الربط بين ما يفعله وما يريده ، فيفهم أنه إذا أراد شيئًا ما فعليه أن يقوم بعمل معين يعطيه الحق فى الوصول إلى ما يريده . ومعنى هذا أن الطفل الذى كان يعتقد أنه هو العالم ،

بدأ يشعر أن هناك عالمًا خارجيًا يبدأ فى التعرف عليه ، ويبدأ فى المشاركة فى عملية أخذ وعطاء مع العالم الذى حوله . وتستمر هذه العملية ، الأخذ والعطاء مع الطفل حتى يكبر وينمو ، وهنا يظهر الارتباط مع ما تعلمه فى المرحلة الابتدائية ، وكما يقول المثل الإنجليزى (إن الطريقة التى يميل بها الغصن هى التى تؤثر على ميل الشجرة) أى أن ما يتعلمه الطفل فى الصغر سيقرر طبيعته فى الكبر .

والسؤال هو : هل نحاول نحن الكبار أن نميل الشجرة حسب رغباتنا وفهمنا ومخاوفنا وميولنا ؟ والإجابة فى الحال هى النفى ، وهذا لا ينفى دور الأب والأم فى المرحلة الأولى لنمو الطفل ، فإن مهمتهما الأساسية فى خلال السنوات الأولى ، بالإضافة إلى الرعاية الجسمانية ، هى أن يساعداه على أن ينمو بطريقة سوية جسمانيًا وعاطفيا ، وبهذه الطريقة يمكنه أن يحيا حياة متوازنة . المفروض أن تترك الطفل يمتص أكبر عدد من التجارب والمعرفة عن العالم ومن فيه ، ولكنَّ هذه العملية لا يجب أن تتم عن طريق الضغط أو الإجبار .

ومن المعروف أن صفات الطفل الجسمانية ، أو معظمها ، تأتى عن طريق الوراثة ، ولا يمكن تغييرها أو على الأقل من الصعب تغييرها فإن بعضها وهو الأحاسيس الأولية تأتى مع الطفل وفى مراحله الأولى ، أما الأنماط العاطفية فهى تتكون بالتجربة . وأقصد بالأحاسيس الأولى الجوع والرغبة فى النوم والبكاء على سبيل المثال ، أما الأنماط العاطفية فهى تلك التى تأتى من تعامله مع الآخرين ، مثل الإحساس بالفرحة عند رؤية من يحب أو بالغضب إذا نهره أبوه ، أو بالحماس

حين يفعل شيئًا بنجاح ، وبمعنى آخر علاقة الطفل بأبيه وأمه ، وهو نمط عاطفى يبقى مع الطفل فى جميع مراحل نموه – والطفل يرث بعض الصفات التى لا يمكن تغييرها .

وإمكانية الطفل على التعلم مرتبطة ارتباطًا تاما بالبيئة التى يعيش فيها وخاصة البيت ، ولذلك فهو فى حاجة إلى مراقبة دقيقة لسلوك الطفل ، وفى المرحلة الأولى يتعلم الآباء من أطفالهم ولعل الأم هى التلميذ الأول للطفل ، فهو يعلم أمه منذ ولادته ولن تستطيع الأم أن تتعلم دون مراقبة منتظمة للطفل ، فهى تتعلم من طريقة بكاء الطفل أنه يبكى حين يجوع أو حين يكون قد لون نفسه ويشعر بعدم الراحة ، وهو يريد النوم حين يكون متعبًا ويبتسم حين يشعر بالسعادة ، والأم عليها أن تتصرف على ردود الفعل هذه .

وأول ارتباط للطفل يكون مع أمه ، وهذا الارتباط وثيق يعكس ثقة من جانب الطفل مما تفعله الأم ، فهى الوحيدة التى يتقبل منها أنواعًا جديدة من الطعام مثلا ولا يتقبله من الآخرين . وسبب هذا ليس حبًا فى الأم ، إذ أن مرحلة النمو الأولى لا تعرف العواطف ، وثقة الطفل فى أمه هنا نتيجة لارتباطه الطبيعى اللاشعورى بها ..

والطفل يحب اللعب بطريقته الخاصة ، والفرق بين الطفل وهو يلعب والشخص البالغ وهو يعمل أن الطفل يستمتع باللعب ، إن الطفل يختار اللعب ويمارسه بكل قوة وعزم أكثر من البالغين فى عملهم ، ومع اللعب يتعلم الطفل ، والأطفال ليسوا فى حاجة إلى

آبائهم لتعلم اللعب ، وليسوا فى حاجة حتى إلى التشجيع لممارسة اللعب .. المهم هو توفير الفرص والإمكانيات للطفل للعب الحر دون إخطار وإيجاد المواد والأدوات الخاصة باللعب مع مراعاة مساعدتها للطفل على تنمية خياله .

وإذا راقبنا الطفل وهو يلعب - كما كنت أفعل مع حفيدتى - لوجدته يعكس سعادة كبيرة ، نراه مرة يفكر تفكيرًا عميقًا ومرة أخرى سارحًا ببصره ، نراه ينتقل بسرعة من لعبة إلى أخرى ، يبدأ فى رسم شىء ثم لا ينتهى منه ويبدأ فى رسم شىء آخر . إن ما يفعله الطفل هو إجراء تجارب على الأشكال والمواد والأفكار وهو لا يريد أن يقطع عليه أحد هذا الاستمتاع ، فالاستمتاع هو دافعه للعب . الطفل يريد أن يعرف كيف يستعمل عضلاته . كيف يحول المواد الخام إلى أشكال ذات معنى له على الأقل .. وأخيرًا كيف يتعامل مع الأطفال الآخرين .

وقبل دخول الحضانة سيكون لعب الطفل غير منظم ؛ سيلعب بكل ما يقع يده عليه ، البلى والريش والورق والطين والرمل بصندوق فارغ ، بعلبة كوكاكولا .. وقد يشترى الآباء أغلى اللعب ليجدوا أن أطفالهم يفضلون هذه الكراكيب ، وإنى أذكر كيف كنت أحتفظ لحفيدتى بكل زجاجة فارغة أو علبة خشبية أو دوبارة بعد شراء شىء من السوق .. وكيف كانت تشعر بالسرور بهذه الكراكيب . وإنى أذكر كيف كانت حفيدتى تترك لعبة المطبخ المجهز لتطهى الطعام فى علب فارغة .. ومن النصائح الهامة عدم توفير أية أدوات حادة يمكن أن تضر الطفل .

الطفل والمحاكاة

يميل الطفل دائما إلى المحاكاة ، وقد شاهدت تجارب عديدة تمت لتثبت ذلك ، لعل أهمها ما شاهدته فى اليابان ، وإنى أذكر أول حديث لى مع أستاذ يابانى مهتم بالأطفال وهو فى نفس الوقت مدير شركة من أكبر شركات الألكترونات فى اليابان بل فى العالم .. وقد طرح الأستاذ نظرية أصدرها فى كتاب بعنوان « روضة الأطفال لا تكفى » وترتكز على أن الطفل منذ الولادة حتى سن الخامسة تتكون شخصيته ويستوعب معلوماته الأساسية .

ومن المعروف فعلا ، حسب كتابات علماء النفس ، أن ما يتعلمه الطفل فى هذه الفترة يحتاج البالغ إلى عشرات السنين لكى يتعلمه ، بل أثبت علماء علم نفس الأطفال أن ما يتعلمه الطفل منذ الولادة حتى سن الخامسة يزيد على ما يتعلمه من سن الخامسة حتى سن العشرين . وإذا نحن فكرنا فعلا فى هذا وسألنا أنفسنا : ماذا يتعلم الطفل فى هذه المرحلة ؟ لوجدت أنه يتعلم العالم حوله ، يبدأ بالتعرف على أمه وأبيه وأسرته والطعام الذى يقدم إليه ، ثم خطوة خطوة تتسع آفاق معرفته لتغطى مجتمعه ثم بلده .

ويرى الأستاذ اليابانى أن الطفل يولد وهو غير كامل النمو إذا ما قارنا ، بالحيوانات ، بالحيوان بمجرد ولادته يبدأ فى السير وفى

الحركة وفى إطعام نفسه ، وكلها أعمال تعلمها الطفل فى سنته الأولى وبدء السنة الثانية . وفى هذه المرحلة يتعلم الطفل عن طريق التقليد والأنماط ، فهو يرى أنماطًا تثبت فى ذهنه دون أن يحللها أو يشرحها وإنما يحاول تقليدها ، وقد استطاع الأستاذ اليابانى أن يتوصل إلى اختراع جهاز بسيط يعمل بالبطاريات ويستطيع الطفل نفسه أن يحركه وله مجموعة من البطاقات على كل منها صورة واسم الصورة وصوت يذكر هذا الاسم . وما على الطفل إلا أن يدفع بالبطاقة إلى فتحة معينة فتسير البطاقة وتسمع الصوت وهو يذكر الاسم وفى نفس الوقت يشاهد الطفل الصورة . وتنقسم البطاقات إلى مجاميع ، عن جسم الإنسان والحيوانات المختلفة والفاكهة وغيرها مما يحيط بالطفل .

والطفل فى هذه المرحلة لا يشعر بالملل من التكرار ، بل على العكس فإنه يحب التكرار ، ويمكن ملاحظة ذلك حين يلفظ الطفل كلمة جديدة أو صوتًا جديدًا ، وكيف يكرره بصفة مستمرة . وهذا يعنى أنه يمكن تكرار الأنماط للطفل حتى يستوعبها ، وهو قادر على استيعاب أعداد لا تحصى من الأنماط .

وقد بدأ الأستاذ اليابانى مجموعة من المدارس والفصول التى يلتحق بها الطفل قبل دخوله المدرسة ، وهناك يتلقى عن طريق هذا الجهاز الجديد مجموعات من الأنماط ، وقد وجد بالبحث والإحصاء أن الطفل الذى يدخل إحدى هذه المدارس والفصول يستطيع بعدها أن يتابع دراسته بكل سهولة ويصبح متفوقًا على أقرانه .

وهناك تجربة تمت فى اليابان ونجحت لدرجة أن أمريكا بدأت فى تنفيذها ، وهى تعليم الطفل منذ سن العامين العزف على الكمان ، وقد نجحت هذه التجربة لدرجة أنه تكونت فرقة موسيقية من سن ٤ - ١٢ سنة ، قدمت حفلات فى أمريكا لاقت نجاحًا منقطع النظير ، وأثناء حضورى مؤتمرًا خاصًا بتعليم طفل ما قبل الخامسة شاهدنا عرضًا لهذه الفرقة التى قدمت لنا معزوفات كلاسيكية على مستوى من العزف لا يقل عن أية فرقة أخرى .

وهناك فى اليابان الآن ما يزيد على عشرة آلاف طفل يتعلمون العزف على الكمان ، وقد زرنا أثناء المؤتمر إحدى المدارس التى يتعلم فيها الطفل ، وتابعنا الخطوات التى تتم منذ البداية ، وتبدأ التجربة حين تأخذ الأم طفلها ولم يبلغ العامين إلى المعهد الذى يتعلم فيه الصغار الموسيقى وتجلس فى حصة الكمان ، وما يحدث فى هذه المرحلة الأولى هى أن الطفل يراقب ما يحدث أمامه ، وتستمر هذه المراقبة لمدة شهرين ، ثم يوضع بجواره كمان صغير لا يخرج أية نغمات ويترك فى حاله ، وحينئذ سيبدأ وحده اللعب بالكمان محاولا تقليد من شاهدهم فيحاول أن يجلس كما يجلسون ويحمل الكمان الصغير كما يحملونه وخطوة خطوة سيصل إلى الوضع الصحيح المطلوب من عازف الكمان وحينئذ فقط تعطى له فرصة استعمال كمان صغير آخر يمكن العزف عليه ، وهكذا حتى يبدأ الطفل فى محاولة إنتاج النغمات ، ويصل فى النهاية إلى مرحلة العزف

كل هذا يتم بمصاحبة الأم ، وهذا يؤكد دور الأم فى المرحلة الأولى من تعلم الطفل ، قبل أن يبدأ ما يسمى بالتعليم الرسمى . والطفل فى هذه المرحلة يتعلم عن طريق الحركة واللعب ، ومن واجب الأم أن تشجع الطفل على اللعب وتوجهه . ونحن نعرف أن الكثير من الأمهات والآباء ينهرون أولادهم دائما حين يتحركون أو يلعبون وخاصة إذا كانت الحركة واللعب يؤديان إلى أعمال تدميرية . والواقع أن الأم فى استطاعتها توجيه اللعب إلى عمل خلاق مفيد ، وعلى سبيل المثال – كما قلت – أذكر أن حفيدتى – وكانت فى عامها الثانى – كانت تحب أن تسكب الماء فى كل مكان ، كان عندها شغف شديد بالماء وبسكبه على الأرض ، ولم ينجح معها أى زَجْرٍ أو ضرب ..

الطفل بين العلم والتعلم

كل منا نحن المهتمون بتربية الأطفال لنا مفاهيمنا وآراؤنا حول ماهية الطفل وما يحتاجه من تعلم وكيف نعلمه ، ولكن كثيرًا ما تكون هذه الآراء غير ذات قيمة بل ومتضاربة ، وتتحول هذه الآراء إلى فلسفة حين يصبح في استطاعتنا أن نعبر عنها بوضوح وحين نكوّن مفهومًا ملموسًا . ولكى نكوّن مثل هذه الفلسفة لابد أن نكون على بينة بالمناقشات والخلافات المختلفة حول موضوع التعليم المبكر للطفل ، وحتى الستينات كانت المناقشات الأساسية حول تعليم الطفل حتى السادسة هى : هل يذهب هؤلاء الأطفال إلى المدارس أم لا ، وكان الكثيرون يرون أن الطفل فى هذه السن من مصلحته أن يبقى في البيت بينما كان البعض يعتقد أن الحضانة لا ضرر منها ، وإن كانت عديمة الفائدة – ولكن أخيرًا بدأ يطفو على السطح اهتمام كبير بأهمية السنوات الأولى فى حياة الطفل ، والاحتياجات الشديدة بضرورة إيجاد رعاية للطفل أثناء اليوم أى نوع من المدرسة للأطفال قبل بدء التعليم الرسمى ، وشعر الجميع بأهمية مثل هذا التعليم أساسى ، ولم تعد المناقشة الآن حول هل هناك ضرورة للتعليم قبل الخامسة ؟ بل أصبحت ما الذى نعلمه للطفل فى هذه المرحلة ، وما هى الطريقة المثلى لهذا ومن الذى يقوم بها .

وهناك اختلاف فى الآراء بين رجال التربية حول هذا ، بل وأيضًا بين الكثيرين من خارج إطار التربية سواء أكانوا من الآباء أو رجال السياسة والإعلام ، ولعل هذا يعطى الموضوع أهمية عامة ويخرجه من إطار الفكر الأكاديمى الخالص إلى نطاق التطبيق ، فهذا يعنى اهتمامًا كبيرًا ومشاركة وتعرفًا على أن ما يحدث فى هذه الفترة المبكرة من حياة أطفالنا مهم بالنسبة للأطفال أنفسهم . وهذا الاهتمام من شأنه أن يرضى العاملين فى إطار تعليم الطفل وتربيته ، وإن كانوا يشعرون أحيانًا بالقلق من تدخل الكثيرين فى عملهم .

والآن نأتى إلى السؤال الأول وهو : ما الذى تقدمه الحضانة للطفل ؟ وهو سؤال يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالقيم أى « ما هى أهم الأشياء التى يجب أن يتعلمها الطفل فى هذه المرحلة ، وقبل أن يلتحق بالتعليم الرسمى ، أو بمعنى آخر : ما هى أهداف الأطفال ؟ .. وهنا يجب أن نحدد ما نعنيه بالأهداف ، إذا كان المفهوم هو أهداف محددة نريد أن يصل إليها أطفالنا ، فإن هذا يعنى أننا نريد أن يكون جميع الأطفال على شاكلة بعضهم البعض ، ولكن ما نعنيه بالهدف هو جانب معين من جوانب الطفل ، نريد أن نساعده على تنميته فى إطار اهتماماته وإمكانياته ، ونحن حين نحاول أن نعرف ما الذى يستطيع الطفل أو مجموعة من الأطفال أن يفعلوه فى جانب معين ، فإن هذا لا يعنى أننا نريد أن نصدر عليهم حكمنا ، ونحدد المستوى الذى وصلوا إليه ، وإنما ما نسعى إليه هو أن نعرف أين يقف كل طفل حتى يمكننا أن نساعده على التقدم إلى المستوى الذى يقدر عليه ، مع

الأخذ فى الحسبان أن أى تقدم لابد أن يتم فى خطوات صغيرة وأن كل خطوة تبنى على الخطوة السابقة .

وقد شاهد تاريخ دراسات الأطفال بعض الخلافات حول مفهوم الأهداف ، وكانت هذه الخلافات تبدو بسيطة وسهلة ، فكانت هناك مدرسة فكرية تؤكد أهمية تنمية القدرات الذهنية ودوافع الإنجاز على حساب النواحى الأخرى ، وكان المنادون بهذا المفهوم يرون أن هناك مضيعة للوقت إذا لم نبدأ فى تعليم الطفل القراءة فى سن مبكرة ، وكان هناك رأى آخر يهتم أساسًا بتنمية الطفل الاجتماعية ، وبنواحى الخلْق والابتكار لديه ، وكان أصحاب هذا الرأى يطالبون بعدم دفع الطفل ، بل تركه يستمتع بطفولته لأطول زمن ممكن .. وهل كل من هذين الرأيين هو رد فعل للشعور العام بأن الأطفال يضيعون السنوات الخمس الأولى لأن بيوتهم وحيهم وبيئتهم بل ومدارسهم لا يوفر لهم الإمكانيات اللازمة للنمو فى أى جانب من جوانب النشاط .. ونحن نجد فعلا أن هناك الكثير من الأطفال الذين لا يجدون حولهم دوافع أو إثارات ذهنية فى أى جانب ، بل إنهم لا يجدون أية مساعدة – سواء من الآباء أو المدرسين – لكى يعيشوا فى سعادة وابتكار مع غيرهم – بل ولا تعطى لهم الفرصة لاستعمال أجسامهم بطريقة فعالة عبر اللعب النشط .

ولعل هذه الخلافات القديمة قد انتهت الآن – على الأقل فى العديد من الدول المتقدمة – وأصبح هناك إجماع على عدد من الأهداف الأساسية فى إطار نمو تعليم الطفل المهارات ، ويمكن تقسيم هذه الأهداف إلى ست مناطق هى :

١ – القدرات السابقة لتعلم القراءة ، ومنها التعرف على الأشكال المختلفة ، والتعرف على الحروف وأصوات هذه الحروف ، ثم التعرف على كلمات القراءة ، وقراءة بعض المواد السهلة .

٢ – اللغة واستعمال اللغة الأم الصحيحة وصحة استعمال المفرد والجمع والمذكر والمؤنث والنفى والإيجاب وغيرها من الاستعمالات اللغوية الضرورية .

٣ – معلومات وصفية – مثل تعلم مفاهيم الألوان والأوزان والأحجام والأنسجة ، وتعلم وصفى للأشياء فى إطار هذه المفاهيم ، وكذلك استيعاب معلومات حول العالم مثل كيف تنمو النباتات وما الذى يفعله رجل المطافىء أو ساعى البريد ..

٤ – مفاهيم الأعداد والفصول .

٥ – الحركة المرئية وهى التعرف على الأشياء فى الصور ، والتعرف على أشكال الرسم واستعمال العيون والأيدى معًا بطريقة فعالة .

٦ – الذاكرة والانتباه وحل المشاكل وتذكر ما يحدث .

وتأتى بعد ذلك البرامج الخاصة بالتنمية الاجتماعية والعاطفية للطفل ، وهنا من حقنا أن نسأل ، ماذا نعنى بالتنمية الاجتماعية والعاطفية ؟ .. ونحن حين نذكر هذا التعبير فإن أول ما يأتى إلى خاطرنا هو كيف يتعلم الطفل أن يعيش مع غيره ، ولعل هذا هو الغرض الأساسى من التعليم . ولكن الواقع أننا نعنى بهذا التعبير شيئًا أكبر من هذا وأوسع ، حقيقة أن ما نعنيه يرتبط بعلاقات الطفل مع غيره وسلوكه

تجاه الآخرين وتجاه نفسه ، ولشخصيته – وفيما يلي بعض النواحي المرتبطة بهذه البرامج :

الأولى : التعامل مع الآخرين والتعود على البالغين خارج إطار الأسرة : وتنحصر هذه الناحية في دور التجربة المدرسية الأولى فى تعليم الاحترام لحقوق الأطفال الآخرين ، وفى تقبل المدرسين على أنهم أشخاص يرغبون فى مساعدة الطفل .

الثانية : المسئولية الاجتماعية : وهى أبعد من مجرد القدرة على التعامل مع الآخرين ، فهى تقوم على أساس تقبل الآخرين برغم الاختلافات بينهم والشعور بالمسئولية للآخرين وللبيئة التى يعيش فيها الطفل .

الثالثة : الابتعاد والاستقلالية : وهى كيف يتعلم الطفل الاستمتاع بإنتاج شيء بمفرده وباتخاذ القرار وحده ، وبهذه الطريقة يكتسب الطفل المقدرة والشعور بقيمته .

الرابعة : تعلم فهم كيف يشعر الآخرون : وكيف يعبر فى كلمات عن مشاعره هو .

الخامسة : تنمية ارتباطات معينة وولاءات محددة : سواء ارتباطه بالمدرسة وإحساسه بالفخر والانتماء إلى مجموعة معينة ، سواء أكانت هذه المجموعة جنسًا معنًا أو ثقافة أو ديانة من الديانات .

كل هذه الأحداث مهمة ، سواء أكانت فكرية أو اجتماعية عاطفية ، ولكن على الرغم من أهميتها ، وعلى الرغم من أنها تعكس مدارس

محددة. من الفكر بخصوص نمو الطفل ، إلا أن هناك بعض النواحى التى تنقصها والتى لم تعالجها .

ومن الواضح أن هناك بعض النواحى الهامة والأساسية حين تحفظ أى برنامج خاص بالطفل فى مراحله الأولى ، وبعض هذه النواحى ليس له أى ارتباط بعملية التعليم ، وإنما نراها مرتبطة بأمور إنسانية مثل إعطاء الوالدين الفرصة للعمل أو للمرانة ، أو لمكسب مادى للمشرفين على عملية تربية الأطفال .

والآن نأتى إلى سؤال هام هو : كيف نختار الأهداف بحيث تصلح للغرض النبيل الذى نسعى إليه ؟ ، وقد دارت مناقشات عديدة حول هذا الموضوع يمكن أن نستخلص منها بعض الأسس العامة التى تساعدنا إلى تقرير أهدافنا ، وأهم هذه الأسس هو أن تكون الأهداف واسعة ، بمعنى أن الفترة السابقة لعام الطفل الخامس يجب أن يقضيها الطفل فى تنمية جميع المهارات ، والمفاهيم التى فى استطاعته أن يستوعبها بحكم نموه الجسدى والذهنى والتى يحتاج إلى ممارستها بطريقة فعالة للقيام بدوره كعضو فى المجتمع .

وهذا يعنى أن المشرفة على الطفل ، سواء أكانت المدرسة أو الأم يجب أن تتميز بالقدرة على مساعدة الطفل فى استعمال جسمه وفى فهم الآخرين والقدرة على الاتصال بهم (اللغة) ، وفى تنمية القدرات للتعامل مع احتياجات البيئة (اجتماعية عاطفية) ، بالإضافة إلى اكتساب معرفة حول العالم (مفاهيم) .

وإذا رأت المدرسة أن هناك هدفا من هذه الأهداف أهم من الآخر ، فإنها تستطيع أن تنظر إلى جميع الأهداف باعتبارها السبيل لتحقيق هدف واحد ، وهو أن الطفل يستطيع أن يفيد نفسه ويعتبر نفسه إنسانًا له قيمة فى عالم يستحق الحياة فيه .

ومن المهم أن نعرف طبيعة الأهداف التى نريد تحقيقها ، ومدى صلاحيتها للأطفال الذين نريد تحقيقها معهم ، ويمكننا أن نحكم على مدى هذه الصلاحية عن طريق ثلاثة طرق :

الأول : أن نسأل أنفسنا هل للأطفال الذين فى هذه السن القدرة والاهتمام الكافى لتعلم هذه القدرات أو المفاهيم بسهولة نسبية ، ونحن نعرف مثلا أنه عن طريق الجهود والوقت يمكن تعليم الأطفال أشياء عديدة فى مرحلة مبكرة عن المرحلة التى يتعلمون عادة فيها ، ولكن حين يزيد الوقت والجهد سواء من جانب المدرسة أو الطفل على نقطة معينة فإن الهدف لا يعد صالحًا ، ويصبح من الضرورى صرف ذلك الوقت فى أشياء أخرى يمكن تعلمها بسهولة أكثر . وصلاحية الهدف تتقرر أيضًا فى ضوء الحد الأقصى من الزمن الذى يصرف فى تحقيقه . وفى السنوات الأخيرة بدأ المتخصصون فى تأكيد حقيقة مهمة وهى أن هناك أوقاتًا معينة يمكن خلالها أن يتعلم الطفل بسهولة أشياء معينة ، وأنه إذا استطعنا أن نتعرف على هذه الأوقات فإن فى استطاعتنا أن نحدد بسهولة الأهداف التى نسعى إلى تحقيقها ومن حسن الحظ أن الحد الأقصى هذا كثيرًا ما يصاحب المرحلة التى يكون الطفل قد انتهى فيها من تعلم شىء ما ، وبدأ يشعر

بالرغبة في تعلم شيء آخر . وهناك جانب آخر من صلاحية الأهداف ليس له أى ارتباط بقدرة الطفل على التكلم ، بل بمدى صلاحية بعض الأهداف لمجموعة معينة من الأطفال ، ويبدو هذا واضحًا إذا ما نحن درسنا مدى تحقيق أهداف معينة وثقافات معينة ، وعلى سبيل المثال فإننا نجد أن بعض الأهداف التى تصلح للطفل الإنجليزى لا تصلح بالمرة للطفل المصرى والعكس ، فالطفل المصرى فى حاجة إلى مهارات معينة ومعلومات محددة قد لا تفيد الطفل الإنجليزى أو تصلح له . وعلى سبيل المثال إذا حاولنا أن نوصل إلى الطفل معلومات عن الفصول المختلفة ، فإننا سنجد أنه بينما تبدو اختلافات فصول السنة واضحة فى إنجلترا فهى لا تكاد تلاحظ فى العالم العربى ، كما أن نوعية المعلومات الصحية التى يريد الطفل العربى أن يستوعبها تختلف اختلافًا واضحًا عن ما هو مطلوب للطفل الإنجليزى .

والطريق الثانى : وهناك صيغة أخرى للأهداف وهو فرديتها ، بمعنى أن ننظر إلى كل طفل بمفرده ، وأن نحاول أن نتعرف على احتياجاته وعلى قوته ، وفى ضوء هذا يمكننا أن نحدد الأهداف التى نرى التأكيد عليها حين نخطط له ، ونحن حين نخطط نشاطًا معينًا لطفل ما ، فهذا لا يعنى أننا ننتظر منه أن يصل إلى مستوى معين منه ، وإنما كل ما يهدف إليه هو أن نعطيه مساعدة معينة ، وتشجيعًا كافيًا يدفعه إلى استعمال يديه حتى يتعلم كيف يستعملها فى هذه الفترة المحددة من سنه . ويجب بالإضافة أن نتذكر أنه وإن كنا نؤكد بعض نواحى النشاط ، فإن هذا لا يعنى إهمال النواحى الأخرى .

كل هذا يعنى أنه حين يريد الإجابة على سؤال ماذا ؟ فإن علينا أن نعلم الطفل فى إطار أربعة أسس : أن يكون البرنامج عريضًا - ومحدد الأهداف - ويتفق مع الأطفال الذين نوجه إليهم البرنامج - وأخيرًا أن يراعى فردية كل طفل واحتياجاته .

أما الطريق الثالث والأخير : والآن نصل إلى سؤال « كيف » : وهو كيف يتم التدريس فى الحضانة وروضة الأطفال ؟ ، وحين نقول « كيف » فنحن نعنى أولا : عملية التدريس نفسها ، وثانيًا : بنيان البرنامج وتكوينه ، وعملية التدريس تتوقف على التكتيك الذى تستعمله المدرسة فهل تدرس لمجموعة كبيرة أو صغيرة أو لأفراد ، وهل يستعمل التدريس المباشر أو طريقة الاستكشاف ، وما هى الأدوات التى تستعملها ، أهى كتب أو أفلام أو مساعدات سمعية وبصرية أخرى ، وما هى أنواع التأثيرات أهى جوهرية أو عرضية ، وبينما نجد أن عملية التدريس مرتبطة تماما ببنيان التدريس فإنه من الضرورى أن نذكر أنها ترتبط ارتباطًا واهيًا باختيار الأهداف .

وحين نود تحديد فلسفة التعليم فإنه من الضرورى ألا نخلط بين الأهداف والوسائل ، أى ألا نخلط « ماذا » بـ « كيف » . حقيقة أن هناك بعض الارتباطات بمعنى أن بعض الأهداف لا يمكن الوصول إليها عن طريق وسائل معينة ، فإذا كان الهدف هو الوصول إلى تكوين أطفال مستقلين ومبتكرين فإن عملية التعليم لا يمكن أن تصبح متشددة ..

كما أننا كثيرًا ما نجد وسائل متعددة لهدف واحد ، فمثلا حين نريد تعليم الطفل اللغة فإننا نستطيع أن نستعمل تدريبات جماعية ، أو ألعاب معينة أو تعليم كل طفل بمفرده ، أو عن طريق الميكروفون أو جهاز التسجيل أو الآلة الكاتبة .

وهناك أنواع عديدة من الوسائل التعليمية لعل أقربها إلى الطفل هو ما يسمى بالعملية التشخيصية وهى التقييم أى معرفة أين يقف الأطفال ، والمدرس المتدرب لا شك يعرف بشكل عام ما الذى ينتظره من الأعمار المختلفة ، وهو يعرف أيضًا أن نفس المجموعة قد تتغير من عام إلى عام فى قدراتها ومهاراتها ، بل إن بعض هذه المجموعات تكون لها شخصية موحدة ، تمامًا كما يكون للفرد شخصيته ، ولكن فى نفس الوقت نجد أن لكل طفل فى المجموعة شخصيته الفريدة ، ومن ثم نجد اختلافات كثيرة من طفل إلى آخر ، والمدرس المتدرب فى استطاعته بنهاية العام أن يتعرف على هذه الاختلافات وعلى الصفات الفردية لكل واحد من أطفاله ، وهذه عملية غير سهلة وتحتاج من المدرس أن يراقب سلوك كل طفل ، وأن يحتفظ بانطباعاته عن كل منهم ، أى أن يكون نوعًا من السجلات الذهنية لكل طفل ، وهذا يتطلب من المدرس تدريبًا واهتمامًا خاصًا بعمله ، وعملية المتابعة والتسجيل هذه هى أساس التعليم الشخصى ، إذ فى ضوء هذه السجلات الناتجة عن الملاحظة الدائمة يستطيع المدرس أن يشخص احتياجات كل طفل وبالتبعية يمكنه وضع الخطط اللازمة لتنمية قدراته وإمكانياته ورياداته ، ومعنى هذا أنه يجب أن ينظر إلى كل طفل باعتباره فرد

له قدرات معينة ومعارف محددة ، وذلك دون أن نراه نموذجًا للطفل في هذا السن المعين فلا نقول مثلا إن الطفل في سن الثالثة أو الرابعة يعرف هذا أو ذاك أو في حاجة إلى معلومات معينة ، فمن حق الأطفال عندنا أن نعاملهم كأفراد لكل منهم مزاجه واحتياجاته ورغباته وميوله ، وهذا يتعين علينا أن ندرس كل طفل عن كثب ونحتفظ له بملف ذهني قد تساعده بعض الملاحظات المكتوبة وفي ضوء هذا نضع مخطط التعامل معه . طبعا هناك أشياء عامة تتشارك فيها الأطفال — الأعمار والمجموعات المختلفة ، ومن ثم يتحتم علينا عند وضع أى برنامج أن نجعله مرنًا بدرجة تعطينا فرصة تطبيقه على كل طفل على حدة .

وهناك أسس عامة تساعد المدرس أو المدرسة على وضع خطة توجيه الأطفال ومواجهة احتياجاتهم التعليمية . وهذه الأسس نابعة من صميم الأطفال أنفسهم ووضعها المتخصصون بعد إجراء تجارب عديدة على الأطفال وهى :

الأول : القوة الدافعة للتعلم : وهذه القوة يتميز بها جميع الأطفال عدا القليلين منهم فلهم ظروف خاصة . فالطفل الذى يحضر إلى الحضانة في السنة الثالثة من عمره له احتياجات متعددة أو دوافع تعطيه الرغبة فى العلم . وعلماء النفس يختلفون حول طبيعة هذه الدوافع ، وهل هى طبيعية يولد بها الطفل أم أنها مكتسبة ، ولكن هذا لايهم المدرس ، المهم أن هذه الدوافع موجودة ومشحوذة للتعلم ..

الثانى : دافع الحركة : ونحن إذا راقبنا صغار الأطفال فإننا سنلاحظ أنهم دائمو الحركة التى تبدو عشوائية بلا غرض أو لمجرد غرض الحركة ، وإذا راقبنا الطفل فى عامه الثالث وهو فى الحضانة سنرى أنه من الصعب عليه أن يجلس ساكنًا لمدة طويلة ، وحتى فى فترة الراحة فإنه سيتحرك بطريقة مستمرة وقد تكون هذه الحركة مشكلة للمدرس ولكنه يستطيع أن يحولها إلى حركات منتجة تؤدى إلى شعور الطفل بالراحة والاسترخاء ..

الثالث : ثم تأتى بعد ذلك عملية القيام بشىء : ومن صفات الإنسان أنه دائم الرغبة فى عمل شىء بيديه ، والطفل هنا لا يختلف عن البالغ ولا شك أن جميعنا لاحظ كيف يحاول الطفل أن يفعل شيئًا .. فهو يلعب بأصابع يديه ، ويطرق طرف سريره بأى شىء ، ويلعب بكل ما تصل يداه إليه .

ويمكن توجيه هذا الدافع فى الحضانة أو فى روضة الأطفال لتنمية بعض إمكانات الطفل الحركية مثل الرسم وربط رباط حذائه أو ردائه ، وبالتدريج يمكن الوصول بها إلى مرحلة الكتابة .

أما الرابع فهو دافع الاستكشاف : وهذا الدافع واضح جدًّا فى الأطفال وفى الحيوانات أيضًا ، وأساسه حب الاستطلاع ، إن الطفل يريد أن يعرف كل شىء عن بيئته وقد يكون هذا مصدر متاعب للكبار ، فالطفل يريد أن يلمس ما حوله وأن يكتشف وأن يدخل الأماكن التى يمنع من دخولها .

وهذا الدافع يعد من أهم الصفات التى يستطيع المدرس أو الأب أو الأم الاستفادة منها لمساعدة الطفل على التعرف على العالم الذى يحيط به وفى تعليمه بعض المفاهيم الأساسية ، ومن الطرق التى تستغل فى الحضانات أو رياض الأطفال هى إحضار شيء ما فى صندوق وسؤال الأطفال عما يعتقدونه فى داخل الصندوق ، والطفل الصغير جدًّا يذكره حب استطلاعه على ما يحيط به مباشرة ، فى حين نجد أن طفل الثالثة يبدأ فى الدخول إلى عالم الآراء والأفكار ، فهو يريد أن يعرف أسماء الأشياء المحيطة - وما الذى يحدث حين لا يكون موجودًا والآباء الذين يهتمون بأطفالهم والمدرسون فى استطاعتهم استغلال هذا الدافع لتنمية حب الاستطلاع الذهنى الذى يتصف به العلماء فى داخل الطفل بحيث يستطيع عند الكبر أن يستعمله .

ويأتى بعد ذلك الدافع الخامس وهو التعامل الاجتماعى : أى الرغبة فى التواجد مع الآخرين ، وهذا الدافع يطفو على السطح فى سن مبكرة ، فنجد أن الطفل فى شهره الثالث يشعر بالسعادة وهو مع الآخرين يناغيهم ويلعب معهم ، وكلما نما الطفل فإنه يبدأ فى البحث عن صحبه ممن هم فى سنه أو الكبار الودودين . وإذا استطعنا أن نستفيد من رغبة الطفل فى صحبة الآخرين فإننا نشرح له كيف يتعايش معهم ، وبهذا نستطيع تأسيس علاقات الطفل ، ثم البالغ بعد ذلك مع الآخرين فى المدرسة وفى المجتمع بعد ذلك .

والدافع السادس : هو واقع الإنتاج : وهنا أيضًا لا نستطيع أن نقول بصفة أكيدة أن هذا الدافع له صفات كامنة خاصة ، وأنه لا يظهر إلا فى فترة متأخرة من نمو الطفل ، وقد لا يرى البعض فرقًا بين دافع القيام بشىء ودافع الإنتاج ، ولكن هناك اختلافًا واضحًا بينهما ، فنحن إذا لاحظنا طفلا فى عامه الثانى وآخر فى عامه الثالث وطريقة معالجتهما للرسم .. نجد أن طفل الثانية لا يهتم إلا بإمساك الفرشاة فى يده وتحريكها ويهتم كثيرا بما يضعه على الورق ، وحين يكبر هذا الطفل فإنه يبدأ يهتم بما ينتجه فى حين يقل اهتمامه بمسيرة الحركة نفسها ، إنه يريد أن يضع اسمه عليها وأن يأخذها معه إلى البيت ليطلع عليها آباءه أو أن يعلقها فى حجرته .

هذه الدوافع الحسنة هامة جدًّا ، وهى أساس تعليم الطفل وتوجيهه إذا ما نحن أحسنا استعمالها ، ولكن هناك نقطة هامة فى هذا الإطار وهى كيف نستطيع أن نحفز الطفل إلى أن يتعلم .

وهناك رأى يقول : إن حفز الطفل يأتى عن طريق منحه بعض الجوائز سواء أكانت حلوى أو أى شىء آخر ، ولكن المعارضين الكثيرين لهذه النظرية يرون أن الطفل بهذه الطريقة لن يتعلم إلا إذا نحن دفعنا له ، ومن ثم فإن الطفل لن يستطيع أن يوجه نفسه لعمل شىء ما ، ولن يجد استمتاعًا فى تحقيق شىء بنفسه أو أن ينى سيطرة داخلية على أعماله ، بل إن هذه الطريقة قد تؤتى نتائج عكسية ، فنجد أن الطفل يحاول أن يقوم بعمل خاطىء حتى يحصل على جائزة لعدم تكراره ولكنه سيكرره حتى يحصل على هذه الجائزة .

أما الرأى الثانى : فهو الذى ينادى بأن الطفل نفسه هو الذى يحصر قدراته الخاصة وقوته واهتماماته وأن الحوافز الفعالة لتعليم الطفل هى دوافعه الأساسية وليست الحوافز المادية أو العقاب . ويستطيع المدرس أن يعوض الطفل الذى ينتقص قدرات معينة ، فعلى سبيل المثال لو أن هناك طفلا يفضل النشاط الفنى ولكنه لم يتضح بعد من ناحية العلاقات الاجتماعية فإننا نستطيع أن نساعده فى التعرف على الآخرين عن طريق تنمية بعض المهارات الجماعية بطريقة تدريجية وذلك بتشجيعه على الاشتراك فى نشاط ما مع طفل واحد يتسم بالهدوء وليس بأية روح عدوانية ، ثم توسيع دائرة المشاركة لتشمل عددًا أكبر من الأطفال ، والمدرس المتدرب فى استطاعته بطريقة غير مباشرة أن يجذب الطفل إلى أية دائرة من دوائر النشاط ، ولكنه يحتاج إلى خبرة وخيال وقدرة ابتكارية .. ولا شك أن الخيال والابتكار من شأنهما أن يساعدا المدرس على تنويع طرقه ووسائله ، بحيث لا يضع نشاطات محددة لكل الأطفال بطريقة واحدة ، وهذا معناه أن المدرس لا يبدأ ببعض الأشكال أو الأفكار المسبقة ، وإنما يترك لخياله طريقة معالجة كل طفل بالطريقة التى يميل إليها .

إذن عملية التعليم كما قلنا تبدأ بنوع من الاستكشاف لقدرات الأطفال وقوتهم ومدى نصحهم ، وفى ضوء تقدير هذه الجوانب يمكن للمدرس أن يضع خطته التعليمية وبنيان هذه الخطة . ونحن

حين نتحدث عن بنيان الخطة أو البرنامج فنحن نعنى ثلاثة أشياء .. نوع الجدول اليومى ، ومدى حرية الطفل فى اختيار نواحى النشاط الذى يريد أن يقوم به ، والحدود التى توضع على الأطفال .

وفى بادئ الأمر كان اتجاه التربيويين هو وضع برنامج محدد فيه يتماسك البنيان بكل نواحيه ، سواء من ناحية المضمون أو الشكل أو الوسائل والمعدات التى تستغل مع وضع قواعد ثابتة لما يجب أن يفعله الأطفال وما لا يجب أن يفعلوه .. وفى جانب آخر هناك برنامج بدون بنيان يعطى للطفل أقصى حرية فى متى وأين وكيف يستعمل نشاطه ومعداته . وكلتا الطريقتين لا ترضى الكثير من المدرين والآباء .

إن الأطفال ليسوا مجرد متلقين سلبيين للمعرفة يمكن تشكيلهم كالطين عن طريق القوى البيئية التى تحيط بهم ، فالأطفال يؤثرون بصفة مستمرة فى بيئتهم ويفيدونها بطرق مختلفة ، وفى نفس الوقت يجمعون التجارب ويشرحون هذه التجارب حسب مستوى فهمهم ، وقد يعطى نفس الحدث معان مختلفة إلى الأطفال حسب مستويات نموهم أو الأطفال الذين على نفس المستوى وإن اختلفوا فى تجارب حياتهم ، وقد ثبت فى هذه الحال أن الأطفال يتعلمون عن طريق مراقبة الآخرين ، ومن ثم فإن أهم الوسائل لمعرفة سلوك الآخرين هو مراقبتهم ، والأطفال يحبون المراقبة والملاحظة ومن ملاحظاتهم فى استطاعتهم أن يتعلموا ممارسة نواحى سلوكية جديدة وأن ينموا القدرة على توقع نتائج ما يقومون به .

والطفل حين يراقب عملا أو سلوكا ما فليس معنى هذا أنه سيقلده فى الحال ، بل إنه لن يفعل هذا إلا إذا اقتنع بالنموذج الذى يلاحظه وبعد أن يعرف نتائج العمل الذى يلاحظه ، وكانت ظروف الطفل مشابهة لظروف النموذج الذى يلاحظه وأخيرًا إذا كان النشاط الذى يلاحظه فى مستوى إمكاناته .

والآباء والمدرسون فى استطاعتهم أن يكونوا نماذج للأطفال ، إذ من المعروف أن الطفل يقلد من يعرفه ويحبه ، كما أنه ثبت بالتجربة أن تقليد المثل من الأمور التى تحدث ، فالطفل يقلد الطفل الآخر ، والطفل يتعلم أيضًا من نتائج سلوكه .. وقد أثبت علماء النفس أن نتائج سلوك ما يؤثر على السلوك الذى يليه وهم يطلقون على النتائج التى يؤدى إلى[1] استعادة سلوك ما بأنها مساعدات إيجابية فى حين يطلقون على النتائج التى تمنع هذا السلوك مرة أخرى بأنها فى صورة عقاب .

والنتائج تؤثر على سلوك الطفل بطريقتين :

الأولى : أنها تعلم الطفل أن ما يفعله خطأ أو صواب ، ومن ثم فإن رد الفعل أو رجع الصدى مهم فى عملية التعليم ، وهو مهم جدًّا إذا جاء مباشرة بعد سلوك الطفل سلوكا معينا ، فالأطفال ينسون بسرعة ما يفعلونه وهم دائما فى حاجة لأن يعرفوا إذا كان ما فعلوه خطأ أو صوابًا قبل أن ينسوا ما فعلوه .

أما الطريقة الثانية للنتائج : فهى أنها تثير الطفل وتدفعه إلى ممارسة عمل ما أو عدم ممارسته ، وكثيرًا ما نجد أن حدثًا واحدًا

يوفر رد فعل بخصوص خطأ أو صواب عمل ما ، وفى نفس الوقت يعطى تجربة سارة أو غير سارة تؤثر على رغبة الطفل فى تكرار ما فصله فى المستقبل ، فإذا قال الأب أو الأم « هذا حسن » لطفل بعد عمل ما فإن هذه الجملة من شأنها أن تعطى الطفل المعلومات الكافية حول سلوكه وفى نفس الوقت تجعل الطفل يشعر بالفخر لأنه نال هذا المديح .. ولكن لا يجب أن ننسى هنا أن تأثير أى حدث على الطفل يتوقف على شرح الطفل للحدث ، والطفل الذى لا يحب مدرسًا ما مثلا يتفادى دائما أن يقوم بأى عمل من شأنه أن يرضى المدرس .

الطفل والدراما

الدراما : هي إحدى الفنون التى يستطيع الطفل عن طريق ممارستها أن ينمو ويكبر ، والغرض منها ليس تدريب الطفل لكى يصبح ممثلا تماما ، كما أن الغرض من ممارسة الطفل للرسم ليس لكى يصبح فنانا تشكيليًا ، وعن طريق الدراما يمكن تدريب الطفل على أن يرى وأن ينظر ، وأن يسمع وأن يلاحظ ما حوله بمعرفة وخيال ، وأن يراقب ويربط ويرتبط . والغرض من الدراما هو تنمية قوة الملاحظة لدى الطفل ثم تحويل ملاحظاته المتراكمة إلى تعبير لغوى .

والدراما تقوّى فى الطفل عملية الخَلْق ، والخَلْقُ يعنى عمل شىء جديد ، وأساس الدراما هو الاتصال بين البشر لأن الاتصال من شأنه أن يؤدى إلى تعميق العلاقات الإنسانية وتقويتها . والدراما بمفهومها الشامل الذى يغطى الرقص والموسيقى والحركة هى الفن الوحيد الذى يستعمل الطفل فيه كل جسمه [الروح والعقل والأحاسيس والصمت والإيماء] .

ودراما الطفل ليست بالشىء الجديد ، فهى ترجع إلى أربعمائة عام ، ولكنها فى السنوات الأخيرة بدأت تأخذ أهمية خاصة ، وبالذات ما يطلق عليه اسم الدراما الخلاّقة ، وهى منتشرة إلى أقصى حد فى إنجلترا وأمريكا ولكنها لا تزال متعثرة فى مصر . وإنى أذكر

حين كنت رئيسًا للمكتب الاستشارى لثقافة الطفل التقيتُ بأحد المتخصصين فى دراما الطفل وأقمنا ورشة فى مدرسة الجزيرة الإعدادية فى الزمالك ومع الأسف لم يهتم بها أحد .

إن حياة الطفل تبدأ بالدراما وأول خطوة هى اللعب وقد تحدثت عنه من قبل .. وعادة ما تكون الدراما محاولة الطفل لخلق عالم الكبار والارتباط بشخص يحبه وهى نمو طبيعى للإنسان ومن ثم فإن تجربة الأطفال فى الدراما يجب أن تتم بطريقة طبيعية .

ويمكن تقسيم الدراما إلى أربعة فروع : اللعب ، والحركة ، والمايم ، والتمثيل التلقائى ، وأخيرًا المسرحيات التى يكتبها الأطفال أنفسهم ، وهذا التقسيم لمجرد السهولة ، إذ الواقع أن الدراما هى كيان واحد ، وجميع أشكالها تعد حلقات فى سلسلة واحدة ، فالحركة والمايم استعدادات أساسية لمادة الدراما التلقائية والمسرحيات المكتوبة . وقد أصبح اللعب الآن فى أشكاله المختلفة هو أساس الحياة فى مدارس الحضانة ورياض الأطفال . والطفل يحب اللعب دائمًا للتخلص من الطاقة الكامنة فى داخله ، وكذلك للتخلص من مشاكله العاطفية . ومن الملاحظ أن الطفل يحب أن يتقمص شخصيات الكبار كالآباء والأمهات والمدرسين والأطباء ، إذ من أقوى طموحات الطفل أن يصبح بالغًا وأن يمارس سلطة الكبار ومعظم ألعاب الأطفال إنما تعكس حياة الكبار وعن طريق التقليد يمكنهم التعليم .

وقد بدأتُ تجربة الدراما قبل أن أطبقها مع حفيدتى ، فى عام ١٩٦٧ حيث كنت مسئولا عن المكتب الاستشارى لثقافة الطفل

كنت أنظم زيارات لبعض مكتبات الأطفال ومعي بعض القائمين ببرامج الأطفال فى الإذاعة ، وكانت الفكرة هى أن تقص المقدمة أو المقدم القصة ثم يقوم الأطفال بتمثيلها وقد نجحت تلك التجربة نجاحًا كبيرًا .

أما مع حفيدتي فقد بدأتُ حين كنتُ أقص عليها بعض القصص العالمى ، وكنت أطلب منها تمثيل بعض شخصيات القصص ، ثم اقترحتْ هى على أن تدعو بعض أصدقائها ممن يسكنون العمارة ، وكان عمرها آنذاك يقترب من الخامسة ، ووافقتُ ووجدتُ نفسى فجأة مكلفًا بتسلية ثمانية أطفال فى نفس السن تقريبًا ، وبدأتُ معهم سلسلة من الحكايات كانوا يمثلون شخصياتها بطريقة تلقائية .

وفى هذا الإطار أود أن أهمس شيئًا فى آذان الجدود : لماذا لا تقومون بدور مشابه فى حياة أحفادكم وأولاد الآخرين ، فالجد الذى يحال إلى المعاش يبدأ فى الذهاب إلى قهوة النشاط « على رأى صلاح جاهين » لقضاء الوقت أو بمعنى آخر لتضييعه . لماذا لا يبدأون ، كما فعلت أنا بحكاية الحكايات لأحفادهم وأصدقائهم . بل إنى أذهب أبعد من ذلك وأقترح بتجنيد الجدود المحالين إلى المعاش وخاصة من كانوا يعملون فى التعليم بتوزيعهم على المكتبات وقصور الثقافة ليحكوا حكايات للأطفال .

والجد له مكانة خاصة لدى الطفل كما أن للطفل مكانة خاصة لدى الجد ولديه من الوقت أكثر من الوالدين ومعظمهم يعملون ،

فهو يستطيع أن يشرف على أحفاده ، يأخذهم إلى المدرسة ويعود بهم إلى البيت ويبقى معهم لحين عودة الأبوين من العمل ، ويحكى لهم حكايات قبل النوم ، هذا طبعًا إذا كان يسكن قريبًا منهم . بل لعل لهذه فائدة أخرى . فهناك العديد من كبار السن يعيشون بمفردهم بعد فقدانهم لشريكات حياتهم ، وهذا العمل من شأنه أن يملأ حياتهم وينقذهم من الوحدة القاتلة .

بدأتُ حكاياتى مع أطفال العمارة ، ثم بدأت بعد ذلك فى تطبيق بعض ما كنتُ قد شاهدته فى لندن فى مجال الدراما الخلاقة للطفل ، فقد كنتُ قد دعيتُ من جانب المجلس البريطانى حين كنت مسئولا عن ثقافة الطفل لزيارة لندن ، وهناك شاهدت ممارسة هذه الدراما سواء فى مسرح Unicorn أو فرقة بريان واى المتنقلة Brian Way .

ولعل من الضرورى أن أشرح مفهوم دراما الطفل ، فالدراما للطفل ليست مسرح الطفل ، إنها نشاط خلاق يعطى للطفل الفرصة للتعبير عن آرائه وعن طريقة هذا التعبير ليعرف أهمية هذه الآراء ، المسرح هو فن العرض ويعتمد على بعض المبالغات سواء فى الصوت أو الحركة ، وهو يملى بعض التعقيدات على الممثل مما يجعله نوعًا من الإنسان الآلى يحركه المخرج كما يشاء ، وهو الذى يرسم له خطواته على خشبة المسرح وانتقاله من مكان إلى مكان ، بل هو الذى يقرر طبقات وأحجام الصوت الذى يستعمله .

أما فى دراما الطفل فإن تعقيدات المسرح ملغاة ، فالطفل حر فى حركته وتفكيره وفى التعبير عن هذه الأفكار وفى الوصول إلى نتائجه

الخاصة . إن دراما الطفل تعطيه الفرصة للتعامل مع نفسه ومع بيئته ومع الآخرين . وفى مجتمعنا نجد أن الكبار هم الذين يسيطرون على حياة الأطفال ومصائرهم والطفل يعتمد اعتمادًا تاما على قرارات الكبار . ومن ثم فهو فى حاجة ملحة للسحر والاختراع ليقدر على فهم ما يحيط به . وسيطرة الكبار كثيرًا ما تساعد على تحطيم حياة الأطفال . وأعطى مثالا لذلك : حين يكون الطفل لنفسه مجموعة من الأصدقاء فى جو معين ، فيلعب معهم ويرتبط بهم وفجأة ينتقل الأب إلى حى آخر أو بلد آخر فينهار عالم طفله أو أطفاله ، وقد حدث ذلك فى حالة حفيدتى حين نقل أبيها إلى لندن فتركت أصدقاءها فى القاهرة وتركت النادى الذى كانت تذهب إليه معهم .. حقيقة أنها كونت فى لندن مجموعة جديدة من الأصدقاء ولكن بعد فترة من الوحدة والقلق .. ثم صدر قرار بنقل أبيها مرة أخرى إلى أمريكا وتحطم عالمها مرة أخرى .

ولكى يعوض الطفل ما فقده فإنه يخترع لنفسه عالما خاصًا به إلى أن يستطيع أن يكيف نفسه مع الوضع الجديد . وقد يكون عالم الطفل السحرى يفرض الهروب من التقاليد والمتطلبات التى يمليها عليه الكبار والتى لا يستطيع أن يقاومها ، فنراه حين يخاف من المدرسة يدعى المرض لكى يبقى فى البيت ودور الدراما هى مساعدة الطفل على الاختراع والتخيل وذلك عن طريق تمثيل المدرسة بمدرسيها وتلاميذها حتى نبعد من ذهنه الخوف ..

وعن طريق الدراما يتعلم الطفل كيف ينمو وكيف يتعامل مع الحياة .. إن فى استطاعته أن يستكشف مواقف معينة ولا يخاف

منها ، وبعد أن يتم للطفل اكتشاف ما حوله وتقبله لذلك العالم الذى يعيش فيه فإنه يبدأ فى اكتشاف مواقف معينة ، وفى تجربة الحرية التى يتمتع بها الكبار وفى السيطرة على الأحداث ، وهو يفعل ذلك عن طريق الدراما والتخيل فإذا تطلع إلى الحصول على دراجة مثلا فإننا نراه يلعب دور الأب ويشترى لنفسه دراجة فى خياله .

والدراما تساعد الطفل على اتخاذ قراراته بنفسه ، وقد يتخذ قرارات خاطئة ، وهنا يأتى دور الوالدين أو الجد ثم بعد ذلك المدرسة أو المدرس وذلك فى توجيه دراما الطفل فى نواحى مفيدة ، فمثلا لعبة « آباء وأمهات » أو « الستات » كما كنا نسميها حين كنا أطفالا يمكن توجيهها لتكون فرصة لاتخاذ قرارات بدلا من أن تكون مجرد لعبة بلا هدف .

ولدراما الطفل فوائد عديدة أذكر بعضها : فهى تساعد الطفل على التعبير عن نفسه ، ونحن نعرف أن الطفل منذ ولادته يمر بعملية جمع حقائق ومعلومات وانطباعات عن نفسه وعن العالم الذى حوله ، وعن طريق التعبير عنها يحس به تجاه هذه الحقائق والمعلومات والانطباعات يستطيع الطفل أن يعملها ، ومن ثم يربطها بالحياة فتصبح لها معنى . وعن طريق الدراما يستطيع الطفل أن يعبر عن أحاسيسه تجاه أشياء عديدة وعن طريق توجيهات الوالدين أو الجد يكيف هذه الأحاسيس نحو الطريق السليم .

والطفل الآن يقضى وقتا طويلا فى مشاهدة التليفزيون ، وفى الفصل حيث ينصت إلى المدرس ، ومن ثم فهو فى خطر فقدان

القدرة على التعبير عن نفسه عن طريق اللعب العادى ، وهذا أحد أدوار الدراما .. فهى تساعده على التغلب على هذه الخطورة .

والدراما تقوى الخيال لدى الطفل ، والخيال هو القدرة على بناء مواقف « فانتازيا » فى الذهن ، ولكن للخيال مهمة أخرى أكثر واقعية ، فعن طريقه يمكن للطفل إعادة تنظيم تجاربه والصور المتراكمة فى ذهنه وتحويلها إلى آراء جديدة بحيث يمكنه مثلا بعد رؤية صور للهند وللندن أن يتخيل رحلة جميلة بالطائرة إلى أى أو كل من البلدين .

والدراما هي الحركة وعن طريق الحركة يتعلم الطفل كيف يسيطر على جسمه وكيف يتعلم استعمال المكان ومشاركته مع الآخرين ويعرف أن لهم نفس الحق الذى له فى المكان ونفس حرية الحركة فيه وأن يحترم هذا الحق . ففى مكان مزدحم مثلا يجب أن يعرف كيف يسيطر على حركته ليعطى الفرصة للآخرين ، والدراما تساعده على ذلك وعلى التعرف على طرق التحرك وهذا من شأنه تنمية ثقته فى نفسه .

والدراما تدرب الطفل على الحديث وهو أكثر وسائل الاتصال فعالية ، ولكن يجب أن يتعلم كيف يوصل الحديث إلى الآخرين وكيف يعطى للكلمات تأثيرات حقيقية عن طريق نطقها الواضح القوى وكيف يعظم آراءه . وعن طريق الدراما يتعلم الطفل كيف يتعايش وكيف يختلط بالآخرين .

وكنت ألاحظ حفيدتى وأصدقاءها وهم يؤدون الحركات الدرامية التى كنت أشرحها لهم وفى نفس الوقت كنت أتركهم يختارون

الأدوار التى يريدونها وأراقبهم عن بعد وألاحظ مثلا أن حفيدتى وحتى بعد سن الخامسة كانت تريد أن تتقمص شخصيات مختلفة وكان أحب الأدوار إلى نفسها هى الأدوار المرتبطة بالأسفار ، ولعل سفرها الدائم من إنجلترا إلى مصر والعودة أثناء الإجازات هو الذى أعطاها أو أملى عليها تلك الأدوار .. كانت تلعب دور المضيفة الأرضية وهى تقطع لى (فأنا المسافر الوحيد) تذكرة الطائرة ، ثم تتحول إلى مضيفة أخرى فى المطار تزن حقائبى وتسألنى هل أريد مقعدًا للتدخين أو غير التدخين ، ثم تقوم بدور المضيفة الجوية وهى تقدم لى الطعام والشراب على متن الطائرة .. وكانت تقوم بكل هذه الأدوار بطريقة طبيعية تقلد فيها تماما الأدوار المختلفة .

ومن الألعاب التى كانت تغواها العرائس » وكانت لديها مجموعة من عرائس القفاز ، فكانت تقيم مسرحًا مثل خشبة الأراجوز ومن خلفها تحرك العرائس بطريقة رائعة وتقدم معها دراما من تأليفها .

الطفل والقراءة

حب الطفل للقراءة يعتمد اعتمادًا يكاد يكون تاما على حب والديه ومن حوله للقراءة ، فإذا نما الطفل فى بيت به مكتبة وشاهد أبويه يقرآن ولمّا كان للطفل رغبة دائمة للتقليد فهو يبدأ فى التعامل مع الكتاب . وقد جاءت حفيدتى لتجد أن أباها من القراء النهمين ووجدت حولها مكتبة رائعة بها المعاجم الإنجليزية والأمريكية والمصرية وكتب الأدب والتاريخ والقصص . فغرس ذلك فى نفسها حب القراءة وبدأت من سن مبكرة تقرأ .

ونحن نعرف أن هناك آراء متعددة حول القراءة ، فهناك من يعارض بدء القراءة مبكرا ولست هنا بصدد مناقشة الآراء المختلفة ، المهم هو إعداد الطفل للقراءة والتعليم ، وهذا الإعداد يعتمد على شيئين :

أولا : قدرة الطفل على ملاحظة الإيثار والتفرقة بينها .

وثانيا : شعوره حول نفسه والعالم المحيط به .

وهذا يحدث قبل ذهاب الطفل إلى المدرسة أو حتى الحضانة .

ويقول أحد العلماء فى مناقشته لعملية القراءة : إن الطفل فى سنواته الأولى يهتم بالمعمل وليس بالمكتبة ، بمعنى أنه يريد أن يجرب كل شىء بنفسه سواء بالنظر أو اللمس أو الإحساس أو الشم أو

المذاق . ومن المعروف أن التعليم يبدأ فى البيت ، بل إن البيت يمكن أن يحل محل الحضانة ، ونجاح الطفل فى المدرسة يعتمد على مدى إعداده لها فى المنزل .

وهناك آراء عديدة حول نوعية قراءات الأطفال سواء قرءوا هم أو قرأ لهم أحد الكبار .. فقد ظهرت نغمة جديدة تقول : إن حكايات الأطفال ما هى إلا أكاذيب يقتنع بها الطفل ، وأن أشهر القصص تعد من أكبر الأكاذيب ، فنرى مثلا أن قصة (بيتربان Peter Pan) المشهورة أو (أليس فى بلاد الأعاجيب) من أكبر الأكاذيب فى أدب الأطفال ، فهى مليئة بأطفال فى استطاعتهم الطيران وبها جنيات ومغامرات بعيدة عن الواقع .

وقصة بيتربان بالذات لها الآن أكثر من خمسين عاما وطبع منها مئات الطبعات ولا يزال ريعها الكبير يقدم إلى مستشفى جريت أور موند للأطفال حسب وصية مؤلفها ج .م بارى . وهذه ظاهرة تستحق التقدير من جانب كتاب الأطفال الإنجليز ، فهم يكتفون بقبض مكافأة الطبعة الأولى ثم يحولون دخل الطبعات الأخرى إلى مستشفى الأطفال .

ويقول الذين يعترضون على قصص الخيال : إنها تعود الطفل على الكذب ، ويطلقون على هذا النوع من الكتب « الخدعة الكبرى » ويقول أحد هؤلاء المعترضين كيف يطالب الطفل بالأمانة والصدق ونحن نشجعهم على الاعتقاد في الجنيات والخوارق .. ومن جانب آخر فالطفل قد يتعجب ويتساءل لماذا نعاقبه حين يكذب بينما نشجعه على قبول قصص خيالية ، هى أكاذيب كبيرة .

وقد وجدت البحوث أن الأطفال يحبون الكتب التى يستطيعون تمثيلها بعد قراءتها ، وكنتُ أجلس وأراقب حفيدتى وهى تقرأ ، كانت تجلس فى ركن مفضل عندها وفى مقعد خاص وتسبح فى عالم آخر ، عالم يحتضنها تماما ، فلا نكاد نشعر بها ولا هى تشعر بنا . وهذا دليل على نجاح القصة وهو أن يستحوذ المؤلف على الاهتمام الكامل للطفل وأن تستطيع القصة أن تجعله شاهد عيان لأحداثها .

وكتب الأطفال لها وجهان ، الكتابة والقراءة ، بمعنى أننا نريد الكتاب الذين يؤلفون وفى نفس الوقت القراء الذين يقرأون وهذه مهمة شاقة فى مصر ، فمن الصعب العثور على كتاب للأطفال ومن الأصعب إيجاد أو خلق جمهور القراء .

وفى الأسئلة التى توجه أيضًا فى إطار الطفل والقراءة هو : « من يختار كتاب الطفل ، الأب أو الأم أو الطفل نفسه » ؟ ، والواقع أنه حتى سن معين لا يستطيع الطفل أن يختار كتابًا بسبب الهوة الواسعة بين محصوله اللغوى المقروء والمرئى أو المسموع ، فهناك تفاوت كبير بين الاثنين مما يصعب على الطفل اختيار لذاته .

وهناك من يطالب بإيجاد رقابة على كتب الأطفال كما هو الحال فى فرنسا ، ولكن هناك من يعارضون ذلك وهم يرون أن الضرر الحقيقى هو تنمية ذوق ردىء فى الطفل وغرس قيم غير حقيقية ولكن فى نفس الوقت لا يجب أن نعطيهم كتبا جادة طوال الوقت بل يجب أن نعطيهم كما يقول ريتشارد أوامر مؤلف رواية « غرق السفينة المائية » بعض الكتب الهايفة من وقت لآخر .

الفكرة إذن هى تعويد الطفل على القراءة ، على الإمساك بالكتاب والإحساس بقيمته وبعد ذلك تأتى مرحلة الاختيار ، ولذلك فقد كنت دائما أعارض من يرون ضررًا بالغًا فى قراءة الطفل لكتب غير ذات قيمة ثقافية . لأنى أرى أن حب القراءة يأتى على مراحل آخرها عملية الاختيار وأول خطوة فى خلق هذه الروح هى حكاية القصص ، أولا شفهيا ثم بعد ذلك يمكن مصاحبة القصص بالكتاب وما به من صور تشرح القصة .. ومن أكثر برامج الأطفال نجاحًا فى التليفزيون البريطانى ذلك الذى يقدم القصص عن طريق الكتب ، فنجد مقدم البرنامج يبدأ فى قصته ثم تستعمل صور الكتاب فى شرح القصة .

ويقودنى هذا إلى برامج الأطفال وما يجب أن تكون عليه ، وقد وجدت بالتجربة مع حفيدتى أن مشاهدتها لبرامج الكبار أكثر من برامج الأطفال ، وقد اختلف هذا حين سافرت إلى لندن مع والدها الذى تولى منصبا هناك . وكنت أداوم زيارتهم وأتابع نمو حفيدتى . وقد وجدت أنها بعكس ما كان يحدث فى مصر ، تشاهد برامج الأطفال ولا تكاد تجد وقتًا لبرامج الكبار . وبدأت أشاهد معها ما يقدم للطفل هناك ، ولعل من الأوفق أن أقدم بعض مقتطفات من البرامج العديدة التى تقدم له وخاصة فى الإذاعة البريطانية BBC ..

لقد بدأ اهتمام الإذاعة البريطانية ببرامج الأطفال منذ البداية ، ومما يذكر عنها أن أول برامجها المنتظمة كانت النشرة الجوية وبرامج الأطفال . وقد وصف رئيس الإذاعة البريطانية هذه البرامج فى عام ١٩٢٣ على أنها بديل سعيد لفقر الشوارع والأحواش الخلفية ، وبدأت

الإذاعة البريطانية قبل ظهور التليفزيون برنامج « ساعة الأطفال » وكان ناجحًا إلى أقصى درجة ، وحين ذهبت إلى لندن للعمل ملحقًا ثقافيًا كنت أنصت مع ابنى إلى ذلك البرنامج الممتاز ، وكان إحدى وسائل تثقيف ابنى ، ولكن فى زياراتى له وهو يعمل فى لندن كان التليفزيون قد حل محل الإذاعة المسموعة .

والسؤال الذى يوجه دائما هو : هل فى ضوء التقدم التكنولوجى وظهور الكومبيوتر وغيره من الاختراعات الحديثة التى تعلم الطفل كيف يستعملها ، هل فى ضوء هذا لا تزال توجد حاجة إلى برامج خاصة بالأطفال فى الوقت الذى فى استطاعتهم اختيار قناة أو أكثر من العديد من القنوات الإذاعية والتليفزيونية ؟ ، وفى إنجلترا يوجد بالإضافة إلى ذلك محطات خاصة بالكابلات بالإضافة إلى الفيديو كاسيت وأسطوانات الفيديو .

لقد أظهرت البحوث فى إنجلترا أهمية برامج الأطفال ، وأن أطفال إنجلترا وعددهم ما بين الرابعة والخامسة عشرة سنة يزيدون على ٩ ملايين ، يداومون على مشاهدة برامجهم . وهناك أسباب لذلك لعل أهمها مستوى البرامج الذى لا يهزأ بعقلية طفل اليوم ، وأيضا التنسيق الموجود بين التليفزيون والمدرسة ، بحيث تصبح مشاهدة بعض برامج التليفزيون جزءًا من النشاط المدرسى اليومى .

وجلست مع حفيدتى فى لندن نشاهد معًا بعض برامج الأطفال وذلك فى المساء المبكر بعد عودتها من المدرسة ، وقد وجدت أنها

وصديقاتها وأصدقاؤها الذين يسكنون فى نفس العمارة يفضلون مشاهدة البرامج الكوميدية أو أفلام المطاردة وخاصة إذا كان أبطالها من الأطفال .

وقد دفعتنى هذه المشاهدة المشتركة مع حفيدتى وأصدقائها إلى محاولة معرفة سياسة برامج الأطفال فى إنجلترا وخاصة بالإذاعة البريطانية وقد خرجت بحقائق وتفصيلات هامة .

هناك إدارة خاصة بأفلام الأطفال وهى مسئولة عن ألف ساعة من العروض التليفزيونية منها ٥٠٪ من البرامج الجديدة و ٢٥٪ برامج معادة و ٢٥٪ برامج تم شراؤها . إن إنتاج برامج الأطفال فى الإذاعة البريطانية يشكل ٧٥٪ من برامج الأطفال وتبلغ ميزانيته السنوية ٣٠ مليون جنيه إسترلينى ، أى ٦٪ ، وأن متوسط تكاليف الساعة الواحدة من برامج الأطفال هو ٦٥,٠٠٠ جنيه إسترلينى ، وهو يقارن بتكاليف أية ساعة من برامج التليفزيون وهى ٧٣,٠٠٠ . وتتكون إدارة برامج الأطفال من حوالى ١٢٠ موظفا منهم ٤٠ مخرجا .

وكل يوم من الاثنين إلى الجمعة تقدم برامج فى كتلة واحدة فى BBC تمتد من ٥٠ :٣ إلى ٣٥ :٥ وأن الغرض هو تقديم خلال هذه الفترة خدمة تليفزيونية كاملة مهيئة لاحتياجات الأطفال من سن ٣ إلى ١٣ . ومن المهم أن نعرف أن هذه الخدمة التى تنتمى فعلا إلى هذا الجمهور ليست مجرد سلسلة من البرامج التى يعتقد الكبار أنها ستفيد الصغار . ولهذا فإنها تنتج البرامج الخاصة بهم وهى الدراما والشئون الجارية والأخبار وكوميديا المواقف والترفيه الحقيقى والتاريخ

الطبيعي والبرامج الموسيقية والتى تنتج على نفس مستوى برامج التليفزيون الأخرى ، كما أن الميزانيات سواء النقدية أو المصادر يجب أن تكون مشابهة للكبار . والحقيقة أن هذا ضرورى لأن الأطفال ينتظرون أن تكون برامجهم التى يشاهدونها قبل الساعة ٣٥ :٥ لا تقل طريقة وإتقانًا عن البرامج التى يشاعدونها بعد هذا الوقت ». (أى برامج الكبار) ومن أهم البرامج التى تقدم برامج صغار الأطفال أو ما قبل المدرسة . وهى تدوم ٣٥ دقيقة كل يوم من الاثنين إلى الجمعة ، وتتكون من سلستين « أيام اللعب » و « سى سو » ، أيام اللعب مدتها عشرون دقيقة تقدم خمسة أيام فى الأسبوع الساعة ٣٠ :١٠ صباحًا على BBC وهى تقدم إلى الأطفال من ٣ – ٦ وهو برنامج ينتمى إلى أطفال هذه المرحلة ويقدم لهم التسلية على مستواهم . والبرنامج يقدم شخصيات دائمة جذابة والتى يستطيع الطفل المشاهد أن يشعر بتقارب معها ، وبرنامج « يوم اللعب » هذا من إنتاج شركة مستقلة إلى برنامج سى سو See Saw فهو عنوان نوعى (عام) لعدد من البرامج التى تعرض على BBC فى الساعة ٢٥ :١ وبعض هذه البرامج مثل « ما الذى فى داخلى والفطيرة فى السماء ينتج فى أستديوهاتها بينما الـ Anima House . مثل ساعى البريد بات ويرثا وبيت بيتى تقدم من شركات إنتاج مستقلة ..

وهناك بالإضافة إلى ذلك بعض برامج الأطفال من ٤ – ٧ سنوابت ، وهى تعرض فى ٥٥ :٣ كل فترة بعد الظهر وتغطى موضوعات متباينة وأساليب مختلفة . ومن أحدث هذه البرامج « أركان Corners »

والتى ترمى إلى تشجيع حب الاستطلاع الطبيعى فى الأطفال والمشاركة وإجابة لبعض الأسئلة الفكاهية والجادة . وهناك برنامج « طريق أم أربعة وأربعين » وهى مسلسل عن الطبيعة بالإضافة إلى برنامج « التسلية » وهو يحتوى على « قطة هنرى » و « جمبو ومجموعته » و « الطائرة النفاثة » و « ميك وماك » و « روبى مدك » .

ولعله من الأوفق أن أعطى وصفًا لبعض هذه البرامج التى كان لى حظ مشاهدتها :

وقت اللعب : وهو يقدَّمُ منذ عشرين عاما ، ويقدم مزيجا غنيا فى برنامج يومى ، إن الغرض الأساسى من « وقت اللعب » هى أن تقدم إلى صغار المشاهدين برامج يومية يمكن أن تصبح جزءًا من حياتهم وتثرى تجاربهم . وقد لا يوجد شخص بالغ يشرف على الطفل ويشارك معه البرنامج بانتظام وحتى يستطيع أن يشارك بطريقة مباشرة . ولم تكن هناك أية توجيهات .. ولكن البرنامج كان يشجع على اللعب مع الألعاب Games والموسيقى الشعرية ، والقصص والأغانى والحركة والأصوات والرسم والملابس ، ويحاول هذا البرنامج أن يجعل الطفل يكتشف الأشياء ويصفها ويراقب ويسأل وينصت ويساعد . وأن يجرى تجارب مع الحياة والأشكال والأنسجة والحركة والصمت وأخيرًا أن يفكر ويتعجب ويتخيل – وقد تحول هذا البرنامج إلى برنامج آخر بنفس العنوان ، ولكنه يرمى إلى تنمية أغراض البرنامج الحالى .

الاثنين : « موقف تساؤل الطائر The Why Bird Stop »

الثلاثاء : « وقف حوش اللعب The Play Ground Stops » :

وهى برامج تبدأ بالطفل وهو يلعب وتنتهى به وهو يلعب أيضًا ويركز كل برنامج على النشاط الجسمانى .. تقوم به مجموعة من الشخصيات لا تتغير بقيادة طائر اسمه Sticky Beak .

الأربعاء : « برنامج The Dot Stop » :

وهى برامج ترمى إلى استكشاف الموسيقى والأرقام عن طريق الألغاز والألعاب التى تحتاج إلى عد والتعرف على الأشكال .

الخميس : « The Patik Stop » :

هذا البرنامج يركز على الهواء الطلق وفى كل برنامج نجد رقصة مختلفة بدءا بملعب فى المدينة إلى جزء من أحد الشواطىء أو يختار المكان الذى يريده .

الجمعة : « The Tent Stop » :

كل برنامج يحكى قصته ويشاهد الأطفال مجموعة من ٣ أو ٤ ممثلين وممثلات ، وهم يعدون إما الملابس أو المناظر أو الـ Props والمنظر عبارة عن خيمة بالإضافة إلى أجزاء مختلفة تساعدهم على خلق مناظر القصة سواء أكانت موقف سيارات متعدد الطوابق أو قصرًا أو سفينة فضاء .

حكاية قصة : « Storytelling » :

البرنامج الأساسى هو Jactarory وقد تمَّ عامه الـ ٢٥ فى عام

١٩٩١ ، والغرض منه تقديم أحسن القصص ، سواء أكانت كلاسيكية أو حديثة أو مكتوبة خصيصا للبرنامج . ويقص هذه القصص بعض الممثلين المعروفين والمتميزين ، وإذا كان هناك داع يقدم بعض المشهورين من فنانى الجرافيك برسوم شارحة وبرغم أن هذه القصص لا تصل إلى نفس مستوى القصص الذى يحكى فى البيت ، فإنها تحل محلها لملايين الأطفال الذين قد لا تتوفر لهم الظروف .

وهناك أشكال أخرى غير تقليدية لحكاية القصة . مثل ما حدث فى موليسبس التى قدمت فى ١٣ حلقة يقصها تونى روبسون (ممثل مشهور) بطريقة تلقائية نشطة بحيث يعطيها حياة خاصة .

ويقدم هذا البرنامج ما يسمى Mini-Drama (الدراما الصغيرة) وهى لصغار الأطفال – تقدم مرة كل أسبوعين فى حلقات مدة كل منها ربع ساعة . ويقدم البرنامج بعض الكتب فى صيغة دراما وسنقدم ستة كتب منها عام ١٩٩٠ .

ولم ينس البرنامج صغار الأطفال ، فهناك برنامج « مغامرات بانى » وفيه تقدم شخصية تتخيل نفسها فى مواقف مختلفة . كما قدمت سلسلة من الأنغام والأشعار التى نشرت فعلا ويقدمها طفل ومعه حقيبة فى صورة دب عروسة وكلها يتم تصويرها On Location وأحيانا ما يوجه النقد إلى التليفزيون بأنه يمنع الأطفال من القراءة ، وهنا يجب أن نقول إن برامج حكاية قصة قدمت عددًا كبيرًا من الكتب التى نشرتها هيئة الإذاعة البريطانية أو دور النشر بالإضافة

إلى أن المدارس وأمناء المكتبات يسألون دائما مقدما عن الكتب التى سيقرأها فى البرنامج لكى يوفروا عددًا كافيًا منها .

ويطلب البرنامج من الأطفال المساعدة فى كتابة القصص وذلك فى برنامج « ما هى قصتك » الذى سيقدم فى ٨ حلقات دراما حية وبعد تقديم الحدث تفتح أسلاك التليفونات للأطفال ليتصلوا بالبرنامج ويقدموا أفكارهم بخصوص نمو القصة . وحين قدم البرنامج الحلقة الأولى اتصل ٥٠ ألف طفل ، وقام فريق الإنتاج والممثلون باستعمال هذه الأفكار فى النص التليفزيونى ليذاع حيًّا فى اليوم التالى .

دراما الأطفال Children's Drama :

الـ BBC تقدم دراما على مستوى عال لا يصل إليه أى تليفزيون فى العالم ، إن عمق وحجم هذه البرامج قد صممت بحيث تواجه الاحتياجات المتغيرة وأذواق الأطفال من جميع الأعمار ومن الخلفيات الاجتماعية المتباينة ، وهى دراما توقظ فى الأطفال الحساسية والفهم ، قصص تخلص التعجب ومغامرات تثير مشاعرهم .

ويعتقد المنتجون أن الأطفال أثناء نموهم يحتاجون إلى تجارب فى خيالهم عن قصص غنية ومتباينة ، فلكى يفهموا الأخلاقيات مثلا فإنهم يحتاجون إلى معرفة الخير والشر ، ولكى يقدروا إمكانيات الروح الإنسانية وحدودها يجب أن تكون لديهم المكونات التقليدية من السحر والأشباح والجنيات ، ولكى يقدروا قيمة الحب والأمان يجب أن يتخيلوا أحيانًا عدم وجودها ، وفى تاريخها الطويل من

الإبداع قدمت الـ BBB برامج مميزة اعترف بها دويًا والفكاهة لها نصيب أيضًا فى البرامج ، والإنتاج يحتوى على جميع أنواع الفكاهة من الأعمال المجنونة الفوضوية إلى الكوميديا الهامة مثل :

جرانج هيـل Grange Hill :

مسلسل يقدم مرتين فى الأسبوع تدور أحداثه فى مدرسة مشتركة فى لندن ، وهو من أكثر البرامج شعبية يشاهده جمهور أطفال دائم يقدّرون بـ ٨ ملايين هم ٤٠٪ من جميع أطفال بريطانيا من ٤ – ١٥ سنة ، والبرنامج يصور فى استديوهات الهيئة ، ويتم اختيار الممثلين الصغار كل عام عادة من أندية مسرح الأطفال .والمسرح المدرسى فى لندن ، والأطفال الذين أقل من ١٦ سنة يسمح لهم بالعمل أياما محدودة خلال العام ، ولكن غالبيتهم يقضون نصف اليوم الذى يعملون فيه فى أعمال أكاديمية أحضروها معهم من مدارسهم .

وكل مسلسل يتكون من حوالى عشرين حلقة ، ويستغرق إعداده سنتين ، وكثير من القصص من اقتراح الأطفال أنفسهم فى المدارس ، وتقدم مجموعة من ٦ من الكتاب بتحويل القصص إلى نصوص ، وبعض هؤلاء الكتاب من المدرسين السابقين ، ويقوم مستشاران فى التعليم بمراجعة النصوص ونقدها .

والغرض الأساسى من Grange Hill هى حكاية قصص مسلية ، تقع أحداثها فى إطار معروف لدى الأطفال ويمكنهم التعرف عليه . وبالإضافة إلى ذلك توجد قصص تعالج بعض المشاكل الجادة مثل

عنف الأولاد والعنصرية والتبنى ، والهوجائية ، والجرائم الصغيرة ، والتخلف الجسمانى وإدمان المخدرات .

وقد وجه بعض الكبار النقد إلى سلسلة الإدمان على أساس أن رؤية سلوك الأطفال على الشاشة يعطى مثالا سيئًا للصغار .. وفى الحقيقة أن هذا البرنامج لم يخف من تقديم قصص قوية (أحسن اختيارها) برغم أن بعض المشاهير صغار جدًا ، وأن تقديم سلوك غير مقبول على الشاشة من وقت إلى آخر يلاقى عدم الموافقة ، ولكن يُرى دائما أن الأشرار والفتوات ينالون عقابهم فى النهاية ، إن الرسالة تكون دائما فى صورة أخلاقية ايجابية .

الأخبار والشئون الجارية News And Current Affairs :

يعد التليفزيون أهم مصدر للأخبار للجماهير عامة . ويصف الأطفال برنامج News Round على أنه « أخبارنا » .. وقبل ظهور هذا البرنامج عام ١٩٧٢ وجد أن الأخبار الوطنية كان يشاهده ٧٪ من الأطفال فقط ويصفونه بأنه ممل . أما برنامج أخبار News Round فيشاهده ٢٥٪ من جميع الأطفال أى حوالى ٦ ملايين طفل .

ويرمى البرنامج إلى تقديم أخبار ذات أهمية خاصة للأطفال عن موضوعات نبعت من أخبار من المدارس إلى العلوم وبعض الأخبار « الهايفة » وتقدم هذه بجوار أخبار ذات أهمية قومية ودولية بطريقة سهلة ..

وتقدم للأطفال News Rounds وهى عبارة عن تقارير يتم تصويرها

فى بريطانيا وحول العالم بالإضافة إلى News Red Spot وفيه تقدم موضوعات خاصة على سبيل المثال قدمت فيلما صور فى الصين عن الباندا .

والإنتاج تحت إشراف إدارة برامج الأطفال مع التعاون التام مع أخبار التليفزيون .

(للأطفال من سن ٤ – ١٥ سنة) Blue Peter :

مجلة للأطفال تصدر مرتين فى الأسبوع وقد أتمت فى يونيو عام ١٩٩٠ السلسلة إلى ٣١ ويشاهدها $\frac{1}{4}$ مليون مشاهد من الأطفال .. والمجلة لها شكل عام وبذلك تقدم مجالا واسعا من الفقرات وعلى سبيل المثال قدمت المجلة برنامجا للاحتفال بعيد ميلاد قطة تظهر فى البرنامج اسمها ويللو » تبعته بفقرة عن ونستون تشرشل بمناسبة ذكراه .

ويقدم البرنامج ثلاثة من المذيعين ومعهم مجموعة من الحيوانات المستأنسة ولكنه فى الفترة الأخيرة بدأ فى تقديم فقرات تهم الكبار من الأطفال ومنها موضوعات علمية وأدبية وفقرات عن الأطفال المعوقين .

ولكى يشرك البرنامج المشاهدين من الأطفال فإنه أعد شعارًا أو شارة اسمها شارة بلوبيتر الخضراء ، وهى تمنح للأطفال الذين يرسلون خطابات حول أى موضوع مرتبط بالبيئة من الزبالة إلى إعادة تخضير الغابات ، ولهذا استعمل اللون الأخضر . يصل إلى البرنامج مئات

من الرسائل مما يبين مدى الاهتمام بشئون البيئة . وقد أصدر البرنامج كتابا بعنوان « كتاب بيتر الأخضر » فى مارس ١٩٩٠ وبه ملخصات لأحسن الكتب التى صدرت عن البيئة .

وقد قدم البرنامج فقرة فى صور نداء (Appeal) عن موضوعات مختلفة منها نداء حياة الأطفال حديثى الولادة » ونتيجة لهذا النداء جمع الأطفال أربعين مليون علبة مشروبات فارغة لتباع ويخصص إيرادها لتمويل ٥٣ وحدة خاصة برعاية الأطفال الرضّع .

ولهذه الفقرة ثلاثة أهداف :

الأول : أن يسمح لكل مشاهد أن يشارك مهما كانت خلفيته ، وللإعلان عن قضايا معينة .

والثانى : لجمع التمويل اللازم .

والهدف الثالث : هو أقلها أهمية إذ أن الغرض الحقيقى هو مشاركة الأطفال .

ويسافر مقدمو البرنامج كل عام إلى دول مختلفة لإعداد سلسلة من الأفلام عن الدول الأجنبية .. وبالإضافة إلى هذا فإن الواجب الوطنى للبرنامج هو أن يعكس الحياة فى أنحاء بريطانيا ليعرف الأطفال بلادهم .. ويقدم البرنامج مقدمون يتحدثون بلهجات محلية مختلفة حتى لا يصبح انعكاسا للمدينة فقط .

وأهم ميزة للبرنامج هو تأكيده على المستوى المرتفع للأفلام واهتمامه بالتفصيلات وبالإخراج ، وهذا جزء من العقيدة بأن ما هو أفضل يجب أن يقدم إلى المشاهدين .

التسلية الواقعية Actual Entertainment :

الغرض منها أن تعطى الأطفال فرصة التفكير وهم يشاهدون ما هو مسلى ويقدم جونى بول Jonny Ball فى برنامج « فكر فى غدك » « فكر مرة أخرى » وأخيرًا « فكر فيها ثم افعلها » Think it, Doit »اعرف كيف Know How » وهو حول العلم والتكنولوجيا ، ويحتوى على التسلية والمعلومات ، وتدور أحداثه فى عالم المستقبل . وهناك برنامج اسمه Now, Then ، عن علم الآثار .

ويقدم روى كاسل Roy Castle وهو من كبار الممثلين برنامجا بعنوان « محطمو الأرقام القياسية Rccord Breakers عن الذين حققوا هذا فى المجالات المختلفة .

والأطفال تفتنهم الحيوانات وحياة البيئة وتقدم وحدة BBC . للتاريخ الطبيعى سلسلة خاصة بالأطفال ومنها العرض الوحشى الحقيقى Real Wild Show « وفيه يدعى الأطفال إلى الأستديو ليقابلوا حيواناتهم المفضلة وليتعرفوا على بعض الإحصاءات المثبتة والحقائق الغريبة .

وهناك برنامج يقدمه الفنان تونى هارت واسمه Hart Beat وهو تلاعب بلفظ Heart Beat (دقة قلب) وفيه يشجع الأطفال على

الاستمتاع بفن رسم الصور . ويستعمل الفنان الأشياء العادية والمواد ليشرح لهم التكنيك المختلف ويبين لهم أسرار تحويل الأفكار إلى صور . والبرنامج يرمى إلى المشاركة ويتلقى هارت كل أسبوع الآلاف من الصور يختار منها مجموعة يقدمها فى البرنامج .

وبرنامج جديد بعنوان « ما هذا الصوت What's That Noise وهو يختبر جميع أنواع التأليف الموسيقى ، وبرنامج رياضى بعنوان » حولها Move It يتحدث فيه الأطفال عن اهتماماتهم . ومن البرامج المحبوبة IpsoFacto وفيه يعمل الأطفال كمخبرين صحفيين يعالجون موضوعات خاصة بالمدرسة والأسرة .

التسلية الخفيفة Light Entertainment :

حين يعود الأطفال إلى منازلهم بعد يوم مدرسى شاق ، فإنهم يستحقون ضحكة وفرصة للاسترخاء ، ومن ثم يقدم لهم مزيجًا من الألغاز والبرامج الكوميدية . ولما كان هناك إحياء للاهتمام بالسينما بالإضافة إلى سهولة الحصول على الأفلام فى البيت بسبب انتشار الفيديو فإن برنامج « لعبة الأفلام The Movie Game برنامج الألغاز Quiz وفيه يختبر الأطفال معرفتهم عن الموضوع ويرون قصاصات من آخر ما يكتب عن الأفلام . وهناك برامج أخرى للألغاز .

أما البرامج الكوميدية فمنها Tricky Busines وهو مسلسل عالم السحر وفيه نرى عن طريق الدراما ومغامرات فى حانوت سحر الجيل التى تستعمل كما تشاهد بعض ألعاب السحرة .

وهناك برنامج Podger & Bodger وهو مسلسل كوميدى يقدمه آندى كنجهام وعروسه بادجر ، والمسلسل تدور أحداثه فى مدرسة حيث يعمل بودجر دون أية مساعدة من بادجر .

وبرنامج آخر بعنوان The Cuack Steam ويقدمه كيث هاريس وأورفيل وتدور أحداثه فى لونابارك حيث يقدم كيث وأورفيل بعض الألعاب والدردشة وقصص المغامرات والرقص والعروض الجانبية ، وهناك أيضًا كورل القرد الذى يزيد من عنصر الفكاهة .

وبرنامج كوميدى يقدمه اثنان من الكوميديين وتدور أحداثه فى فندق يدعى Dizzy Heights حيث يعيش بصفة مستمرة نزلاء من نوع أسرة Spitting Image (وهو برنامج للكبار) ولما كان الجو دائما سيئًا فإن بقية النزلاء يضطرون إلى عدم مغادرة الفندق ويحاولون إيجاد ما يفعلون .

البرامج المشتراة أو التى تتكلف الإذاعة بإخراجها : Commissiprice

تقدم برامج الأطفال ، تبعًا لتقاليدها تسلية من جميع أنحاء العالم وكذلك بالتعاون مع منتجين من داخل بريطانيا .

وتقدم البرامج سلاسل دراما حية من أستراليا وكذلك مسلسل جيد « لاسى » وبعض البرامج من كندا ، كما قدمت برامج من تشيكوسلوفاكيا Animation يعاد Aubbed وغيرها من Anininkan .

آخر الأسبوع والإجازات المدرسية

: Weekends and School holidays

لما كان صباح السبت يجد تقدم برامج الأطفال برنامجًا فى صورة مجلة بعنوان Muth followed Swap shoop يقدمه نويل ادموندز Noel Edmonds والغرض من البرنامج وضع التليفزيون على اتصال بالأطفال ، ومنها على سبيل المثال إعطاء الأطفال الفرصة لتوجيه أسئلة عن طريق التليفون إلى ضيوف بدءا بوزير التعليم إلى أشهر فنان Pop ويلتقى البرنامج مع أكثر من ٧٥ ألف رسالة بريدية كل أسبوع ومنها يتم اختيار مادة البرنامج ، والغرض من البرنامج أن يوفر للأطفال تسلية جيدة ومشرفة بطريقة ودية ومثيرة .

وخلال الصيف تقدم برامج الأطفال فى الشمال الغربى برامج صباح السبت وقد قدمت أخيرا Waterfront .

وهو برنامج حى يقدم من مانشستر فى صورة مجلة بها الكارتون والفيديو والمسلسلات وفيه يمثل الأطفال مشكلة ما ويطلب من المتفرجين اقتراح ما يقع من أحداث .

وفى صباح الأحد فى فصل الشتاء تقدم سلسلة من القصص المعادة من الدراما ومن برامج Blue Peter وهذا يعطى الأطفال الفرصة لمشاهدة ما قد يكون فاتهم من برامج .

وأثناء إجازة المدارس فى عيد الميلاد والصيف تقدم برامج إضافية فى الصباح بعنوان ، لماذا لا تغلق جهاز تليفزيونك وتذهب لتفعل

شيئا أقل مللا Why Don't you switch off your T .V . set and go and do something less Boring Instead .

وفيه تشجيع للأطفال أن يفعلوا هذا . ويقدم البرامج الأطفال وهو يعطى أفكارا لألعاب ونشاطات أرسلها الأطفال أنفسهم من جميع أنحاء البلاد .

ملاحظات عامة

من هذا نرى أن هناك اهتماما خاصًا وجادًا بالأطفال ينعكس في ميزانياته واختياره لأحسن مقدمي البرامج والمخرجين والممثلين :

- أول ما نلاحظه بعد ذلك هو طريقة إشراك الأطفال المشاهدين في البرامج وهناك نموذج في برنامج حكاية قصة : ما هي قصتك ؟ وفيه يتصل الأطفال تليفونيا بالبرنامج ليعرفوا كيف تتطور القصة التي قدمت .

- هناك تعاون تام بين المدارس والمكتبات وبرامج الأطفال ، وينعكس هذا في الطريقة التي تسأل بها المدارس والمكتبات عن الكتب التي ستقدم في برنامج « حكاية قصة » لكي يوفروا أعدادًا منها للأطفال .

- هناك شخصيات دائمة مرتبطة بالبرامج في صورة مقدمي برامج هم من الشباب من البالغين ويعاونهم أحيانا بعض الأطفال أو العرائس .

- التركيز على أهمية الخيال وتنميته لدى الأطفال بما في ذلك الخوارق والسحر والأشباح والجنيات .

- تقديم شخصيات خيرة وأخرى شريرة لكي يقدر الأطفال قيمة ما هو خير ، وهنا يذكر التقارير أن هناك آراء متباينة حول هذا الموضوع .

– تقديم برامج لتعريف الطفل ببلاده ومدنها وأقاليمها المختلفة واستعمال لهجات محلية فى تقديم بعض البرامج .

– تقديم برامج تعرف الطفل بالعالم حوله (العالم الخارجى) .

– عدم دوام الممثلين الأطفال أكثر من سنة وذلك لتفادى « النجومية » ولإعطاء الفرصة لأكبر عدد منهم فى الظهور فى برامج التليفزيون .

– التنويع الكبير فى مجلات الأطفال التى تقدم .

– استعمال Location والإقلال من البرامج التى تصور فى الأستديو .

– الاهتمام بالكوميديا والتسلية الخفيفة التى لا ترمى إلا إلى المساعدة على الاسترخاء والضحك .

وكما قلت كنت أجلس مع حفيدتى وكانت فى ذلك الوقت فى السادسة من عمرها نشاهد العديد من البرامج . وأول ما خطر لى هو هل تستطيع منة الله أن تفهم ما يقال ؟ حقيقة أن الصورة هى الغالبة فى برامج الأطفال ، ولكن هناك الحوار الأساسى الذى مهما قصر فهو فى حاجة إلى متابعة . وهذا يعتبر قضية هامة مرت على مرتين وهى قضية « الازدواج اللغوى » . كانت المرة الأولى مع ابنى حين كنت أعمل فى لندن ملحقا ثقافيا . ولقد ولد ابنى هناك واستمر عملى فى لندن لمدة اثنى عشر عاما ، أى أن ابنى عاش هناك عشر سنوات . لقد ولد فى بيئة يتحدث فيها الجميع اللغة الإنجليزية ، ولكنه فى نفس الوقت مصرى لغته هى العربية وهى اللغة التى يسمعها

فى البيت . وكانت المرة الثانية مع حفيدتى وإن كنت فى هذه المرة لم أكن مشاركًا مشاركة كاملة فى المشكلة إذ كنت أجىء وأروح ولكنها مشكلة واجهت ابنى وزوجته .

وإنى أذكر بعد ولادة ابنى أن أستاذى فى جامعة لندن ، وكان أستاذ اللغويات ، طلب منى أن أقوم ببحث على ابنى وازدواج اللغة أو ما يسمى bi-lingual ، ولكنى اعتذرت إذ شعرت مثل الجراح الذى يرفض القيام بجراحة لابنه أو زوجته . ومشكلة الازدواج اللغوى تواجه الآن العديد من الدول ولكن لعل أكثرها خطورة فى الولايات المتحدة وبالذات مع العنصر الإسبانى ، إذ من المعروف أن نسبة من هم من أصل إسبانى مرتفعة جدًّا ، وليس هنا مجال مناقشة هذه المشكلة إلا فى حدود انعكاسها على حفيدتى ومن قبلها ابنى .

حقيقة أن حفيدتى كانت تذهب إلى إحدى مدارس اللغات ، وكانت فى ذلك الوقت تدرس المناهج فيها باللغة الإنجليزية ، ولكنها كانت تعيش فى وسط مصرى خالص يتحدث أفراده فيه اللغة العربية . كان أصدقاؤها مصريين سواء فى المدرسة أو فى النادى أو فى العمارة التى تسكن فيها ، وكنت حين أقص عليها وعلى أصدقائها الحكايات كان ذلك باللغة العربية ، ولكن فى لندن كانت المشكلة مختلفة ، فهى تسكن فى عمارة سكانها إما إنجليز أو أجانب يتحدثون الإنجليزية ، وهى تذهب إلى مدرسة إنجليزية تلاميذها إنجليز ومدرسوها إنجليز ولا تسمع فيها كلمة عربية واحدة .

ومن ثم كان من الطبيعي أن الاتصال ينقسم مناصفة بين لغتين الإنجليزية والعربية إذ أن والديها كانا يتحدثان معها باللغة العربية فى المنزل ، ولكن حديث البيت بالعربية لا يكفى ، فغالبية وقتها سواء فى الدراسة أو فى اللعب تقضيه فى حديث باللغة الإنجليزية . وهناك سؤال يوجه دائما وخاصة فى حالة الأطفال الأجانب الذين يولدون فى بلد أجنبى كما حدث مع ابنى ، والسؤال هو : متى يمكن البدء فى استعمال اللغة الأخرى مع الطفل ؟ ، وقد رد أساتذة علم النفس على ذلك بأن ذلك يبدأ قبل الولادة ، فإذا ما ولد الطفل ووجد اللغة الإنجليزية هى لغة الحديث والتفاهم ، فإنها ستبقى دائما لغة الأسرة ، أما إذا وجد العربية هى اللغة السارية فإن العربية ستصبح لغته الأولى .

وهناك بعض المشاكل التى تواجه هؤلاء الأطفال ذوى الازدواج اللغوى وأذكر هنا حين خرجت مع حفيدتى فى لندن إلى أحد المتنزهات الخاصة بالأطفال حيث توجد ألعاب لهم من كل الأصناف . وهناك كانت منة الله تقابل أصدقاءها من الأطفال الإنجليز الذين يتسابقون ، كمثل الأطفال عامة ، على استعمال تلك الألعاب ، وكانت حفيدتى كلما سبقها أحد الأطفال تشكو لى باللغة العربية مما أثار دهشة الأطفال الإنجليز بما هو معروف عنهم من عدم معرفة أية لغة أجنبية . وجاءنى أحدهم وسألنى : هل تفهم منة الله هذه اللغة العربية ؟ ، وهنا شعرت بهذه المشكلة ، عدم التحدث بلغة أجنبية أمام الإنجليز ، إذ يعد هذا « قلة ذوق » وقلت لحفيدتى آنذاك إنه إذا تحدثنا بالعربية ، يجب أن تشرح لأصدقائها ما تقول ..

ولا تقف المشكلة عند اللغة فقط ، ولكن تتعداها إلى الثقافة والفنون عامة . هل ستسمع حفيدتى أغانى عربية أو أغانى إنجليزية وهل ستستطيع أن تستمتع بكل فن الموسيقى العربية والأجنبية ، أم هل ستركز على ما تقدمه الإذاعات والتليفزيون الإنجليزى ؟ إن الخلفية الثقافية كلها معرضة للتغيير وإلى التكيف بالظروف والبيئة التى يعيشها الطفل . ولذلك كنّا دائما نرسل لابنى تسجيلات أغانى مصرية بل ولبعض المسرحيات المصرية وقد ساعد ذلك كثيرًا على حفاظ حفيدتى بكل من اللغة العربية والثقافة المصرية ويبدو هذا حين تأتى إلى مصر فى إجازات ، فهى تغير تغيرًا جوهريا وتصبح طفلة مصرية مائة فى المائة .

الطفل والطبيعة

من الأقوال المأثورة عن هنرى دافيد ثورو « أن الأرض ليست للاستعمال بقدر ما هى للإعجاب » ، أى أنه يجب علينا أن نستمتع بالأرض أى بالطبيعة ، ولا نفكر فقط فى استغلالها . والطبيعة هى الزهور الجميلة والطيور التى تطير برشاقة راقصات الباليه ، هى النسمة الحلوة تهب على الجبين فترطبه ، وهى الأشجار تخضر فى الربيع وتصفر فى الخريف ، إن الطبيعة تحنو علينا من وقت إلى آخر وتقسو علينا أيضًا ، تفتح أسرارها لنا إذا نحن فعلا نظرنا لها بتمعن وتزيح لنا الستار عن حياة أوسع وأغنى من مشاكل الإنسان .

وعلينا أن نقدم الطفل إلى الطبيعة أو الطبيعة للطفل ، فكيف نفعل ذلك ، كيف نغرس فى الطفل حب الطبيعة واحترامها والحفاظ عليها ، ليس فقط لأننا فى عصر ينادى فيه الجميع بحماية البيئة وإنما لأننا جزء من الطبيعة ، حياتنا مرتبطة بنبضها وبموسيقى الكون الخفية التى لا يسمعها إلا من يقترب من الطبيعة .

وليس هناك أفيد من التجربة المباشرة للمعرفة ، فقد يقرأ الطفل وصف الطبيعة فى الكتب المدرسية أو قد يسمعها من المدرس أو الوالدين ، ولكن ليس هناك ما هو أكثر فعالية من المشاهدة والتعايش . وفى الغرب هناك أسس وتدريبات وألعاب خاصة بتعريف الطفل

على الطبيعة وبمحاولة خلق نوع من المشاركة الوجدانية بينهما . يجب أن يشاهد الطفل النهر والجبل والشجرة والطيور والحيوانات ، كل ما يكون الطبيعة ، يجب أن يشاهدها ويلمسها وليس فقط يقرأ وصفها .

إن دور الأب أو الجد ، هام فى عملية التوليف بين الطفل والطبيعة ، ويجب عليه أن يشارك الطفل تجربة الطبيعة وعن طريق هذه المشاركة للأفكار والأحاسيس يمكننا أن نخلق فى الطفل حب الأرض واحترامها . وفى تعاملنا مع الطفل يجب أن تكون لدينا القدرة على التلقى بمعنى أن ننصت باهتمام لكل ما يقوله الطفل ويسأله ويشعر به ، يجب أن نجيب على كل سؤال يسأله وننصت لكل تعليق يقوله وأن نغذى فيه حب الاستطلاع ونقويه وأن نحترم أفكاره .

واستكشاف الطبيعة يأتى بالمشاركة ، فيأخذ الأب أو الجد الطفل إلى حديقة أو متنزه أو إلى الريف ، ويعيشا التجربة معًا . والطفل له القدرة على إغراق نفسه فيما يشاهده حوله وأن يصبح جزءًا منه ومن النادر أن ينسى الطفل تجربة مباشرة ، وقد كنت أحيانا أتعجب من تذكرى لبعض تجاربى حين كنت طفلا ، أى منذ أكثر من ستين عاما ، ولكن برغم مرور هذه السنوات العديدة فإن بعض تلك الأحداث لا تزال حية فى ذهنى .

ومن الأسس الهامة فى تجربة الطبيعة أن نجعل الطفل ينظر ويجرب أولا ثم يبحث ، فسواء كانت التجربة لمعرفة الزهور والأشجار أو

الطيور أو الحيوانات فلنترك الطفل يشاهد أولا ويعيش المشاهدة وبعد ذلك يمكن تولى الشرح وتلقى أسئلة الطفل .

وهنا يذكرنى كيف بدأ حب حفيدتى للطيور .. عندنا شرفة واسعة بها مجموعة من الشجيرات والزهور وأمام الشرفة عامود نور . وكانت حفيدتى تأتى إلى فى الصباح الباكر ونخرج إلى الشرفة وفى أحد الأيام شاهدنا عصفورًا صغيرًا يخرج من ثقب في عامود النور وكان من الواضح أن العصفور أقام عشه هناك ، وأصبحت مراقبة هذا العصفور واجب يومى تراقبه وهو يخرج ويصير ثم يعود بقشة يدخلها بصعوبة فى ثقب العامود ، ثم بدأ يزيد اهتمامها فكانت تضع الحبوب فى طبق وتتركه فى الليل فى الشرفة وتأتى فى الصباح الباكر لتجد أن الحبوب اختفت ، وخطوة خطوة بدأت تنتظر العصافير وتقدم لها الحبوب بنفسها ، ثم بدأت تسأل أسئلة مختلفة عن العصافير وحين تعلمت القراءة بدأت تقرأ عن العصافير وهكذا .

وأذكر أيضًا أنها بدأت تراقب شجرة كبيرة أمام منزلنا بل إن بعض فروعها كانت تغطى سور الشرفة . وشرحت لها أن الشجرة مخلوق حى يأكل ويشرب ويتنفس وبدأنا معًا نراقب الشجرة ونمت صداقة بين حفيدتى والشجرة وعن طريق مراقبة الشجرة عرفت حفيدتى الفصول ، ففى الربيع تزدهر الشجرة وتخضر أوراقها بينما فى الخريف تصفر الأوراق وتملأ أرض الشرفة وكانت تسير فوق الأوراق الصفراء الجافة وتسمع فرقعتها تحت حذائها ، وهكذا عن طريق الشجرة عرفت الفرق بين الربيع والخريف وبين الصيف والشتاء ، وكانت

تلك التجربة المباشرة أبقى وأفيد بكثير من القراءة فى الكتب المدرسية عن تغير الفصول .

وكانت تجربة الطبيعة الأخرى فى الريف ولن أنسى حين أخذت حفيدتى إلى ضيعة أحد الأصدقاء ، وهناك وجدت منة الله نفسها فجأة بين أحضان الطبيعة : الحقول الخضراء التى تمتد على مدى البصر ، والحيوانات بجميع أنواعها من بقر وجاموس وماشية ، والطيور من دجاج وإوز وبط وغيرها من المخلوقات التى أنعم بها الله على عباده .

كان من الطبيعى أن تشعر حفيدتى بنوع من الاغتراب دفعها إلى الانطواء ، فهى لم تتعود على هذه الطبيعة المنبسطة وذلك الخلاء الذى لاحد له . كان كل ما جربته شرفة بيتى بما فيها من شجيرات قليلة ولم تعرف من الفضاء إلا فى النادى الذى كنت أصطحبها إليه كل يوم جمعة حيث الخضرة قليلة والزهور تكاد تكون معدومة والمياه التى تعرفها هى تلك التى تملأ حمام السباحة .

وحين اقترب منها بعض أبناء الفلاحين الذين يعيشون ويعملون فى ضيعة صديقى نظرت إليهم بشىء من التعجب ، نظرت إلى جلاليبهم وأقدامهم الحافية ، فالجلابية بالنسبة إليها هى رداء النوم والسير بدون حذاء كانت تعاقب عليه . وتركتها وحدها مع هذه المجموعة من أطفال القرية وظللت أراقبها من بعد وسرعان ما ذاب الجليد وبدأت حفيدتى تلعب معهم وكأنما تعرفهم منذ سنين وبدأت أقارن بينها

كنموذج لطفل المدينة وبين ما نسميه الآن بطفل القرية فشعرت بالفارق الكبير بينهما .

وليس هذا الفارق فى صالح طفل المدينة كما قد يتخيل البعض ، وتذكرت قصة كنت قد حكيتها لحفيدتى عن عصفور طائر وعصفور فى القفص ، الأول يبحث عن طعامه ويطير من مكان إلى آخر وعصفور القفص مدلل يأتيه أكله ومشربه إلى القفص وينظف القفص كل يوم ، فمن منهما أسعد من الآخر .

إن طفل القرية فى رأيى ، يتمتع بما لا يتمتع طفل المدينة بجزء قليل منه ، وأنه يعيش فى أحضان الطبيعة ، تطلع عليه الشمس فنجده مستيقظًا نشطًا وليس فى حاجة إلى من يوقظه ، يذهب إلى مدرسته إن كان فى سن الدراسة ، فيسير على قدميه طويلا ليصل إليها أو يذهب إلى عمله فى الحقل إن كان قد انتهى منها ، إن عملية تثقيف طفل القرية تبدأ منذ ولادته ، يتربى مع نباتات الحقول وفاكهتها ومع صغار الحيوانات الأليفة والطيور ، يكبر معها ويلاحظ نموها وهى إن كانت بها الروح لراقبت تلك المعجزة الإلهية ، معجزة الخلق والنمو واستيعاب المعرفة .

ثقافة طفل القرية واسعة ، فهو يعرف عن بيئته كل صغيرة وكبيرة ، يعرف موسم البذور والرى ومواسم جنى المحصول ، ويعرف النباتات المختلفة وهو اسم نموها ، معرفة مباشرة وليس عن طريق كتاب أو مدرس أو أكثر من ذلك ، يشاهد فى الحيوانات سر التكاثر الذى

نحاول شرحه إلى طفل المدينة بشتى الطرق المعقدة أو بمزيج من الأكاذيب والترهات مثل وجودنا الطفل أمام باب الجامع مثلا ..

وقد جعلنى ذلك أتساءل ، حين نقول ونكتب عن العناية بطفل القرية ماذا نعنى ؟ وما الذى يحتاجه حقًا طفل القرية ؟ وما الذى نستطيع أن نقدمه إليه ؟ ولعل حفيدتى أجابت على هذه الأسئلة من قبلى وبطريقة تلقائية ، فقد وجدتها تقص عليهم قصص الأفلام التى نشاهدها فى التليفزيون أو التى نقرأها فى كتب الأطفال أو التى كنت أحكيها لها . قصص عن الحيوانات وميكى ماوس وأليس فى أرض العجائب ، وكان أطفال القرية ينظرون إليها مشدوهين وكأنها جاءت من كوكب آخر .

ثم جاء دورهم فى القيام بدور القصاص أو شاعر القرية ، سمعتهم يقصون عليها ولادة شاة صغيرة وكيف حدثت ويصفون لها كيف كبرت الصغيرة حتى أصبحت خروفًا كبيرًا وحكوا لها عن الزرع والحيوانات وأحضروا لها بعض ما صنعوه من تماثيل من الطمى وتذكرت حينها الصديق الراحل حبيب جورجى وتجربته مع أطفال القرية فى نحت التماثيل . كان التضارب واضحًا حتى فى الألعاب ، حفيدتى تصف لهم لعبها التى اشتريناها من لندن أو وشنطن وهم يعرضون عليها لعبة الحكشة أو الميسى .

وسألت نفسى من منهما أسعد من الآخر ، ولم أستطع الإجابة على هذا السؤال ، إن احتياجات طفل القرية هى احتياجات القرية

نفسها إنها احتياجات أساسية ومحددة ، الرعاية الصحية والتعليم ومياه الشرب والكهرباء وتوفير الصناعات الزراعية ، احتياجات تؤدى إلى رفع مستوى ونوعية المعيشة وذلك من شأنه أن ينعكس على الأطفال . وقد دفعتنى تجربة « منة الله فى الريف إلى الإحساس بضرورة خلق وسيلة تجمع بين طفل القرية وطفل المدينة ، بحيث يعرف كل منهما الآخر ويعرف كيف يتشاركان فى الحياة .

وقد دفعنى ذلك إلى خط آخر من التفكير وسألت نفسى سؤالا هاما : هل الجامعات الإقليمية والإذاعات المحلية ، مسموعة أم مرئية ، مفيدة حقا ؟ أليس عن طريقها تقوى الروح المحلية ومن ثم روح العزلة ؟ ، إن أهداف تلك الخدمات والمنشآت . كما ورد فى قوانينها هى تأكيد الطابع المحلى ، وليس هناك شك فى أن كل محافظة لها طابعها ، ولها عاداتها وتقاليدها ، فكيف نصل إلى المعادلة الصعبة وهى الحفاظ على الطابع المحلى مع خلق إحساس بالانتماء لمصر . ولكن هذا موضوع آخر .

وأعود الآن إلى حفيدتى . لقد أصبحت زيارة الريف بالنسبة لها من العادات المنتظمة وبدأنا معًا عملية اكتشاف جديدة ، اكتشاف للطبيعة . وقد أدى ذلك إلى نمو ثقافة حفيدتى وبدأت تهتم بالنباتات والزهور فى منزلها وفى منزلى ، وطلبت من والدها شراء بعض « قصارى » للزر ، وكانت تروى بنفسها تلك النباتات والزهور فتعلمت تصنيعها طلبت كلبًا صغيرًا وبمعنى آخر بدأت ثقافة القرية تختلط بثقافة المدينة المسورة وكانت النتيجة إثراء للجانبين .

وهنا أقول للمنادين بالاهتمام بثقافة طفل القرية ، أولا حددوا مفهوم الثقافة التى تريدون تقديمها إليه ، وثانيا لا تحققوا ذلك الاهتمام فى عزلة ولا تعاملوا طفل القرية على أنه كما يقول المثل الإنجليزى يتيم العائلة ، بل اهتموا به فى الإطار العام للطفولة ولا تجعلوه يبدو وكأنه معرض لغز ثقافى من المدينة . قدموا له الخدمات الأساسية التى يحتاج إليها هو ومجتمعه ، ثم حققوا نوعًا من التبادل الثقافى مع طفل المدينة حتى لا ننظر إليه وكأنه ظاهرة عجيبة تحتاج إلى دراسة .

خاتمة

هذه كما ذكرت ، تجربة خاصة وإن كانت مزيجًا من القراءات والتعايش المباشر .. كانت عملية اكتشاف واستكشاف .. عشت فيها تجربة النمو ، ذلك الإعجاز الإلهى الذى نأخذه أحيانًا كأمر مفروغ منه . وقد أردت من هذا الكتيب أن ألفت نظر الآباء إلى ضرورة الاهتمام المباشر بأطفالهم وأهمية مراقبة نموهم ، فهم أقدر من أى شخص آخر ، مهما وصل ذلك الشخص من علم سيكولوجى ، على التعامل مع أطفالهم .

والكتيب به أيضًا رسالة إلى الجدود للمساهمة فى تربية أحفادهم ، ولا يعنى هذا تدخلا فى سياسة الوالدين وإنما فى القيام بدور خاص لا يستطيع أحد آخر القيام به .

فهرس الموضوعات

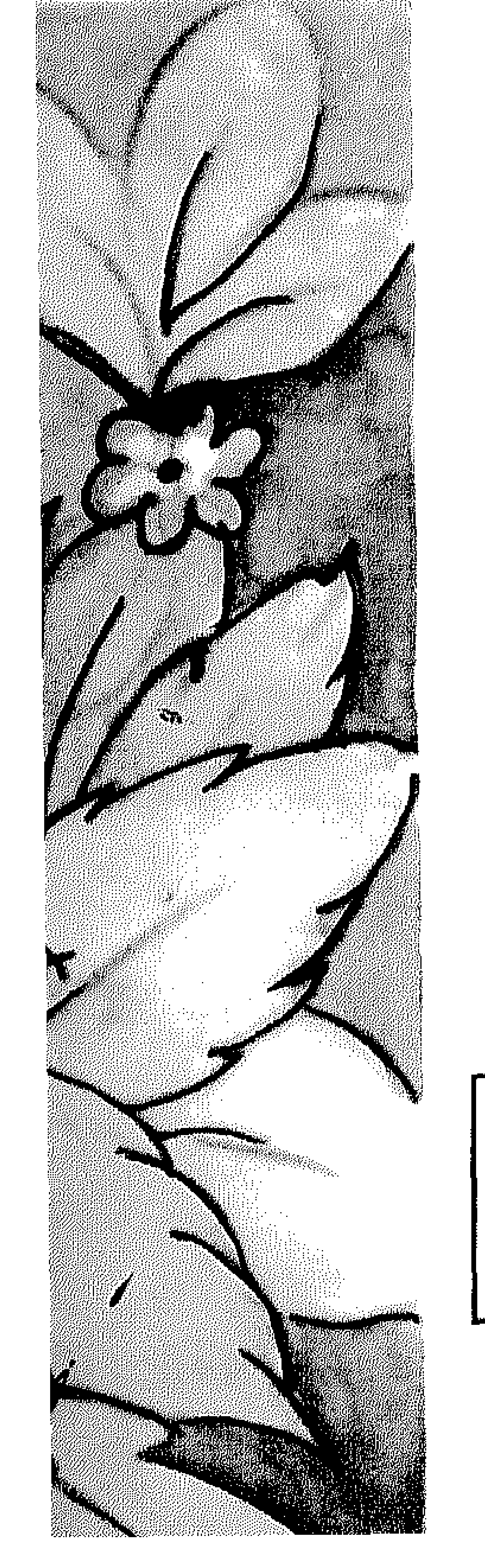
رقم الإيداع		١٩٩٥ /٤٠٢٦
الترقيم الدولى	977 – 02 – 4929 – 7	ISBN

١ / ٩٣ / ٦٣ طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

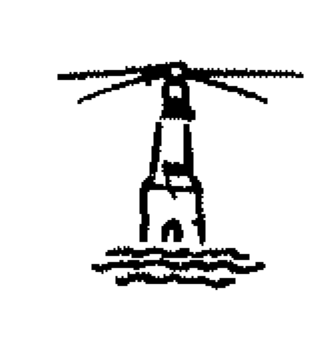
أطفالنا .. أكبادنا تمشى على الأرض .. لهذا فإن ما نقدمه لأطفالنا فى أى مرحلة عمرية .. يمتد بظلاله ونتائجه عليهم عندما يكبرون ويشاركون فى بناء المجتمع ..

وتربية الطفل عملية مستمرة فى البيت والمدرسة والشارع والمجتمع .. ويجب ألا تتم بطريقة عشوائية .. وإنما بأسلوب مدروس .

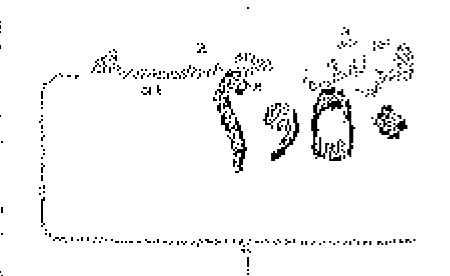
من أجل هذا نوجه هذا الكتاب للآباء .. من خلال هذه التجربة الحية فى تربية الطفل .



١٧٣٠٠٣



دار المعارف

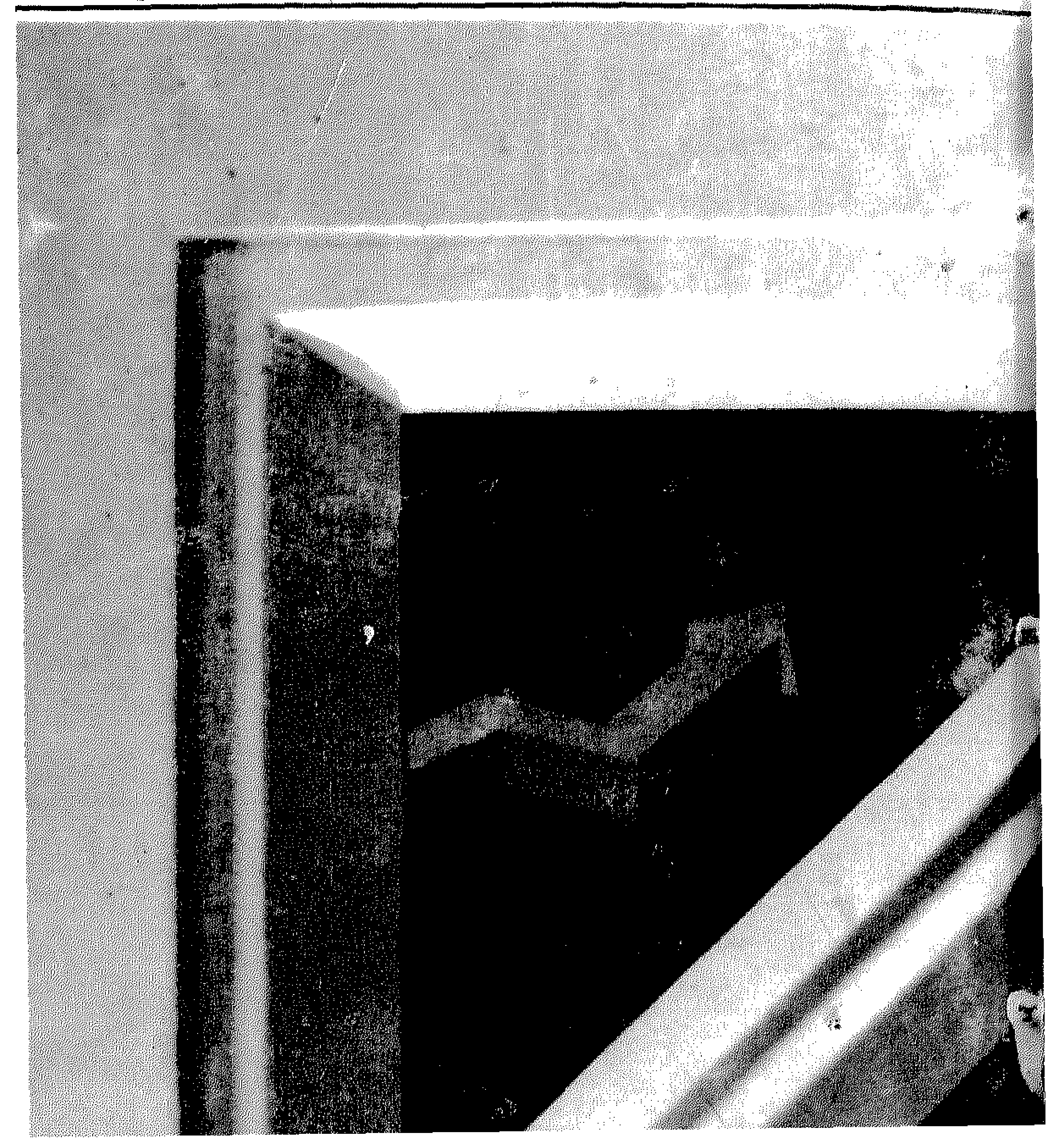


اقرأ

دكتور نبيل راغب

العلم تجربة روحية

سلسلة ثقافية شهرية تصدر عن دار المعارف - العدد رقم ٦٠٢ - سبتمبر ١٩٩٥



اقرأ

[٦٠٢]

رئيس التحرير: رجب البنا

الغلاف للفنان : **محمد إبراهيم**

إهـــداء

إلى المحلِّقين بأجنحة العقل
صـــوب آفـــاق الروح
أهـدى هـذه الانطـلاقة

نبيل

مقدمة

لعل من أخطر السلبيات التى تعتور مسيرة عصرنا الراهن أنّ الانفصال بين العلم المادى والإيمان الروحى أصبح قضية تكاد تكون شائعة وراسخة ، سواء بين المشتغلين بالعلوم الطبيعية والإنسانية ، أو بين المتخصصين فى الروحانيات ، وقد اشتكى العالم والطبيب والفيلسوف المعاصر ألبرت شفايتزر من هذه الظاهرة فى كتابه « فلسفة الحضارة » عام ١٩٢٣ حين قال :

« فى عصرنا هذا لا يلقى الفكر عونًا من العلم ،فقد أصبح العلم يقف مستقلاً قائمًا برأسه في مواجهة الفكر ، لا يحفل به ، بل إن المعرفة العلمية الحديثة جدًا ، أصبحت تقترن بنظرة إلى العالم تخلو من كل تأمل فكرى وروحى ، فهى تنادى بأنها لا مَعنى إلا بتقرير الوقائع الفردية ، لأن بهذه وحدها يمكن للمعرفة العلمية أن تحتفظ بطابعها العلمي ، أما التنسيق بين مختلف فروع العلم ، واستخدام النتائج لإيجاد نظرية فى الكون ، فهذا ليس من شأنها فيما تقول ، وقديمًا كان كل رجال العلم مفكرين لهم شأنهم فى الحياة الروحية العامة لعصرهم ، أما عصرنا فقد اكتشف

كيف يمكن فصل المعرفة عن الفكر ، وعلى هذا أصبح لدينا علم حر ، ولم يكد يبقى لدينا علم يتأمل » .

والواقع أن روح العلم المادى وطبيعة الإيمان الروحى تؤكدان أن الربط بينهما ، ليس على سبيل الجمع بين الأضداد كما قد يتبادر للذهن التقليدى لأول وهلة ، لأن الإيمان قد يكون الامتداد العضوى للعلم ،وقد يكون العكس ، أى العلم الامتداد العضوى للإيمان ، وخير دليل على هذا المفهوم تحليل الفيلسوف المادى ماكس فيبر فى كتابه « صنعة العلم » عام ١٩١٩ ، الذى أثبت فيه بما لا يدع مجالاً للشك العلاقة العضوية بين العلم والإيمان ، فهو يوضح أن العالم الذى لا يؤمن إيمانًا فعليًّا بالهدف من أبحاثه العلمية لن يستطيع الوصول إلى هدفه مهما كانت عبقريته العلمية ، إذ أنه بدون الإيمان لن ينجح أى عالم فى أن يكون مبدعًا خلاقًا بالمعنى الصحيح فى ميدان تخصصه ، لأن مجرد الاعتماد على آليات المنهج العلمى ، سيحيل عقله الخلاق إلى آلة صماء لا تقيم اعتبارًا للكيان الإنسانى داخله ، ولهذا فإن الإيمان هو المصدر الرئيسى للأخلاقيات فى العلم ، وإجباره على الانحياز إلى سعادة الإنسان ورفاهيته ، فليس من العبقرية العلمية فى شىء أن يعكف عالم فى معمله سنوات طويلة لكى يخرج على العالم بعد ذلك باكتشاف قد يدمر الحضارة الإنسانية فى ساعات معدودات ، بل إن ماكس فيبر يثبت ضرورة الإيمان ، الذى يمنح الإلهام ليس فقط للعالم بل للمشتغل بالتجارة والصناعة والزراعة وغيرها من مختلف أنواع النشاط الإنتاجى .

ونحن عادة ما نعبر عن مفهوم الإيمان فى هذا المجال أحيانًا بالإلهام ، وأحيانًا أخرى بالموهبة ، وأحيانًا ثالثة بالعبقرية ، ورابعة بالنظرة الثاقبة .. إلخ . يقول ماكس فيبر فى هذا الشأن :

« تخطر لنا الأفكار متى طاب لها هى ذلك ، وليس حين يطيب لنا نحن ، وتطرأ أفضل الأفكار والنظريات فى ذهن العالم بذلك الأسلوب الذى يصفه ايهر بنج بقوله « عند القيام بتدخين سيجار فوق الأريكة » ، أو كما يصرح هلمهولتز عن نفسه بدقة علمية : « حين نقوم بنزهة فى شارع ينحدر ببطء » أو بطريقة مماثلة من تلك الطرق التى تتيح للعالم لحظات من التجلى ، دون أن يعمل لها حسابًا ، وهذه اللحظات تؤكد أن المنهج العلمى ليس السلاح الوحيد فى يد العالم ، بدليل أن الأفكار تأتينا عندما لا نتوقعها ، وليس بالضرورة أثناء جلوسنا فى هدوء إلى مكاتبنا لإعمال الفكر وصولاً إلى نظرية معينة ، أو خلال قيامنا بالبحث العلمى الدقيق ، فمن المؤكد أن الأفكار والنظريات ما كانت لتخطر على الذهن ، لو لم يتميز نشاطنا العلمى بإيمان قوى وتفان انفعالى وهدى متحمس .

وبصرف النظر عن هذه الاعتبارات جميعًا ، فإن المشتغل بالحقل العلمى يجب عليه أن يعمل حسابًا لعنصر المفاجأة الذى يدخل فى كل عمل علمى بصرف النظر عن منطقية المنهج العلمى التى تعتمد على الارتباط الميكانيكى بين الأسباب والنتائج ، فالمنهج العلمى لا يقدم الدليل السابق على احتمال هبوط الإبداع والإلهام على العالم من عدمه ، فقد يكون العالم عبقريًا ، ومع ذلك تجد أن تطبيقه الحرفى للمنهج العلمى

المسبق لا يساعده على التجلى بمعنى الحصول على فكرة قيمة ومبتكرة من بنات أفكاره .

الإيمان المتحمس للعالم :

هنا تبرز ضرورة الإيمان المتحمس للعالم ، وهو الإيمان الذى يبتكر ويضيف بعيدًا عن الآلية البحتة التى لابد أن تكرر ما سبق الوصول إليه وتحقيقه ، والحق فإنه لا توجد ريادة فى أى مجال بدون إيمان ، ومن الخطأ الفادح أن نعتقد أن هذه الحال وقف على العلم وحده ، أو بأن الأمور فى مكتب للأعمال التجارية ، مثلاً ، تختلف عنها فى معمل للتجارب العلمية ، فرجل التجارة أو الصناعة الكبير لا يمكن أن يكون كبيرًا بدون إيمان يجلب الأفكار المبتكرة والخواطر الجديدة إلى ذهنه .

ولا شك فإن الإلهام من أكبر الدلائل على وجود الإيمان فى حياتنا ، ووجوده فى حقل العلم لا يلعب بأية حال من الأحوال دورًا يفوق - كما يخيل للغرور الأكاديمى - دوره فى مجال التغلب على مشكلات الحياة العلمية ، بواسطة مقاول أو مهندس ناشىء مثلاً ، ومن ناحية أخرى ، وهذا مما يساء فهمه وتفسيره فى أغلب الأحيان أيضًا ، فإن الدور الذى يلعبه الإلهام الروحى فى العلم لا يقل عن دوره فى مجال الفن ، إنها لحماقة صبيانية حين نعتقد بأن عالم الرياضيات يتوصل إلى أية نتائج ذات قيمة من الناحية العلمية بمجرد جلوسه إلى مكتبه مستخدمًا المسطرة أو الآلات الحاسبة ، أو غير ذلك من الوسائل الآلية ، وخيال

العالم الرياضى يختلف تمامًا من حيث هدفه والنتائج التى يصل إليها عن خيال الفنان المبدع ، كما يختلف الاثنان فى نوعية الخيال وكيفيته بصورة أساسية ، ولكن العمليات والمسارات السيكلوجية فإنها لا تختلف عند الاثنين ؛ فكلاهما نشوة روحية تصل إلى هوس الدراويش ، وحالة من التجلى الذى يعشقه المتصوفة » .

وبهذا يؤكد ماكس فيبر على أن حصولنا على الإلهام العلمى أو عدمه يعتمد على مصائر تخفى علينا ، تمامًا مثل اختيار الله لإنسان من البشر لكى يبعثه نبيًّا ، ولذلك يعد العلم فى جوهره تجربة روحية ، مما يذكرنا بما جاء فى كتاب رينيه ويج « الفن والروح » الذى يتحدث فيه عن النظرة العلمية التى نظر بها الدارسون الأكاديميون إلى النشاط الروحى للإنسان منذ عصر النهضة ، والتى انتهت فى عصرنا إلى نوع من التخصص العلمى ، هذه النظرة الجافة هى الأزمة الحقيقية لإنسان القرن العشرين لأنها فصلت بين عقله وروحه ، وجعلته يعانى من انفصام مزمن فى الشخصية .

والعجيب أن كبار علماء الرياضة والطبيعة والكيمياء والأحياء وغيرها من العلوم الطبيعية ، يعترفون بخطورة هذا الجانب الروحى فى نشاطهم العقلى ، فى حين يتشدق مدعو العلم الحديث بأنهم لا يعترفون بمثل هذه التجربة الروحية ، وذلك فى الوقت الذى نجد فيه عالمًا رياضيًّا كبيرًا ، مثل بونكاريه يربط بين عملية الإبداع العلمى ونشوة الإلهام الروحى فى كتابه « العلم والمنهج » ،

وهو بصدد اكتشاف رياضى هام (الدالة الفوكسيانية) ،لقد قضى أسابيع يبحث عن وسيلة للتعبير عن ذلك الاكتشاف ، كان هناك ثمة إحساس لا يعرف كنهه ، ولكنه يشعر به برغم امتلاكه للمنهج الرياضى الذى يخضع كل الأفكار لمنطق صارم ، كان كالتائه أو المتصوف الذى بلغ مرحلة عالية من التجلى لا يجد لها تفسيرًا علميًا مقنعًا ، وإذا به ذات يوم ، وهو يضع قدمه على سلم الأتوبيس المسافر فى رحلة جيولوجية وقد طرأت على ذهنه فكرة دون إعداد لها من أفكار سابقة ، وهى أن التحولات التى تميز الدالة الفوكسيانية ، تماثل ما يحدث فى الهندسة اللا إقليدية ، ولم يستطع بونكاريه تحقيق تلك الفكرة الفجائية لانشغاله فى الأتوبيس بأحاديث الصحاب والزملاء ، ولكنه كان واثقًا مما توصل إليه ثقة المتصوف فى الأحاسيس التى تجتاحه من حيث لا يدرى ولا يعلم .

ويقول ليشزوفتش ، عضو أكاديمية العلوم الفرنسية ، الآراء نفسها بما يكاد يتفق وكلام بونكاريه ،فيؤكد أنه أيا كان الإلهام الروحى لعالم الرياضيات فهو يبدع ويزن الأمور بإحساس رياضى متجانس لحساسية الموسيقى والمصور ، والرياضى فى هذا فنان يستلهم أكثر منه عالم يفكر ، يناجى نفسه مناجاة تختلف اختلافًا كبيرًا عن التخاطب التقليدى أو التفكير العقلى ، إنها مناجاة حبلى بالالهام الروحى المبدع ، بالإدراك الداخلى المبتكر ، كأنها الإرهاص الذى يجتاح الشعراء قبل إخراج القصائد إلى حيز الوجود .

الديانة الكونية :

ويعترف آينشتاين بأن أى عالم لا يستطيع أن يبدع دون أن يعتنق ما يسميه « بالديانة الكونية » ، تلك الديانة التى تملأ قلب كل عالم انقطع للتأمل فى ذلك التناسق البديع ، بين قوانين الطبيعة وما يخفى من عقل جبار لا حدود له ، هذا العقل اللا نهائى الذى لو اجتمعت كل أفكار البشر إلى جانبه ، لما كونت غير شعاع ضئيل خافت قد يتلاشى إلى لا شىء إذا زاد من اقترابه منه ، فالمكابرون وحدهم هم الذين يرفضون الاعتراف بمحدودية العقل البشرى ، ولكنهم لا يعلمون أن العوامل التى أدت بعلماء الطبيعة مثلاً إلى الشك فى نظام الكون الميكانيكى ، كانت نتيجة طبيعية لاكتشافهم التركيب الداخلى للذرة ولإدراكهم أبعاد الكون الشاسعة ، التى لا يمكن سبر غورها بالعقل البشرى المحدود ، فمن الصعب للمحدود ان يدرك أبعاد اللا محدود ، هذا إذا كان له من الأبعاد ما يمكن إدراكه فعلا كأبعاد .

وقد حاول العلماء إدراك الآفاق الداخلية والخارجية للمعرفة فى مطلع القرن الحالى من خلال نظريتين مهمتين : إحداهما النظرية الكمية التى تهتم بالوحدات الأساسية للمادة والطاقة ، والنظرية الأخرى هى النسبية التى تهتم بالفضاء والزمن وتركيب الكون كوحدة ، وكل نظرية منهما تصف ظواهر طبيعية فى مجالها الخاص بمعادلات رياضية متماسكة ،لكنهما لا يجيبان على السؤال التقليدى « كيف » وهو السؤال الذى ارتآه نيوتن ، كما أن نيوتن لم يستطع الإجابة على سؤال « لماذا » الذى ابتدعه أرسطو ، ولكن النظريتين تعطيان معادلات تعرف

بدقة القوانين الخاصة بالإشعاع وانتشار الضوء ، ومع ذلك لم يستطيعا الوصول إلى حقيقة العملية الميكانيكية التى تتبعها الذرة فى إشعاع الضوء ، أو فى انتشار الضوء فى الفضاء ، بل بقيت هذه العملية من أعمق أسرار الكون ، وبالمثل فإن القوانين المتصلة بظاهرة النشاط الإشعاعى ، مكنت العلماء أن يتنبئوا بمقدار ما تفقده كتلة معينة من اليورانيوم فى فترة محدودة من الزمن ،ولكن الإنسان لم يستطع مع هذه القوانين أن يعرف أى الذرات تتحلل أو كيف يقع الاختيار على هذه الذرات المتحللة ، وبقيت هذه الأسئلة غامضة على الإنسان حتى الآن .

وفى كتاب لينكولن بارنيت « الكون ودكتور آينشتاين » الذى نشر عام ١٩٤٨ ، يوضح المؤلف مدى التخبط الذى وقع فيه العلماء عندما ظنوا أن العقل العلمى هو السلاح الوحيد الذى يستطيعون به تحقيق أى شىء وكل شىء . يقول بارنيت :

« عندما قبل العلماء وصف الكون بطريقة المعادلات الرياضية وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الابتعاد عن الطريقة التجريبية وطريقة العلم بالحواس ، ولإدراك أهمية هذا التراجع لابد أن نحدد الخط الفاصل بين الطبيعة وبين ما وراء الطبيعة ، والأسئلة التى تدور حول العلاقة بين الإنسان والحقيقة ، وبين الموضوعية والذاتية ، فهذه هى الأمثلة التى جذبت العلماء والفلاسفة والمفكرين منذ فجر التفكير الإنسانى ، فمنذ ثلاثة وعشرين قرنًا كتب العالم الإغريقى العظيم ديموقريطس يقول : « الحلاوة والمرارة ، البرد والدفء وكل الألوان ، كل هذه الأشياء توجد

فى الخيال الإنسانى ، وليست فى الحقيقة المطلقة ،ولا يوجد فى الحقيقة إلا الجسيمات والذرات الثابتة ، وأثر حركاتها فى الفضاء » . وقد كان جاليليو يدرك ذاتية المميزات لصفات الحواس مثل اللون والطعم والرائحة والصوت ، وأوضح « أنها لا يمكن أن ترجع إلى الأشياء الخارجية بل إنها مثل الألم الناشئ من لمس هذه الأشياء » ، وقد حاول الفيلسوف الإنجليزى جون لوك أن يتغلغل إلى أعماق الحقيقة ولبها ، وذلك بتعيين الحد الفاصل بين ما أسماه الصفات الابتدائية والصفات الثانوية للمادة ، ولذلك فإنه اعتبر الشكل والحركة والصلابة والخواص الهندسية صفات حقيقية أو ابتدائية كامنة فى الجسم نفسه ، فى حين اعتبر الصفات الثانوية مثل الألوان والأصوات والذوق مجرد إسقاط على أجهزة الحواس ، وقد بدأ واضحًا لكل من جاء بعده من المفكرين مدى التصنع فى هذا التحديد » .

وقد قال الرياضى الألمانى لايبنتز :« إننى أستطيع أن أبرهن على أن الضوء والألوان والحرارة وما شابهها ليس إلا صفات خارجية ،ليس هذا فقط ، بل تنضم إليها الحركة والشكل والسعة ، وكما أن حاسة البصر تفيدنا أن كرة الجولف بيضاء ، فكذلك الرؤية عن طريق حاسة اللمس تفيدنا على أنها مستديرة ناعمة وصغيرة ، وهذه كلها صفات لا ظل لها من الحقيقة المستقلة تمامًا عن حواسنا ، شأنها فى ذلك شأن تلك الصفة التى اتفقنا على تسميتها باللون الأبيض » .

ومن هنا وصل العلماء والفلاسفة تدريجيا إلى الاستنباط المدهش ، وهو أنه لما كان كل جسم عبارة عن مجموعة صفات ، وحيث أن

الصفات يدركها العقل ، فإن كل الكون الموضوعى المكون من مادة وطاقة وذرات ونجوم لا يوجد إلا نتيجة لشعورنا وإدراكنا ، أى أنه عبارة عن بنيان ضخم من الرموز الاصطلاحية تقيمه حواس الإنسان ، وكما قال بيركلى عدو المادية اللدود :

« إن أصوات الكون وكل ما يملأ هذه الأرض من أجسام وأشكال تكون الإطار العظيم للدنيا ، كل هذا ليس له مادة إلا فى عقلنا ، وطالما أنه لا يمكننى إدراكها بنفسى ولا توجد فى عقلى ، فإنها إما أنها لا توجد على الإطلاق أو أنها توجد فى عقل روحى أبدى لا يخضع لحدود العقل البشرى وقيوده المادية القاتلة » .

معنى الفضاء والزمن :

وقد توسع آينشتاين فى هذا الاتجاه من المنطق ووصل به إلى أبعد حدوده حين بيّن أن الفضاء والزمن ، ما هما إلا أشكال وصور من الإلهام الذى لا ينفصل عن الإدراك مثلهما فى ذلك مثل الألوان والأشكال والأحجام ، فالفضاء ليس له حقيقة موضوعية إلا أنه نظام أو تنظيم للأشياء التى نراها فى هذا الفضاء ، وكذلك الزمن ليس له وجود مستقل إلا فى حدوث الحوادث التى نقيسه بها » .

ويلجأ علماء الكون إلى الصمت أو التخبط أو التخمين عند بحث منشأ الكون وبدايته ، ويتركون معظم المجال للفلاسفة ورجال الدين ، لكن آينشتاين الذى انتقدت فلسفته العلمية ودُفِعت بأنها فلسفة مادية مَلمُوسة يقول :

« إن أجمل الأحاسيس وأعمق العواطف هي تلك التي نتعرض لها عند بحث الخفايا ، لأنها تؤدي إلى العلم الحقيقي ، وكل من ينكر هذه الأحاسيس ، ولا يتعرض للدهشة أو للرهبة ، فإنه يعتبر في عداد الأموات ؛ والمؤمنون هم الذين يعلمون أن هناك أشياء تخفى على علمهم ، وهذا هو غاية الحكمة وأقصى درجات الجمال المشع التي تستطيع حواسنا القاصرة إدراكها » .

وفي قول آخر أكد آينشتاين على ضرورة الجانب الروحي وقوة دفعه لانطلاق فكر العالم :

« إن الإيمان هو أقوى وأنبل نتائج البحوث العلمية ، وديني يشتمل على الإعجاب المتواضع بتلك الروح العليا غير المحدودة ، والتي تكشف في لمحات خاطفة عن بعض التفاصيل القليلة التي تستطيع عقولنا المتواضعة إدراكها ، وهذا الإيمان القلبي العميق ، والاعتقاد بوجود قوة حكيمة عليا نستطيع إدراكها خلال ذلك الكون الغامض يلهمني فكرتي عن الحكمة الإلهية » .

وفي عام ١٩١٤ نشر الفيلسوف الإنجليزي برتراند راسل بحثًا له بعنوان « الصوفية والمنطق » عالج فيه موضوع الصوفية كمنهج علمي ، آثره عديد من الفلاسفة منذ الإغريق حتى عصرنا الحاضر ، وكمجموعة من الاعتقادات الروحية والمثالية ، كما ناقش في هذا البحث إمكانية وجود علاقة بين الصوفية كتجربة ذاتية ، والعلم بما يدعو إليه في منهجه من موضوعية خالصة ، وقد أوضح راسل أن بعض كبار العلماء والفلاسفة

قد أمكنه أن يجمع بين النزعة الصوفية والمنهج العلمى ، ورأى فى ذلك الجمع والتوفيق بين الاتجاهين ، سموًا فكريًا ، جعل من أصحابه فلاسفة بالمعنى الدقيق للكلمة ، ونظرًا لإيمان راسل العميق بالمنهج العلمى فقد استخدم التحليل الدقيق فى بحثه هذا لحالات الصوفية ، ومعتقداتها المثالية ، واستطاع أن يستخلص للصوفية ، على مر العصور واختلاف الأمكنة خصائص عامة ، بحيث إذا وجدت هذه الخصائص فى فلسفة ما ، فإنه يمكن أن نصفها بأنها صوفية .

وقد أراد راسل بهذا البحث عن « الصوفية والمنطق » أن يوضح إمكان استفادة العالم من التجربة الصوفية التى تجعل الروح والعقل فى تفاعل مستمر ، ولذلك يؤكد بشدة على أن الصوفية زاخرة بالحكمة التى يمكن أن يستفاد منها ، والصوفية لا تهرب من مواجهة الحياة بل هى موقف تجاه الحياة يحاول استيعابها بكل تناقضاتها وصراعاتها وأبعادها المتعددة ، ولذلك يمكن للاتجاه الصوفى أن يغنى المنهج العلمى بما فيه من روح التأمل الحاد والرغبة فى النفاذ إلى الحقيقة العليا ، ويجد راسل أن هذه الحقيقة الجوهرية قد وجدت لنفسها تجسيدًا حيًا فى كل من هرقليطس وأفلاطون .

مبدأ التغيير الشامل والمتصل :

كان هرقليطس من أكثر الفلاسفة الإغريق إيمانًا بالمنهج العلمى الذى يقول بأن العالم كله قائم على مبدأ التغيير الشامل والمتصل ، وقد أوحى ذلك إلى هرقليطس بالقول المأثور عنه الذى ينسبه إلى أفلاطون وهو :

« إنك لا تنزل النهر الواحد مرتين لأن مياهًا جديدة تجرى من حولك باستمرار » ، ومع ذلك ينزع هرقليطس نزعة صوفية عندما يقول : « نحن ننزل ولا ننزل فى النهر الواحد (من حيث إن مياهه تتغير باستمرار) ، نحن نوجد ولا نوجد من حيث إن الفناء يدب فينا فى كل لحظة » ، فبالمقارنة بين هذه العبارة الأخيرة – والتى اعتبرها راسل صوفية – وبين تلك التى ذكرها أفلاطون وهى علمية ، يتضح أن النزعة الصوفية والمنهج العلمى قد امتزجا فى مذهبه ، فمثلاً نجد أن الحتمية العلمية هى التى أوحت إليه بهذه العبارة « خلق الإنسان مقدر عليه » ، لكن الصوفى وحده هو الذى يمكنه القول : « كل حيوان يساق إلى المرعى قسرًا » ، « الحكمة واحدة ، أن نعرف العقل الذى يحرك كل شىء فى كل شىء » ، ويعتقد راسل أن هذه الأمثلة كافية للتدليل على طبيعة فكر هرقليطس الذى وجد فى العلم تجربة روحية من طراز فريد ، فإن حقائق العلم كما تبدت له غذت شعلة روحه ، وعلى ضوئها استطاع أن يرى أعماق العالم ، وهذا قمة السمو العقلى الذى يمكن أن يتحقق فى مجال الفكر ، ولذلك يشيد راسل بما دعا إليه الدين فى مجال المعرفة من إفساح دائرة التأمل ، والدعوة إلى التحرر من الشواغل العملية ، والاعتماد على الروح الموضوعية .

ووحدة الوجود التى يدعو إليها الإيمان هى نفس هدف العلوم الحديثة بكل فروعها ، وقديمًا قال أفلاطون منذ أكثر من ثلاثة وعشرين قرنًا من الزمان : « إن كل محب للمعرفة لابد أن يجرى وراء سرها ، فلن يرتاح إلى تعدد ظواهرها التى هى فى الحقيقة

ظاهرية فقط » ، وفي صراع الإنسان لكشف الحقائق وفي فهم تعدد مظاهر الطبيعة التي يعيش فيها ، يحاول الوصول إلى حدود نهائية معينة ، لكن العقبات التي تعوقه دون الوصول للحقيقة تنذره بعدم الوصول إلى قلب الأشياء ،وقد قال أفلاطون : « إن دنيا الرؤية مثل بيت السجن » ، وكل طريق سلكته العلوم للهروب من هذا السجن يؤدى دائمًا إلى مسالك غامضة من الرموز والألغاز والتأملات اللا نهائية ، وهذا يرجع إلى قصور العقل البشرى .

ضرورة التجربة الروحية :

هنا تبرز ضرورة التجربة الروحية فى مساندة العقل للوصول فى النهاية إلى منهج يؤكد علميًا وحدة الوجود ، ذلك أن جميع الصور التى تخيلها الإنسان عن العالم ، وكل تأملاته المجردة عن الحقيقة ، كلها تتجه فى النهاية إلى الوحدة ، ولذلك تعد نظرية المجال الموحد بمثابة الهدف الأسمى لكل العلوم ، وهى النظرية التى عرفها آينشتاين بأنها استخدام أكبر عدد من الحقائق العلمية واستنباط القواعد المنطقية ، من أقل عدد من الافتراضات والأوليات » . وبالتالى فإن أهمية التوفيق بين الطرفين ، وضرورة توحيد الآراء ، والرغبة الملحة فى اختراق مظاهر الحياة ، ليست هى أساس العلوم الحديثة فحسب ، بل إنها أرفع ما يسمو إليه العقل البشرى ، فإن الفيلسوف والصوفى ورجل العلوم كلهم كانوا دائبى العمل والبحث والفحص كى يصلوا إلى كشف أسرار الحياة الغامضة

ولكن أقصى ما يستطيع أن يصل إليه العقل البشرى من معرفة هو التصور الناتج عن تعريف العلاقات بين الأشياء ووصف حوادثها ، ولكنه لن يستطيع بمفرده أن يعرف حقيقة « طبيعة » الأشياء وكنهها ، وكل ما وصل إليه العلم الحديث هو حقيقة واضحة ، وهى أنه كلما توصل إلى حل لغز من ألغاز الحياة الطبيعية وجد نفسه أمام لغز آخر من ألغازها العديدة ، وكل وسائل الفكر والذكاء ، وكل سبل النظريات والتخمينات والتأملات تؤدى بالإنسان فى النهاية إلى هاوية لا يستطيع مع كل ذكائه وفكره أن يتخطاها بحكم القيود العديدة التى تكبله ، وكلما تقدم فى أفق علمه أدرك الحقيقة التى رآها العالم الطبيعى ينلز بور فى قوله :

« إن الناس إما ممثلون أو متفرجون فى مسرحية وجودهم ، فالإنسان هو نفسه أكبر أعجوبة غامضة فى الحياة ، فهو لا يدرك كنه نفسه ، فهو لا يعلم إلا القليل من أمر العمليات العضوية فى جسمه ، ويعلم الأقل من ذلك فى شئون عقله وقدرته على فهم الدنيا التى تحيط به ،بل قدرته محدودة فى التعليل وفى التخيل ، بل إنه يكاد يكون عاجزاً عن فهم أنبل وأعجب خصائصه ، ألا وهى قدرته على السمو بنفسه وإدراك كنهها فى عملية التصور والتخيل » .

وتبرز ضرورة التجربة الروحية فى مجال الممارسة العلمية فى أن أكبر عقبة كأداء تعترض الإنسان فى بحثه عن المعرفة اليقينية ،

هو أنه نفسه عبارة عن مجرد جزء لا يتجزأ من الحياة التى يسعى لمعرفة حقيقتها والإلمام بكل جوانبها ، فإن جسمه الذى يعجب له وعقله الذى يفاخر به ، هما من عناصر الغموض الذى يحيره بالفعل ، وهو يجد نفسه وسطًا بين رحابة الكون ودقة الذرة ، ويجد العقبات المختلفة فى كل اتجاه من هذين الاتجاهين ، فلا يسعه إلا أنه يعجب بقدرة الخالق الذى خلق كل شيء ، وجعلنا نعلم حقائق الأشياء المرئية من الأشياء الخفية ، وهو علم لا يتأتى إلا من خلال التفاعل العضوى بين الممارسة العلمية والتجربة الروحية .

الفصل الأول

فجر الوعى الروحى وتطوره

يستشهد نورمان بريل فى كتابه « عقل الإنسان المتنامى » الذى نشر فى نيويورك عام ١٩٥٥ ، بقول أحد الشعراء عندما يوضح أن الإنسان روح غذاؤه الإيمان ، كما يستشهد بمفهوم علم الحيوان الذى يؤكد أن الإنسان حيوان ضخم ، عار ، منتصب القامة ، يمشى على قدمين ، وله مخ كبير ، فيرى بريل أن كلا الشاعر وعالم الحيوان غير مخطئين فى نظريتهما لأنها وجهان لعملة واحدة ، فالإنسان روح وحيوان ، ولابد أن نخسر كثيرًا إذا أغفلنا واحدًا منهما ، وذلك برغم أن عقولنا تعانى من غشاوة تجعلنا كمن يحمل مشعلاً فى مكان مظلم بحيث لا يرى سوى ذلك الجزء الذى يضيئه المشعل ، ولا يستطيع أن يرى شيئًا مما وراءه ، وإنه لمن العسير أن نعرّف بشريتنا نفسها تعريفًا يعتمد فقط على ما يميزنا عن بقية الحيوانات ، لكن إذا كان للحيوانات روح ، فإن القضية تتمثل فى مدى تفوق الإنسان على غيره من الناحية الروحية ، بحيث يساير هذا التفوق مكانته الحقيقية فى هذه الحياة .

أما نورمان كزينز فى كتابه « من يتصدى للدفاع عن الإنسان ؟ » فقد كتب يقول :

« إن الكون نفسه لا يسترخص الحياة ، فالحياة أمر نادر الحدوث فى بلايين المجرات والأنظمة الشمسية التى تشغل الفضاء ، وفى مجموعتنا الشمسية الخاصة لا توجد الحياة إلا على كوكب سيار واحد ، والحياة على هذا الكوكب تتنوع إلى ملايين الأنواع ذات الأشكال المختلفة ، ومن بين هذه الملايين من الأنواع ، لا يوجد إلا نوع واحد ، وهو الجنس البشرى ، له مواهب معينة مجتمعة معًا جعلته يمتاز امتيازًا ساحقًا على كل الأنواع الأخرى . وإحدى هذه المواهب ذكاء مبتكر يمكن الإنسان من التأمل والتنبؤ والتكهن ويجعله يتمكن من الإحاطة بالخبرات السابقة ، ويتصور خلجات المستقبل ، وثمة مواهب أخرى لا حصر لها ، لاتزال بعيدة عن إدراك المنتفعين بها ، وهى مواهب الأمل والضمير وتقدير الجمال والألفة والحب والإيمان » .

وهذا الوعى الروحى المعاصر لم ينشأ فقط فى العصور الحديثة بل تعود جذوره الأولى إلى فجر الوعى الإنسانى ذاته ، فإذا رجعنا إلى عصور ما قبل التاريخ ، سنعثر على ما يدل على أن الإنسان فى ذلك الماضى البعيد لم يكن أقل منا اهتمامًا بتلمس ملامح هذا الوعى الروحى ، وأبلغ دليل على ذلك ما هو وارد فى سفر التكوين عن الخلق وتطوره ، ومع ذلك لم نكتسب مزيدًا من العقل أو الحكمة ، وإن كنا قد اكتسبنا مزيدًا من الخبرة .

إننا كبشر نتكلم بلا نقطاع ونفكر أفكارًا غريبة وعجيبة ، وهذا من خصائص البشر ، لكن هناك خاصية أخرى تمتد جذورها إلى عهود موغلة فى القدم ، ويرى كثيرون أن هذه الخاصية هى ، أكثر من أية

خاصية أخرى ، أعظم أمجادنا ومعقد آمالنا : وهى التى عناها الشاعر الإنجليزى ووردزورث عندما كتب أن العالم الروحى يحيط بنا فى طفولتنا ، ولم يدر وهو يكتب هذه القصيدة الشهيرة التى أعلن فيها أن الطفل هو أبو الإنسان أنه كان أقرب إلى الحقائق البيولوجية ، ففى مرحلة ما فى الماضى ، انحرف خط تطور الإنسان بحيث لم يعد اهتمامه منصبًا على مقدار ما اكتسبه من الخصائص ، التى ميزته على غيره من المخلوقات ، بقدر ما انصب على الوقت الذى اكتسب فيه هذه الخصائص ، ويرى نورمان بريل أننا نأتى إلى هذه الدنيا ببطء ، وننمو ببطء ، ونصل إلى كامل نضجنا متأخرين عن أى مخلوق آخر ، مما له - سواء أنظرنا إلى الماضى أم إلى المستقبل - دلالة كبرى .

إن ما تم اكتشافه حتى الآن من العظام التى تمثل الماضى السابق للبشرية ، ابتداء من ظهور الثدييات إلى نهاية فترة ما بين العصور الثلجية الكبرى من الندرة بمكان ، ومع ذلك توضح لنا بصورة مجملة شيئًا من القصة المثيرة التى حدثت ، وكل ما نعلمه هو أن الإنسان فى نهاية المرحلة الثلجية الثالثة انسحب من الأراضى التى عادت صحراء مرة أخرى ، وشمالاً من أوروبا إلى آسيا ، وكان هذا الإنسان قصيرًا ، غليظ العضلات ، بارز الحاجبين ، يشتغل بصيد الثدييات القطبية الضخمة كالماموث ، ووحيد القرن، الذى كان تغطى جلده فروة من الصوف ، وظلوا يصطادون هذه الحيوانات خلال معظم الفترتين الثالثة والأخيرة من الفترات التى تخللت العصور الثلجية . واستغرقت حوالى خمسين ألف سنة ، وكان أفراد هذا النوع من الإنسان - الذى يسمى

إنسان نياندرثال – نسبة إلى وادى نياندرثال بألمانيا حيث اكتشفت عظامه لأول مرة فى سنة ١٨٥٧ – يصنعون من الصوان أدوات وأسلحة أشد تعقيدًا من كل ما صنع من قبل .

وكانوا يأوون إلى الكهوف حيث يحرصون على إبقاء النار موقدة ، وجر الجثث الضخمة أو أجزاء منها إلى مداخل الكهوف لقطعها وإعدادها للأكل ، ومع كل هذه المحاولات المحمومة للحفاظ على حياتهم وتجنب كل ما يتهددها ، عرفوا الحياة والموت ، بل ودفنوا موتاهم بطريقة تدعو إلى التأمل ، وبذلك نعثر هنا لأول مرة على دليل يضىء كالشعلة على أن الإنسان عرف وأدرك أن له روحًا .

وكانت الكهوف تحتوى على جماعات تزيد على الأسرة الواحدة ، وتجد متسعًا من الوقت للتفكير والتأمل ، خاصة فى ظاهرة الموت وما يصحبها من كوارث وصدمات ، وقد اكتشف هيكلا رجلٍ وطفلٍ ، تصونهما الأحجار ، وبصفة خاصة تصون الرأسين من أن يهشمهما ثقل التراب فوقهما كما وُضعت مخدة من شظايا الصوان تحت رأس الطفل ، وكانت القبور تحفر بالقرب من المواقد ، وتوضع بجانب الجثة أدوات حجرية ولحوم ولون أحمر يميل إلى الصفرة ، أى أنهم كانوا يزودون موتاهم بالدفء والسلاح والطعام .

استمرارية الطبيعة :

والطبيعة كلها جماعة واحدة كبيرة من الحياة ، وتندمج مراحل الماضى والحاضر والمستقبل بعضها فى بعض ، وبالتالى لا يوجد سبب يبرر افتراض

أن النياندرثاليين الأوائل كانوا يختلفون فى نظرتهم للعالم الذى يحيط بهم عن سكان أستراليا البدائيين المعزولين ، إذ تدل طقوس الدفن كلها على صراع بين الخوف من الروح ، والرغبة العميقة فى الاحتفاظ بها أو استدعائها ، وهكذا فإن الأحياء كانوا يقعون فى الحيرة بين الرغبة فى تغذية الروح التى يشعرون أنها لاتزال موجودة معهم ، وبين الصعوبة فى منع أى ضرر قد تميل الأيدى الخفية إلى القيام به ، ومن ثم كانوا يعملون على إرضاء الروح وإبقائها قريبة من بيتها ، وفى الوقت نفسه يقيدونها حتى لا تستطيع أن تتجول بحرية ، ولذلك فإن أجسام الموتى كانت تدفن فى وضع القرفصاء وتقيد بسيور من الجلد لمنعها من التجول .

وكان الموت العنيف يثير الفزع على الدوام ، كما كانت أرواح أولئك الذين تفترسهم الحيوانات الضارية ، أو أولئك الذين يُنبذون من المجتمع ويُقتلون ، أو الحوامل اللائى يمتن أثناء الوضع ، كانت أرواح هؤلاء على الأخص تثير الرهبة التى تؤدى إلى تجنبها ، لأن هذه الميتات تعتبر نذيرًا بحدوث الكوارث ، ولايزال هذا الاعتقاد يراود بعض الناس حتى الآن ، فالمحكوم عليه بالإعدام أو الذى يقدم على الانتحار ، أو الأم غير المتزوجة نادرًا ما كانوا يمنحون حق الدفن فى المقابر التى تقام فيها الطقوس الدينية على الميت ، فكان من المعتاد أن يدفن أمثال هؤلاء عند تقاطع الطرق خارج المدن وبعيدًا عن الأماكن المأهولة .

وكان هذا الإجراء ميراثًا لعادة قديمة ، ذلك أن الجماعات التيوتونية القديمة بأوروبا كثيرًا ما كانوا يبنون مذابحهم عند تقاطع الطرق ،

وتضمنت ديانتهم التضحية بالآدميين قربانًا لآلهتهم . وعندما كانوا يواجهون بالسؤال : من هم الذين يجب التضحية بهم ؟ ! فإنهم — كعادة البشر — كانوا يميلون إلى ضرب عصفورين بحجر واحد ، ويختارون ضحاياهم من المحكوم عليهم بالإعدام ، ولكن عندما اعتنقوا المسيحية أُبطلت عادة التضحية بالآدميين ، ومع ذلك ظلت عادة دفن المجرمين والمنتحرين عند تقاطع الطرق فى منتصف الليل سارية ، حتى تكون جنازاتهم على نمط جنازات الوثنيين ، وفى البقاع النائية من أيرلندا لايزال يوم الحادى والثلاثين من أكتوبر يدعى « يوم سامان » جريًا على عادة قديمة مؤداها ، أنه فى ذلك اليوم يستدعى سامان ، ملك الموت ، بعض الأرواح الشريرة ، ولكن فى ذلك اليوم كانت الأرواح كلها تتجول ، لا الشريرة وحدها ، ولذلك فإن الناس كانوا يلجئون للأرواح الطيبة لتتشفع لهم عند الآلهة لإجابة مطالبهم .

أنوار الأرواح :

وكانت الشموع تمثل الشمس ، وفى البقاع الجبلية فى التيرول بشمال إيطاليا لاتزال « أنوار الأرواح » توضع على الموائد لترشد الأرواح الهائمة خلال الليل الحالك السواد فى الغابة السوداء ، أما فى جزيرة صقلية فيضع الأطفال أحذيتهم عند عتبات الأبواب استعدادًا لحضور الأموات المحبوبين ، وهم يرتدون الملابس البيضاء ، وينقلون خطاهم بلا ضجيج ، ليملئوا الأحذية بالهدايا ، ولكن عندما نقلت نهاية السنة إلى أواخر شهر ديسمبر ، عند الانقلاب الشتائى حين تصبح الشمس

أضعف ما يمكن ، لا يزال رجل ذو لحية بيضاء طويلة وشعر أبيض غزير يأتى بالليل خفية وبلا صوت ليملأ الأحذية أو الجوارب بالهدايا ، ولم يره أحد قط ، ومع ذلك يظل كل طفل مسيحى يأمل أن يرى بابا نويل ، أو على الأقل أن يترك له من الهدايا ما يسعده .

وكان البدائيون يؤمنون بأن الروح تسكن الرأس لا القلب أو الكبد ، وبذلك كان العقل والمخ والروح شيئًا واحدًا ، ومن ثم فإن الرأس يمكن أن يدفن وحده ، وفى مكان مناسب يليق به ، وحتى النياندرثاليون كانوا يميلون إلى الأخذ بهذا الطقس حتى أصبح عندهم فنًا من الفنون الجميلة ، ففى كهف استخدم كمقبرة فى بافاريا بألمانيا اكتشفت حفرتان وضعت فى إحداهما ستة رءوس ، وفى الأخرى سبعة وعشرون رأسًا موضوعة جنبًا إلى جنب ، وكانت جميع الرءوس مزينة بحلى ثمينة مثل أسنان الغزلان والقواقع ومصبوغة بلون أحمر ، وكانت موضوعة بحيث تتجه جميعًا نحو الغرب حيث غروب الشمس ، ووجدت بالقرب منها بقايا محترقة ، مما يوحى بأن أجسام هذه الرءوس قد احترقت .

العبقرية المصرية القديمة :

أما قدماء المصريين فقد حرصوا طوال ثلاثة آلاف سنة على منع تحلل الجثث والإبقاء على شخصية الميت ، وظل الاعتقاد بأن الروح تبقى داخل الجسم وأن الموتى يظلون أحياء بمعنى الكلمة سائدًا ومسيطرًا ، وما إن أتت الأسرة الحادية والعشرون منذ حوالى ألف سنة قبل الميلاد حتى بلغ فن التحنيط إلى ذروته ، وكان الإيمان بخلود الروح الدافع

إلى هذا الإعجاز الكيميائى ، فكان المخ والأعضاء الداخلية تنزع من الجثة ،ثم ينفخ الطين والرمل أسفل الجلد لجعل الجثة فى شكل أفضل بعد أن تطلى بمادة حمراء ، كما يصبغ الخدان والشفتان بلون أحمر مناسب حتى يكتسب الوجه مظهر الشخص الحى ، وتوضع عينان من البللور محل عينى الميت . ثم تجرى مراسم معقدة وطويلة كانوا يعتقدون بعدها أنهم تمكنوا من جعل الميت يستطيع أن يرى ويسمع ويتكلم ويأكل ، وهو نوع من الإصرار على استمرار الحياة بطريقة أو بأخرى .

وكما تمثلت العبقرية المصرية القديمة فى كيمياء التحنيط ، هكذا تمثلت أيضًا فى هندسة بناء الأهرامات ، ولم يكن هذا الإعجاز العلمى سوى نتيجة مباشرة لاعتقادهم فى خلود الروح وبعثها من جديد . فالموت لم يكن فى نظرهم سوى رحلة تقوم بها الروح ، وكأن أرواح الموتى تصر على مواصلة الحياة بطريقتها الخاصة ، بدلاً من أن تظل باقية بين الأحياء دون أن يكون لديها ما يشغلها ، وهذا يدل على عشق المصريين للحياة ، هذا العشق الذى تجلى فى هندسة المقابر سواء البسيطة منها أو البالغة الضخامة ، إذ كانت تجسيدًا ماديًا لرغبتهم الشديدة فى حياة أخرى ، وقد كتب على كثير من المقابر العبارة الآتية التى يوجهها الموتى إلى الأحياء : « أيها الأحياء فوق الأرض ، يا من تحبون الحياة وتكرهون الموت » .

هكذا تألق الوعى الروحى وتوهج فى العصور القديمة ، وكانت نتائجه العلمية ملموسة فى الحياة المادية برغم اعتمادها على أفكار غامضة مبهمة ، لكن هذا الوعى الروحى مر بأزمات خانقة مع بدايات الثورة

العلمية التى أوشكت أن تحيل الكون إلى مادة بحتة ، إذ لم يعش أحد فى برج عاجى كما عاش علماء الطبيعة فى القرن العشرين ، ولم يتلاعب أحد كما تلاعبوا فى براءة بخواص المواد المعروفة بواسطة الرموز الرياضية ، وفى النهاية لم يصدم أحد مثلهم عندما وجدوا أن تغلغلاً ذهنيًا فى طبيعة المادة قد استغل وحول إلى نذير بتدمير شامل ، برغم أن أكبر العلماء أنفسهم ، تحت تأثير ضغوط قوية ، كانوا فى مقدمة من سخّروا نتائج تفكيرهم استغلالاً مهلكًا ، ولم يحدث قط فى دنيا العلم ومجالاته المتعددة أن ساد اشمئزاز وشعور بالذنب ، كما حدث عقب تفجير أول قنبلة ذرية ، كانت أزمة ضمور روحى انتابت العالم الغربى وجعلته يعيش فى خوف من الرعب الذى أثاره ، ودفعته إلى التطلع إلى السماء مرة أخرى ، جزعًا من أن يسقط عليه ما كان أول من ألقاه ، وأدت به إلى إعلان حقوق الإنسان التى كثيرًا ما أهدرت تحت وطأة الاحتياطات والإجراءات العسكرية والسياسية .

إن البحث عمن يتحمل مسئولية إلقاء أول قنبلة ذرية قد يكون مسألة معقدة ومتشابكة على كل المستويات السياسية والعسكرية والاجتماعية الدولية ، لكن الحقيقة الوحيدة المؤكدة هى أن شيئًا ما قد تحطم ، وأن البشرية لم تعد قط كما كانت من قبل . فقد أصبحت البشرية جمعاء أسيرة الرعب النووى الذى ألفته بمرور الأيام ، وأصبحت الشعوب تمارس حياتها كما كان أهالى بومبى يعيشون تحت رحمة بركان فيزوف على أمل أنه لن يقع أسوأ مما يخشونه منه ، لكن بركان فيزوف ثار وطمر مدينة بومبى ، ومهما قيل فبرغم الاحتياطات الوقائية المحيطة

بالترسانات الذرية فإن أحدًا لا يستطيع أن يتحكم فى تيارات السياسة ونوازع النفس البشرية على المدى الطويل .

خرافة الإنسان النمطي :

والإنسان النمطي خرافة ، ولذلك من المستحيل إيجاد مقياس نقيس به الإنسان النمطى ، فالجنس البشرى ليس سوى جمعية أخوية تضم أعضاء أو أفرادًا لكل منهم رؤيته الخاصة ، ومع ذلك يميل البشر إلى معاملة الآخرين معاملة غير أخوية ، إذ يفترضون فيهم جميعًا أن يكونوا متشابهين ونمطيين فى كل ظرف معين ، فكرًا وسلوكًا ورؤية ، وكل من يختلف معهم فى القضايا الحيوية والمصيرية لابد أن يكون إما أحمق أو غبيا ، وكان الاضطهاد عبر العصور نتيجة مباشرة لاختلاف الآراء فى مواجهة الغطرسة البشرية .

ولا شك فإن الضرورة الروحية تبدو ملحة وفى حاجة إلى تدعيم وترسيخ مستمرين إذا أدركنا أن البديهية التى تقول : بأن جميع البشر قد خلقوا متساوين هى حقيقة روحية أكثر منها حقيقة اجتماعية أو بيولوجية ، وهى تأكيد بأن جميع الناس ينبغى أن يتاح لهم تكافؤ الفرص ، لأن الطبيعة قد زودتهم جميعًا منها بدرجة واحدة ، وحقوق الإنسان ليست حقوقًا يمتلكها أى إنسان ، إنها مطالب ، وهى مؤسسة على الاعتقاد بأن جميع البذور يجب أن تنبت وتنمو وتزهر وتثمر ، وأنه يجب ألا تلقى بعض البذور فى أرض بور تعوقها عن النمو الكامل ، وعلى الاعتقاد بقداسة الحياة واحترامها ، وهذا المفهوم الروحى يتصدى

للفكرة التى تؤكد بأن الطبيعة ذات ناب ومخلب ، وأن القوة هى الحق .

غير أن الأهمية التى تكتسبها فى عصرنا ثورة العلوم والتكنولوجيا قد أكسبت مجال علاقة الإنسان مع الطبيعة أسبقية على مجال علاقة الإنسان مع الإنسان ، ولا شك أن نوعية القواعد التى تحكم المجالين تختلف اختلافًا بينًا ، ففى علاقة الإنسان مع الإنسان يملك كل طرف منهما ملكة الوعى والعقلانية ، ويتحرك كل منهما وفقًا لدوافع يمكن التنبؤ بها سلفًا من خلال وسائل العلم ومناهجه التى تسعى دائمًا لاستكشاف خواصها وتفاعلاتها ، أما علاقة الإنسان مع الطبيعة ، خاصة فى ظل إنجازات الثورة العلمية والتكنولوجية العصرية ، فإنها علاقة بين طرف ، هو الإنسان المعاصر ، يملك قدرًا متعاظمًا من العلم ، وابتدع نوعيات من التكنولوجيا بلغت من الجبروت حدًّا حرجًا أصبح ينال من صلاحية كوكبنا . كوعاء للحياة ، وطرف آخر هو الطبيعة أو الكوكب الأرضى بصفة عامة ، وهو ليس بالطرف الواعى ، لكنه لم يعد يتلقى إساءات التكنولوجيا له بطريقة سلبية ، بل له طرقه الخاصة به فى الانفعال بها والرد عليها ، لكنها طرق يتعذر التنبؤ بها سلفًا ، ويتعذر بالتالى توظيف العلم فى استئناسها واحتوائها .

وهكذا برغم التقدم العلمى والتكنولوجى الجبار ، أصبح المجهول فى أحوال كثيرة مسيطرًا على علاقة الإنسان مع الطبيعة ، ولم يعد علم الاقتصاد كفيلاً وحده بتقرير مصائر البشر ، بل أصبح من الضرورى تطبيق ضوابط أخرى للحيلولة دون التمادى فى الإساءة إلى كوكبنا

إلى الحد الذى يهدد بالفناء الشامل ، ضوابط تستمدها من القيم الروحية والروادع الأخلاقية، والمعايير الإنسانية، والحدود القانونية .

لا نهاية للمعرفة :

وفى كتاب « العلم والفرضية » لعالم الرياضيات المعاصر هنرى بونكاريه ، نشر فى مطلع هذا القرن ، أشار فيه إلى معنى هام فى تعاملنا مع الطبيعة ،مفاده أن العلم لا يوفر لنا أدوات معرفة بل يقيم مجرد فرضيات بشأنها ، وعبر العصور ، تزداد هذه الفرضيات إحكامًا وصلاحية للتحكم فى الطبيعة ، لكنها لا تنطوى على معرفة نهائية لها أبدًا ، ولذلك يجب على العلم المادى ألا يتمادى فى غروره حتى لا تتحول طاقاته فى النهاية إلى عوامل تدمير وفناء ، عندما يفقد القيم الروحية والعقلانية والإنسانية التى تكبح جماحه ، فيكون مصيره كمصير الديناصورات التى لم تهرب من طائلة الفناء لقوتها الجسدية الجبارة ومخها الصغير الهزيل .

هنا تبرز قضية حقوق الإنسان كما يدركها الجنس البشرى ويرغبها بطبيعته . ولما كان البشر قد ولدوا غير متحررين من بيئتهم الإجتماعية وطبيعتهم البيولوجية ، ولما كانوا غير متساوين فى الصفات والإمكانات الطبيعية ، فليس لأحد حقوق فى الحياة أكثر أو أقل من أى مخلوق آخر ، وهذه القضية تجعل البشر فى أشد الحاجة إلى الضرورات الروحية والإنسانية بكل ما تحمله من حكمة ورحمة وتعاطف وتواضع . فالانسجام الذى ينبثق من الانتماء إلى جماعة واحدة وأصل مشترك واحد، والنظر

بعين الاعتبار إلى الاختلافات بين البشر والتسليم بها ، كلاهما ضروريان لسلامة المجتمع ورفاهيته، بل إن هذه الاختلافات يمكن أن تتحول إلى مصادر للخصوبة المثمرة إلى أقصى حد ، بدلا من نقدها أو تجاهل وجودها أو محاولة التخلص منها .

وإذا كان البشر يختلفون فى تركيب الجسم ومظاهره وعملياته الفسيولوجية ، فلابد أنهم يختلفون فى كل صفة من صفات الروح والعقل ، والفردية من الصفات التى تظهر فى الإنسان بأقوى مما تظهر فى أى كائن حى آخر ، وقد أثبتت العلوم الإنسانية أن معظم الكراهية المتفشية فى العلاقات بين البشر مصدرها هذا الاختلاف الأساسى بين البشر ، وفشلهم فى قبوله وفهمه ، وكما قال الفيلسوف الأمريكى أيمرسون : إن الخطيئة الوحيدة التى لا يغفرها بعضنا لبعض هى اختلاف الآراء .

ومع ذلك فكيف يمكن أن يتفق رأيان تمامًا ، فى حين لا يوجد عقلان متشابهان تمام التشابه ؟ إن الحياة بطبيعتها مغامرة عقلية وتجديد روحى من أجل اكتشاف الإنسان لنفسه ، إن الأعمال التى تستحق الذكر تنبع من قلوب الأفراد ، لا من العمل النمطى الجماعى ، والموهبة المدفونة هى موهبة ضائعة ، وكل إنسان له مجموعة من الصفات والقدرات تخصه وحده دون سواه ، ولذلك فإن أشد العقول خروجًا عن المعتاد قد تكون أفضلها إنتاجًا . ففى مصر القديمة مثلاً كانت المبانى والتماثيل التى أثارت إعجابنا ، وظهرت كابتكار معجز ، كانت

نتيجة لعقل متفرد غير عادى ، هو عقل الكاهن إمحوتب الذى عاش فى زمن الأسرة الثالثة والذى رفع فيما بعد إلى مرتبة الآلهة ، ولعل السر فى عبقريته أن قدرته العلمية والفنية لم تنفصل أبدًا عن وعيه الروحى والإنسانى مما منح لتفرده العلمى والعقلى آفاقًا شاسعة .

لكن نطاق المعرفة البشرية قد اتسع الآن لدرجة أنه لا يمكن لأى عقل واحد أن يستوعبها جميعًا ، وقد أصبح من الضرورى أن ندرك أبعاد هذه القضية ، لأنها تتغلغل إلى باطن روحنا ، فعندما يجتمع بعض الأفراد لزيادة المعرفة وفهم الطبيعة، فإنهم يجدون أنفسهم مقيدين بالوسيلة التى يتصلون بها بعضهم ببعض ، أو بعبارة أخرى بلغتهم المشتركة ، التى قد تكون من صور مختلفة ، علمية أو غير علمية ، وكل ما لا يمكن أن يعبر عنه بصيغة واضحة لا يمكن تبليغه إلى الغير ، ومن ثم فإنه يبقى داخل العقل الذى اختبره ، وهذا هو السبب فى أن فهم الصوفيين من الصعوبة بمكان ، إذ أن خبرتهم لا يمكن التعبير عنها بالكلام .

التأمل أساس العلم :

ويظل التأمل هو الأساس الذى ينهض عليه جوهر كل من التقدم العلمى والوعى الروحى ، ولذلك فإن العالم حر التصرف فى معظم وقته ، وليس مطالبًا بالقيام بأى عمل علمى معين ، بل ليس مطالبًا بالقيام بأى عمل على الإطلاق ، فهذه هى الشروط الملائمة لتغذية الروح العلمية إلى أبعد حد ، وهى نفس الشروط اللازمة لتغذية أية ناحية أخرى للروح البشرية ، سواء أكانت دينية أم فنية أم اجتماعية ،وكلها

تنبع من البصيرة التى تؤدى إلى النظر إلى الأشياء من زاوية جديدة هى نتاج عمليات الفكر والتأمل والخيال والعقل الباطن معًا .

ويقول نورمان بريل فى كتابه « عقل الإنسان المتنامى » إن هناك طاقة إدراكية كامنة فى عقل الإنسان ،وإن كانت تظهر بطريقة غير محسوسة فى العقل الواعى ، ولا يمكن للعلم أن يتطور بدونها ، فهى النيران المشتعلة فى باطنه ، وتحثه دائمًا على مواصلة الاستكشاف . فمثلاً اكتشف فيثاغورس أن شدة الصوت تتوقف على طول الوتر المهتز ، وهو اكتشاف مثير فى حد ذاته ، ومثال كامل على علاقة طبيعية لا يمكن الوصول إليها بالتفكير الميكانيكى المجرد ، وإن كان هذا التفكير هو الذى حدد الطريق الذى سلكه بعد ذلك التفكير الفلسفى والرياضى فى العالم الغربى ، والذى أدى مباشرة إلى الصورة التى رسمها كوبرنيق عن الكون ، وهى الصورة التى نأخذ بها الآن ، والذى وضع الجدول الدورى للعناصر ، وفسر لغة الأطياف فى عصرنا العلمى الحديث ، والعملية فى كل حالة يصفها بريل بأنها القدرة على الرؤية بالعقل والبصيرة أكثر مما هى بالعين والبصر ، والرؤية بالعقل والبصيرة لا تكمن فى الجزء المرتبط بالوعى والتفكير الذى يؤدى إلى مجرد الفهم ، وإنما تمتد لتشمل شجرة المعرفة بأكملها ، والتى يتحتم على الإنسان أن يتحمل مسئولية قطف ثمارها اعتمادًا على وعيه الروحى ، الذى ينبغى ألا يضمر أبدًا .

وهذه النظرة إلى الدنيا والكون المحيط بنا تشترك إلى حد كبير مع كل من الدين والفن ، وتمتد إلى نفس الجذور فى النفس البشرية ، وهذه الثلاثة كلها تجعل الإنسان يتصل مباشرة بالحقيقة ، ولكن غالبًا

ما يكون الاتصال بطريقة تجعل لغة الكلام عاجزة عندما تنشأ الحاجة إلى نقل الأفكار والمعلومات إلى الغير ، ومن هنا نشأ التصوف والفن المجرد والرموز الرياضية والموسيقية ، كذلك فإن هناك اتجاهاً عاما يميل لاستخدام العقل وحده دون إفساح أية فرصة لاستخدام طاقات الإنسان الأخرى فى تكوين نظرة شاملة تعتمد على التأمل الروحى العميق ، وكل ما يعتبر اليوم علمًا لابد أن يؤدى لغرض معين من خلال خط سيره المرسوم الذى يؤدى بدوره إلى تطبيقات عملية على جانب من الأهمية فى الحياة اليومية ، لكن النتيجة العملية تتمثل فى تراكم أكداس من المعلومات لم تهضم قط .

والعالم الحقيقى الذى يرى فى جوهر العلم تجربة روحية شاملة للعقل والنفس ، يقوم بعمله بشغف شديد دون طمع فى الحصول على جائزة إذا توصل إلى اكتشاف معين ، أو خوف من عقاب إذا فشل فى بلوغ أية نتيجة إيجابية ، بل إن بعض العلماء كانوا يجرون على أنفسهم بعض التجارب التى قد تعرض حياتهم للخطر لعلهم يحققون للإنسانية كشفًا جديدًا ، فالدافع الروحى فى التجربة العلمية يمكن أن يؤدى بالعالم إلى إفناء ذاته فى ذوات الآخرين مثله فى ذلك مثل الشهيد . لكن متى خرج الاكتشاف العلمى إلى حيز الوجود ، وأصبح ملك الجميع ، لم يعد للعالم أية سيطرة على وسائل استخدامه وتطبيقه التى قد لا تتمشى مع أهدافه الإنسانية السامية ، فقد أسىء استخدام فيزياء الذرة فى منتصف القرن العشرين كما أسىء استخدام الكيمياء قبل ذلك بقرن كامل

مثلما تشهد بذلك نتائج اختراع ألفريد نوبل وغيره من علماء الطبيعة المعاصرين ، وهو خطر قائم على الدوام .

مخاطر العلم المادى :

وتبدو خطورة العلم المادى فى صعوبة التنبؤ بالأخطار التى تنجم عن سوء استخدام معلوماتنا عن طبيعة المادة ، أو الطاقة ، أو حتى الحياة نفسها ، وهذا التنبؤ قد يصبح مستحيلاً تمامًا فى معظم الحالات عندما يتراجع الوعى الروحى أو يتلاشى فى خضم الممارسة المادية للعلم . فمثلاً إذا وفق العلم إلى اكتشاف طريقة للتحكم فى جنس الجنين ، فكيف يمكن ضمان حسن استغلالها ، سواء من خلال هيئة طبية أم لجنة مختارة ، أم الدولة ذاتها ، أم البشرية بصفة عامة ؟!

إن الوعى الروحى هو الضمان الوحيد المتاح لحسن استغلال الاكتشافات العلمية ، ذلك أن روح العلم تكاد تكون نوعًا من الإلهام لأنها تتضمن محاولة العقل للتغلغل فى عجائب الكون من الذرات إلى النجوم ، ومن الحياة إلى الفكر ، وهذا هو لبه ، ولكن لن يكون ارتياح النفس والروح تامًا إلا إذا كانت ممارسة العلم مصحوبة ببعض الإدراك للجمال ، وحب كامن للطبيعة بصفتها من صنع الله ، ونشوة روحية فائقة عند الوصول إلى كشف جديد ، وبصفة عامة لا تأتى أعظم إلهامات العلم إلا إذا كان البحث عنها غير مرتبط بأى غرض سابق ، وكانت النفس غارقة فى تأملات تبلغ حد الوجد الصوفى ، ولاشك أن هذه

هى التأملات التى سبقت اكتشاف أرشميدس لقانون الطفو :
أو اكتشاف نيوتن لقانون الجاذبية ، فكم من علماء قبل نيوتن
لاحظوا سقوط التفاح من الأشجار ، لكنهم لم يصلوا إلى درجة
التشبع بالتأمل الشامل العميق التى أدت بنيوتن إلى اكتشافه العلمى
الخطير ؟ ! وبدون هذه الروح قد يكون من الممكن استخدام
طرق العلم وأساليبه ، خاصة للوصول إلى نتائج ذات أهمية علمية ،
لكنها لن تؤدى إلى الكشف عن أسرار الكون .

الفصل الثانى

أزمة التفسير المادى للكون

بدأت اتجاهات التفسير المادى للكون بنظريات فرانسيس بيكون وجاليليو فى مطلع القرن السابع عشر ، واستمرت حتى العقود الأولى من القرن العشرين ، حين تبلورت المفاهيم الجديدة للزمان والمكان ، ونشأة الكون وتطوره من خلال علمى الفيزياء الحديثة والكوزمولوجيا الحديثة ، كنظرة بديلة عن المادية العلمية التى اكتمل شكلها فى أواخر القرن التاسع عشر بعد أن نشر عالم الطبيعة الإنجليزى تشارلز داروين نظريته فى النشوء والتطور ، التى نهضت على فكرة الانتقاء الطبيعى والبقاء للأصلح ، والتى روج لها العلماء حتى تركت أبعد الأثر فى التفكير العلمى والفلسفى إلى يومنا هذا ، وعلى الرغم من أن معظم هؤلاء العلماء والمفكرين لم يكونوا من الملحدين ، فقد أدت هذه النظريات والاتجاهات إلى مظاهر الإلحاد والاستخفاف بالقيم الروحية والدينية والأخلاقية ، وتفسير السلوك البشرى كله والعقل والإرادة بلغة الدوافع والغرائز والفسيولوجيا .

وكانت هذه النظرة العلمية المادية ثورة مضادة للفلسفة المدرسية التى سادت العصور الوسطى ، ونهضت على منطق أرسطو ومفهومه لما وراء

الطبيعة ، وكانت تسعى إلى عقلنة اللاهوت المسيحى ، لكن هذه الفلسفة وصلت فى عهودها المتأخرة إلى حالة من الجمود والتحجر العقلى ، والتخبط الفكرى ، أدت بعلماء العصر إلى الإعراض عنها ، وإرساء أسس العلوم الطبيعية على العقل والمشاهدة الحسية والتجارب العلمية ، وليس على الفكر النظرى البحت ، لكن هذه العلوم تطورت فى العصور اللاحقة إلى مذهب مادى صارم يؤمن بأزلية المادة ، ويرفض من ثم كل ما هو غيبى ، ولا يعترف فى تفسيره لمختلف الظواهر إلا بنوعين من العلل هما الضرورة والصدفة .

فى مواجهة هذه النظرة العلمية المادية برزت إلى الوجود فى مطلع القرن العشرين نظرة علمية مغايرة بل ومناقضة ، كان من ألمع روادها علماء الفيزياء الحديثة ألبرت آينشتاين ، وفيرنرهايزنبرج ، ونيلزبور ، وغيرهم كثيرون ممن استحدثوا مفاهيم جديدة كل الجدة ، أطاحت بالمفاهيم والنظريات الفيزيائية السابقة ، التى كانت رائجة منذ عصر أرسطو وحتى أواخر القرن التاسع عشر ، فقد أثبت آينشتاين ، مثلاً ، نسبية الزمان والمكان ، بل الحركة ، وأوضح الفيزيائى الدانمركى بور أن الذرة ليست أصغر جسيم يمكن تصوره ، كما كان نيوتن يظن ، بل إنها هى الأخرى مكونة من نواة يحيط بها عدد لا حصر له من الالكترونات .

المادة ليست أزلية :

وأجمعت آراء كبار علماء الفيزياء النووية والكوزمولوجيا على أن الكون بما يحويه من ملايين المجرات ، ومليارات النجوم والكواكب ،

قد بدأ في لحظة محددة ، يرجع تاريخها إلى ما بين عشرة وعشرين مليار سنة ، فثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن المادة ليست أزلية ، وأن للنجوم آجالاً محددة تولد وتموت كالآدميين ، وأن الكون المادى نفسه فى تطور وتمدد مستمرين ،وأن الإنسان يقف فى مركز الغاية من خلقه ، ولذلك رأى علماء الطبيعة المعاصرون فى ذلك الجمال المنتشر فى الطبيعة على جميع المستويات هدفًا وخطة مرسومة ، فآمنوا بعقل أزلى للوجود ، خالق لهذا الكون الشاسع يدبره ويرعى شئونه .

ثم خلف هذا الجيل من الفيزيائيين والفلكيين جيل آخر من العلماء المتخصصين فى أبحاث الأعصاب ،وجراحة المخ ، من أمثال شرنجتون ، وإكليز ، وبنفيلد ، وغيرهم من الذين أثبتوا بأبحاثهم أن الإنسان مكون من عنصرين جوهريين : جسد فانٍ ، وروح لا يعتريها الفناء ، وبأن الإدراك الحسى ، وإن كان يتوقف على عمليات فيزيائية وكيميائية ، ليس شيئًا ماديًا محضًا ، ولذلك فإن العقل والمخ شيئان مختلفان تمام الاختلاف ، وأن الإدراك والأفكار والتأملات ليست من صنع المادة ولا من إفرازاتها ،بل هى على عكس ذلك ، تؤثر تأثيرًا مباشرًا فى العمليات الفسيولوجية ذاتها .

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية شعر كثيرون من علماء النفس أن إخضاع العقل للغريزة ، فى طريقة التحليل النفسى « التى ابتكرها فرويد وسار على نهجها تلاميذه وأتباعه ، وإلغاؤه فى المذهب السلوكى ، قد أديا إلى تجريد الإنسان من إنسانيته وتحويله إلى مجرد مادة ، مثله فى ذلك مثل أية مادة أخرى فى الكون ، من هنا كانت نشأة مدرسة « علم

النفس الإنسانى » التى تزعمها فرانكل ، وماسلو ، وماى الذين يعترفون بسبق العقل ، وبعدم قابلية حصره فى الخواص الكيميائية والفيزيائية للمادة ، وبالإنسان كقوة واعية تملك حرية التصرف والاختيار ، ويرفضون بالتالى تفسير السلوك البشرى كله بلغة الغرائز والضرورات البيولوجية ، والدوافع والاستجابات الآلية ، ويؤمنون كبديل عن ذلك بالقيم الروحية والأخلاقية والجمالية والنفسية والفكرية .

ويقول جون إكليز رائد جراحة المخ والأعصاب المعاصر : إن ما يحظى به علم الفيزياء من قدرة عظيمة على تفسير الظواهر ، وما تكشف عنه من مبتكرات تكنولوجية هائلة ، قد أضل الإنسان العادى بحيث جعله يزداد بعدًا وفتورًا عن المعتقدات الدينية ، والقيم الروحية ، بعد أن تعرض مفهوما العقل والعمليات الذهنية للخطر ، بل للرفض . وبالتالى فإن مكانة الإنسان نفسه فى الكون تعرضت بدورها للخطر ، الذى أدى بالمذاهب اليائسة والعدمية إلى رفض دور الإنسان الذى فقد كل معنى لوجوده فى هذا الكون .

المسرحية الكونية العظيمة :

لكن الثورة التى حدثت فى علمى الفيزياء والكوزمولوجيا فى القرن العشرين ، قد غيرت هذه الصورة ، فبعد أن كان الإنسان يعتبر مخلوقًا يسكن كوكبًا متواضعًا يدور حول نجم لا شأن له فى مجرة تحوى مائة مليار نجم آخر ، أصبح الآن يقوم بدور المشارك فى مسرحية كونية عظيمة ، فجميع الأحداث الكونية بدءًا بالانفجار العظيم فصاعدًا كانت

قد صممت بحيث تسمح بوجود مخلوقات واعية ، فى مكان ما من الكون المتمدد ، وفى حقبة من حقب تاريخه ، كل هذه أدلة علمية تثبت تصورًا كونيًا جديدًا للعالم ، وبالتالى اضطرت النظرة المادية القديمة إلى إفساح المجال أمام نظرة جديدة ، تركز على الإنسان بصفته مراقبًا ومشاركًا واعيًا ، وتفرد للعقل والعمليات الذهنية والتأملات الروحية مكانة تضاهى مكانة العالم المادى ، وبالتالى تزيل ركام المادية القاسية الكئيبة ، لتتألق غاية الوجود ، وحكمة الخلق ، ومعنى الجمال ، وانطلاق الروح ، وكرامة الإنسان .

كانت المادية العلمية على مدى ثلاثة قرون تؤكد أن هذا الكون عبارة عن مادة بحتة ، وأن الأشياء جميعًا قابلة للتفسير بلغة المادة فقط ، وهكذا تصبح حرية الاختيار وهمًا من الأوهام مادامت المادة غير قادرة على التصرف الحر ، ولما كانت المادة عاجزة عن أن تخطط أو تهدف إلى أى شىء ، فلا توجد ثمة حكمة وراء العناصر الطبيعية ، بل إن العقل ذاته يعتبر نتاجًا ثانويًّا لعمليات المخ ، ويصور برتراندراسل مكانة الإنسان فى النظرة المادية القديمة بأسلوب زاخر بالسخرية المريرة فيقول :

« إذا كان الإنسان نتاج أسباب لا تملك الوسيلة اللازمة لما تحققه من غايات ، وإذا كان تواجده ونموه وآماله ومخاوفه ومعتقداته وشطحاته مجرد حصيلة تجمع ذرات بالصدفة المحضة ، وإذا عجزت أية حماسة متفجرة أو بطولة ، أو أية حدة فى التفكير أو الشعور ، عن الإبقاء على حياة فرد واحد فيما وراء القبر ؛ وإذا كان الاندثار هو المصير المحتوم لكل كفاح الأجيال ، ولكل التضحيات ، ولكل عبقرية الإنسان المتألقة

تألق الشمس فى وضح النهار ، فإن لم تكن كل هذه الأمور حقًا غير قابلة للجدل ، فإنها بهذا المفهوم تقترب من اليقين إلى حد يستحيل معه على أية فلسفة معاصرة له أن تصمد فى مواجهته ، وبالتالى فإنه لا يوجد ملجأ للروح إلا فى إطار هذه الحقائق التى تحيط الإنسان بالقنوط الراسخ من كل جانب » .

كتب راسل هذه الكلمات عام ١٩٠٣ ، لكن العلم منذ ذلك الحين مر بسلسلة مثيرة من الثورات فى الفيزياء ، على أيدى آينشتاين وهايزنبرج وبور ، وفى أبحاث المخ والأعصاب شرنجتون ،وإكليز ، وسبرى ، وبنفيلد ، وفى علم النفس فرانكل ، وماسلو ، وماى ، وغيرهم من العلماء والمفكرين الذين قدموا تفسيرًا ينقض تفسير راسل من أساسه ، فقد أعلن هايزنبرج أن « الفيزياء الذرية المعاصرة قد نأت بالعلم عما كان يتسم به من اتجاه مادى فى القرن التاسع عشر » .

نيوتن والمادة العلمية :

وكان نيوتن هو رائد المادية العلمية التى لا ترى فى الكون سوى ثلاث حقائق : المادة والمكان والزمان ، المادة التى تتكون من جسيمات كبيرة وصلبة ومتحركة وغير قابلة للاختراق ، ذات أحجام وأشكال مختلفة ، ويرى نيوتن أن أهم خواص المادة تتمثل فى التمدد والصلابة وعدم الاختراق والقصور الذاتى ، وطبيعة هذه الجسيمات – أو الذرات بالمصطلح الحديث – وخواصها ثابتة إلى الأبد ، والذرة هى أصغر جسيم يمكن تصوره .

أما العنصران الأخريان : الزمان والمكان ، فيرى نيوتن أنهما حقيقتان مطلقتان ، أى أن وجودهما مستمر حتى لو فنيت كل العناصر المادية فى الكون ، فالمكان مطلق بلا أية علاقة بأى شيء خارج عنه ، ووجوده ثابت غير متحرك ، وكذلك الزمان فهو مطلق فى حد ذاته وبحكم طبيعته ، ويتدفق باطراد بلا أية علاقة بأى شيء خارج عنه ،إن المكان والزمان لا حدود لهما ولا يتغيران ، إذ أن التغير الوحيد الذى يطرأ على العناصر يقتصر على مختلف عمليات انفصال هذه الجسيمات الثابتة ، وعلى عمليات اتحادها وحركاتها الجديدة ، وذلك فى إطار القوانين الطبيعية التى تنظم حركة المادة فى حدود الزمان والمكان المطلقين .

وقد حقق نظام نيوتن نجاحًا فى مجالات عديدة مثل الفيزياء والكيمياء على أيدى علماء كبار ، مثل فاراداى ، وكيلفن ،وهيرشل ، ومئات غيرهم بحيث شمل بعد ذلك كل حقول المعرفة بما فيها علوم الأحياء والنفس والتاريخ والإجتماع والاقتصاد ، وأصبحت المادة هى الحقيقة الوحيدة التى يمكن أن يتعامل معها البحث العلمى برغم أن نيوتن نفسه لم يكن من المؤمنين بالمذهب المادى ، فلم يكن يسعى إلى شرح وتفسير جميع الأشياء من خلال نظريته فى الميكانيكا ، بقدر ما سعى إلى تفسير ،جميع الأشياء المادية على وجه التحديد ، وذلك على النقيض من العلماء والمفكرين الذين أتوا بعده ، ولم يروا فى الكون سوى المادة وقوانين نيوتن التى وجدوا فيها قوانين أبدية لن تستطيع الأجيال المتعاقبة تحطيمها ،أو حتى الخروج عن إطارها .

لكن الاكتشافات الجديدة فى القرن العشرين لم تظل أسيرة فيزياء نيوتن ، بل أطاحت بها ، ففي عام ١٩٠٥ هدم آينشتاين ركنين أساسين من أركان النظرية المادية ، إذ أن نظرية النسبية الخاصة قادت علم الفيزياء إلى التخلى إلى الأبد عن فكرتى المكان المطلق . والزمان المطلق ، فقد أثبت أينشتاين أن علاقات المكان والزمان وقوانين الحركة لا يمكن تعريفها إلا بالنسبة لموقف المراقب لها بصفة شخصية ، كذلك أصبح التعادل بين المادة والطاقة نتيجة مترتبة على محور المراقب ، الذى أصبح جزءا أساسيًا فى عالم الفيزياء طبقًا لنظرية النسبية الخاصة ، أى أنه لم يعد فى مقدور الباحث العلمى أن يعتبر نفسه متفرجًا حياديًّا كما كان فى نظام نيوتن الذى افترض خواصًا مطلقة وركن إليها .

العقل وحقائق الوجود المطلقة :

والمراقب أو المشارك هنا هو العقل ، ولما كانت المادة فى أدنى مستوياتها لا يمكن إدراكها إلا بالعقل فقد أوضح الفيزيائى يوجين فيجنر أن العقل هو إحدى حقائق الوجود المطلقة ، وأن هناك نوعين من الحقيقة أو الوجود : وجود وعى وحقيقة أو وجود كل شىء آخر ، ومما يدعو للحيرة الشديدة أن وجود النوع الأول من الحقيقة يمكن أن ينسى تحت وطأة الاهتمام بوجود المادة التى تتمثل فى كل شىء آخر ، يقول فيجنر فى تحليله للمذهب المادى :

« كان كل العلماء الطبيعيين ، إلى عهد غير بعيد ، ينكرون بشدة وجود العقل أو الروح ، لكن النجاح الباهر الذى حققه علم الفيزياء

الميكانيكية والفيزياء العيانية بصورة أعم ، وكذلك علم الكيمياء ، قد حجب الواقع الجلى الذى يقول : إن الأفكار والرغبات والمشاعر ليست من صنع المادة ، وكان مقبولاً عند العلماء الطبيعيين على نحو يقترب من الإجماع أن لا شيء هناك سوى المادة » .

إن الحقائق الجديدة التى كشفتها نظرية النسبية وميكانيكا الكم قد قوضت دعائم النظرية المادية القديمة ، ولم يعد التفسير المادى للكون هو التفسير الوحيد المقبول ، إذ أصبح من المستحيل وصف هيكل المكان ، والزمان أو خواص الجسيمات الأولية دون الرجوع إلى مراقب مشارك ،أى إلى عقل ، ولقد كانت النظرية القديمة لا تتضمن إلا المادة والقوانين الطبيعية ، أما النظرية العلمية الجديدة فقد أخضعت المادة والقوانين الطبيعية للعقل ، وبالتالى اكتسب المنهج العلمى وعيًا روحيًّا افتقده منذ مطالع القرن السابع عشر .

الفصل الثالث

العقل : محور الوعى والوجود

يقول تشارلز شرنجتون رائد فسيولوجيا المخ والجهاز العصبى في القرن العشرين : « لقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن هنَاك فرقًا جذريًا بين الحياة والعقل ، فالحياة هى مسألة كيمياء وفيزياء ، أما العقل فهو يستعصى على الكيمياء والفيزياء » ، أى أن الحياة تنهض أساسًا على التغذية الذاتية والعمليات المرتبطة ببناء البروتوبلازما واندثارها ، وعلى الأخص ما يطرأ على الكائنات الحية أو الخلايا الحية من تغييرات كيميائية ضرورية لتوفير الطاقة للعمليات الحيوية ، وتمثل المواد الجديدة للتعويض عما اندثر منها من أجل استمرار النمو ، ويرى شرنجتون أن كل هذه العمليات والظواهر تتم طبقًا لقوانين الفيزياء والكيمياء التى تفسرها ، أما عمليات العقل وطاقاته وآفاقه فهى تتجاوز آليات ومناهج الفيزياء والكيمياء .

ويفرق جون إكليز بين التجارب التى تنم عن الوعى ، وتلك التى تعتمد فقط على آلية الأعصاب ، برغم أن هذه الآلية ضرورية أيضًا لإتمام الوعى ، وإن لم تكن كافية ، إنها تجربة تحمل فى طياتها إعجازًا حقيقيًا ومع ذلك نتقبلها فى حياتنا كواقع عادى مفروغ منه ، يتساءل إكليز :

« أليس صحيحًا أن أكثر تجاربنا شيوعًا تقبل دون أى تقدير لما تنطوى عليه من غموض هائل ؟ ! ألا نزال كالأطفال فى نظرتنا إلى ما نقبله من تجاربنا المتعلقة بالحياة الواعية ، فلا نتريث إلا نادرًا للتفكير فى أعجوبة التجربة الواعية أو لتقديرها ؟ ! فالبصر ، مثلاً ، يعطينا فى كل لحظة صورة ثلاثية الأبعاد لعالم خارجى ، ويركب فى هذه الصورة من سمات البريق والتلون ما لا وجود له إلا فى الإبصار الناشىء عن عمليات المخ ، ونحن بالطبع ندرك الآن النظائر المادية لهذه التجارب المتولدة من الإدراك الحسى كحدة المصدر المشع ، والطول الموجى للإشعاع المنبعث ، ومع ذلك فعمليات الإدراك والوعى ذاتها تتم بطريقة مجهولة تمامًا عن المعلومات المنقولة بالرموز من شبكية العين إلى المخ » .

فإذا كان الرائى فاقدًا الوعى فى أثناء تركيز الصورة على شبكية عينه ، فإنها تحدث تغيرات فيزيائية وكيميائية كما لو كان واعيًا ، لكنه فى هذه الحالة لا يبصر شيئًا ، تمامًا مثلما تركز آلة التصوير على صورة ما ، فيتعرض الفيلم داخلها لتغيرات فيزيائية وكيميائية ، لكن آلة التصوير لا تبصر بالمعنى الحرفى ، الألوان والأشكال التى تسجلها ، أما فى حالة وعى الرائى بما يرى فإن الصورة التى تسلط على الشبكية لا تعود أبدًا إلى الظهور مجددًا فى المخ ، بل لابد للعقل الواعى من أن يعيد تركيبها من أنماط النبضات الرمزية ، فكل عملية إدراك حسى تتكون من ثلاث مراحل : المنبه الأصلى لعضو الحس ، والنبضات العصبية المرسلة إلى المخ ، ونمط النشاط العصبى المثار فى المخ ، ويلخص إكليز هذه العملية بقوله : « إن عملية النقل من عضو الحس إلى قشرة المخ تستخدم نمطًا

من النبضات العصبية معبرًا عنها برموز تشبه رموز مورس ، وتنحصر فيها النقاط إلى تسلسلات زمنية شتى ، ومن المؤكد أن هذا النقل الرمزى يختلف تمام الاختلاف عن عملية الحفز الأصلى لعضو الحس المقصود ، كما أن النمط المكانى / الزمانى للنشاط العصبى المثار فى قشرة المخ مختلف هو الآخر كل الاختلاف » .

الإدراك الحسى :

وعملية الترجمة المزدوجة هذه توضح لنا مدى الإعجاز فى عملية الإدراك الحسى ، ذلك أن هذه السلسلة من الترجمات الفيزيائية / الكيميائية تسفر عن تجربة حسية محددة كإبصار لون محدد مثلاً ، وفى هذه النقلة ما يبعث على قدر من الذهول ليس أقل إثارة للدهشة من حالة شخص يفهم فجأة نصًا ترجم له من لغة يجهلها إلى لغة أخرى يجهلها أيضًا ، أى أن عالم الإحساس ينهض على الفيزياء والكيمياء ، لكنه ليس مقصورًا عليهما ، وفى كتاب « القصة الجديدة للعلم » يقدم المؤلفان روبرت أوجروس ، وجورج ستانسيو ، مقارنة توضح هذه الفارق الدقيق بين العملية الفيزيائية / الكيميائية المحضة ، والعملية الحسية الإدراكية الواعية فيقولان :

« من المؤكد أن وجود كتاب ما يتوقف على عناصر الورق والصمغ والحبر التى يتكون منها ، ومن دونها لا يمكن أن يوجد الكتاب ، ومع ذلك ، فالكتاب لا يمكن فهمه فهمًا كافيًا بمجرد إجراء تحليل كيميائى للحبر والألياف الورق ، وحتى لو عرفنا طبيعة كل جزىء من جزئيات

الورق والحبر معرفة كاملة ، فذلك لا يكشف لنا شيئًا عن محتوى الكتاب ، ذلك أن محتوى الكتاب يشكل نظامًا أسمى يتجاوز عالم الفيزياء والكيميائى » .

أى أن عمليات الإحساس والإدراك والوعى تتوقف بالفعل على أعضاء الجسم ، لكن لا يمكن حصرها فى الخواص الفيزيائية والكيميائية للمادة التى لا تستطيع وحدها أن تفسر الإدراك الحسى ، فقد كانت النظرة المادية التى سادت ميدان العلم منذ مطالع القرن السابع عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر تتحدث عن الموجات الضوئية ، والتغيرات الكيميائية ، والنبضات الكهربائية فى الأعصاب ، وأنشطة خلايا المخ ، أما عن عمليات الإبصار والشم والذوق والسمع واللمس ذاتها فليس عند العلمية المادية ما تقوله ، ولذلك فإن النظرة العلمية الحديثة تفترض وجود عنصرين جوهريين فى الإنسان : الجسم والعقل .

إن العقل هو الذى يقوم بعملية الإدراك والمعرفة والوعى ، وبالتالى فإن الوجود كله لا يمكن إدراكه إلا من خلاله ، فالمسألة كلها تبدأ بالإدراك الحسى ، لأن الحواس الخارجية هى الأساس الأول لكل المعارف الإنسانية ومصدرها ، وبدون الحواس لا تجد الذاكرة ما يمكن أن تخزنه ، ولا الخيال ما يستطيع أن يتصوره ،ولا العقل ما يقدر على فهمه ، وكل حاسة من الحواس الخمس – البصر والشم والسمع والذوق واللمس – تدرك صفة محددة من صفات الأشياء المادية ، فحاسة البصر وحدها تدرك الألوان ،وحاسة السمع الأصوات ، وحاسة الشم الروائح ، وحاسة الذوق الأطعمة ، وحاسة اللمس درجات الحرارة

والضغوط وسطح المواد ، وهناك بعض الصفات مثل الحجم والشكل يمكن إدراكها بأكثر من حاسة واحدة ، فنستطيع مثلا أن نعرف حجم قطعة نقدية عن طريق حاسة البصر أو حاسة اللمس ، واللمس هو الحاسة الوحيدة الموزعة على مختلف أجزاء الجسم ، أما الحواس الأربع الأخرى فكل منها يقتصر على عضو متخصص : العين ، أو الأذن ، أو الأنف ، أو اللسان .

تلك الحاسة الغامضة :

لكن هناك حاسة داخلية غامضة تربط بين هذه الحواس الخارجية بحيث تجعلها تندمج كلها فى معزوفة واحدة ، فالعين تدرك اللون الأبيض ولا تدرك المذاق الحلو ، واللسان يدرك الحلاوة ولا يدرك البياض ، فلا اللسان ولا العين يستطيعان التمييز بين البياض والحلاوة لأن أيًا منهما لا يدرك الاثنين معًا ، وينطبق المفهوم نفسه على الفرق بين ارتفاع الصوت وارتفاع الحرارة ، ذلك لأن أية ملكة قادرة على مقارنة شيئين لابد لها من أن تدرك كليهما . وما من حاسة من الحواس الخمس تستطيع أن تؤدى هذه المهمة ، وهذا بدوره يحتم وجود حاسة داخلية تدرك جميع الصفات التى تدركها الحواس الخارجية ، وتميز بينها كالمايسترو فى الأوركسترا .

أما الذاكرة فهى دليل دامغ على الجانب الروحى في عملية إدراك الوجود واستعادة صوره ، فنحن نملك القدرة على استدعاء أمور لم تعد موجودة ، فعملية التذكر عملية واقعة بالفعل ، لكن الشىء الذى

نتذكره ليس كذلك ، إذ أن إدراكنا الحسى الأصلى قد زال على نحو ما ، لكنه مع ذلك تحت تصرفنا ، فالذاكرة لا تستحضر التجربة الماضية فحسب ، بل تستحضرها بوصفها حدثًا ماضيًا ، بل وتستطيع ترتيبها زمنيًا من حيث صلتها بتجارب أخرى ماضية ، بل إن الدهشة تتضاعف عندما نجعل أنفسنا نتذكر الشيء المنسى ، وإذا كانت الذاكرة تخوننا أحيانا ، فنعجز عن تذكر اسم شخص ما أو أين رأيناه أو قابلناه ، فإننا نستطيع فى معظم الحالات أن نحمل أنفسنا على تذكره بالتركيز على أمور أخرى مرتبطة به من خلال تداعى الخواطر والأفكار والمواقف .

أما الخيال فهو ملكة حسية داخلية أخرى لا تمكننا من تصور الأشياء المدركة بالحواس الخارجية الخمس فحسب ، بل الأشياء التى لا تدركها الحواس ، كجبل من ذهب أو فيل فى حجم البرغوث ، فعلى عكس الذاكرة ، يستخدم الخيال المعلومات الواردة من الحواس الخارجية الخمس بحرية مطلقة ، وبطريقة إبداعية تعيد صياغة الواقع ، وتغير من عناصر تركيبه ، وكل إنجازات العلوم وإبداعات الفنون كانت نتيجة لملكة الخيال التى أوجدت علاقات بين عناصر لم تكن موجودة من قبل .

معنى العاطفة :

أما العاطفة فهى ملكة نفسية ناتجة عن فعل ملكة حسية ، فالحب والغضب والفرح والخوف والأمل والرغبة والحزن وغير ذلك من العواطف تربطنا بالعالم بطريقة مختلفة عن الذاكرة والخيال ، وإن كانت

نابعة منهما فالغضب مثلاً يثيره الإحساس بالضرر أو الإهانة ، والخوف يحركه تخيل وقوع شر يتهددنا فى المستقبل ، والحزن يسببه الإحساس بألم حاضر أو تذكر ألم مضى زمانه ، ولذلك فالإحساس عنصر ملازم لكل عاطفة ، برغم أن العواطف نفسها ليست أفعالا تندرج تحت الإدراك الحسى ، فالعاطفة أشمل من الإحساس ، فالخوف مثلاً لا يدرك على مجرد الإحساس بشيء ما ، وإنما يدل على موقف شخصى تجاه هذا الشيء ، فالعاطفة لا تقتصر ، مثلاً ، على حاسة الإبصار بقدر ما تبلور موقف الرائى من الشيء المرئى الذى يجعله يميل إليه ويسعد به أو ينفر منه ويبتعد عنه .

ثم يأتى العقل فى النهاية كى يكمل كل أبعاد عملية الإدراك والوعى التى عجزت الحاسة والذاكرة والخيال والعاطفة عن إكمالها ، فالعقل هو المملكة التى تمكننا من فهم علل الأشياء وماهيتها ، فلا توجد قوة حسية تستطيع أن تؤدى هذه الوظيفة ، فاللسان ، مثلاً ، يدلنا على أن البحر مالح ، لكنه لا يفسر لنا علة ملوحته ، كذلك إذا حاولنا مثلاً أن نتخيل ما هو الحيوان ، فالصورة التى تبعثها الذاكرة والخيال تختص بحيوان بعينه له صفات محددة من حيث الحجم والشكل واللون والنوع ، إذ أنه من المستحيل تكوين صورة حسية لما يشترك فيه جميع الحيوانات ، ومع ذلك فليس من المستحيل على العقل أن يفهم ما هو الحيوان ، أى أنه فى إمكان العقل أن يدرك العلة والماهية ، ولذلك فالعقل فى مجال العلوم هو الصانع الحقيقى للعلم لأنه وحده يستطيع أن يحقق ما تعجز

عنه الحواس والذاكرة والخيال والعواطف من فهم وتعليل وتحليل وتفسير .

العقل والإرادة :

والعقل يرتبط ارتباطًا وثيقًا بطاقة روحية نطلق عليها عادة لفظ « الإرادة » ، ومن السهل التفرقة بين الإرادة والعاطفة لأنهما يمكن أن تتصادما ، والأعمال الجريئة تبرهن على أن الإرادة تفرض نفسها حتى على الخوف من الموت ، فالعواطف تثيرها الحواس ، لكن الإرادة تنطلق طبقًا لما يراه العقل ، بل إننا كثيرًا ما نقول : إن فلانًا من الناس استطاع أن يفرض إرادته على عاطفته حتى لا يفلت الزمام من يديه ، ولعل هذا يمثل أحد الفروق الأساسية بين الإنسان والحيوان الذى لا يملك دفعًا لسطوة الإحساس والعاطفة ، أما الإنسان فيملك قدرة على الاختيار والتنفيذ طبقًا لما يفهمه عقله ويستوعبه إدراكه .

وإذا كان الإنسان بقدرته على تحكيم إرادته فى أفعاله وعواطفه يستطيع أن يغير من مجرى الأمور ، فليست هناك ثمة استحالة فى تأثير الإرادة فى المادة ، فى هذا يقول جون إكليز :

« تعلمت بالتجربة الدائمة أننى بالتفكير والإرادة أستطيع أن أتحكم فى أفعالى إذا أردت ذلك ، وليس فى وسعى أن أفسر تفسيرًا علميًا كيف يستطيع التفكير أن يؤدى إلى الفعل ، ولكن هذا العجز لابد أن يكون نتيجة للبدائية الشديدة التى لاتزال تفرض نفسها على علوم الفيزياء

والفسيولوجيا ، وحين يؤدى التفكير إلى الفعل أجد نفسى مضطرًا كعالم متخصص فى الأعصاب إلى افتراض أن تفكيرى يغير ،بطريقة تستعصى على فهمى تمامًا ، أنماط النشاط العصبى التى تؤثر فى مخى ، وهكذا يصبح التفكير متحكمًا فى شحنات النبضات الناشئة فى الخلايا هرمية الشكل للقشرة الحركية فى مخى ، كما يتحكم آخر الأمر فى تقلصات عضلاتى والأنماط السلوكية الناشئة عنها » .

وإذا كانت الإرادة البشرية طاقة روحية لا تمت إلى المادة بصلة ، فهى تملك حرية الاختيار والتنفيذ بعيدًا عن حتميات المادة وقيودها ، إلا إذا أراد الإنسان القيام بأفعال فوق طاقة البشر ، لكن الأفعال البشرية المتاحة والممكنة هى رهن إشارة الإرادة عندما يقرر الإنسان استخدامها ، بل إن المنهج العلمى ذاته عبارة عن ممارسة مستمرة لحرية التفكير والإرادة ، ولذلك يؤكد إكليز على عدم وجود أسباب علمية وجيهة لإنكار حرية الإرادة التى لابد من افتراض وجودها إذا أردنا أن نتصرف كباحثين علميين ، بل إن إنكار حرية الإرادة يجعل من العلم كله أمرًا منافيًا للعقل ، إذ كيف يبتكر أو يخترع العالم شيئًا جديدًا أو يصحح نظرية خاطئة وهو أسير طبيعة مادية لا يستطيع فك قيودها التى تكبله كى يلقى بنظرة علمية موضوعية متجددة عليها ؟ ! لن يسأل نفسه : ما هو الصحيح الذى يجب أن أكتشفه ؟ ! بل سيصبح السؤال هكذا : ما الظروف المادية التى أعدتنى للاعتقاد فى أفكار ونظريات معينة ؟ ! ولذلك يقول الفيزيائى كارل فون فايتز ساكر : « الحرية شرط من شروط التجربة . فأنا لا أستطيع أن أجرى التجارب إلا عندما يتحرر فعلى

وتفكيرى من الظروف والحوافز والتقاليد ، وأملك حريتى كاملة فى الاختيار » .

حرية الاختيار :

فإذا فقد العالم حرية الاختيار ، فإن صفة العالم تنتفى عنه تمامًا ، بل إن الإنسان العادى إذا فقد هذه الحرية ، فإن صفة الإنسان سوف تنتفى عنه كذلك ، إذ كيف يمكن محاسبته على أفعال ارتكبها مضطرًا تحت ظروف جبرية لم تترك له أى هامش كى يعمل فيه إرادته ؟ ! فلا مسئولية بدون حرية . ومن الواضح أن الإرادة غير المادية عبر التاريخ هى التى طورت وغيرت الطبيعة المادية باستمرار ، ولو لم يكن العقل الإنسانى يملك هذه الإرادة الروحية الحرة الطلقة لظلت الطبيعة المادية على ما هى عليه منذ أقدم العصور السحيقة .

وكان علم النفس من العلوم الحديثة التى أثبتت قدرة العقل على توجيه أنشطة المخ وعملياته ، فيصف عالم الأعصاب روجر سبرى الثورة الفكرية التى حدثت فى علم النفس خلال السبعينيات من هذا القرن ، والتى أحدثت انقلابًا مثيرًا فى معالجة الوعى بأنها قوضت كل دعائم المدرسة السلوكية التى سادت فترة تزيد على نصف قرن . وأصبح عالم النفس يعالج أحداثًا ذاتية كالصور الذهنية والأفكار الباطنية والأحاسيس والمشاعر والعواطف والحواس بصفتها عوامل مؤثرة ، سواء فى وظائف المخ ، أو نوعيات السلوك ، وأصبحت التجارب الداخلية بكل ما تنطوى

عليه من هواجس وشطحات وتمزقات مقبولة كعوامل مؤثرة فى العمليات الفيزيائية والكيميائية التى تتم فى المخ ، ولم تعد تعامل بوصفها جوانب طارئة لا تؤدى إلى تداعيات ملموسة فى المخ والسلوك ، بل وكأنها غير موجودة ، ولذلك يؤكد سبرى قوله :

« إن الخواص المخية العليا للعقل والوعى هى التى تملك زمام الأمر ، فهى تسيطر على كل التفاصيل الفيزيائية / الكيميائية ، وهى التى تحدد الحركات وتتحكم فى حركة النبضات العصبية ، ونموذجنا الجديد – أى المبدأ الذهنى – هو الذى يشغل العقل والخواص الذهنية ويعطيها سبب وجودها وتطورها فى نظام مادى » .

إن العقل لا يمكن أن يقوم بدور قيادى لعالم مادى إذا كان مجرد عنصر ثانوى من عناصره ، فالوعى والإدراك والمعرفة والقيادة تتطلب قدرًا من البعد والعلو ، وبالتالى لا يمكن أن يكون العقل ظاهرة ثانوية مصاحبة لميكانزم الأعصاب إذا أريد له أن يعاين ويوجه الكل ، ويقول عالم الأعصاب والمخ بنفيلد : إن العقل لا المخ هو الذى يراقب ويوجه فى آن معًا ، فالعقل هو المسئول عن الوحدة التى نحس بها فى جميع أفعالنا وأفكارنا وأحاسيسنا وعواطفنا ، كذلك يضيف إكليز قوله بأن وحدة التجربة الواعية يتيحها العقل الواعى نفسه وليس ميكانزم الأعصاب .

وإذا كان الكومبيوتر فى حاجة دائمة إلى عقل يمده بالمعلومات ويوجهه ، فكذلك المخ إذا اعتبرناه كومبيوتر معقد للغاية ، ولذلك يقول

بنفيلد : إن الكومبيوتر (وكذلك المخ) لابد من أن تبرمجه وتديره قوة قادرة على الفهم المستقل ، فالعقل هو القدرة على تركز الانتباه ، والوعى بالأشياء ، واستنباط واتخاذ قرارات جديدة ، وهو الذى يفهم ويتصرف كما لو كانت له طاقة خاصة به ، مستعينًا فى ذلك بمختلف ميكانيزمات المخ ؛ وبالتالى فإن توقع العثور على العقل فى أحد أجزاء المخ ، أو فى المخ كله ، أشبه بتوقع العثور على المادة المبرمجة كجزء من الكومبيوتر .

ولذلك يرى بنفيلد أنه من المحال أن يقوم المخ بآلياته وعملياته ، بدور العقل بطاقته وإرادته ،ويضيف عالم الأحياء أدولف بورتمان قوله : بأنه مهما تعمقت وتوسعت الأبحاث التى لا تخرج عن نطاق النسق الفيزيائى أو الكيميائى ، فإنها ستظل قاصرة عن تقديم صورة كاملة للعمليات النفسية والروحية والفكرية .

ويتبدى لنا إخلاص بنفيلد العلمى فى عدم تقيده بالأفكار القديمة طالما أنه اقتنع بأن الأفكار الجديدة تدحضها بالبرهان العلمي ، فقد بدأ أبحاثه كغيره من علماء جيله والأجيال السابقة ، بإثبات أن المخ هو الذى يفسر العقل على أساس كل افتراضات النظرة القديمة ، لكن الأدلة المتتابعة فى دراساته وأبحاثه دفعته فى نهاية الأمر إلى الإقرار بأن العقل البشرى والإرادة البشرية حقيقتان غير ماديتين ، بل إنه لا يتوقع أن يثبت علم وظائف الأعضاء فى المستقبل انبثاق العقل من المادة كما كانت تتوقع الأجيال السابقة من العلماء ، ويؤكد أن تفسير العقل على أساس

النشاط العصبى فى المخ سيظل أمرًا مستحيلاً كل الاستحالة ، ولذلك فإنه أقرب إلى المنطق أن نقول إن العقل ربما كان جوهرًا متميزًا ومختلفًا عن الجسم .

الجانب الروحى داخل العالم :

ولعل أكبر إنجاز لبنفيلد يتمثل فى تدعيم الجانب الروحى فى تجربة العالم فهو يعلن : « ياله من أمر مثير ، إذًا ، أن نكتشف أن العالم يستطيع بدوره أن يؤمن عن حق بوجود الروح » . وهو بذلك يعزف نفس النغمة الأثيرة عند إكليز عندما يؤكد على أنه إذا كان العقل والإرادة غير ماديين فلاشك أن هاتين الملكتين لا تخضعان بالموت للتحلل الذى يطرأ على الجسم والمخ .

ويقول نورمان بريل فى كتابه « عقل الإنسان المتنامى » :إن المشكلة الخطيرة تتمثل فى أن الإنسان يمكن أن يستغل طاقات عقله اللا نهائية فى ضرره كما يستخدمها فى خيره ، وإذا كانت معظم قدرات العقل أساسية لبقائنا ، فإنه من الصعب التنبؤ بنوعية وسائل استغلالها ، وإن كانت بعض هذه القدرات قد أصبحت تميل مع تقدم الجنس البشرى إلى الارتباط بالروح أو النفس ،فيرى بريل أننا انتقلنا إلى مستوى وجودى أعلى لم نكن نشعر بوجوده ، وذلك بفضل تنامى الوعى الروحى برغم طوفان المادية الذى أغرق هذا العصر ، فلايزال الضمير مواكبًا للعقل الإنسانى ، بل إن بريل يغرق فى تفاؤله بكلماته المتسائلة :

« إذا ظل مخنا ينمو ويتحسن بفضل الطاقات الروحية المتجددة

للعقل ، فهل سنشعر بمزيد من تبكيت الضمير ، أم أننا سنمتنع عن ارتكاب الذنوب ضد إرادة الله ؟ ! يلوح لى أن الأمر الثانى هو الأقرب إلى الصواب ... . إن قوى العقل الواعية تشمل قدرات لم تكن فى الحسبان ،وهى هبات من الله تعرض من يملكها للخطر إذا لم يحسن الانتفاع بها ، والقول بما يعمله الفكر أيسر من وصف الفكر ذاته ، وكل محاولة لوصفه هى فى الواقع محاولة العقل لفهم نفسه ، وهى عملية وعى بالذات ، والتفكير فى حقيقته عملية فهم ، ورؤية كل معقد بدلالة صور فعلية أو رمزية ، وفصل أجزاء هذا الكل المعقد بعضها عن بعض لإدراك العلاقات بينها ، والتنبؤ بالكيفية التى تؤثر بها تغير فى جزء منها فى باقى الأجزاء » .

إن العلم والدين والفن والتاريخ تندمج فى كل واحد ، وكل منها يمثل واجهة ذات لون خاص به ، ولكنه مع ذلك يعكس شيئًا من ألوان الواجهات الأخرى ، والعلم — كتجربة روحية — يشترك مع الفلسفة والفن فى اهتمامه بالخير والحق والجمال ، وهو من بعض النواحى أكثر إلقاء للضوء لأنه أقرب منالاً إلى الفهم ، وعندما يصل العلم إلى هذا المستوى ، حيث يمارس من أجل ذاته ، لا للحصول على أجر أو جزاء ، أو للوصول إلى غرض معين ، فإنه يصل إلى الذروة فى الكشف عن حقائق الأمور ، ذلك أنه يعتمد على الإيمان المنبثق من الفطرة النقية ، الإيمان بأن الكون كتاب مفتوح للعقل البشرى كى يقرأ سطوره فى تمعن وتمتع ، وكى يفهم طبيعة الحقيقة إلى حد كبير ، والإيمان بوجود

وحدة شاملة تتخلل الطبيعة كلها ، والكون كله بصفة عامة ، وأنه كلٌّ واحد ، وأنه أُنشودة الخلق ومظهر للخالق بلا بداية ولا نهاية .

إن كل إنجازات العلم فى مراحله وفروعه المختلفة تثبت وجود خطة شاملة للكون كله ، وبالتالى تؤكد أنه من صنع الخالق جلت قدرته ، وأنه هو الذى وضع هذه الخطة ، وأن العقل البشرى منوط بل ومفطور على اكتشاف أسرار هذا الكون ، وأننا كلما تغلغلنا فى أسرار الطبيعة غمرنا الضياء وزدنا إدراكًا لقدرة الله وعظمته ، وأن قوة العقل البشرى وإرادته إنما هما دليل على أن الكون حقيقة ذات أبعاد يمكن إدراكها ، وأننا عندما نصل إلى الذروة فى بشريتنا وتعقلنا وإدراكنا للحب والجمال ، نعكس ونمثل روح الكون ، وكلما توغل العلم فى مجال الروح ، كان فى ذلك الخير كل الخير ، إذ أن العقل فى هذه الحالة سيقوم بدوره على الوجه المرجو : أى المحور الحقيقى للوعى والوجود .

الفصل الرابع

الفيزياء الذرية والقدرة الإلهية

كان عالم الفيزياء الألماني فيرنر هايزنبرج (١٩٠١ - ١٩٧٦) من العلماء المعاصرين ، الذين أثبتوا أن العلم في حقيقته تجربة روحية في المقام الأول ، وكانت محاضراته وأبحاثه ودراساته رائدة في هذا الاتجاه منذ أن شارك في وضع نظرية الكم ، وعمل أستاذًا للفيزياء في جامعة لايبزج خلال الفترة ١٩٢٧ - ١٩٤١ ، ورأس إبان الحرب العالمية الثانية فريق العلماء الألمان المشتغلين بمجال الانشطار النووى ، كما منح جائزة نوبل في الفيزياء لعام ١٩٣٢ لأبحاثه واكتشافاته في الفيزياء الذرية ونظرية الكم .

ففى محاضرة له ألقاها في الجلسة الافتتاحية « لاتحاد علماء الطبيعة والطب الألمان » في هانوفر في ١٧ سبتمبر ١٩٣٤ ، ونشرت في مجلة « علوم الطبيعة » في نفس العام بعنوان « التغيرات الحديثة في أساسيات العلم البحت » يقول :

« لابد أن نتذكر أن بعض ممثلى الفلسفة الفيزيائية القديمة كانوا أيضًا أقطابًا لحركات دينية ، ومن المتوقع أن تظهر التغيرات الحديثة في المفهوم العلمى عن الكون تأثيرها على مجالات أوسع في عالم الفكر ، إذا

ما لاحظنا أن التغيرات التى حدثت فى نهاية عصر النهضة العلمية شكلت الحياة الثقافية للحقب اللاحقة ، وعلى الرغم من أن هذه التحولات الجديدة لا تقارن بتلك التى حدثت فى بدء العصر الحديث ، فإنها ربما كانت كافية لتقويض دعائم تلك الأفكار التى يمكن أن نسميها المفاهيم العلمية عن كون القرن التاسع عشر لتحل محلها مفاهيم جديدة مختلفة ، لقد اتخذت الأفكار العلمية التى أصبحت الأساس البديهى لكل البحث العلمى خلال القرن الماضى ،أشكالها الصارمة المعروفة خطوة خطوة بالتدريج ، أما القوة الجديدة التى اكتسبها التطور العلمى فقد جاءت عن طريق كشف جديد كل الجدة ، لقد عثرنا على حقل كامل جديد من الواقع ، حقل بعيد تمامًا عن تصور العصور الوسطى التى كان فيها التأمل فيما وراء الطبيعة محورًا لكل الفكر ، لقد واجه الإنسان ذلك الواقع الموضوعى الخالص من كل شك ، والذى يمكن اختباره بالملاحظة والتجربة ، وأصبحت مهمة الإنسان فى سعيه هى محاولة فصل الجانب العام عن الجانب العلمى من الحقائق ، وكان هذا نتيجة طبيعية لهذا الكشف ، وبزغت من النتائج مجموعة من البدهيات تمثل النواة الحقيقية للعلم الجديد ،وبدت – ربما كضرورة – أساسًا لكل بحث علمى ، وقد ظهر تأثير هذا الواقع الجديد فى الفلسفة أيضًا ، وبدت أساسيات الإدراك الجديد للطبيعة كأجزاء من مذاهب فلسفية عظيمة » .

المفهوم الجديد للعلم :

ويواصل هايزنبرج تحليل المفهوم الجديد للعلم فيقول : إنه حتى فلسفة كانط نفسه ، والتى قصد بها نقد طابع الجزم للمفاهيم العلمية لم تمنع

تطور المفهوم العلمى للكون ، بل ربما شجعته ، ذلك أننا إذا ما قبلنا البرهان الرئيسى للفيزياء القديمة على أنه من المسلم به بالنسبة للأبحاث الفيزيائية ، فإننا سنؤمن بأنه مطلق ، أى ثابت مع الزمن ، ولا يمكن أبدًا تحويره عن طريق أية خبرات جديدة .

هكذا تشكل الهيكل الراسخ للفيزياء الكلاسيكية ، وهكذا نشأ التصور لعالم مادى فى الزمن والفضاء شبيه بالآلة ، التى إذا ما بدأت الحركة فستستمر فى الدوران فى ظل قوانين ثابتة ، أما حقيقة أن هذه الآلة - وأن كل العلم - ليسا سوى صنيعة لعقل الإنسان ، فقد بدت كأن لا أهمية لها ، ولا أثر على تفهم الطبيعة وإدراكها ، ولقد أفضى تطبيق الطرق العلمية للفكر فى مجال أوسع من حدودها الحقيقية إلى ذلك التقسيم المؤسف فى عالم الفكر بين حقل العلم من ناحية ، وبين حقلى الدين والفن من ناحية أخرى ؛ لقد هدد العلم المادى البحت كيانه ووجوده عندما فرض نفسه على مجالات أخرى للحياة الروحية والفكرية والذهنية والوجدانية ، بعد اقتناع رواده بأن المادة هى المنبع أو المصدر الوحيد لكل هذه العناصر ، ولما كانت قوته غير كافية كى تعطى التعبير الكامل لهذه المجالات ،فقد نشأت بينها وبين العلم حدود لا يمكن عبورها وكأنها جاءت دفاعًا عن النفس .

ويطلق هايزنبرج على المفهوم العلمى لكون القرن التاسع عشر والذى نشأ تحت هذه الظروف صفة المنطقية ، لأن الفيزياء الكلاسيكية تبنى محوره من عدد قليل من البدهيات القادرة على التحليل المنطقى لكل الواقع ، كما يعتقد روادها وأعلامها ، لكن التمكن من فهم العالم كله

عن طريق جزء صغير منه ، لا يمكن أبدًا أن يقيم بناء منطقيًّا ، ولذلك فإن التغيرات فى أساسيات العلم الحديث التى فرضتها الطبيعة علينا بشكل مبهر رائع من خلال الظواهر الذرية لم تعر الفيزياء القديمة والميكانيكا القديمة التفاتًا حقيقيًّا لأنها لم تكن كاملة ، إذ يتحتم على المذهب العلمى أن يكون كاملاً حتى يكون صحيحًا ، ولذلك فإن إمتداد البحث العلمى إلى مجالات جديدة للخبرة لا يعنى تطبيق القوانين المعروفة على اكتشافات جديدة .

ويحلو لهايزنبرج أن يقارن بين ١٠ اكتشاف الشكل الكروى للأرض وبين نتائج الفيزياء الحديثة ، فطالما اعتبرت الأرض قرصًا كبيرًا ، وظل الإنسان يأمل بعد رحلة طويلة إلى نهاية العالم أن يفسر كلَّ ما عليها من أشياء ، لكن اكتشافات كولومبس بددت هذا الأمل إلى الأبد ، وكذلك الفيزياء الحديثة التى غيرت من تصوراتنا لأجزاء معينة من الكون لم تكن معروفة من قبل .

والآن نعرف أن كل أسفارنا تعود بنا إلى نقطة البداية ، ولذلك ندرك أننا لا نستطيع أن نصل إلى الفهم الكامل ، مهما طال السعى ، فلاشك أن لا تناهى الكون يقع خارج هذا المجال ، فالفيزياء القديمة تمتد فقط لتشملَ المدى الذى تطبق فيه الأفكار التى ترتكز عليها ، لكن هذه الأفكار لا تصمد للاختبار العلمى إذا ما طبقت على عمليات الفيزياء الذرية ، بل وتنهار تمامًا فى كل ميادين العلم الأكثر بعدًا عن الفيزياء القديمة ، ولذلك فإن الأمل فى تفهم كلِّ زوايا الحياة الروحية والذهنية

والفكرية والوجدانية عن طريق الفيزياء القديمة ليس له ما يبرره بأكثر من أمل المسافر ، الذى يعتقد أنه سيصل إلى حل لكل المشاكل إذا ما وصل فى رحلته إلى نهاية العالم .

الأرض ليست العالم :

وعندما تمكن الإنسان من اكتشاف أن الأرض ليست العالم ، وإنما هى جزء صغير محدد من العالم ، استطاع أن يرد المفهوم الخادع « لنهاية العالم » إلى مكانه الطبيعى ، وأن يضع بدلاً منه خريطة مضبوطة لكل سطح الأرض ، وبنفس القياس ستتمكن الفيزياء الحديثة من تطهير الفيزياء القديمة من اعتقادها السائد المغرور فى قدرتها على التطبيقات اللا محدودة ، فلم تعد المادة هى كل شىء وإنما هناك الطاقات العقلية والذهنية والروحية والفكرية والوجدانية ، التى يمكن أن تدرك الواقع خارج الأطر المحدودة للمادة ، ففى القرون :السابع عشر إلى التاسع عشر حين سيطرت المادية العلمية ، كانت معظم المذاهب الفلسفية تفترض حقيقية معينة كنقطة للبداية يمكن منها مهاجمة كل الأسئلة عن القصور العقلى للعالم ، لكن الطبيعة قد نبهتنا الآن عن طريق الفيزياء الحديثة إلى أنه لا ينبغى أن نطمع أبدًا فى مثل هذا الأساس الراسخ ، كى نتفهم كل مجالات المحسوس من الأشياء ، فليس هناك أساس راسخ فى مجال المادة ، وإنما علينا إذا ما ووجهنا بتحديات ذهنية وروحية بالفعل ، أن نتخذ من كولومبس مثلاً لأنه امتلك الشجاعة كى يترك العالم المعروف تحت أمل مجنون فى أن يجد أرضًا جديدة فيما وراء البحار ، وعلينا أيضًا أن نبحث عن الروح فيما وراء المادة..

ولا يجد هايزنبرج نفسه متسرعًا عندما يأمل فى أن تقربنا قوى روحية جديدة من وحدة المفهوم العلمى للكون ، تلك الوحدة التى طالما وقعت تحت وطأة المادية العلمية حتى طمست ملامحها التى يسعى العلم الحديث إلى بلورتها لتسهيل عملية إدراكها ، فقد استحدث القرن التاسع عشر إطارًا بالغ الجمود للعلم الطبيعى ، لم يكن يشكل إطارًا للعلم وحده ، بل لوجهة نظر جماهير غفيرة من الناس ، وفيه كانت المادة هى الحقيقة الأولية ، كان تقدم العلوم بمثابة حملة صليبية لغزو عالم المادة ، وكانت المنفعة شعار ذلك العصر .

وفى مقالة بعنوان « أفكار الفلسفة الطبيعية القديمة فى الفيزياء الحديثة » يقول هايزنبرج إن هناك فكرتين من الفلسفة الإغريقية القديمة ، مازالتا حتى الآن تحددان سبيل العلم وهما : الاقتناع بأن المادة تتكون من وحدات صغيرة لا تنقسم – أى ذرات – والاعتقاد فى قوة الدفع الكامنة فى التراكيب الرياضية .

كانت قضية وجود الذرات هى النتيجة الطبيعية لتطور مفهوم المادة ، إذ كان تقسيم المادة هو المحاولة الأولى للفلسفة الطبيعية القديمة ، ففى خضم الظواهر السريعة الزوال ساد الاعتقاد بضرورة وجود شىء دائم يتعرض للتغيير ، إلى القول بوجود « مادة أساسية » .

وكانت أشهر التحديدات لهذا المفهوم قد تمثلت فى العناصر الأربعة : التراب والنار والهواء والماء ، وكان يفترض أن أصغر جسيم فى المادة يحتفظ بخواصه الأولية بلا تغيير ، وبذلك نشأت فكرة أصغر وحدة

لا تنقسم من المادة ، وبدت « الذرات » فى تعاليم لويسبس وديموقريطيس كعناصر حقيقية للتطور المادى والروحى .

تناقضات النظرية الذرية القديمة :

وتفترض الفيزياء الذرية الحديثة أيضًا أجسامًا أولية غير قابلة للانقسام تسمى بالإلكترونات ، والنيوترونات ، والبروتونات ، وهذه النظرية أيضًا تحاول اتباع كل الخواص المحسوسة للمواد إلى ديناميكية الذرة ، غير أن ضرورة تفسير أدق التجارب المنفذة ، حتى تفاصيلها الأخيرة ، قد أوضحت وجود تعارض معين أو تناقض داخلى فى النظرية الذرية القديمة ، وهو التناقض الذى وضح فى إهمال ديموقريطيس لفكرة ربط الفضاء والزمن بوجود المادة حتى يتمكن من تفسير الفضاء والزمن ، ولم يكن هناك فى تعاليم ديموقريطيس مكان لتلك الفكرة العظيمة القديمة القائلة بأن الفضاء والزمن ينتشران عن طريق المادة ، كما أنهما – فى الجوهر – مشابهان لها .

وإذا عرفنا أن المسافة الزمنية بين الفيزياء الذرية القديمة والحديثة تزيد على عشرين قرنًا ، فإن هذا يدل على أن العقل البشرى كان مدفوعًا دائمًا باكتشاف ذلك العالم الغامض المتناهى فى الصغر ، والذى يوضح أن أسرار الكون لم تحدث صدفة أو عبثًا ولكنها كانت نظامًا بديعًا ومبهرًا ومجسدًا لعقل كونى ازلى وأبدى ، ولذلك يقول هايزنبرج فى محاضرة ألقاها فى بودابست فى ٥ مايو ١٩٤١ أمام جمعية الزمالة الثقافية :

إن هناك فى مقابل الواقع الموضوعى – المتحرك طبقًا لقوانين محددة

والملزم حتى عندما يبدو عرضيًّا وبلا غرض – هناك يقف الواقع الآخر الهام والملىء بالمعانى بالنسبة لنا ، فى هذا الواقع الأخير لا تحسب الحوادث وإنما توزن ، لا تعلل الحوادث وإنما توصف ، وفيه تبرز العلاقات ذات المغزى من خلال انتماء الأشياء إلى بعضها داخل ذهن الإنسان ، وبالتالى يصبح المعنى الفكرى والذهنى والإنسانى والروحى خطوة أعلى وأرقى من الدلالة المادية للاكتشاف العلمى .

وفى محاضرة عن وحدة الصورة العلمية للطبيعة ألقاها هايزنبرج فى جامعة لايبزج فى ٢٦ نوفمبر ١٩٤١ ، يقول : إن الصراع الذى وقع بين العلم والدين كان صراعًا مفتعلاً ينم عن سوء الفهم أو سوء التفاهم من رجال الدين الذين لم يروا فى الدين سوى قوالب جامدة صماء أعمتهم عن رؤية جوهره الرحب الشامل ، فعندما اكتشف جاليليو قانون سقوط الأجسام ، وعندما درس كبلر حركات الكواكب ، كانت هناك فكرة موحدة واحدة عن الطبيعة ، ولم تكن مهمة رجل العلم التمرد على صورة العالم والطبيعة والكون كما وردت فى الإنجيل ، وإنما رأى أن عليه أولاً التسليم بعمل الله فى الطبيعة ليمجده بإدراك تناسقه بشكل علمى ، ومن المستبعد أن يكون جاليليو أو كبلر أو كوبرنيق قد وضعوا فى اعتبارهم أى احتمال بأن تؤدى اكتشافاتهم العلمية إلى تعارض جذرى مع وجهة النظر الدينية السائدة فى عصرهم ، كان هدفهم فى المعرفة هو نفس هدف رجال الدين وإن اختلف السبيل إليها ، ولكن رجال الدين لم يكتفوا بوحدة الهدف بل أصروا على وحدة الوسيلة أيضًا ، ولم يدركوا فى ذلك العصر أن المعرفة بكل فروعها وتعقيداتها

وتشعباتها لا تحتمل وحدة الصف ، بل تفتح أحضانها لكل عشاقها بصرف النظر عن الطريق الذى سلكوه إليها ، كان كبلر نفسه يظن بأن دراسته للتناسق فى الكرات التى استخلص منها قانونه الثالث الشهير ، لم تكن أكثر من مجرد تفسير لإعجاز الخلق الإلهى ، يقول فى نهاية كتابه الخامس عن « هارمونية الشكل » :

« لقد حاولت أن أكتسب لسبب إنسانى - وبمساعدة الحسابات الهندسية - تبصرًا فى طريقة الله فى الخلق ، اللهم يا خالق السموات نفسها ، يا خالق المنطق كله يا من خلقت حواسنا الفانية ، يا من لك الخلود ، أبقنى فى نعمتك ، واحمنى من أن أذكر عن عملك ما لا يمكننى أن أكفر عنه أمام عظمتك . اللّهم دعنا نهب حياتنا كى نبتغى كمال عملك فى الخلق » .

العلم والعقيدة الدينية :

إن هذا التأكيد للعقيدة الدينية يمثل بلاشك الموقف الأساسى للعلم القديم برغم المادية التى سيطرت عليه بعد ذلك ، كما يمثل الموقف الأساسى للعلم الحديث ، الذى بدأ يرسخ أقدامه فى العقل الإنسانى منذ مطالع القرن العشرين ، بل إن نيوتن الذى اعتبرت اكتشافاته قمة العلمية المادية اعترف بأنه بعلمه فى مواجهة الكون ليس سوى طفل يلهو :

« أنا لا أعرف كيف أبدو للعالم ، لكننى أبدو لنفسى طفلاً يلهو على شاطىء البحر ، ألهى نفسى فى البحث ، بين الحين والآخر ، عن

حصاة ملساء أو صدفة أكثر جمالا ، فى حين يمتد محيط الحقيقة العظيم أمامى مجهولاً » .

ويبدو أن التخصص العلمى الدقيق الذى جعل من الصعب التحدث عن صورة علمية موحدة للطبيعة ، لم يترك لأى من رجال العلم سوى ذلك القسم الضيق من الطبيعة الذى يهب له مجهود حياته ، فلم يعد من المستطاع – داخل هذه الصورة للطبيعة – وجود مكان مناسب لذلك الميدان الواسع من الواقع الذى يشمل العمليات الذهنية ، وربما كان هذا أحد أسباب التقسيم المؤسف للنشاط الذهنى إلى دوائر للعلم والدين والفن ، ويؤكد هايزنبرج على أن صورة مثل هذه للطبيعة لا يمكن أن تكون مقنعة تمامًا ، كما أنها لا تستطيع أن تمنع تفكك العلم إلى أنظمة فردية عالية التطور لكنها تفتقر إلى الوحدة الفكرية التى تجعل منها أوركسترا متناغمًا يقوده مايسترو بارع .

من هنا كان الإنجاز الحقيقى للفيزياء الذرية منذ مطلع القرن العشرين ، من خلال ربط سلوك وخواص المادة بحركة أصغر جسيماتها وهى الذرات ، فقد استنبطت الفيزياء الذرية كل النظم الفيزيائية والكيميائية من أصل مشترك بحيث وُضعت المشكلة على النحو التالى : إن الخواص المرئية للمادة كشغلها للفراغ ، وقوة المواد ، واللون ، والخصائص الكيميائية ، كلها صفات للمادة فى شكلها المتكامل ، ولكنها لا ترتبط بنفس الطريقة بأصغر « القوالب » التى لا تنقسم للمادة ، وإلا لما أمكننا التعرف على نفس المادة إذا وجدت فى أشكال مختلفة ، (مثل الماء فى شكل الثلج أو الماء أو البخار) ، فهذه الخواص المتكاملة تنتج فقط

عن طريق حركة أصغر الجسيمات وقواها المتبادلة ، وربما كان نظام الواقع فى الفيزياء الذرية الحديثة أقدر على أن يسمح بمذاهب مختلفة من المفاهيم ، ذلك لأنه يستطيع أن يجعل الظواهر موضوعية دون الحاجة إلى علاقاتها الذاتية المتغيرة .

الروح والشعور :

وعلى هذا فإن التغيرات التى قدمتها نظرية الكم ، قد أثرت فى وضع نظريات الإدراك بطريقة يمكن معها أن نربط فى شكل جديد تلك النواحى من الواقع ، التى تميز بكلمات مثل « الروح » و« الشعور » فى إطار التصور العلمى لزمننا هذا ، لقد بنيت الفيزياء القديمة على أسس متينة من معرفة الواقع الموضوعى للحوادث فى الزمن والفضاء ، والذى يحدث طبقا لقوانين طبيعية مستقلة عن النشاط الذهنى ، وهذا يعنى بالطبع أنها بالتالى تنطبق فقط على مثل هذه العمليات الموضوعية . أما العمليات الذهنية ،فيبدو أنها مجرد صورة لهذا الواقع الموضوعى الذى يفصله عن عالم علاقات الزمان ، لا يمكن ملؤه ، ويركز هايزنبرج على أن تكنيك الملاحظة الحديث المتطور وزيادة المعرفة الإيجابية التى نتجت عنه ، قد دفعا بنا أخيرًا إلى أن نراجع أساسيات العلم ، لإستحالة وجود مثل هذا الأساس المتين « لكل » الإدراك ، وبرغم كل شيء فإن فكرتنا عن عالم يتحرك فى الزمن والفضاء ما هى إلا تصوير للعالم فى صورة مثالية ، تمليه علينا رغبتنا فى رؤية العالم موضوعيا إلى الحد الأقصى الممكن ، ولقد استخدمت نظرية الكم منهجًا من نوع مختلف أقل وضوحًا لا يساير رغبتنا فى رؤية الأشياء موضوعيًا ، وإنما تمكننا

عوضًا عن ذلك من التفهم الكامل للقوانين التى تحكم التغيرات الكيميائية، وبذلك أصبح من الممكن تكرار تلك العلاقة التكميلية الغريبة بين النواحى المختلفة للواقع سواء أكانت قوانين طبيعية أو أنشطة ذهنية .

ويقصد هايزنبرج بالنواحى الأخرى من الواقع بجانب ظواهر الحياة ، الشعور ، والروح ، والعمليات الذهنية ،وهو يعترف بالعجز عن افتراض ضرورة وجود رابطة مشتركة بين تفهمنا لحركة الأجسام فى الزمن والفضاء وبين تفهم عمليات الذهن ، لأننا تعلمنا من العلم أن معالجتنا الذهنية للواقع تحدث أولاً على مستويات منفصلة ، ترتبط فقط خلف الظواهر فى فضاء مجرد ، وأننا نشعر الآن أكثر من أى وقت مضى بأنه لا توجد وجهة نظر مبدئية محددة ، تتشعب منها طرق تؤدى إلى مجال « المدرك » إذ أن كل الإدراك معلق فوق هوة لا يمكن إدراك عمقها ، وكل ما يملكه العلم حتى الآن هو مجرد محاولات تجريبية لتحسس الطريق فى مجالات محدودة من الواقع .

وعلى هذا فإننا لم نعد الآن فى وضع كبلر السعيد المتفائل عندما تفهم العلاقات البينية للعالم ككل ، بصفتها تجسيدًا لإرادة الله ، واعتقد بمعرفته لهارمونية الكرة أنه على عتبة تفهم خطة الخلق ، ولكن الأمل فى كل كبير مترابط ، نستطيع تفهمه أكثر وأكثر ، هذا الأمل لنا نحن أيضًا ، هو بمثابة قوة دافعة للبحث .

الفيزياء الذرية والإرادة الإلهية :

ويوضح هايزنبرج العلاقة بين الفيزياء الذرية والإرادة الإلهية

فى محاضرة له ألقاها فى ٩ يوليو ١٩٤٨ بالمعهد التكنولوجى العالى بزيوريخ بعنوان « المشكلات الأساسية فى الفيزياء الذرية المعاصرة » ، وفيها يتتبع خطوة خطوة الأفكار التى قادت الفلسفة الطبيعية الإغريقية منذ ألفين وخمسمائة عام إلى النظرية الذرية ، فقد كان الزمان حتى ذلك الوقت يعتبر شيئًا مستحيلاً دون المادة ، لكنه لم يكن المادة ذاتها بل شيئًا مرتبطًا بها ، ثم منحته الفلسفة المادية استقلالاً خاصًا ، وأصبح كفضاء خال بين الذرات ، عامل الهندسة المسئول عن كل الأشكال والظواهر المتباينة للعالم ، فليست للذرات نفسها أية خصائص ولا وزن ولا رائحة ولا طعم ، لكن خصائص المواد يتم إنتاجها بطريقة غير مباشرة عن طريق الوضع النسبى ، والحركة النسبية للذرات ، يقول ديموقريطس :

« كما يمكننا بنفس الحروف كتابة التراجيديا وكتابة الكوميديا ، كذلك يمكننا أن نعرف الحوادث المتباينة لهذا العالم بنفس الذرات ، طالما كانت هذه تشغل أماكن أخرى وتتخذ حركات متباينة » .

أى أن العالم يتركب فى النهاية من جوهر متجانس ، وأنه يرتكز على مبدأ واحد موحد ، ومن الضرورى أن ترجع الظواهر المتعددة إلى التعدد فى التراكيب الرياضية ، وقد تجلت القدرة الإلهية فى التطورات العلمية الحديثة التى أكدت الفكرة الهامة القائلة بوجود قوانين طبيعية ثابتة تحكم كل الحوادث ، ولكن هذه التطورات الحديثة لا تزال تتبنى الأفكار الأساسية للنظرية الذرية – بلا تغيير تقريبًا – كما تحتفظ حتى

يومنا هذا بقوتها الخلاقة ، فلقد وجدنا الآن – كما تمنى الإغريق – جوهرًا واحدًا أساسيًّا ، منه يتكون كل الواقع ، وإذا كان علينا أن نسمى هذا الجوهر ، فلن نسميه إلا « الطاقة » ، لكن هذه « الطاقة » الأساسية لها القدرة على الوجود فى أشكال مختلفة ،وهى تبدو دائمًا فى كميات محددة نعتبرها دائما أصغر الوحدات التى لا تقبل الانقسام فى كل المادة ، ومن بين الأشكال الأساسية للطاقة هناك ثلاثة أنواع بالذات ثابتة هى :الإلكترونات ، والبروتونات ، والنيوترونات ، وتتركب المادة بمعناها الحقيقى من هذه الأشكال الثلاثة بالإضافة إلى طاقة الحركة ، كما أن هناك جسيمات تتحرك دائمًا بسرعة الضوء تشمل الإشعاع ، وأخيرًا هناك أشكال لها فترة حياة قصيرة ، لم نكتشف منها إلا القليل ، ولذلك فإن تعدد مظاهر الطاقة يؤدى بالحتمية إلى تعدد الظواهر الطبيعية كما توقع فلاسفة الإغريق الطبيعيون .

لقد شرعت النظرية الذرية الإغريقية فى تفسير خصائص الواقع كله : العمليات الذهنية والكائنات الحية وكذلك العمليات المادية البحتة ، إذ قال ديموقريطس : « ليس هناك سوى ذرات وفضاء فارغ » ، فهل ترتبط النظرية الذرية الحديثة فقط بحقل ضيق ؟ وهل علينا أن نفرض بجانب الذرات وجود شىء آخر ، كالروح مثلاً ؟ أم مازالت نظريتنا أيضًا تعتنق أن ليس هناك سوى ذرات وفضاء فارغ » ؟ ، وحتى لو قبلنا تفسير ديموقريطس هذا ، فإن المادية المتضمنة هنا لا تشير إطلاقًا إلى ذلك الميل المعادى « للروحية » ، الذى عادة ما يرتبط بهذه الكلمة .

والإنجاز الجديد الذى يضيفه هايزنبرج يتمثل فى أهمية فهم خطوط الذرات ، فهو شيء لم يفكر فيه الإنسان من قبل برغم أن له معنى أعمق بكثير ، فحتى إذا ما تمكنا من السيطرة عليه وتفهمه ، فلن ننسى أن المهم فى التراجيديا والكوميديا هو المحتوى وليست الكلمات ، وأن هذا ينطبق تمامًا على عالمنا ، فالمحتوى فى التراجيديا والكوميديا يسرى كالروح فى جميع العناصر والجزئيات والذرات ،نشعر به ونعى وجوده لكننا لا نعرف كيف ؟ ! إذ يبدو أنه لايزال أعلى وأشمل من إدراكنا البشرى المحدود .

وقد تعلم هايزنبرج من محاضرات العالم الذرى نيلزبور أنه لا يهم إطلاقًا – عند محاولة تفهم التركيب الذرى – ما إذا كنت ألمانيًا أو دانمركيًا أو إنجليزيًا ، وتعلم شيئًا آخر ربما كان أكثر أهمية ، هو أنه من الممكن أن تقرر الشيء الصحيح والشيء الخاطيء ، لم يكن الموضوع موضوع اعتقاد أو تصور أو فرض إذ أن القضية ببساطة تتمثل فى إما أن تكون الجملة صحيحة ، وإما أن تكون خاطئة ، فليس لأصل الإنسان أو نوعه أى تدخل فى حسم هذا الموضوع ، إن الطبيعة هى التى تحكم ، أو إذا أردت ،إن الله – وليس الإنسان – هو الذى يحكم .

ضرورة القيم الروحية :

وفى حديث ألقاه هايزنبرج على طلبة جامعة جوتنجن فى ١٣ يوليو ١٩٤٦ عن « العلم كوسيلة للتفاهم بين الشعوب » ألقى الضوء على خطورة العلوم الذرية بصفة خاصة ، والعلوم الطبيعية بصفة عامة إذا

ما فقدت صلتها بالقيم الروحية والإنسانية التى تخضعها لسعادة الإنسان ورقيه المأمول ، فلابد للعالم أن يحكم ضميره ،بصرف النظر عن أية روابط ،فى صحة القضايا المطروحة لخدمة البشرية ، فهناك كتل بشرية كبيرة ومعها المسيطرون على الحكم ،تعمل بلا وعى وبتحامل أعمى ، فإذا ما حصلوا على المعرفة العلمية من العلماء ، فمن الممكن أن يتحرك العالم إلى موقع تصفه كلمات الشاعر الألمانى شيللر : « الويل لمن يهبون نور السماء للأعمى ، إنه لا يلقى له ضوءا ، إنما يحرق الأرض والمدائن ويملؤها سوادًا » ، إن لدى العلم الآن القدرة على أن يطلق قوى رهيبة ، أكبر من كل ما سيطر عليه العلم من قبل ، ولكن هذه القوى ستقود إلى الفوضى إذا نأت عن القيم الروحية والإنسانية والأخلاقية . يقول هايزنبرج :

« دعونا نعد إلى الوراء بضعة قرون ؛ فى نهاية العصور الوسطى اكتشف الإنسان ، إلى جانب الواقع المسيحى الذى يتمركز حول الإلهام الإلهى ، واقعًا آخر من الخبرة المادية ، كان هذا الواقع هو الواقع الموضوعى الذى نمارسه من خلال حواسنا وعن طريق التجربة ، ولكن بقيت هناك فى هذا التقدم نحو المجال الجديد مناهج فكرية معينة دون تغير ، فالطبيعة تتكون من أشياء فى الفضاء تتغير فى الزمن تبعًا للسبب والنتيجة ، وكان عالم الروح بعيدًا عن هذا الواقع ، أى واقع عقل الفرد الذى يعكس العالم الخارجى مثل المرآة ، وبرغم اختلاف الواقع الذى يحدده العلم عن الواقع المسيحى ، فإنه يمثل أيضًا تنظيمًا إلهيًا يرتكز فيه فعل

الإنسان على أساس متين ، ولا مجال فيه للشك فى تحقيق أهداف الحياة ، كان الكون لا نهائيًا فى الفضاء والزمن مع سيطرة المفاهيم العلمية ، وبالتالى شغل بشكل ما مكان الله بسبب لا نهائيته فى نظر رواد العلمية المادية ، لكنهم لم يدركوا أن اللا نهائية هى فى حد ذاتها رمز للرب » .

وقد اختتم هايزنبرج حديثه مؤكدًا على أن روح العلم هى روح دينية فى صميمها ، فالعلم – مثل الدين تمامًا – يفصل فصلاً حاسمًا بين الصواب والخطأ ، فهناك قوة أعلى لا تتأثر برغباتنا ، هى التى ستجزم وتحكم فى النهاية ، إن قلب العلم – بالنسبة لهايزنبرج – تكونه العلوم البحتة ، التى لا تهمها التطبيقات العلمية ، تلك الصروح التى يحاول فيها الفكر الخالص أن يكشف تناسقات الطبيعة المخبأة ، وقد يجد الجنس البشرى اليوم هذا اللب الذى لا يمكن فصل العلم فيه عن الإيمان ، والذى تسعى من خلاله الأيدلوجية البشرية إلى تشخيص الحقيقة البحتة ، عندئذ سيدرك أن هناك قوة أعلى تتخذ القرارت ، وقد استعمل الناس كلمات مختلفة فى أوقات مختلفة لهذا اللب أو المحور . قالوا عنه إنه القدرة الإلهية أو الإعجاز الإلهى اللانهائى ، وأدركوا أن هناك طرقًا عديدة تؤدى إليه ، والعلم – حتى يومنا هذا – هو واحد من أهم هذه الطرق ، ربما لم تعد لدينا لغة مشتركة معترف بها من الجميع نستطيع بها أن نشرح أنفسنا ، وربما كان هذا التخبط سببًا فى أن الكثيرين لا يستطيعون رؤية محور الكون هذا ، لكنه

موجود اليوم كما كان موجودًا دائمًا ، وعليه لابد أن يرتكز أى نظام للعالم ، إن القيمة الحقيقية للعلم تتمثل فى أنه يوجه اهتمامنا إلى هذا « المحور » الذى يمكنه أن يشيد النظام فى العالم ككل ، وأن يفسر للإنسان معنى الوجود الذى أعياه البحث عنه .

الفصل الخامس

العلم دين والدين علم

أوضح تاريخ العلم أن معظم العلماء الذين تركوا بصماتهم واضحة على مساره ونقاط تحوله ، كانت لديهم فكرة كامنة عن الله تكاد تضاهى فى رسخوها فكرة فلاسفة الدين ورجاله ،فحتى اسحق نيوتن الذى اعتبر رائدًا للعملية المادية منذ القرن السابع عشر لم يتصور نظامه الميكانيكى الخاص بالكون بدون وجود الله ، ففى رسالة وجهها إلى الدكتور ريتشارد بنتلى فى عام ١٦٩٢ أكد نيوتن على أن الإرادة الإلهية وراء حركة الكواكب وإرساء البنية الأصلية للمجموعة الشمسية قائلاً : « إن حركات الكواكب الراهنة لا يمكن أن تكون قد انبثقت من أية علة طبيعية فحسب ، بل كانت مفروضة بفعل قوة عاقلة » .

ومع ذلك فإن النظرة المادية التى بلغت قمتها فى القرن التاسع عشر ، أنتجت بعض مؤلفات تتسم بحماسة غريبة وتهاجم الدين باسم العلم ، فعلى سبيل المثال لا الحصر صدر فى عام ١٨٧٥ كتاب « تاريخ الصراع بين الدين والعلم » الذى ألفه جون د . دريير الذى كان أول رئيس للجمعية الأمريكية لعلوم الكيمياء ، وبعد ذلك بعشرين عامًا ، فى عام ١٨٩٥ ، ألف أندرو د . هوايت ،

وهو أول رئيس لجامعة كورنيل كتاب « تاريخ المعركة بين العلم واللاهوت في المسيحية » ، ويكفى عنوانا الكتابين دليلاً على الاتجاه الذى بلغ ذروته فى القرن الماضى .

لكن سرعان ما انحسر هذا الاتجاه مع مطلع القرن العشرين ، يقول عالم الفيزياء الفلكية دينيس شياما : « لعل أهم اكتشاف علمى من اكتشافات القرن العشرين هو أن الكون بأكمله ، بوصفه كلية واحدة ، قابل للبحث العقلانى باستخدام أساليب علمى الفيزياء والفلك ، وقد بزغت هذه النظرة الجديدة إلى الكون بمجرد اكتشاف آينشتاين لنظرية النسبية العامة التى تتناقض مع نظرية نيوتن فى الفيزياء ، لأنها جمعت بين الجاذبية والمكان والزمان ، يقول ويلر : « لقد علمنا آنيشتاين أن المكان عنصر مشارك فى الفيزياء ، لا ميدان للفيزياء فحسب » . والشىء نفسه ينطبق على الزمان ،وقد زودت عملية التوحيد هذه الفيزيائيين للمرة الأولى بأدوات البحث الدقيق فى بنية الكون بأكمله وفى أصله ومآله ، وبعد نشر النسبية العامة استنتج الفلكى ويليم دى سيتر والرياضى ألكسندر فريدمان من النظرية الجديدة ، كل على حدة ، أن الكون آخذ فى التمدد ، وسرعان ما ثبت ذلك بالمشاهدة . فخلال العشرينيات من هذا القرن اكتشف الفلكي إدوين هابل ، فى أثناء تحليله للضوء المنبعث من المجرات البعيدة ، أن جميع المجرات الممكن رصدها يتباعد بعضها عن بعض . وكان هذا هو أول مفتاح لأسرار تاريخ الكون ، فإذا كانت المجرات تتباعد الآن بعضها عن بعض فلابد أنها كانت فى الماضى السحيق متحدة ، مما يدل على أن للكون بداية .

وفى كتاب « حدود العلم » الذى ألفه ج . د . سوليفان يقول : إن فكرة الفلسفة المادية يمكن أن تكون صحيحة كوصف على الرغم من أنها غير قابلة للفهم كتفسير ، فهى تقول : إن خواص جديدة بصورة جذرية تبرز إلى الوجود فى مراحل مختلفة من التعقد الذى يصل إليه الكيان المادى ، فالحياة والعقل كلاهما قد اعتبرا وفقًا لهذه النظرية خاصتين طارئتين على مجاميع مادية معينة ، لكن المعرفة التامة بالعناصر المكونة لهذه المجاميع لا يمكنها أن تتيح لنا التنبؤ بأن اجتماع هذه العناصر سوف ينتج خاصتى الحياة والعقل ، إن نظرية التطور تطلعنا على الشىء الكثير فيما يتعلق بتطور أجسامنا ، لكنها لا تطلعنا إلا على النزر اليسير فيما يتعلق بتطور عقولنا .

المصادفة العمياء ليست قانونًا :

إن المصادفة العمياء التى تتخبط فى الظلام لا يمكن أن تكون مبدأ أو قانونًا يسود جميع الكائنات الحية ، بحكم أن المصادفة بطبيعتها لا يمكن أن تتخذ مظهر قانون عام يصلح لكل زمان ومكان ، وفى قانون الاحتمالات فى العلوم الرياضية ما يثبت ذلك ، فإذا أحضرنا عشر ورقات صغيرة الحجم ، وكتبنا على كل ورقة رقمًا يبدأ بالرقم واحد حتى رقم عشرة ، ووضعنا هذه الورقة فى كيس يمنعنا من رؤيتها ، ومددنا يدنا داخل الكيس فإن فرصة سحب الورقة التى تحمل رقم واحد تكون بنسبة واحد إلى عشرة ، وفرصة سحب رقم واحد ورقم اثنين متتابعين تكون بنسبة واحد إلى مائة ، وهكذا حتى تصبح فرصة سحب الأوراق بترتيبها

من واحد حتى عشرة بنسبة واحد إلى عشرة بلايين ، وبناء على ذلك يصبح من المستحيل أن تتكرر الصدفة لتتخذ شكل قانون عام يسرى على آلاف الأنواع من الكائنات الحية ، سواء فيما يتصل بظاهرة مقاومة عوامل الفناء أو فيما يتعلق بتركيبها الخارجي والداخلي ، كما يتمثل في أعضائها المختلفة التي تعمل في توافق عجيب وتعاون مذهل ، يحافظ على حياة الإنسان ، إلا إذا أمكننا أن نتصور وجود تلال من الأحجار والحديد والأخشاب والزجاج مكدسة في مكان معين ، وحدث انفجار في هذه المواد المختلفة أدى من تلقاء نفسه إلى تشييد فيلا أنيقة أو عمارة رائعة ، أو إذا تصورنا طفلاً يلهو بآلة كاتبة ويضرب على مفاتيحها خبطات عشواء فيتوصل إلى كتابة مسرحية « هملت » لشكسبير مثلاً ! ، ولو أن هذا يبدو تافهًا إذا ما قورن بخلق أى كائن حى مهما صغر حجمه وبدا لنا تافهًا ضئيلاً ، ولعل هذا يذكرنا بالفنان التشكيلي الهولندى رامبرانت الذى قال : إنه لو شب حريق وخير بين إنقاذ لوحة من لوحاته أو إنقاذ قطة ،فإنه سيختار إنقاذ القطة .

فى عام ١٩٤٨ استطاع الفيزيائى جورج جاموف بعد دراسات مستفيضة فى ظاهرة تباعد المجرات ودورة حياة النجوم ،أن يثبت أن الكون نفسه نشأ من تمدد للمادة أطلق عليه اسم « الإنفجار العظيم » على أساس أن كرة النيران ذات الحرارة الفائقة ، وقد تمددت بسرعة كالإنفجار ثم بردت ، لكن إثبات جاموف ظل معلقًا كمجرد فرض فى نظر العلماء حتى عام ١٩٦٥ ، حين اكتشف أرنو بنزاياس وروبرت ويلسون ، بمحض المصادفة ، وباستخدام جهاز ضخم لإلتقاط الموجات

الصغرى ، إشعاعًا ضعيفًا منبعثًا من الفضاء ،وبعد أن قاس بنزاياس وويلسون هذا الإشعاع بدقة لم يسبق لها مثيل وجدا أنه يقرب من ٣,٥ درجة فوق الصفر المطلق ، ولم يكن الإشعاع أشد كثافة فى اتجاه الشمس أو فى إتجاه مجرة درب التبانة ، ولذلك لا يمكن أن تكون المجموعة الشمسية أو المجرة مصدر هذا الإشعاع ، فلم يبق إلا تفسير واحد وهو أنه بقية من الإشعاع الأصلى الناتج من « الإنفجار العظيم » وهذا الدليل القائم على المعاينة أكد نظرية الإنفجار العظيم .

هكذا بدأ ميلاد الكون فى أعقاب تمدد هائل فى المادة ، وكانت تلك اللحظة هى لحظة بداية المكان والزمان والمادة ، إذ أن الإنفجار العظيم أحدث تمددًا فى المادة حيث لا يوجد مكان ، فهذا الانفجار نفسه هو تمدد المكان ، وهذا يمكن أن يفهمه العقل ، ولكن لا يمكن أن يتصوره الخيال ، إن الذى له بداية لابد أن يكون له وسط ونهاية محددة كما يقول الفيزيائى سيدنى بلادمان ، الذى يتفق مع جون ويلر ، الذى يتنبأ بأن عملية انكماش كبيرة واحدة من شأنها أن تنهى الكون إلى الأبد ، يقول ويلر : « لو حدث انهيار فى الجاذبية فسنكون قد وصلنا إلى نهاية الزمن ، وما من أحد قط استطاع أن يجد فى معادلات النسبية العامة أدنى حجة تؤيد القول بعملية تمدد أخرى أو بوجود كون ذى دورات : تمدد فانكماش فتمدد فانكماش وهكذا . فليس هناك شىء آخر سوى النهاية » .

للزمن بداية :

ويقول عالم الفيزياء الفلكية جوزيف سيلك إن « بداية الزمن أمر

لابد منه » ، وبالتالى فالمادة ليست أزلية برغم كل الظواهر الخادعة التى قد توحى بذلك ،وهو نفس المفهوم الذى أكده أدموند ويتيكر عندما قال : « ليس هناك ما يدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانتا موجودتين قبل الانفجار العظيم ، وأنه حدث بينهما تفاعل فجائى ، فما الذى أحدث هذا التفاعل الفجائى فى لحظة يفترض فيها أنها مختلفة عن غيرها من اللحظات فى الأزل ؟ ! إن الأبسط والأقرب إلى روح العلم أن نفترض خلقًا من العدم ، أى إبداع الإرادة الإلهية للكون من العدم » . وينتهى الفيزيائى ادوارد ميلن بعد بحث قضية الإنفجار العظيم والكون المتمدد إلى هذه النتيجة : « أما العلة الأولى للكون فى سياق التمدد فللقارئ أن يتأمل فيها ما شاء له التأمل ، لكن الصورة التى لدينا لا تكتمل من غير الله » .

وهكذا يبدو من كل إنجازات العلماء المعاصرين أن الكون ككل - بما فى ذلك المادة والطاقة والمكان والزمان - حدث وقع فى وقت واحد وكانت له بداية محددة ، لكن لابد من أن شيئًا ما كان موجودًا على الدوام ، لأنه إذا لم يوجد أى شىء من قبل على الإطلاق فلا شىء يمكن أن يوجد الآن ، وذلك طبقًا للقانون العلمى المعروف : قانون السبب والنتيجة ، فالعدم لا ينتج عنه سوى العدم ، والكون المادى لا يمكن أن يكون ذلك الشىء الخالد الأزلى لأنه كان للمادة بداية . وهذا يدل على أن الشىء الأزلى الأبدى هو شىء غير مادى ، وإذا كانت حياتنا لم تشهد حقيقة غير مادية سوى العقل ، وإذا كان العقل هو الشىء الذى وجد دائمًا فلابد من أن تكون المادة من خلق عقل

أزلى الوجود ، وهذا يشير إلى وجود كائن جبار وأزلى خلق كل الأشياء ، وهذا الكائن هو الذى نعنيه بعبارة « الله » . وهو ما يتفق حرفيًا مع افتتاحية إنجيل يوحنا عندما يقول :

« فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله . هذا كان فى البدء عند الله . كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان . فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس ، والنور يضىء فى الظلمة والظلمة لم تدركه » .

الله قبل الوجود :

فالكلمة كانت قبل الشىء ، واللهقبل الوجود ، ولولا الكلمة الله لما كان هناك شىء أو وجود من أى نوع ، والإنسان بعقله المدرك لهذا الوجود لابد أن يكون فى بؤرته برغم كل محاولات العلوم التى سادت فى القرن التاسع عشر ، وحاولت تحطيم هذه الصورة من خلال نظريات التطور والنشوء والإرتقاء ، ولذلك فإن إصرار الإرادة الإلهية على تخليص الإنسان من براثن الهلاك والموت والعدم يمكن إثباته علميًا أيضًا وليس دينيًا فقط ، ومن هنا كان « المبدأ الإنساني » الذى سيطر على الفيزياء المعاصرة وركز على أن الكون بظروفه الأولية ، وببنيته العامة ، وبتوحد خواصه ونواميسه ، وبتاريخه المديد ، وبأبعاده الشاسعة ، وبمعدل سرعة تمدده ، كان مهيئًا لنشأة الحياة وميلاد الإنسان الواعى الذى هو محور الخليقة .

ويوضح ستيفن هوكنج عالم الفيزياء الفلكية بجامعة كمبردج أن « المبدأ الإنسانى » يثبت أن توحد خواص الكون ووجودنا ، كليهما ،

نتيجتان لقوانين الكون التي لا تنفصل عن قوانين الحياة الإنسانية ، وحيث إننا لم نكن نستطيع أن نشاهد العالم فى شكل آخر ، لو لم نكن هنا فإن فى وسعنا القول بأن توحد خواص الكون هو ، بمعنى ما نتيجة مترتبة على وجودنا .

ورأى هوكنج هذا مدحض للنظرة العلمية التقليدية القديمة التى اعتبرت المصادفة السبب فى الحياة في هذا الكون ، وأن الكون سواء كان له معنى أم لم يكن ، كان على أية حال سيظهر إلى حيز الوجود ويجرى مجراه حتى لو كانت الظروف الثابتة والأولية تحول إلى الأبد دون تطور الحياة والوعى ، فالحياة جاءت مصادفة وهى طارئة على آلية الكون طبقًا لإدعاء الاتجاه العلمى القديم .

ويؤيد براندون كارتر زميل هوكنج فى جامعة كمبردج فكرته فى أن البديل الجديد للنظرة القديمة ، هو أن ننظر إلى الكون على أنه يستهدف الحياة والإنسان ، وهو ما يطلق عليه كارتر اسم « المبدأ الإنسانى القوى » الذى يقول إن الكون ، وبالتالى الثوابت الجوهرية التى يتوقف عليها ، لابد من أن يوجد بحيث يسمح بقبول مراقبين داخله فى مرحلة ما ، أى أن وجود الكون لا يتأتى إلا من خلال وعى الإنسان به ، وبدون هذا الوعى ينتفى وجوده تمامًا ، ولذلك يتساءل ويلر : « أى معنى يمكن استخلاصه من الحديث عن الكون ما لم يكن هناك أحد واعيًا بوجوده ؟ وإذا كان العلماء الماديون مبهورين بضخامة عالمنا ورهبته ودقته وتعقيده فإنه لولا وعى الإنسان بهذه الخواص لما كان لها وجود أساسًا .

إن خواص المادة سواء على مستوى الذرة أو على مستوى الكون كله ، تلائم الحياة ملاءمة فذة ، ولا توجد هناك شواهد كثيرة على ذلك فحسب ، بل إن حدوث أدنى زيادة أو نقصان فى الكمية الثابتة يجعل من الحياة فى كل حالة أمرًا مستحيلاً ، ولذلك يؤكد الفيزيائى فريمان دايسون أن نظام الكون يدل على غاية مستهدفة وليس على المصادفة ، فهو يقول : « كلما ازددت دراسة للكون وفحصًا لتفاصيل هندسته وجدت مزيدًا من الأدلة على أن الكون كان يدرك بطريقة ما أننا قادمون » ، فبعض الظروف المهيئة للحياة والضرورية لها كان قد ركب تركيبًا فى الإنفجار العظيم منذ بداية البداية .

الحياة والوعى بالوجود :

ويؤكد ويلر أنه لم يظهر سبب واحد ، يفسر لماذا يكون لبعض الثوابت والظروف الأولية ما لها من القيمة والوجود سوى أنه لولا ذلك لما تيسرت المراقبة كما نعرفها ، ولا يمكن لأى كون أن يبرز إلى حيز الوجود ما لم يكن مضمونًا له أن ينتج الحياة والوعى والشهود فى مكان ما ولمدة قصيرة من الزمن فى تاريخه ، إن الحياة لم تأت مصادفة ، بل إن ميكانيكا الكم قادتنا إلى أن نأخذ بجدية ونفحص وجهة النظر المعاكسة تمامًا ، وهى أن المراقب لازم لإدراك الكون لزوم الكون نفسه لخلق المراقب ، وإذا كان الإنسان على المستوى المادى ليس فى مركز الكون فهو فى مركز الغاية من خلقه ، وكما يقول ايرون شرودنجر : فإن الكون

بدون الإنسان يكون أشبه بمسرحية تمثل فى قاعة تخلو مقاعدها من جمهور المشاهدين .

والكون الذى يستهدف ظهور الإنسان يستلزم بالبداهة والضرورة وجود عقل يدركه ويوجهه ، فالمادة لا تستطيع من تلقاء نفسها أن تهدف إلى أى شىء لأنها لا تعى أى شىء ، من هنا كانت حتمية وجود عقلى أزلى يوجه الكون بأكمله ومعه جميع نواميس الطبيعة ، وجميع خواص المادة إلى غاية ، وهذا المفهوم العلمى للعقل يتطابق تمامًا مع الإيمان الدينى بالله ، أى أن العلم والدين هما وجهان لعملة واحدة هى : الإدراك الإنسانى للكون ولما وراء الكون ، فالعلم دين والدين علم .

المراجـــع

Augros, Robert M. & George N. Stanciu. **The New Story of Science**, 1984.

Augustine. **The City of God**, 1950.

Bacon, Francis. **The New Organon**, 1973.

Bath, Geoffrey. **The State of the Universe**, 1980.

Berkeley, George. **A Treatise Concerning The Principles of Human Knowledge**, 1982.

Bohr, Niels. **Atomic Physics and Human Knowledge**, 1985.

Born, Max. **The Restless Universe**, 1962.

Burtt, E.A. **The Metaphysical Foundations of Modern Physical Seience**, 1954.

Darwin, Charles. **The Origin of Species**, 1958.

Eccles, John C. **Facing Reality: Philosophical Adventures by a Brain Scientist**, 1970. **The Human Mystery**, 1979.

Einstein, Albert. **Out of My Later Years**, 1950. **Philosopher-Scientist**, 1959.

Frankl, V.E. **Man's Search for Meaning**, 1980. **The Doctor and the Soul**, 1955.

Freud, Sigmund. **The Future of an Illusion**, 1964.

Galileo. **Dialogue on the Great World Systems**, 1980.

Heisenberg, Werner. **Philosophical Problems of Nuclear Science**, 1952. **Physics and Philosophy**, 1958. **Physics and Beyond**, 1972.

Hobbes, Thomas. **Leviathan**, 1958.

Hume, David. **A Treatise on Human Nature**, 1958.

Huxley, Thomas Henry. **Essays**, 1952.

Infeld, Leopold, **Albert Einstein**, 1950.

Jastrow, Robert. **God and the Astronomers**, 1978.

Kant, Immanuel. **Prolegomena to Any Future Metaphysics**, 1950.

Kline, Morris. **Mathematics: The Loss of Certainty**, 1980.

Margenau, Henry. **The Miracle of Existence**, 1984.

Newton, Jsaac. **Principia**, 1948. **Newton's Philosophy of Nature**, 1953.

Nietzsche, Friedrich, **Beyond Good and Evil**, 1955.

Penfield, Wilder. **The Mystery of the Mind**, 1975.

Poincaré, Henri. **The Value of Science**, 1958.

Sartre, Jean - Paul. **Existentialism and Human Emotions**, 1957.

Schrodinger, Erwin. **Mind and Matter**, 1958. **Science and Humanism**, 1951.

Silk, Joseph. **The Big Bang**, 1980.

Taylor, G.R. **The Natural History of Mind**, 1979.

Thomson, George. **The Inspiration of Science**, 1961.

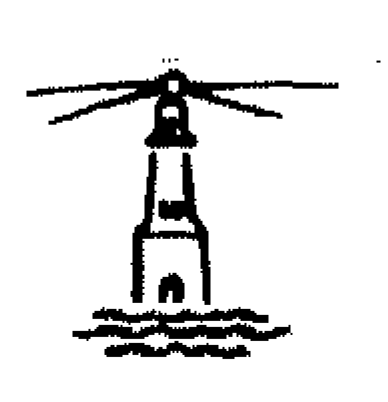
Weizenbaum, Joseph. **Computer Power and Human Reason**, 1976.

فهرس

العلم تجربة روحيـة

العلم والإيمان وجهان لعملة واحدة ، هى الوجود الإنسانى الحق ، فقد أثبت التاريخ أن الإيمان هو البوصلة الهادية للإنسان نحو آفاق الحق والخير والجمال ، وبدون الإيمان يتحول العلم إلى طاقة عمياء مدمرة ، يمكن أن تأتى على الأخضر واليابس ، وتحيل المستقبل إلى كابوس قد يصعب الاستيقاظ منه . .

وقد أكد كبار العلماء عبر العصور ، أن الإيمان كان الواقع الأساسى وراء كل إنجازاتهم واكتشافاتهم العلمية ، لدرجة أن بعضهم أوضح أن العلم فى جوهره الحقيقى هو تجربة روحية .

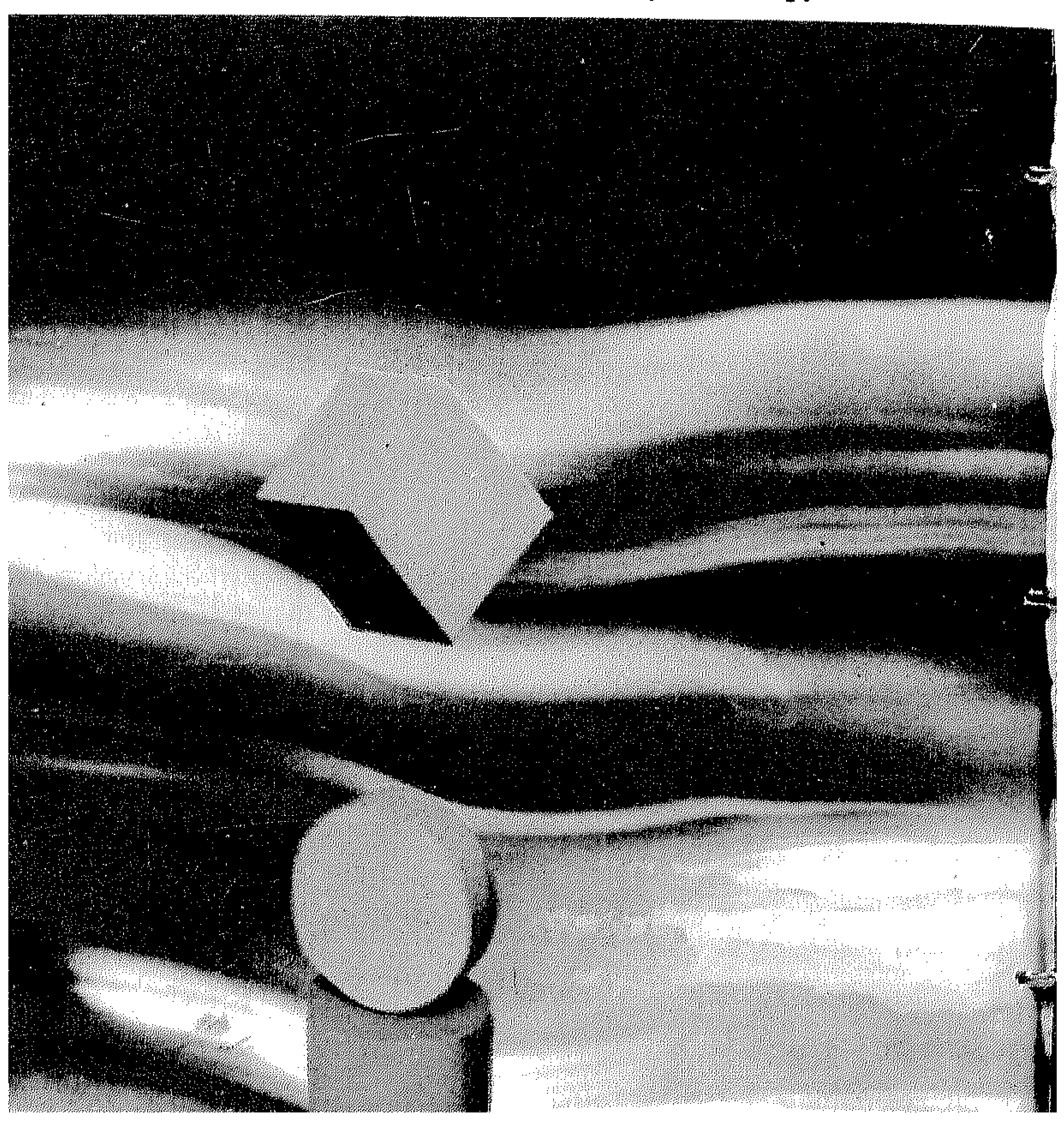


دارالمعارف

دكتور عاطف عدلي العبد

الإعلام وثقافة الطفل العربي

سلسلة ثقافية شهرية تصدر عن دار المعارف - العدد رقم ٦٠٣ - نوفمبر ١٩٩٥



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[العدد ٦٠٣ نوفمبر ١٩٩٥]

رئيس التحرير: رجب البنا

الغلاف للفنان: محمد ابـراهيـم

الإعلام وثقافة الطفل العربي

دكتور عاطف عدلي العبد

مستشار الرأى العام والدراسات الإعلامية
أستاذ الإعلام بجامعة القاهرة



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

تعد تنمية الطفولة ورعايتها العامل الأساسى فى التنمية الشاملة ، لأن الرعاية السليمة للطفولة تمثل المستقبل المزدهر لأى أمة ، ويتطلب ذلك ضرورة الاستجابة لاحتياجات الطفل الأساسية ، والاعتماد على التخطيط العلمى وتوفير الموارد البشرية والمادية لتنشئة الطفل ورعايته فى مراحل نموه المختلفة ، وتزداد أهمية ذلك بالنسبة للطفل العربى ، فزيادة السكان بمعدل ٣,١٪ سنويًا أدت إلى اتساع قاعدة الهرم السكانى إذ تبلغ النسبة المئوية لعدد الأطفال أقل من ١٦ سنة ٤٥٪ من مجموع السكان ، وتعد أعلى نسبة للطفولة فى العالم ، ومما لا شك فيه أن هؤلاء الأطفال يحتاجون إلى رعاية شاملة صحية وغذائية وتعليمية واجتماعية وثقافية وإعلامية .

ومما يزيد من تفاقم المشاكل أن الوطن العربى يواجه قلة الموارد الطبيعية بالإضافة إلى سوء استغلالها ، وتؤدى الزيادة الكبيرة فى أعداد الأطفال عامًا بعد عام إلى مضاعفة الأعباء التى تتحملها ميزانيات حكومات الدول العربية فى مجالات : الصحة والتعليم والثقافة والإعلام .

وتشير الدراسات إلى أن العديد من الخدمات الموجهة للطفل فى هذه المجالات غير كافية فى بعض الدول العربية بالإضافة إلى غياب التنسيق بين المؤسسات المعنية بالطفل على المستويين : القطرى والقومى .

وهذه الدراسات أشارت إلى أن الطفل العربى يشكل ما يقرب من نصف المجتمع ، ويوجد تفاوت شديد فى مستويات المعيشة من دولة إلى أخرى ، كما ينشأ عدد كبير من الأطفال العرب فى كنف والدين أميين وتجهل أمهاتهم فى معظم الأحوال القراءة والكتابة ، كما يرتفع معدل الوفيات بين الأطفال ، ويعمل الأطفال – على الرغم من أن القوانين تحرم تشغيلهم تحت ١٢ سنة – وأدت عملية التحضر – بما فى ذلك دخول المرأة بشكل متزايد فى سوق العمل ، وتغلغل الدولة فى مختلف نواحى الحياة الاجتماعية للسكان – إلى انكماش نسبى فى دور الأسرة فى تربية الأطفال ، وزاد تعرض الأطفال لوسائل الإعلام وخاصة التلفزيون ، بل أصبح تعرضهم – للأسف – غير علمى ، فالأطفال يشاهدون التلفزيون معظم – إن لم يكن كل – ساعات الإرسال ، ويشاهدون ما يناسبهم وما لايناسبهم ، ما يفيدهم وما يضرهم ، بل إن بعض الأمهات يعتمدن على التلفزيون كجليس للأطفال أثناء قيامهن بالأعمال المنزلية ، وتكمن الخطورة فى جانبين : أولهما أن الأطفال يشاهدون فى الغالب المواد التلفزيونية المعدة للكبار ، وثانيهما أن هؤلاء الأطفال يجلسون بمفردهم أمام التلفزيون لانشغال الأمهات عنهم ، مما يزيد من احتمال التأثر بدرجة كبيرة ، فالطفل لا يجلس سلبيًا أمام جهاز التلفزيون ، وإنما كما شبهه هوفمان كقطعة الإسفنج التى تمتص

كل ما تتعرض له ، أو كما شبهت دراسة أخرى تأثير التلفزيون بأثر الحمام الدافئ الذى يجعله مستسلمًا دون مقاومة لما يقدمة من أنماط وصور للأفراد والمواقف والسلوك وتتناول هذه الدراسة دور وسائل الإعلام فى ثقافة الأطفال وتتكون من ثلاثة مباحث : يتناول المبحث الأول واقع وسائل الإعلام الموجهة للطفل ويدور المبحث الثانى حول الجوانب الإيجابية لتأثير وسائل الإعلام على ثقافة الطفل ، بينما يتضمن المبحث الثالث الجوانب السلبية لتأثير وسائل الإعلام على ثقافة الأطفال ، ويركز على تأثير هذه الوسائل فى مجال واحد هو نشر الرعب والعنف والجنس .

المبحث الأول
واقع وسائل الإعلام الموجهة للطفل العربى

أولاً : واقع برامج الأطفال التلفزيونية :

تساعد خصائص التلفزيون كوسيلة اتصال على أن يكون أكثر وسائل الاتصال التى يتعرض لها الأطفال فى الوطن العربى ، ولذلك أشارت الدراسات التى أجريت منذ الستينات إلى تعاظم مكانته عند الأطفال ، الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٣ - ١٦ سنة ، إذ يشاهدونه ست ساعات يوميًا ، ووجد بوستمان أنه بين العمر ٦ - ١٨ سنة ينفق الطفل حوالى ١٥٠٠٠ - ١٦٠٠٠ ساعة أمام التلفزيون بينما لا تستهلك المدرسة من وقته إلا حوالى ١٣٠٠٠ ساعة..

وأشارت الدراسات الأجنبية والعربية ، التى أجريت على الطفل فى عدة دول إلى أن إقبال الأطفال على مشاهدة التلفزيون سلوك اتصالى شائع بغض النظر عن : النوع أو السن أو منطقة الإقامة أو المستوى التعليمى أو الدولة .

وأشارت هذه الدراسات إلى أن الأطفال يقبلون على مشاهدة البرامج التلفزيونية الموجهة لهم كما يقبلون على مشاهدة البرامج المعدة لغيرهم أيضًا .

وعلى الرغم من أن هيئات التلفزيون العربية تولى اهتمامًا كبيرًا لبرامج الأطفال ، وتخصص جزءًا من ساعات إرسالها لهذه البرامج ، وعلى الرغم من أهمية برامج الأطفال التلفزيونية ودورها فى تثقيف الطفل العربى وإمداده بالمعلومات والقيم ، فلا تزال تعانى هذه البرامج من العديد من المعوقات والمشاكل ، وتفتقر المكتبة الإعلامية العربية إلى دراسات شاملة ومقارنة حـول واقع هذه البرامج فى معظم الدول العربية .

ورغبة فى التعرف على واقع هذه البرامج فى الوطن العربى بأسلوب علمي ، أجرينا دراسة ميدانية بتكليف من اتحاد إذاعات الدول العربية أواخر عام ١٩٨٥ ، وأسفرت هذه الدراسة التى أجريناها فى ست دول عربية عن عـدة نتائج ، منها أن هـذه البرامج تسعى إلى تحقيق عـدة أهـداف منهـا : توجيه الأطفال إلى الأنماط السلوكية المقبولة اجتماعيًا ، وتنمية ملكات الطفل العقلية وتنشيط مداركه وتنمية معلوماته وتسليته ، وتنمية الروح الوطنية عنده ، وتبين أن الأطفال يشاركون فى بعض برامج الأطفال التلفزيونية ، كما تبين وجود تخطيط لهذه البرامج بصفة دائمة فى ٦٦,٧٪ من الدول العربية عينة الدراسة ، وأهم الأساليب المتبعة فى التخطيط هى التخطيط لدورة تلفزيونية واحدة فقط .

كما يوجد تقييم بصورة دورية لبرامج الأطفال فى ٥٠٪ فقط من الدول العربية عينة الدراسة ، وأجرت دولتان فقط بحوثًا حول هذه البرامج وتعقد ثلاث دول فقط دورات تدريبية للعاملين فى برامج

الأطفال ، كما توجد رقابة على المضمون الأجنبى فى هذه الدول عينة الدراسة : الجزائر ، تونس ، سوريا ، الأردن ، الكويت ، السعودية .

ورغبة فى التعرف على مدى التطور الذى حدث فى برامج الأطفال التلفزيونية العربية منذ عام ١٩٨٥ ، والوقوف على واقع هذه البرامج بعد مرور فترة زمنية - معقولة نسبيًّا - أجرينا للمجلس العربى للطفولة والتنمية دراسة تتبعية ، واستخدمنا نفس استمارة الاستبيان السابقة ، بعد إجراء بعض التعديلات الطفيفة عليها ، وتم استكمالها شكلاً ومضمونًا بحيث تلبى الاحتياجات البحثية المطلوبة وعرضت على لجنة استشارية من الخبراء فى مجالات ثقافة الطفل خلال شهر يونية ١٩٨٨ .

وأسفرت هذه الدراسة التى أجريناها فى ١٣ دولة عربية ، عن اهتمام الدول العربية عينة الدراسة بتقديم برامج للأطفال ، إذ تذيع ٨ دول أقل من ٨ برامج للأطفال أسبوعيًّا ، ويتراوح ما تذيعه باقى الدول ما بين برنامجين وثلاثين برنامجًا أسبوعيًا ، وتعانى هذه البرامج من عدم استخدام الأسلوب العلمى فى تقييمها ، إذ أن الاجتهاد الشخصى من جانب أسر برامج الأطفال يشكل ٢٦,٨٪ من الأساليب المتبعة فى التقييم ، ولم تجر أية بحوث فى ٦١,٥٪ من الدول عينة الدراسة حول هذه البرامج على الرغم من أن نجاح الهيئات الإذاعية والتلفزيونية فى أداء رسالتها ، على الوجه الأكمل لا يتحقق إلا من خلال اعتمادها على البحوث ومعطياتها العلمية من أدوات ، ووسائل وضع الخطط وتقييم البرامج وتحقيق التواصل مع المستمعين والمشاهدين ، كما أن ٦٩,٢٪ من العاملين فى هذه البرامج لم يتلقوا أية دورات تدريبية فى

مجال ثقافة الطفل ، وتعتمد هذه البرامج على المضمون الأجنبى بصفة شبه تامة ، وأهم المواد التى يتم استيرادها : الرسوم المتحركة (٢٢,٨٪) ، مسلسلات الأطفال (١٩,٤٪) ، أفلام الأطفال (١٤٪) ، أغانى الأطفال (١٢,٣٪) ، السيرك والأكروبات (١٠,٥٪) ، وبرامج أطفال كاملة (٧٪) .

وتبين أن هذه البرامج تعانى من العديد من المشكلات من أهمها : عدم توافر الكتاب والمخرجين والمقدمين الأكفاء (١٨,٧٪) ، عدم توافر الاستديوهات بالكم والكيف المناسبين (١٠,٩٪) ، ضآلة ميزانية برامج الأطفال التلفزيونية (١٠,٩٪) ، قلة الدورات التدريبية لمقدمى ومعدى ومخرجى هذه البرامج (١٠,٩٪) ، عدم التخطيط لبرامج الأطفال التلفزيونية (٧,٨٪) ، كثرة المضمون الأجنبى (٧,٨٪) ، عدم إقبال الأطفال على المشاركة فى البرامج أثناء العام الدراسى ، قلة التصوير الخارجى ، وتكرار بعض الفقرات (٦,٣٪ لكل منهم) .

ولعل أخطر ما يواجه برامج الأطفال ويهدد دورها فى تثقيف الطفل العربى اعتمادها على المضمون الأجنبى – كما سيتضح فيما بعد – إذ يهدد هذا المضمون الذاتية الثقافية للمجتمعات التى يعرض فيها ، وقد يكون من العوامل التى تساعد على اهتزاز أنماط القيم السائدة فى المجتمع . وتزداد الخطورة حينما يشاهده الأطفال والشباب حيث ينظرون إلى ما يشاهدونه على الشاشة كواقع ، فلقد تبين من الدراسة التحليلية لمضمون عينة من المضمون الأجنبى المذاع فى التلفزيون المصرى خلال ثلاثة شهور ، أن القيم السلبية تشكل ٤٦,١٧٪ من مجموع

القيم التى عكسها ، حيث يركز على دور الفرد بصفة أساسية دون النظر إلى المجموع ، ويستخدم القسوة والعنف كوسيلة لحل الصراع ، ويتعصب بشدة للمجتمع الأمريكى حيث تعكس المسلسلات الأمريكية عظمة الأمريكى والمزايا التى يتمتع بها هذا الشعب ، كما تظهر شعوب الدول الأخرى فى صورة سيئة وتصفهم بالجهل والتأخر ، وتزداد خطورة هذا المضمون الأجنبي من أنه قد يترك آثارًا بطرق غير مباشرة على المشاهدين – وخاصة الأطفال – حيث يركز على جوانب العنف والجريمة – كما سنرى فيما بعد عند حديثنا عن الجوانب السلبية – ويروج لجوانب الانحلال الخلقى ، ويبرز ضعف الروابط الأسرية وانفصال الأبناء عن الآباء .

وتعتمد بعض برامج الأطفال التلفزيونية على المضمون الأجنبى اعتمادًا تامًّا كبرامج : سينما الأطفال ، وما يطلبه الأطفال ، وحواديت العرايس ، وحواديت عالمية ، أو جزئيًّا كبرامج : صباح الخير ومسرح العرايس بجمهورية مصر العربية على سبيل المثال ، كما أن معظم الرسوم المتحركة التى تذيعها الدول العربية أجنبية ويلاحظ على المضمون الأجنبى الذى تعرضه برامج الأطفال ما يلى :

– يمكن أن يؤدى الاعتماد على المواد الأجنبية الموجهة للأطفال إلى إغراق الأطفال فيما لا يفيد ، ويمنعهم من البحث عما يفيد ، وقد يؤدى إلى تثبيت قيم ومفاهيم خاطئة وضارة بالمجتمع .

– لا تتبنى كثير من المواد الأجنبية الموجهة للأطفال – إذ تجاوزنا

عما تتضمنه مما لا يلائم الطفل العربى - ما يهمنا أن ننميه فى أطفالنا ولا تؤكد على المعلومات والقيم التى لا بد للطفل العربى أن يعايشها .

- يدور معظم المضمون الأجنبى - وخاصة الرسوم المتحركة - حول الشر والجريمة والغش وينتصر الشر فى بعضها مما يوحى للطفل بأن الشر والشرير يفوزان فى النهاية . - والإكثار من الألعاب السحرية ، التى كثيرًا ما توقع الطفل المشاهد فى حيرة وقلق ، وتشعره بالعجز أمام قدرة طفل آخر فى سنه .

- يقدم معظم المضمون الأجنبى بدون ترجمة مكتوبة ، وفى الحالات القليلة التى توجد فيها هذه الترجمة ، تكون بحروف صغيرة وسريعة (مثل حلقات برنامج : حواديت عالمية الذى أذيع على البرنامج الثانى بتلفزيون جمهورية مصر العربية) .

- الإكثار من الأغانى الأجنبية بدون ترجمة مكتوبة لكلماتها ، أو شرح وتعريف لمعانيها يمكن الطفل المشاهد من فهم ما يراه ، وبذلك تتحول الأغنية بالنسبة له إلى مجموعة من الأنغام الموسيقية بلا أى معنى يفهمه أو يستفيد منه ، وتكون حركة الأداء بلا معنى لارتباطها بمضمون ما تحكيه من كلمات .

ثانيًا - واقع برامج الأطفال الإذاعية :

تعتبر الإذاعة وسيلة اتصال متميزة حيث يصل إرسالها إلى أماكن عديدة متخطيًا الحواجز الطبيعية كالجبال والأنهار - والمصطنعة - كسوء العلاقات بين الدول ، وقلة المواصلات ، وخاصة مع اتجاه الدول العربية

إلى زيادة قوة إرسالها الإذاعى ، بالإضافة إلى انتشار أجهزة الاستقبال الإذاعى فى العالم حتى بلغت مليارًا ومائتى مليون وثلاثمائة وستة عشر ألفًا وثمانمائة وستة وثلاثين جهازًا بالإضافة إلى رخص أسعارها ، وسهولة استخدامها ، وعدم احتياج الاستماع إليها إلى معرفة القراءة والكتابة .

كما تعتبر الإذاعة وسيلة مناسبة للطفل لمقدرتها على إثارة خياله ، يعاونها فى ذلك المؤثرات الصوتية ، كالموسيقى والأصوات الطبيعية التى توحى للطفل بمعان مختلفة ، وتثير فيه الانفعالات والأحاسيس ، وتقرب إلى مفهومه ما يصعب عليه فهمه .

وتولى الإذاعة فى الدول العربية اهتمامًا واضحًا ببرامج الأطفال ، إلا أن الدراسات السابقة أشارت إلى أن هذه البرامج تواجهها عدة معوقات على المستوى العربى بصفة عامة أو على مستوى بعض الدول بصفة خاصة ، ومما توصلنا إلى رصده فى دراسة سابقة لنا أجريناها للمجلس العربى للطفولة والتنمية فى ١٣ دولة عربية ، وجود برامج أطفال إذاعية فى ٩٢,٣٪ من الدول عينة الدراسة إذ لا تذاع برامج للأطفال من إذاعة جيبوتى ، وتذيع ٤١,٩٪ من هذه الدول برنامجًا واحدًا بينما يتراوح ما تذيعه باقى الدول ما بين برنامجين و ١٢ برنامجًا أسبوعيًا ، وتبين أن هذه البرامج تواجه مشاكل مماثلة لما تواجهه البرامج التلفزيونية - والتى سبق الإشارة إليها - بالإضافة إلى ما يلى :

- قلة الاستماع إلى برامج الأطفال الإذاعية فتبين من دراسة ميدانية أجريت على ٣٦٥ طفلاً وطفلة فى عدة مدارس بمركزى : الزقازيق بمحافظة الشرقية ، وملوى بمحافظة المنيا بجمهورية مصر العربية ، أن ٣,٢٩٪ فقط يستمعون إلى برامج الأطفال الإذاعية ، وتبين من دراسة مصرية أخرى أجريناها على ٤٠٠ طفل وطفلة بالحضر والريف أن ١,٧٥٪ منهم فقط يستمعون إلى برامج الأطفال الإذاعية ، وتبين من استطلاع آراء ورغبات الأطفال فى برامجهم من إذاعتى الجمهورية العراقية أن ١٩,٤٪ من العينة يستمعون إلى هذه البرامج .

- قلة الوقت المخصص لبرامج الأطفال حيث لا يتجاوز ١٪ من إجمالى الإرسال الإذاعى فى مصر و ٠,٩٪ من إجمالى الإرسال الإذاعى القطرى اليومى على سبيل المثال .

- عدم وجود فلسفة شاملة أو خطة متكاملة لبرامج الأطفال الإذاعية فهى عبارة عن متفرقات أو منوعات وشذرات لا يربط بينها إلا أنها موجهة للأطفال .

- غياب التنسيق بين الخدمات الإذاعية المختلفة فى حالة وجود أكثر من خدمة إذاعية حتى على مستوى الدولة الواحدة ، كما فى مصر ، فلا أحد يعرف ماذا يجرى فى برامج الأطفال الأخرى اللهم إلا بالصدفة البحتة .

- قلة عدد العاملين فى برامج الأطفال ، وأغلبهم لديه أعباء أخرى .

- وجود خلط بين ما يجب أن يقدم للصغار والناشئين وللأطفال

كل حسب معارفه وتجاربه ، الأمر الذى قد يصرف الكثيرين عن الاستماع بسبب تقديم برامج قد تكون أدنى أو أعلى من مستواهم .

– اتسمت برامج الأطفال بما يميز البرامج التعليمية من سمات فكانت تحشر فيها المعلومات وتتناول موضوعات قريبة من المقررات المدرسية ، لكنها بدأت في السنوات الأخيرة فى بعض الدول تنطلق منطلقًا جديدًا بحيث توفر للأطفال مضمونًا ثقافيًا ، ومتعة فى الوقت نفسه حيث وجه النقد إلى الطرق القديمة التى تكتفى بإلقاء الموضوعات بصورة بعيدة عن التجسيد الفنى .

ثالثًا – واقع سينما الأطفال :

أشارت الدراسات السابقة إلى أن السينما من أهم وسائل الاتصال ، وتتزايد أهميتها فى الدول العربية حيث ترتفع فيها نسبة الأمية ، وتزداد أهمية السينما للأطفال ، لأن لديهم الاستعداد والقابلية للاستجابة الشاملة السريعة لفهم لغة وحركة الصورة أكثر من أى شىء آخر ، وعلى الرغم من أن العالم العربى عرف السينما عام ١٨٩٦ ، حيث عرض فى أحد مقاهى مدينة الإسكندرية فيلمًا مصنوعا فى فرنسا ، فإن التخطيط لإخراج أفلام للأطفال العرب بدأ فى بداية الستينات ، واتضح أن أول فيلم كان عن الصغار وليس للصغار ، وفى عام ١٩٦٥ أنتجت هيئة السينما فيلم رسوم متحركة مدته ١٥ دقيقة ، وبعدها بعام ، أنتج المركز القومى للأفلام التسجيلية فيلمين تسجيليين : أحدهما عن حديقة الحيوان والآخر عن متحف السكك الحديدية ، وفى

السبعينات أنتجت إدارة أفلام التلفزيون فيلمين من أفلام المغامرات ، وفى عام ١٩٧٥ أنتجت نفس الإدارة أربعة أفلام تلفزيونية ، وأنتجت الثقافة الجماهيرية ثلاثة أفلام للأطفال ، وتوالى إنتاج أفلام سينمائية للأطفال ، ولكن بشكل محدود .

وتبين لنا من الدراسات التى أجريناها فى مجال سينما الأطفال أن إنتاج أفلام الأطفال تواجهه عدة عقبات : أولها وأهمها هو رأس المال اللازم لإنتاج مثل هذه الأفلام ، كما توجد على مستوى الفيلم نفسه صعوبتان : الأولى تتعلق بالإخراج إذ يتحتم على مخرج الفيلم وضع نفسه مكان الطفل الذى سيشاهد ذلك الفيلم ، وأن ينظر إلى الأمور ، لا بنظرته هو أى بنظرة الشخص البالغ ، وإنما بنظرة الطفل الصغير الذى يعجبه هذا ولا يعجبه ذاك ، وتتمثل الصعوبة الثانية فى بطل الفيلم فالأطفال يسعدهم مثلاً أن يروا دور البطولة مسندًا إلى أطفال مثلهم ، ومن الصعب العثور على أطفال يمكنهم إتقان هذا العمل بالإضافة إلى عقبات أخرى تتصل بأدوار البطولة وقوانين العمل الخاصة بالأطفال وطول الفيلم .

كما تبين من دراسة ميدانية أجريناها للمجلس العربى للطفولة والتنمية فى ١٢ دولة عربية أن أفلام الأطفال تعرض فى ٨٨,٣٪ من هذه الدول ، وأهم الجهات التى تعرضها : التلفزيون (١٠٠٪) ، دور السينما (٥٠٪) ، المدارس (٤٠٪) ، قوافل الثقافة (٢٠٪) ، الساحات الشعبية (٢٠٪) ، ومعظم ما يعرض عبارة عن مضمون أجنبى وتعتمد جميع الدول على الاستيراد ، وأهم موضوعات أفلام الأطفال التى تعرض هى :

الرسوم المتحركة (١٠٠٪) ، المنوعات (٧٠٪) ، الأفلام الدرامية (٧٠٪) ، والأفلام التسجيلية (٦٠٪) .

وتبين من دراسة سابقة لنا أن سينما الأطفال تعانى من عدة معوقات منها : مجموعة المشكلات المشتركة ، التى تعانى منها السينما العربية بصفة عامة : كقلة دور العرض السينمائى ، سيطرة القطاع الخاص ، سوق التوزيع المحدودة ، اللغة العربية الواحدة المفقودة ، قلة الكوادر والإمكانيات الفنية ، بالإضافة إلى مشكلات خاصة بسينما الأطفال ، مثل اعتماد عروضها سواء على الأطفال مباشرة فى المدارس ، أو النوادى أو من خلال دور السينما ، أو برامج التلفزيون على الأفلام الأجنبية .

رابعًا – واقع صحف ومجلات الأطفال :

إن لصحافة الأطفال دورها البالغ فى تنمية الطفولة عقليًا وعاطفيًا واجتماعيًا لأنها أداة توجيه ، وإعلام وإمتاع وتنمية للذوق الفنى وتكوين عادات ، ونقل قيم ومعلومات وأفكار ، وتجيب على كثير من أسئلة الأطفال ، وتسعى إلى إشباع خيالاتهم وتنمية ميولهم القرائية ، وهى بهذا تؤلف واحدة من أبرز أدوات تشكيل ثقافة الطفل فى وقت أصبحت فيه الثقافة أبرز الخصائص التى تميز هذا الفرد عن ذاك ، وهذا الشعب عن ذاك ، ويرى أحد المتخصصين القلائل فى صحف الأطفال أن الصحيفة لا تقل فى رسالتها عن الأسرة بالنسبة للطفل ، وتلعب دورًا هامًا فى عملية تثقيفية وتشكيل شخصيته كما يقع على عاتقها مسئولية توسيع دائرة معارفه .

وعلى الرغم من أهمية صحافة الأطفال فى الوطن العربى ، فإن المكتبة الإعلامية العربية ، تخلو من دراسات متكاملة حول واقعها فى الدول العربية وتقتصر الجهود المبذولة فى هذا الصدد على دراسات نظرية ، تتناول هذه الصحف بصفة عامة ، أو دراسات تاريخية تؤرخ لنشأتها وتطورها فى قطر من الأقطار العربية أو دراسات تحليلية لمضمون بعض صحف الأطفال فى أحد الأقطار العربية ، ونادرًا ما تتناول عادات وأنماط تعرض الأطفال لهذه الصحف وتأثيرها عليهم .

وتبين من دراسة ميدانية أعددناها للمجلس العربى للطفولة والتنمية عام ١٩٨٨ فى ١٣ دولة عربية ، وجود أبواب أو أركان للطفل فى صحف ومجلات ٩ دول بنسبة ٦٩,٢٣٪ من الدول العربية عينة الدراسة يغلب عليها الطابع الأسبوعى (٨٨,٨٨٪) وتشغل مساحات صغيرة إذ أن ٢١٪ منها تشغل ربع صفحة فأقل ويحرر المتخصصون فى ثقافة الطفل ٣٣,٣٣٪ منها فقط وتستكتب ٢٢,٢٢٪ منها بعض المتخصصين للكتابة فيها ، وأهم المضامين التى تركز عليها : المعلومات العامة (١٠٠٪) ، القصص (١٠٠٪) ، الهوايات (٨٨,٩٪) ، التسلية (٨٨,٩١٪) ، والأخبار (٤٤,٤٪) .

كما تبين من هذه الدراسة صدور جرائد أو مجلات للأطفال فى ٧٦,٩٪ من إجمالى الدول العربية عينة الدراسة ، وتوقف بعض هذه الجرائد والمجلات الموجهة للأطفال فى ٦٩,٢٪ من الدول لعدة أسباب منها : أسباب مالية (١٠٠٪) ، عدم وجود متخصصين (٤٤,٤٪) ، ضعف التوزيع (٣٣,٣٪) ، وقطع الدعم الحكومى (٢٢,٢٪) .

كما تبين لنا من هذه الدراسة الاستطلاعية اعتماد أربع مجلات على المضمون الأجنبى ، منهم مجلتان تعتمدان اعتمادًا تامًّا على هذا المضمون ، هما مجلة ميكى ومجلة الرجل الخارق ، على الرغم مما أشارت إليه الدراسات الإعلامية – كما سبق وأوضحنا – من خطورة هذا المضمون الذى يشكل جزءًا من الغزو الثقافى وارتفاع نسبة ما يتضمنه من قيم سلبية .

وتبين من دراسة سابقة لنا أن صحف ومجلات الأطفال تعانى من مجموعة سلبيات من أهمها :

– ما تزال صحف ومجلات الأطفال فى حدود الندرة ، ومازال توزيعها ضئيلاً ، كما أن الأركان المخصصة للطفل فى الصحف والمجلات العربية قليلة وغير منتظمة .

– لا تناسب مجلات الأطفال إلا مرحلة التوسع فى القراءة من سن ٩ – ١٤ سنة ، بينما لا توجد مجلات لمرحلتى : ما قبل المدرسة ، وبداية القراءة .

– تعتمد مجلات الأطفال بدرجة كبيرة على المصادر الأجنبية بصفة عامة والمصادر الأمريكية بصفة خاصة ، بكل ما تحتويه من قيم غريبة عن حضارتنا وعاداتنا وتقاليدنا .

– تتحيز بعض مجلات الأطفال ضد المرأة ، حيث تبين من دراسة تحليلية لعينة من إعداد مجلة سمير التى تصدر فى جمهورية مصر العربية

أن نسبة الشخصيات النسائية لم تتجاوز ١٣٪ ، ولم تتعد الوظائف التى تمارسها المرأة الوظائف المساعدة .

– تتضمن بعض مجلات الأطفال بعض القيم السلبية ، حيث تبين من دراسة تحليلية لمضمون عينة من إعداد مجلتى سمير وميكى أن القيم السلبية تشكل ٥,٤٪ من إجمالى القيم ، وتزيد فى مجلة ميكى عن مجلة سمير (٧,٦٥٪ ، ٤,١٥٪) ، وأهم المجالات التى ظهرت فيها هذه القيم : المجال الاجتماعى (٣٦,٨٤٪) ، المجال الشخصى (٢٣,١٦٪) ، المجال الأخلاقى (١٨,٩٥٪) ، المجال الثقافى (١٤,٧٤٪) وقيم متنوعة (٦,٣١٪) .

– أصبح من سمات مجلات الأطفال ما يسمى : الكوميكس وهو شريط الصور المتوالية ويرى أحد خبراء ثقافة الطفل أن هذا المضمون فضيحة قومية ، لأنها بطبيعتها كصور متتالية لا تستطيع التعمق ، بل تكتفى بالحركة الخارجية ، وتفتعل الوقفات المثيرة المرهقة لأعصاب الطفل ، ولا تخلق الألفة بينه وبين الكلمة المطبوعة – التى هى سبيله فى المستقبل للمعارف والآداب والعلوم – ، وتحمل الأفكار العنصرية ، وتشغل الطفل العربى عن قوميته وتاريخه وقيمه وتراثه إلى عوالم وهمية عبر الزمان والمكان ، وتشوه الحقائق العلمية ، ولا تنمى خيال الطفل ، وتشجع الجريمة .

خامسًا – واقع كتب الأطفال :

تبدو أهمية القراءة من معرفة أن مراحل النمو العقلى عند الطفل تصل

مع العام الثانى عشر إلى مرحلة تكوين المفاهيم وفقا لجان بياجيه ، وهى مرحلة إذا ما وصل الطفل إليها دون تعلم القراءة والكتابة ، فإن مفاهيمه التى يكون قد كونها فى ظل الأمية ، ستكون ذات طبيعة خاصة أبسط ما توصف به هو المحدودية والسطحية ، خاصة أن مفاهيمه بمثابة قوالب أو أطر تستقبل الأفكار ، أو المعلومات ، فإن لم تتكون فى فترة مبكرة ، أو تكونت بشكل سطحى ، فمن المحتمل أن قدرتها على تلقى واكتساب المعرفة والتعامل مع فئاتها المختلفة سوف تتأثر بشكل حاد فى عصر أصبح فيه انتقال المعلومات يتم بمعدلات عالية ومكثفة ومعقدة عما كان يحدث فى الماضى .

ولذلك فإن طفل اليوم الذى يتعرض لهذا الكم من المعلومات وبهذا الإيقاع لا ينتظر منه أن يجيد استقبالها واستثمارها إذا كانت فئات التلقى والاكتساب نمت عنده على نحو خاطئ كما يحدث مثلاً فى ظل عدم المعرفة بالقراءة والكتابة .

وتوجد فكرة شائعة ، تصور أن الطفل لا حاجة به إلى الكتاب إلا بعد دخوله المدرسة وتعلمه القراءة ، فى حين أن الطفل الذى يترك بغير كتاب ، حتى سن المدرسة ، سيواجه صعوبات كثيرة فى علاقاته بالكتاب ، وقد لا يحب القراءة أو يقبل عليها بعد ذلك .

ومازال الكتاب يشكل ركيزة من ركائز ثقافة الطفل على الرغم من المنافسة الشديدة التى يلقاها من وسائل الإعلام المختلفة : المسموعة والمرئية والمقروءة ، وتلعب كتب الأطفال دورًا هامًا فى إشباع

حاجاتهم ، وتعتبر نوعًا من الترويج عن النفس ، وبالتالى نوعًا من اللعب الضرورى لحياتهم ونموهم ، كما تولد فيهم الاتجاه نحو الشاعرية والخيال ، وتساهم فى تكوين القيم الاجتماعية والأخلاقية والجمالية ، وتثرى ثقافتهم .

ولم تكن توجد قبل القرن التاسع عشر سوى بضعة كتب قليلة كتبت خصيصًا للأطفال ، فقد كانوا يقرءون كتبًا معدة أساسًا للكبار ، فيأخذون منها ما يستطيعون فهمه . وبدأ الاهتمام بالكتابة للأطفال العرب منذ أواخر القرن الماضى على يد رفاعة الطهطاوى ، إذ أن البداية الحقيقية لتوفير مواد قرائية مناسبة وبكميات كافية للأطفال ، تمثلت فى جهود كامل الكيلانى الذى أخرج عدة سلاسل للأطفال منذ بداية الثلاثينات من هذا القرن ، ومنذ ذلك التاريخ برز العديد من كتاب الأطفال الذين تمرسوا فى الكتابة للأطفال وتنوع إنتاجهم بين الاقتباس أو الترجمة والابتكار .

ويعانى كتاب الطفل من مجموعة سلبيات من أهمها :

– قلة كتب الأطفال حيث لا يتجاوز متوسط ما يصدر من كتب جديدة للأطفال مائة كتاب سنويا ، وتعانى كتب الأطفال من التناقص والانكماش بصورة واضحة .

– عدم وجود توازن بين مختلف أصناف المعرفة التى تتناولها كتب الأطفال ، حيث يغلب عليها القصص (٥٤٪) ، فالكتب الدينية (١٣,٤٦) ، بينما لم تشكل الكتب العلمية سوى ٦,٩١٪ من إجمالى

كتب الأطفال الصادرة خلال الفترة من عام ١٩٥٩ حتى ١٩٧٥ ، كما لم تتناول موضوعات أخرى هامة كالثقافة البدنية للطفل .

– إن بعض كتب الأطفال – على الرغم من قلتها – غير صالحة تربويًّا للأطفال ، فلقد تبين من فحص الكتب الصادرة من عام ١٩٦٥ حتى عام ١٩٧٧ وعددها ٨٥٩٩ كتابًا أن ١٤,٩٠٪ منها غير صالح تربويًّا .

– قلة كتب الأطفال المناسبة للصفوف الأولى من المرحلة الابتدائية ، بصفة خاصة وللأطفال في سن المدرسة الابتدائية بصفة عامة ، على الرغم من ضخامة أعداد الأطفال في هذه الفئة العمرية .

– ينقص كتب الأطفال الكثير من المعلومات التى يحتاج إليها الطفل العربى كالمعلومات العلمية والصحية ، كما ينقصها تناول مشكلات المجتمع والمفاهيم الناتجة عن التغير الحضارى بالمجتمع ، فلقد تبين من دراسة تحليلية لقصص الأطفال الشائعة أنه باستثناء قصة واحدة من أدب الرحلات ، لا تضيف ، معلومات جديدة ذات بال . كما تبين أن هذه القصص تشجع على الخضوع ، ولا تحظى الأنماط المستقلة فيها بأى تقدير ، وأثيب ٤٠٪ فقط ممن توافر عندهم دافع التحصيل ، وعوقب ١١٪ ، وترك ٤٩٪ دون جزاء مما يشير إلى قلة الوعى بضرورة إبراز فائدة التحصيل ولزومه لنمو شخصية الطفل وتفكيره العلمى .

– الإقبال على قراءة كتب الألغاز والجريمة التى لا تناسب موضوعاتها الطفل العربى . ويرى أحد خبراء الطفل أنه آن الأوان لكى

ننتبه إلى هذا اللون البشع من الغزو الثقافى الذى يستهدف الربح المادى فقط على حساب ثقافة الأطفال .

– لا يكاد طفل الريف أو البادية العربيان أن يجدا الكتاب لضآلة ميزانية المدرسة الابتدائية لشراء الكتب فى معظم الدول العربية ، وهى النافذة الوحيدة التى يمكن أن يجد الطفل فيها الكتاب بالقرية أو البادية ، نظرًا لعدم انتشار مكتبات الأطفال من ناحية ، وصعوبة الظروف الاقتصادية التى تحد من شراء ما يحتاجون إليه من كتب من ناحية أخرى .

– وتعانى كتب الأطفال من عدة مشاكل خاصة بها كندرة كتاب الأطفال والرسامين وارتفاع أسعار الكتب ، وغياب الخطط والبرامج التى ينبغى أن توضع لنشر كتاب الطفل ، وعدم وجود دار نشر متخصصة فى إنتاج كتب الأطفال إلا فى عدد محدود من الدول العربية ، إذ تبين من الدراسة الميدانية التى أعددناها بالاشتراك مع عبد التواب يوسف للمجلس العربى للطفولة والتنمية حول واقع كتب ومكتبات الأطفال فى ١٣ دولة عربية وجود مؤسسات متخصصة فى نشر كتب الأطفال فى ٣٨,٤٦٪ من هذه الدول ، وهى فى العراق ، السعودية ، السودان ، الأردن والبحرين ، ووجود دور نشر تنشر كتبًا للأطفال بالإضافة إلى أعمالها الأخرى فى ٩٢,٣٠٪ من الدول عينة الدراسة ، كما تبين عدم وجود مكتبات مخصصة لاطلاع الأطفال فى ٤٦,١٥٪ من هذه الدول .

سادسًا – واقع مسرح الأطفال :

إن المسرح وسيلة هامة مؤثرة ، ويمكن أن يكون تأثيره أقوى من تأثير أية وسيلة أخرى ، حيث أنه يصل إلى عمق الشخصية (الذات) ، ويربط بين هذه الذات وبين أعماق الآخرين من خلال توحد ضمير ووجدان وتفكير الجماعة حول مدرك واحد .

ويعتبر المسرح وسيلة اتصال هامة بالنسبة للأطفال : يشد إنتباههم ويثير حب الاستكشاف لديهم ، كما يعتبر من أهم وسائل تثقيفهم حيث يتعلمون منه أشياء جديدة . ويعدد أحد خبراء ثقافة الطفل الأهداف التي يحققها المسرح للأطفال ومنها : أنه يقدم وجهات نظر جديدة فى الأشياء والأشخاص والمواقف ، يشبع رغبة الأطفال في المعرفة والبحث بما يقدمه لهم من خبرات متنوعة ومعلومات ، وأساليب سلوك ، كما يساعد على دفع الأطفال على إلقاء الأسئلة والبحث عن المعلومات وكذلك يثير خيالهم .

وتتعدد أنواع المسرح ويمكن حصر أهمها فى المسرح التلقائى ، أو المسرح كلعب ، المسرح التعليمى القائم على نصوص معدة سلفًا ، مسرح العرائس ، المسرح المدرسى ، والمسرح الذى يقدمه الكبار للأطفال .

ولقد انتشرت مسارح الأطفال فى بعض دول أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية ، وأنشئ أول مسرح للأطفال فى العالم العربى فى مصر ليلة ١٠ مارس ١٩٥٩ حيث بدأ مسرح العرائس ، وبدأ بعد ذلك

مسرح الأطفال التابع لمؤسسة المسرح والموسيقى ليلة ٢٦ يولية ١٩٦٦ بالإسكندرية ، وبدأ مسرح الطفل بالثقافة الجماهيرية عام ١٩٧١ وعلى الرغم من أهمية المسرح كوسط ثقافى مؤثر وفعال فى الوطن العربى فإنه يعانى من عدة معوقات من أهمها :

– عدم وجود مسرح قومى مستمر ، ومدعم للأطفال فى الدول العربية ، فلقد تبين من دراسة واقع مسرح الأطفال فى الوطن العربى التى أعددناها بالاشتراك مع عبد التواب يوسف فى ١٣ دولة عربية ، وجود مسارح خاصة بالأطفال فى ٧٥٪ من الدول عينة الدراسة ، بينما لا توجد هذه المسارح فى جيبوتى ، الإمارات العربية المتحدة وموريتانيا .

– عدم التخطيط المتكامل لتشجيع الكتابة والإخراج لأعمال مسرحية جيدة للأطفال .

– عدم وجود مكان واضح للنشاط الخاص ولا لتشجيعه فى مجال الأطفال .

– عدم وجود صلة واضحة بين التلفزيون والمدارس وبين مسارح الأطفال .

– عدم وجود فرق مسرحية للأطفال ، يتم التنافس فيما بينها ، سواء ارتبط بعض هذه الفرق بالتلفزيون أو كانت فرقًا لا علاقة لها بالتلفزيون ، كأن تكون فرقًا للأطفال الصغار ، وفرقًا للأطفال الكبار ، أو فرقًا تستوحى أعمالها من التراث الشعبى ... إلخ .

المبحث الثانى
مجالات التأثير الإيجابية لوسائل الإعلام
على ثقافة الطفل

** مقـدمة :

وعلى الرغم من كل السلبيات التى تواجه وسائل الإعلام العربية بصفة عامة والمضامين التى تقدمها للطفل بصفة خاصة ، إلا أنها تلعب دوراً فى تثقيفه يتمثل فى جانبين : أحدهما إيجابى من خلال إمداده بالمعلومات وخلق آراء عنده عن الموضوعات الجديدة عليه ، والمساهمة فى تكوين صور ذهنية عن الأفراد والمنشآت والدول ... إلخ وإشباع احتياجاته النفسية والاجتماعية ، ولذلك فإن المعلومات – كما سيتضح فيما بعد – التى يحصل عليها الطفل فى المدرسة ضئيلة إذا قيست بالمعارف التى تصل إليه عن طريق وسائل الإعلام ، ويتمثل الجانب السلبى لوسائل الإعلام على ثقافة الطفل فى مجالات عديدة ، أهمها ما تقدمه من مضامين عنف ورعب وجنس وخاصة مع بدء البث المباشر بالأقمار الصناعية وسنخصص لها المبحث الثالث ونستعرض فيما يلى أهم المجالات الإيجابية لوسائل الإعلام على ثقافة الأطفال :

أولا – دور وسائل الإعلام فى إمداد الطفل بالمعلومات :

** مدخـل :

إن عملية استقبال المعلومات تتركز فى عدد من الأعضاء والأجهزة هى أعضاء الاستقبال الحسى ، وتختص هذه الأعضاء باستقبال المعلومات عن التغييرات فى المناخ المحيط بالإنسان وإعادة إرسالها فى صورة متطورة إلى أجهزة التحليل والتعامل .

وعندما يولد الطفل ويفتح عينيه على الحياة لأول مرة ، فإن مخه سرعان ما يبدأ فى استقبال واختزان المعلومات عن الأشياء التى يراها حوله وتعتبر هذه اللقطات السريعة عن العالم المحيط به التى تسجل فى المخ – من خلال حاسة النظر – أولى المصادر عن المعلومات ، وقد ذكر بعض الخبراء أن المرء يحصل على المعلومات أو المعرفة الإنسانية عمومًا عن طريق الحواس الخمس ، وبعد عدة تجارب وجدوا أن الإنسان يحصل على معلوماته بالنسب المئوية الآتية : عن طريق البصر ٧٥٪ ، وعن طريق السمع ١٣٪ ، وعن طريق اللمس ٦٪ ، وعن طريق الشم ٣٪ ، وعن طريق التذوق ٣٪ .

وعلى الرغم من أن مخ الإنسان يتميز بسعته الضخمة فى اختزان المعلومات ، فإن حجمه يعتبر صغيرًا جدًّا عند مقارنته بالكميات الضخمة من المعلومات فى العالم ، فالفرد لا يمكنه أن يتعلم إلا جزءًا بسيطًا جدًّا من كل شىء معروف ، ومع هذا فإن المخ البشرى يستخدم فقط مقدرته الكلية خلال الفترة التى يعيشها الإنسان ، وعلاوة على هذا ،

فإن مجرد تذكر قطع كثيرة من المعلومات لا يعنى أن الفرد سوف يصبح شخصًا عالمًا أو حكيمًا ، ذلك أن المعرفة أو الحكمة يمكن أن ينتجا فقط من فهم المعلومات واستخدامها ، فالإنسان المتعلم والمفكر هو الذى يعرف كيفية ملاءمة معلوماته فى نمط تفكير يقود إلى الأداء الذكى ، والإنسان الحكيم هو الذى يمكنه تطبيق هذه الأنماط بطريقة بناءة على مشاكل الحياة .

(أ) حول دور وسائل الإعلام فى إمداد الطفل بالمعلومات :

نود فى البداية أن نحدد أننا نتحدث عن كيفية وصول المعلومات إلينا ، فإذا كانت عن طريق وسائل الإعلام ، فلابد أن نعترف أن لهذه الوسائل تأثيرًا هامًّا ، سواء أكانت معلومات الفرد عميقة أو ضحلة ، واسعة أو ضيقة حيث نحصل على معلومات عن الناس والمشاكل والأحداث أساسًا من وسائل الإعلام ، ويزيد التعرض لوسائل الإعلام من معلومات الطفل ، فمن المعروف أن الأفراد يخصصون فى المتوسط لوسائل الإعلام ما لا يقل عن ست ساعات يوميًّا ، ومن المحتم أن تعرض الفرد يوميًّا لهذه الوسائل لمدة ست ساعات يجعله يأخذ قدرًا كبيرًا من المعلومات منها ويحتفظ بها .

ولقد أوضحت العديد من الدراسات الميدانية العربية والأجنبية أن التعرض لوسائل الإعلام يزيد معلومات الفرد بصفة عامة ، والطفل بصفة خاصة ، فالطفل لا يجلس سلبيًّا أمام جهاز التلفزيون مثلاً ، وإنما كما سبق وذكرنا تشبيه هوفمان له كقطعة الإسفنج التى تمتص كل

ما تتعرض له ، وهو ما أكدته بعض الدراسات التى أشارت إلى أن المعلومات التى يحصل عليها الفرد فى الدراسة ضئيلة إذا ما قيست بالمعلومات المتنوعة والآنية التى يستقيها من وسائل الإعلام ، وهو ما أكدته كذلك ندوتا : ماذا يريد التربويون من الإعلاميين ؟ ، حيث أوضحتا أن وسائل الإعلام المتعددة تمد الطفل بالمعلومات ، وهى تختلف من حيث وظيفتها الإعلامية ومن حيث أثرها ، وخاصة إذا قيست المدة التى يقضيها الطالب فى المدرسة حيث أن التعليم القصدى ، واعتبرناها لمدة أربع أو خمس ساعات ، فإن وسائل الإعلام تلاحقه أينما ذهب ، ولهذا يفوق أثرها فى الطفل أثر المدرسة فيه . ويكتسب التلفزيون أهمية خاصة بين وسائل الإعلام المختلفة حيث يتميز بأهمية خاصة عند الطفل ، لأنه جهاز قادر على الترفيه والتثقيف فى وقت واحد ، ومن ثم يؤثر على عقلية الطفل ووجدانه ، ويعتبر أداة هامة للتعليم المباشر إذ ينقل إلى الفرد المعلومات والمعارف والأخبار المحلية المختلفة ، ويقدم له الكثير من عادات وتقاليد الجماعات والمجتمعات المختلفة وتزداد أهمية التلفزيون فى مجال تثقيف الطفل لأنه يجذب انتباه الأطفال من سن سنتين تقريبًا ، ويقضى الأطفال فترة طويلة فى مشاهدته من ناحية ، واحتل مكان باقى وسائل الإعلام من ناحية أخرى ، ولأنه يخاطب حاستين من الحواس وهما حاستى البصر والسمع ، ومن المعروف أن الوسيلة التى تخاطب أكثر من حاسة من حواس الطفل يكون أثرها التعليمى أكثر عمقًا ودوامًا من الوسائل التى تخاطب حاسة واحدة فقط .

ويجمع التلفزيون بين الصوت والصورة ، ويكون مشهدًا يعتبر خلاصة إمكانات الراديو والسينما ، حيث يضيف التليفزيون إلى سحر الصوت إغراء الصورة المتحركة حيث تساعد الصورة عمومًا وحركات المذيع وتعبيرات وجهه فى توصيل الرسالة الإعلامية وتكملتها ، وتعتبر أولى العناصر الرئيسية المكونة للبرامج التلفزيونية ، ولذلك يفوق تأثير التلفزيون كل وسائل الاتصال الأخرى . فالصورة – كما يقول أحد الخبراء – تقوم مقام ألف كلمة أو كما ذهب خبير آخر إلى أنها تقوم مقام عشرة آلاف كلمة طبقًا للحكمة الصينية القديمة . وتؤدى وظيفتين بالنسبة للتلفزيون هما : وظيفة طبيعية ، تحدث تلقائيا بمجرد العرض التلفزيونى ، بمعنى أن برامج التلفزيون تعرض عن طريق الصور ، وبدونها لا يمكن أن يكون هناك عرض تليفزيونى ، ووظيفة فنية ، تصنع وتوظف لخدمة المضمون حيث أن وجود الصور فى التلفزيون يوصل بعض البرامج بفاعلية أكثر من برامج الراديو – كمباريات الملاكمة – وينقل حقيقة الشيء إلى المشاهد ، كما أنها من أولى العناصر الرئيسية المكونة للبرامج التلفزيونية ، بَل العنصر الجوهرى والأساسى الذى يُمكن من تحويل بعض الأفكار والمعلومات إلى صيغ صورية تساهم فى نقل مضمون البرامج بالأسلوب التلفزيونى حتى بدأ من الطبيعي أن يتكون لدى الناس ما يمكن ، أن يطلق عليه العقلية البصرية ، فالبصر وسيلة هامة من وسائل تحصيل المعلومات ، كما أن التجربة البصرية أكثر دوامًا وأعمق أثرًا من سائر التجارب سواء كانت سمعية ، أو لمسية ، أو ذوقية ، أو شمية ، وكما سبق القول فإن

٧٥٪ من المعرفة تكتسب عن طريق حاسة البصر و٨٨٪ عن طريق حاستى البصر والسمع ، وتأسيسًا على ذلك ، يمكن القول إن التلفزيون كوسيلة بصرية سمعية يمثل ٨٨٪ فى تحصيل المعرفة البشرية حيث تلعب الصورة دورًا كبيرًا فى الإدراك الحسى للمعلومات اللفظية التى تصاحبها .

وتوجد مجموعة من العوامل التى تزيد من أهمية الصورة بالنسبة للطفل منها :

- تجذب الصورة انتباه الفرد عامة والطفل خاصة وتستحوذ عليه بحيث تجعله لا يملك إلا التركيز عليها .
- تبرز الصورة المعلومات المصاحبة لها وتدعمها .
- تقرب الصورة الأماكن البعيدة ، وتكبر الأشياء الصغيرة ، وتصغر الأشياء الكبيرة ، وتظهر الأشياء المختفية .
- يميل الناس عامة ، والأطفال خاصة إلى تصديق المرئيات أكثر من اللفظيات .
- تزيد الصورة من استيعاب المعلومات وتذكرها حيث تتأثر الذاكرة بالصورة أكثر من الصوت ، وقد أجريت بعض التجارب ثبت منها أن الإنسان يحتفظ فى ذاكرته بما يشاهده على الشاشة الصغيرة مدة أطول مما سمعه بالراديو ، ذلك أن الصورة البصرية أكثر رسوخًا وفرضًا لنفسها من الصور الأخرى ، ذلك أنها أكثر توصيلاً للمعلومات ، وأكدت بعض الاختبارات السمعية والبصرية أن استيعاب الفرد

للمعلومات يزداد بنسبة ٣٥٪ عند استخدام الصوت والصورة فى وقت واحد ، وأن مدة الاحتفاظ بهذه المعلومات عندئذ تصل إلى ٥٥٪ .

وقد أجريت بعض التجارب للتأكد من دور الصور فى تذكر المعلومات حيث ألقيت بعض المحاضرات على عدد من المستمعين من أعمار وتخصصات ومستويات تعليمية مختلفة لمدة ساعة ، وكان قوام المحاضرة الواحدة ست صفحات فولسكاب ، وفى اليوم التالى طلب إلى المستمعين تسجيل ما يتذكرونه من المحاضرة ، فكانت النتيجة فى كل الأحوال لا تزيد عن نصف صفحة فقط مما ألقى عليهم ، ثم أجريت تجارب أخرى وعرضت على المبحوثين الأفلام التى تحمل نفس مضمون المحاضرات ، وطلب إليهم أيضًا فى اليوم التالى تسجيل ما يتذكرونه فكانت النتيجة أن متوسط ما تذكره كل واحد منهم ٧٥٪ من المعلومات التى عرضت عليهم ، حتى فى أدق التفاصيل .

كما أكدت نتائج الدراسات الميدانية الأخرى أن نسبة تذكر الطفل لما سبق أن خبره وتعلمه فى حياته تختلف باختلاف الحاسة ، أو الحواس التى تكون الرسالة قد نفذت من خلالها إلى مخه الذى يتمكن من تذكر ١٠٪ مما قرأه ، و٢٠٪ مما سمعه ، و٣٠٪ مما شاهده ، و٥٠٪ مما سمعه وشاهده فى نفس الوقت ، و٧٠٪ مما رواه وقاله ، و٩٠٪ مما رواه أثناء أدائه لعمل معين .

(ب) نماذج من دور وسائل الإعلام فى إمداد الطفل بالمعلومات :

** مدخـل :

نحاول فيما يلى تقديم نماذج من الدراسات التحليلية والميدانية العربية التى تناولت دور وسائل الإعلام فى إمداد الطفل العربى بالمعلومات ، إذ أشارت نتائج العديد من الدراسات العربية إلى الدور الذى تلعبه وسائل الإعلام فى إمداد الطفل العربى بالمعلومات ، ونتناول ذلك من جانبين :

أولهما : ماذا قدمت وسائل الإعلام للطفل من معلومات .

وثانيهما : تأثير هذه المعلومات على الأطفال وذلك على النحو الآتى :

١ - نماذج من الدراسات التحليلية للمضامين الموجهة للأطفال ودورها فى إمدادهم بالمعلومات :

١/١ - أجرى معد هذه الدراسة بحثًا حول دور التليفزيون فى إمداد الطفل المصرى بالمعلومات من خلال برامج الأطفال ، حيث حلل المعلومات الواردة فى كل برامج الأطفال المذاعة من القناتين الأولى والثانية ؛ بالتلفزيون المصرى فى كل فترات الإرسال وأيامه خلال خمسة أشهر ، وبلغ عدد المعلومات ٩٦١ معلومة موزعة على ٢٢ موضوعًا هى : المعلومات العلمية (١٨,٤٪) ، الفنية (١٣,٤٪) ، التراجم (١٠,٩٪) ، الدينية (٧,٨٪) ، الجغرافية (٧,٥٪) ، الاقتصادية (٥,٧٪) ، الرياضية (٥٪) ، الترويحية (٤,٨٪) ، اللغوية

السياسية (٣,٦٪) لكل منهما ، الطبية (٣٪) ، الأثرية (٢,٩٪) ، الجو/فضائية ، الاجتماعية (٢,٤٪ لكل منهما) ، العسكرية (١,٨٪) ، الكشفية والاتصالية (١,٥٪ لكل منهما) ، الغذائية (١,٤٪) ، السكانية (١,١٪) ، القانونية (٠,٥٪) ، النفسية والأدبية (٠,٤٪ لكل منهما) .

ووجد أن أهم القطاعات التى قدمت معلومات عنها فى برامج الأطفال عينة الدراسة هى : الإنسان (١٥,٥٪) ، المواقع (١٣,٢٪) ، الحيوانات (١٢٪) ، الأجهزة والآلات (١٠,٢٪) ، الأشياء المعنوية (٧,٨٪) ، اللوحات الفنية (٦,٧٪) ، الطيور (٤,٢٪) ، الجماد (٠,٤٪) ، الأعياد والمناسبات (٢,٣٪) ، اللغات (٠,٣٪) ، العرائس (٢,٧٪) ، المنظمات (١,٦٪) ، النباتات (١,٥٪) ، الألوان (٠,٥٪) ، الأقنعة (٠,٤٪) ، وقطاعات أخرى متنوعة (١٣,٤٪) .

ووجد أن المعلومات تتوزع حسب **الموقع الجغرافى** إلى موقع عام (٤٢٪) مصر ، (٢٦,٢٪) دول أجنبية ، (٢٥,٣٪) ودول عربية غير مصر (٦,٥٪) .

كما تتوزع **مصادر المعلومات** فى هذه البرامج على : أسرة البرنامج (٧٢,١٪) الأطفال (١٧,٤٪) ، والضيوف (١٧,٤٪) .

وتبين من التحليل أن هذه المعلومات أذيعت من خلال خمسة قوالب هى : الحديث المباشر (٤٩,٩٪) ، الراوى للصورة (١٩,٧٪) ، إجابات عن أسئلة (١٧,٥٪) ، حوار (٧,٧٪) ، والقالب التمثيلى (٥,٢٪) .

– ويعرف معلومات من التلفزيون ١٩,٨٪ من الأطفال الذين يشاهدونه ، وأهم المواد والبرامج التلفزيونية التى يعرفون معلومات منها هى : برامج الأطفال (٦٩,٧٪) ، المباريات الرياضية (٣٣,٩٪) ، المسلسلات العربية (٣١,١٪) ، والأفلام الأجنبية (٢٧٪) ، وأرسل معلومات إلى برامج الأطفال (٦,٣٧٪) من مشاهديها ، وأهم مصادر هذه المعلومات هى : التلفزيون (١٩,٣٪) ، الصحف والمجلات (٦٥,٢٪) ، الراديو (٥٢,١٧٪) والكتب والناس (٢٠,٤٣٪ لكل منهما) .

٢/١ – كما وجدنا من دراسة تحليلية لثلاثة عشر برنامجًا كلفنا بإجرائها اتحاد إذاعات الدول العربية ، وتذاع من سبع دول عربية هى : السعودية ، قطر ، الكويت ، الجزائر ، تونس ، سوريا والأردن أن هذه البرامج تمد مشاهديها بالمعلومات : الاجتماعية والتعليمية والترويحية (١٠,٣٤٪ لكل منهم) ، العلمية (٩,١٦٪) ، التاريخية والجغرافية (٨,٠٦٪ لكل منهما) ، الرياضة واللغوية (٦,٩٠٪ لكل منهما) ، الفنية ، الغذائية (٥,٧٥٪ لكل منهما) ، الدينية (٤,٦٠٪) الاقتصادية ، الطبية (٢,٤٥٪ لكل منهما) الأدبية ، التراجم (٢,٣٪ لكل منهما) ، والمعلومات النفسية والإعلامية (١,١٥٪ لكل منهما) .

٣/١ – وتبين من تحليل مضمون برامج الأطفال التلفزيونية المذاعة على مدى ٢٣ يومًا فى تلفزيونى أبوظبى ودبى أن هذه البرامج قدمت العديد من المعلومات أولها المعلومات الترويحية (١٥,٧٪) ، تلاها المعلومات : الدينية ، العلمية ، اللغوية ، التاريخية ، الاجتماعية

الإعلامية ، والصناعية وتبين أن ٧٨٪ استفادوا من المعلومات التى
اهدوها .

٤/١ – وتبين من دراسة لمسلسلات رسوم الأطفال المتحركة فى تلفزيون سلطنة عمان أن مسلسل الأرنب والمزارع الكسول ، تضمن المضامين العلمية (٥٤,٩٦٪) ، الثقافية (٢٢,٥٢٪) ، الاقتصادية (٩,٩٢٪) ، الوطنية (٨,٢٧٪) ، والاجتماعية (٤,٣٣٪) .

كما تضمن مسلسل روبى المضامين : الثقافية (٤٧,١٧٪) ، العلمية (٢٨,٢٥٪) ، الاجتماعية (١٧,٥٤٪) ، الاقتصادية (٣,٨٧٪) ، والوطنية (٣,١٧٪) .

٢ – نماذج من الدراسات الميدانية والتجريبية حول دور وسائل الإعلام فى إمداد الأطفال بالمعلومات :

١/٢ – تبين من دراسة ميدانية على ألف من الأطفال بالمدارس الابتدائية بمحافظتى الجيزة والقاهرة بجمهورية مصر العربية أن ٨٩٪ منهم يشاهدون التلفزيون ، ويتدخل ٨٠٪ من آبائهم فى اختيار البرامج التى يشاهدونها ، ويرى أولياء الأمور والآباء أن أطفالهم يكتسبون معارف ومعلومات عامة من مشاهدتهم للتلفزيون حيث ينمى المدارك (٢٦٪) ، ويكسب المشاهدين المعلومات العامة (٢١٪) .

٢/٢ – وتبين من دراسة ميدانية حول التلفزيون وثقافة الأطفال وجود فروق دالة إحصائيًا بين الأطفال المشاهدين وغير المشاهدين فى الإجابة على اختبار المعلومات ، حيث جاءت الفروق لصالح عينة الأطفال المشاهدين بمستوى ثقة ٩٩٪ .

٣/٢ — وتبين من الدراسة التى أجريناها حول دور التلفزيون فى إمداد الطفل المصرى بالمعلومات من خلال برامج الأطفال ، التى أجراها على ٤٠٠ طفل وطفلة بالصفوف الثلاثة الأخيرة من المرحلة الابتدائية بالحضر والريف أن ٩٥,٧٥٪ من الأطفال ، يشاهدون التلفزيون وتأكد وجود علاقة ارتباطية إيجابية بين معرفة الإجابة الصحيحة على عشرة أسئلة معرفية ، وخمسة صور ضمها اختبار المعلومات ، ومشاهدة برامج الأطفال بعد تثبيت تأثير كلا من الاستماع إلى الراديو ، وقراءة الصحف ومن هذه الأسئلة التى وجهت بلغة الحديث اليومى للأطفال ، وإيه هو عام الفيل ؟ إيه هية الدولة العربية اللى فيه تكامل بينها وبين مصر دلوقتى ؟ إيه فائدة المية المالحة ؟ مين رائد الاقتصاد المصرى ؟ مين عالم الفضاء المصرى اللى بيشتغل فى أمريكا دلوقتى ؟ إيه هية المحافظة المصرية اللى فيها الواحات الداخلة والخارجة ... . الخ ، وتأكد وجود **تأثير لمشاهدة برامج الأطفال التلفزيونية ومعرفة الإجابات الصحيحة** حيث روعى طرح أسئلة وردت معلومات عنها فى هذه البرامج ولا يتضمنها المنهج المدرسى .

٤/٢ — وأجرى المركز العربى لبحوث المستمعين والمشاهدين بالتعاون مع المؤسسة العامة للإذاعة والتلفزيون العراقية دراسة تجريبية على عينة من مائة طفل وطفلة ، تتراوح أعمارهم بين العاشرة والرابعة عشر بمحافظة بغداد حيث طبق المقياس ، قبل مشاهدتهم لبرامج الأطفال ، وبعد المشاهدة ومن أهم النتائج التى توصلت إليها هذه الدراسة ، ارتفاع نسبة الإجابات الصحيحة على اختبار المعلومات

بنسبة ٢١,٤٪ مما يشير إلى دور هذه البرامج فى إمداد الطفل بالمعلومات .

٥/٢ – وتبين من دراسة حول برنامج افتح يا سمسم على ٤٠ طفلاً ببغداد استخدموا كعينة ضابطة وعينة تجريبية فى نفس الوقت بأسلوب الاختبار القبلى – البعدى من خلال استمارة متماثلة لاختبار المعلومات قبل وبعد مشاهدتهم لعشر حلقات من البرنامج ، أن تأثيرًا كبيرًا حدث على مستوى معلومات ومعارف الأطفال فى العينة التجريبية إذ ازدادت درجاتهم جميعًا فى الاختبار البعدى بعد تعرضهم للمتغير التجريبى المتمثل فى مشاهدة برنامج ، افتح يا سمسم ، عما كانت عليه فى الاختبار القبلى ، وبلغ الفرق فى درجاتهم ٩٤٠ درجة ، ومما توصل إليه هذا البحث ما يلى :

* تبين أن النسبة المئوية للإجابات الصحيحة على **المعارف اللغوية** ، ارتفعت من ٢٦,٦٪ إلى ٤٨,٣٪ فى الاختبار البعدى .

* وتبين أن النسبة المئوية للإجابات الصحيحة على **المعلومات العامة** ارتفعت من ٣٨,٧٪ إلى ٦٤,٤٪ فى الاختبار البعدى .

* وتبين ارتفاع معلومات الأطفال فى الاختبار البعدى عن الاختبار القبلى فى عدة مجالات أخرى منها : الرياضيات والتمييز الإدراكى (٣٩,٦٪ ، ٦٠,٨٪) ، جغرافية الوطن العربى (٢١,١٪ ، ٤٨,٩٪) ، والعلوم (٣٣,٥٪ ، ٥٢,٥٪) .

٦/٢ – وتبين من دراسة ميدانية على ٣٦٠ طفلاً وطفلة بالقاهرة والزقازيق بجمهورية مصر العربية أن الأطفال اكتسبوا مجموعة من المعلومات من قراءة مجلاتهم تتمثل فى : معلومات عن الحيوانات (١٠,٢٪) ، معلومات دينية (٨,٤٪) ، معلومات عن الشخصيات التاريخية (٦,٤٪) ، معلومات جغرافية (٦,٤٪) ، الهوايات المختلفة (٦,٢٪) ، النباتات (٥,٣٪) ، الفضاء (٤,٩٪) ، الموسيقى والموسيقيين (٤,٥٪) ، التمثيل والفنانين (٤,٢٪) ، الاكتشافات (٤,١٪) ، الحروب السابقة (٣,٩٪) ، الرسم (٣,٦٪) ، عادات الشعوب (٣,٤٪) ، الطب (٢,٩٪) ، الأدب والأدباء (١,٥٪) ، ومعلومات عن السياسة (٠,٨٪) .

وخلاصة ما سبق أن المعلومات تحيط بنا فى كل مكان ومن كل اتجاه حتى أطلق البعض على عصرنا **عصر الانفجار المعرفى** ، ذلك أن ثلاث أرباع المعلومات والمعارف المتاحة اليوم لم تكن معروفة حتى الحرب العالمية الثانية ، وتنمو المعلومات فى هذا العصر وتتضاعف فى بعض المجالات كل خمسة عشر عامًا ، كما أن طفل اليوم الذى سوف يتخرج فى إحدى الكليات سيجد حجم المعلومات قد تضاعف أربع مرات عما كان عليه عندما كان طفلاً ، وعندما يبلغ الخمسين سيتضاعف هذا الحجم ٣٢ مرة ، هذه المعلومات التى تحيط بنا من كل جانب جعلتنا مثل السمك فى المحيط ، لا نستطيع أن نخرج أو نبتعد مدة طويلة عن محيط المعلومات ، وتلعب وسائل الإعلام دورًا هامًا – خاصة

مع بدء عصر البث المباشر بالأقمار الصناعية - فى تزويد الأفراد بشكل أو آخر بمعلومات عن الأحداث والشخصيات والمواقع بل يذهب البعض إلى القول بأن وسائل الإعلام تدفع المواطنين إلى الحصول على مزيد من المعلومات ، بشأن موضوعات معينة فى ظروف خاصة ، ويدللون على صحة ذلك من اتجاه الأمريكيين إلى وسائل الإعلام لمعرفة معلومات عن جلطة الشريان التاجى عندما عرفوا بإصابة الرئيس أيزنهاور بأزمة قلبية ، ورغبوا فى معرفة المزيد عن غزو الفضاء بعد إطلاق الأقمار الصناعية ومزيد من المعلومات عن الغدة الدرقية بعد مرض الرئيس بوش بها .

ثانيًا - دور وسائل الإعلام فى خلق آراء عن الموضوعات الجديدة عند الأطفال :

مدخـــل :

يرى بعض الباحثين أن وسائل الإعلام تستطيع خلق آراء عن الموضوعات الجديدة لأن درجة وضوح الموضوع ، أو عدم ارتباطه بتجمعات أو تمركز الاتجاهات الموجودة تجعله قادرًا على التغلب على الصعوبات ، التى تقف عادة عقبة أمام التحول ، فالفرد ليس مهيئًا لأن يرفض وجهة النظر التى يسمعها حول موضوع جديد عليه ، ذلك لأن العمليات الانتقائية - كالتعرض والاختيار والتذكر الانتقائى - لن تقف فى تلك الحالة عقبة فى وجه المعرفة ، وإن كان من غير المحتمل أن تعاون تلك العمليات الرسالة على تحقيق التأثير .

وكما يقول جوبلز وزير الدعاية النازى : إن من يقول الكلمة الأولى للعالم على حق دائمًا ، وقد عبر بذلك عن إيمانه بأن وسائل الاتصال شديدة الفاعلية فى خلق اتجاهات عن الموضوعات الجديدة التى تظهر أو تثار .

وتستطيع وسائل الإعلام خلق آراء عن الموضوعات الجديدة بدرجة أكبر بالنسبة للأطفال فلقد وجد روز أن الأفلام والوسائل الأخرى التى تحث على التسامح العنصرى كانت فعالة بشكل خاص ، بين الأطفال الذين لم يفكروا بعد فى هذا الموضوع .

ووجدت هملوايت فى دراستها الرائدة عن التلفزيون والطفل أن التلفزيون استطاع أن يؤثر على أفكار الأطفال ، الذين لم يكن عندهم معلومات سابقة عن الموضوع المعروض ، وتقول هملوايت : إن التلفزيون يمارس نفوذًا عندما لا تكون الصور والآراء التى قدمها قد وقرت فى الأذهان والقلوب من قبل ، وحين يسبغ من ألوان المعرفة ما لم يكن قد سبق الظفر به من مصادر أخرى ، وتبين أن المواقف التى تعرض فى الأفلام الأمريكية قد لا تؤثر كثيرًا على المراهقين ، ولكنها قد تؤثر على الجماعات التى تصغرهم كثيرًا فى العمر ونتفق مع رأى أستاذتنا د . جيهان رشتى حول أهمية الدور الذى تلعبه وسائل الإعلام الالكترونية جينما يتعلق الأمر بالأطفال لأن اتجاهاتهم لم تتبلور حيال أمور كثيرة .

ثالثًا – دور وسائل الإعلام فى تكوين الصور الذهنية عند الأطفال :

(أ) تعريف الصورة الذهنية :

يكون كل فرد صورًا ذهنية نتيجة لتفاعله مع البيئة الحقيقية ، وبالتالى تختلف الصورة الذهنية من شخص إلى آخر ، لأن خبرة كل فرد لا يمكن أن تتشابه مع خبرة الآخرين ، ومن ثم فإن كل فرد يشرح ويفسر خبرته فى ضوء تجاربه وخبراته التى يظل يكتسبها طوال حياته ، والسؤال هو : ما هى الصورة الذهنية ؟ .

يرى كينث بلدنج فى كتابه الرائد « الصورة » : أن الصورة الذهنية تتكون من تفاعل معرفة الإنسان بعدة عوامل منها : المكان الذى يحيا فيه الفرد ، موقعه من العالم الخارجى ، العلاقات الشخصية وروابط الأسرة والجيران والأصدقاء المحيطة به ، والزمان والمعلومات التاريخية والاجتماعية التى يحصل عليها .

ويعرف قاموس ويبستر الصورة الذهنية بأنها التقديم العقلى لأى شىء لا يمكن تقديمه للحواس بشكل مباشر ، أو محاكاة لتجربة حسية ارتبطت بعواطف معينة أو تخيل لما أدركته حواس الرؤية ، أو السمع ، أو اللمس ، أو الشم ، أو التذوق .

ويعرف على عجوة الصورة الذهنية بأنها الناتج النهائى للانطباعات الذاتية ، التى تتكون عند الأفراد أو الجماعات إزاء شخص معين ، أو نظام معين ، أو شعب معين ، أو جنس معين ، أو منشأة ، أو مؤسسة ،

أو منظمة محلية أو دولية ، أو مهنة معينة أو أى شىء آخر يمكن أن يكون له تأثير على حياة الإنسان ، وتتكون هذه الانطباعات من خلال التجارب المباشرة وغير المباشرة ، وترتبط هذه التجارب بعواطف الأفراد واتجاهاتهم بغض النظر عن صحة المعلومات التى تتضمنها خلاصة هذه التجارب فهى تمثل بالنسبة لأصحابها واقعًا صادقًا ينظرون من خلاله إلى ما حولهم ويفهمونه أو يقدرونه على أساسها .

(ب) نماذج من الدراسات حول دور وسائل الإعلام في تكوين الصور الذهنية عند الأطفال :

يحصل الفرد على المعلومات والآراء والمواقف من وسائل الإعلام وتساعده على تكوين تصور للعالم الذى يحيا فيه ويعتمد عليها – بالإضافة إلى خبراته – فى التعرف على الواقع المحيط به ، ولذلك يقال : إن حوالى ٧٠٪ من الصور التى يبينها الإنسان مستمدة من وسائل الإعلام الجماهيرية ، حيث تعد احتمالات تأثر الفرد بما يتعرض له من وسائل الإعلام احتمالات كبيرة لأن لهذه الوسائل دورًا كبيرًا فى الطريقة التى نبنى أو نشيد بمقتضاها تصورنا للعالم حيث تلعب المعلومات التى تتناقلها وسائل الإعلام خاصة تلك التى تتصف بالاستمرارية دورًا فى تكوين معارف الجمهور وانطباعاته ، وتؤدى فى النهاية – ربما بعد مناقشتها مع الذات والغير – إلى تشكيل الصور العقلية ، التى تؤثر فى تصرفات الإنسان ، ووسائل الإعلام لا تؤثر على حياتنا الثقافية فقط ، بل إن الصور التى فى مخيلتنا عن العالم والأفكار التى لدينا من تلك الصور

لم تعد تستمد من تجربتنا المباشرة فقط ، ولكن أصبح لوسائل الإعلام دور أساسى فى تشكيلها .

وتعتبر الصور النمطية من أهم الأساليب التى يلجأ إليها الدعائى لأن معرفة غالبية الناس بكثير من القضايا ، تعتمد فى الأساس على هذه الصور النمطية والتأثير عليهم ، ولقد نجحت الدعاية الصهيونية فى تكوين صورة سلبية عن العربى حيث صورته كأسمر ، زائغ العينين ،متآمر وجبان وعمل التلفزيون بالصورة والصوت على تقوية هذا الانطباع فى حين صور الإسرائيلى بأوصاف منها : شاب ، نشط ، محب للفكاهة ، مجد ، وشجاع . وكذلك تصور وسائل الإعلام المرأة بشكل فيه تحيز واضح ضدها ينطوى على تزييف للواقع إذ تركز على دورها كأنثى .

وباختصار نتفق مع ما تراه سهير بركات من أن وسائل الإعلام الجماهيرية تلعب دورًا رئيسيًّا فى خلق الصورة المنطبعة فى أذهان جمهورها ، فهى النافذة التى تطل من خلالها الجماهير على العالم وعلى الأحداث المحلية والدولية لأنها الامتداد الطبيعى لأبصارنا وأسماعنا على حد قول مارشال ماكلوهان وأكثر من يكونوا صورًا ذهنية عن الأفراد والدول والمهن من وسائل الإعلام هم الأطفال إذ تقوم وسائل الإعلام الجماهيرية ، بتضخيم هذه الصورة بدرجة كبيرة وطبعها بقوة فى الأذهان إلى حد أن القارئ أو المستمع ، أو المشاهد يشعر فى أحيان كثيرة أنه التقى فعلاً بالشخصيات التى تتناولها وسائل الإعلام على الرغم من أنه لم يقابلها قط ، فإننا ننشئ علاقات مع هؤلاء الأشخاص المعنيين كما ننشئ علاقات مع أصدقائنا .

وتقوم وسائل الإعلام بتبسيط المعلومات والمعارف الجديدة وتقدمها للجمهور فى جرعات سهلة الهضم ، لعدم قدرة أى فرد على ملاحقة السيل الجارف من المعلومات التى تصله عبر وسائل الاتصال ، وهو ما أكدته دراسة تحليلية لصورة الفلاح فى الدراما التلفزيونية مع دراسة ميدانية على أطفال الصف السادس الابتدائى ببعض مدارس القاهرة ، إذ كون الأطفال صورة للفلاح مغايرة لواقعه ، ومستمدة من التلفزيون ، ويتفق الناقد المعروف عبد القادر القط مع ذلك ويسمى هذا الفلاح فلاح الإذاعة أو فلاح التلفزيون ، حيث هـذه الصورة النمطية قائمة على مجـرد التخيل البعيد عن طبيعة الواقع .

والخلاصة أن القدرة على الفهم وإدراك المعانى هما العاملان الأساسيان فى تكوين الصورة الذهنية التى هى المحصلة النهائية لفك الرموز والاستجابة للمؤثرات ، التى نتعرض لها ، وستظل وسائل الإعلام الجماهيرية تلعب دورًا رئيسيًا فى إمداد الأطفال بصفة خاصة ، والأفراد والشعوب بصفة عامة بالمعلومات والرسائل التى تتكون منها الصور المنطبعة ، ومن المتوقع أن تزداد أهمية وسائل الإعلام فى هذا الصدد مع البث المباشر بالأقمار الصناعية الذى يكون من بين أهداف القائمين عليه تكوين صور ذهنية مدروسة لبلاد معينة ، وسلع محددة وقضايا مختلفة ولن يجدوا أسهل من الأطفال لخلق صور ذهنية عندهم - كما يريدون - وهم فى نفس الوقت أطفال اليوم شباب الغد نصف الحاضر وكل المستقبل .

رابعا : دور وسائل الإعلام فى إشباع الاحتياجات الإنسانية لمرحلة الطفولة :

** مقـدمة :

تتوقف كثير من خصائص الشخصية وتنبع من حاجات الفرد ، ومدى إشباع هذه الحاجات ، وهناك بعض الحاجات التى لا يمكن إشباعها بأى طريق من الطرق ، ويستمر قلق الفرد نتيجة لذلك ، ويحدث ما يسمى بالإحباط .

وتوجد تعريفات عديدة للحاجة فيعرفها قاموس علم الاجتماع ، بأنها حالة من التوتر أو عدم الإشباع يشعر بها فرد معين وتدفعه إلى التصرف متجهًا نحو الهدف الذى يعتقد أنه موقف يحقق له الإشباع .

ويعرف حامد زهران الحاجة تعريفًا إجرائيًّا بأنها الافتقار إلى شىء ما ، وفى حالة توافر هذا الشىء وبالحصول عليه يتحقق الإشباع والرضى والارتياح ، وتصبح بذلك الحاجة من الأشياء الضررية ، إما لاستمرار الحياة نفسها (حاجة عضوية) ، أو الحياة بأسلوب أفضل (حاجة نفسية) ، أو الحياة حياة اجتماعية هانئة (حاجة اجتماعية) . وتوجد تصنيفات مختلفة للحاجات . ونأخذ بالتصنيف التالى ، الذى يقسمها إلى ثلاثة أنواع رئيسية هى : حاجات النمو الجسمى ، وحاجات النمو العقلى ، وحاجات النمو الانفعالى الاجتماعى ، ويهمنا بالطبع فى هذه الدراسة حاجات النمو العقلى خاصة ، والدور الذى تلعبه وسائل الإعلام فى تثقيف الطفل – وأسرته – لإشباع احتياجاته بالأسلوب الصحيح .

(أ) حاجات النمو الجسمي :

توجد مجموعة حاجات للنمو الجسمي من أهمها الحاجات الآتية :

١ - حاجة الطفل إلى الغذاء والشراب :

يلعب الغذاء دورًا هامًا في نمو الطفل حيث يزود جسمه بالطاقة التي يحتاج إليها ، ويساعد في إصلاح الخلايا التالفة وإعادة بنائها وفي زيادة مناعة الجسم لبعض الأمراض ووقايته منها .

وتُعد الحاجة إلى الغذاء من الحاجات الفسيولوجية الجسمية الضرروية لنمو الطفل الجسمي ، وإكسابه الكثير من السلوكيات والأنشطة الهامة في حياته ، ويعتبر إشباع هذه الحاجة بطريقة ناجحة وفعالة من أهم الضروريات ، لتحقيق الصحة النفسية السوية للطفل وإشعاره بالأمان والثقة وتكوين شخصية متكاملة .

وجدير بالذكر أن أثر سوء التغذية لا ينحصر على النمو الجسمي فقط ، وإنما يمتد إلى نمو الطفل العقلي حيث تبين في كثير من الحالات أن الحرمان الكمي والنوعي يجعل التعلم شاقًا وغير مثمر .

ويتصل بهذه الحاجة ، الحاجة إلى الوعي الصحي الذي يعطي الأطفال معلومات صحيحة عن العادات الصحية المفيدة ، والعادات غير المفيدة مثل أنواع الغذاء التي يحتاجها الطفل في كل مرحلة من مراحل نموه ، وتعريفه بالقيمة الغذائية لبعض الخضروات والفاكهة ، وإعطاء الأطفال - وأسرهم - نماذج للسلوكيات الصحية الضارة التي تسبب لهم بعض الأمراض كاستعمال الوصفات البلدية دون استشارة الطبيب والاستفادة

من حملات التوعية الصحية ، وعلى الأسرة إدارة حوار مع الأبناء حول هذه المضامين ، وأهمية الامتثال لها ، والتى تساهم وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمطبوعة فى إمداد جمهورها بمعلومات حولها وتثقيفهم .

٢ - الحاجة إلى النوم والراحة :

تعتبر الحاجة إلى النوم والراحة من الحاجات البيولوجية الجوهرية اللازمة لنمو الطفل ، والمساعدة على تفتح إمكاناته ، حيث يعتبر النوم من أهم عوامل تعويض ما أنفق من مجهود ويتناقص الزمن الذى ينقضى فى النوم كلما تقدم الطفل فى العمر .

وتساهم وسائل الإعلام فى إشباع هذه الحاجة من خلال ما تقدمه من معلومات عن أهمية النوم والراحة والأساليب والوسائل التى تحقق ذلك .

٣ - الحاجة إلى اللعب والنشاط والحركة :

تعتبر حاجة الطفل إلى اللعب من أهم الحاجات العضوية التى تساعد على النمو الجسمى للطفل ، وتؤدى إلى إشباع حاجات ترتبط باللعب والحركة والنشاط مثل : الحاجة إلى البحث والمعرفة وحب الاستطلاع ، والحاجة إلى الإنجاز والنجاح وبناء الشخصية التى تتميز بالمشاركة والمبادأة والإقدام .

وتساهم وسائل الإعلام فى تحقيق هذه الحاجة من خلال حث

الأطفال على مزاولة الألعاب الرياضية المفيدة ، والتعريف بها والأماكن التى يمكن للطفل إشباعها فيها كالنوادى وتحذيره من ممارستها فى الشوارع .

وتبدو حملات التوعية المرورية التى يبثها تلفزيون سلطنة عمان ، وتنشرها الصحف مثالا للحفاظ على سلامة الأطفال الذين يستعملون الدراجات الهوائية .

وعلى الأسرة توجيه أطفالها إلى الألعاب المناسبة لسنهم ومشاركتهم فيها قدر الإمكان ، وغرس القيم التربوية وتعريفهم بخطورة وخطأ بعض المفاهيم الرياضية الشائعة .

وتوجد مجموعة حاجات أخرى تتصل بالنمو الجسمى كالحاجة إلى الملبس والمسكن المناسب ، والحاجة إلى الوقاية والعلاج من الأمراض والحوادث ، والحاجة إلى الإخراج والتخلص من الفضلات .

وتساهم وسائل الإعلام فى إشباع هذه الحاجات بطريقة غير مباشرة ، حينما تدعو إلى الحفاظ على الملبس والمسكن والصحة ... . إلخ وتقديم المعلومات الصحيحة التى يحتاج إليها الطفل وتثقفه فى هذا المجال .

(ب) حاجات النمو العقلى :

توجد مجموعة حاجات للنمو العقلى تساهم وسائل الإعلام فى تثقيف الطفل حول كيفية إشباعها ومن أهمها الحاجات الآتية :

١ – الحاجة إلى البحث والمعرفة والاستطلاع :

إن الطفل بطبيعته ميال للحركة واللعب والمعرفة والاستطلاع ، حيث ينمو حب الاستطلاع عنده من الشهر السابع تقريبًا ، ويزداد مع تقدمه فى العمر ويكتسب الطفل معلوماته ، وتنمو معارفه عن طريق خبراته التى يمارسها بنفسه ، باستعمال عضلاته وعن طريق حواسه المختلفة التى تعتبر أبواب المعرفة بالنسبة له .

ويمكن توجيه نزعة الطفل وحاجاته إلى البحث والمعرفة والاستطلاع بتنويع المثيرات أمامه ، حتى تتاح له إمكانيات التعجب والتساؤل والفحص والتجريب والتفكير والبحث والاختبار والملاحظة .

ويمكن أن تسهم وسائل الإعلام فى إشباع حاجة الطفل إلى المعرفة بأن تثير اهتمامه ببعض الموضوعات ، وأن توجهه إلى بعض الكتب للبحث عن هذه الموضوعات ، وتطلب منهم إرسال ما توصلوا إليه إلى أبواب الأطفال فى الصحف والمجلات وبرامج الأطفال ، على أن يتم مناقشة أفضل ما توصل إليه الأطفال فيما يتعلق بهذا الموضوع ، كما يمكن أن تشجع الأسرة والمدرسة الطفل على تنمية الحاجة إلى المعرفة بتوفير الكتب والدوريات والمكان والجو المناسب .

٢ – الحاجة إلى تنمية المهارات العقلية واللغوية :

يحتاج الطفل إلى تنمية مهاراته العقلية فى مجالات الإدراك والتذكر والتفكير ، وذلك بتركه يحل ما يقع من مشكلات ، واستخدام النتائج التى يصل إليها بنفسه فى مواقف أخرى مماثلة ، حيث أن اتصال الطفل

المباشر بالأشياء والناس وتفاعله معهم يمده بذخيرة من الخبرات العملية والشخصية المباشرة ، تساعده على فهم المعانى ، وصب هذه المعانى فى الألفاظ التى يسمعها من الكبار ، فالطفل كثيرًا ما يعرف اللفظ دون أن يدرك معناه .

وتعتبر الحاجة إلى اكتساب المهارة اللغوية من الحاجات الأساسية فى مرحلة الطفولة التى تتعلق بالنمو العقلى ، وتعتبر بصورتها اللفظية مظهرًا قويًا من مظاهر النمو العقلى والحركى ، ووسيلة من وسائل التفكير والتخيل والتذكر ، ويرتبط النمو اللغوى للطفل ارتباطًا وثيقًا بثقافة الطفل والدور الذى تلعبه وسائل الإعلام فى هذا المجال لا يحتاج إلى توضيح إذ تقدم ما يلى :

- تزويد الطفل بخبرات حسية بديلة عن خبرات الحياة العملية كلما تعذر الحصول على الأخيرة ولتكوين أساسيات اللغة وجذورها .
- تقديم النماذج اللغوية السليمة التى توفر للطفل فرص الاستماع إلى اللغة وتقاليدها مع التدرج فى اللغة ، التى تقدم له فى عدد الكلمات وطول الجملة التى تستخدم .
- تشجيع الطفل على الممارسات اللغوية ، بأن يطلب منه دائمًا ترديد ما يسمعه من مفاهيم والاستجابة اللفظية لفقرات من البرنامج الإذاعى والتلفزيونى ، مع بيان المواقف التى تستخدم فيها مثل هذه الألفاظ والمفاهيم والتعبيرات ، وتحفيظه مجموعة من الأغانى والأناشيد المتصلة بشخصه وبيئته حتى يرغب فى ترديها وتفسير كلماتها ومفاهيمها المختلفة .

– مساعدة الطفل على تمييز وفهم الحروف الهجائية ، وربط كل حرف بكلمات أو أسماء بسيطة محببة لنفس الطفل ، حتى يدرك عملية تحليل الكلمات إلى حروف مع الاستعانة بالبطاقات الصغيرة والأشكال المختلفة للحروف وتنغيمها وتقديمها إلى الطفل بشكل مشوق وخير مثال على ذلك برنامجى : المناهل وافتح يا سمسم .

– مساعدة الطفل على التمييز بين الأشكال المختلفة كالدوائر والمنحنيات والزوايا ، والخطوط لكى تساعده على تمييز اللغة المكتوبة .

(جـ) حاجات النمو الانفعالى – الاجتماعى :

توجد مجموعة حاجات للنمو الانفعالى – الاجتماعى من أهمها الحاجات الآتية :

١ – الحاجة إلى الحب والحنان والأمان :

إن الحاجة إلى الحب والحنان والأمان من أهم الحاجات الانفعالية التى يسعى الطفل إلى إشباعها ، حيث يحتاج الطفل أن يحب وأن يكون محبوبًا .

وتبدأ الحاجة إلى الحب والحنان مع الطفل منذ مولده ، ويعتمد الطفل على أمه فى كل شىء مما يولد شعورًا بالثقة فى نفسه يقوى يومًا بعد يوم ، ويجعله يثق فى علاقاته بالآخرين .

وتخلق الأسرة السعيدة الشعور بالحب وتتعهده بالنماء ، وبدون

ذلك ، يفشل الطفل فى التفتح والازدهار من الناحية الجسمية ، وتنمو فيه اتجاهات شخصية تعوق النموين : العقلى والنفسى السليمين .

وتعتبر الحاجة إلى الأمن والأمان من أهم حاجات الطفل ، ذلك أن العصر الذى نعيش فيه قد تكون له علاقة بذلك ، حيث يشاهد الأطفال على شاشة التلفزيون الحروب والكوارث .

وتستطيع وسائل الإعلام إشباع هذه الحاجة بصفة عامة ، من خلال تمثيلية لأسرة سعيدة فكثيرًا ما تكون التمثيليات التى تقدم للطفل ، عاملاً يساعد على توسيع دائرة الحب عنده ويزيد من معلوماته ويساهم فى تثقيفه .

ويستطيع التلفزيون تحرير الأطفال من الخوف نظرًا للجوئهم إليه هربًا من مشاكلهم بتقديمه للفقرات التى تتضمن سلوكيات ينبغى الالتزام بها وتحقق الأمان لهم .

٢ – الحاجة إلى الانتماء والقبول الاجتماعى :

ترتبط حاجة الطفل إلى الأمن العاطفى بحاجته إلى الشعور بالتبعية والانتماء والقبول الاجتماعى ، يبدأ الطفل كعضو من أعضاء الأسرة فى الشعور بالانتماء إليها وكلما تقدم به العمر يزداد هذا الشعور بالانتماء إلى أسرته رسوخًا ، ويدرك – بمرور السنين – أن الانتماء من الأشياء التى تلقى تقديرًا ، ويشعر بالانتماء إلى الجماعات غير النظامية التى يكونها : كالفرق الرياضية والشلل الخاصة ، وأخيرًا يشعر بالانتماء إلى الجماعات المنظمة .

– وتستطيع وسائل الإعلام إشباع حاجة الطفل إلى الانتماء من خلال تصوير العلاقات بينه وبين أفراد أسرته ، ومدرسته ، وقريته ، أو مدينته ودولته ، وتستطيع أن تغرس فى نفسه الثقة بذاته وبمكانته ، ويمكن أن يكون أداء الأطفال لنشيد وطنى من العوامل التى تشبع هذه الحاجة حيث تشعره هذه المواقف بالانتماء إلى جماعة .

– وتستطيع وسائل الإعلام إكساب الطفل الأنماط المختلفة من السلوك التى تؤدى إلى إشباع حاجة الطفل إلى القبول الاجتماعى ، وإعطائهم فكرة عن كيفية التعامل مع الأسرة والمجتمع وتحيطهم علمًا بحقوقهم مبررًا – بأسلوب سهل مشوق – أسباب قبول المجتمع أو رفضه .

وتستطيع كذلك أن تسهم بدور الوسيط بين الوالدين وأبنائهم مما يساعد على تكييف الأطفال اجتماعيًا مع والديهم ، وأسرهم ومجتمعهم ، وأفضل ما تفعله وسائل الإعلام فى هذا الصدد توجيه أبواب أو برامج للأب والأم مثل : عزيزى الأب : عزيزتى الأم .

٣ – الحاجة إلى الإنجاز والتحصيل والنجاح :

تظهر الحاجة إلى الإنجاز والتحصيل والنجاح فى ميل الطفل إلى التعبير عن نفسه ، والإفصاح عن شخصيته في كلامه وأعماله العامة ، وكل ما يشترك فيه ويقدمه من خدمات للآخرين فى حدود قدراته وإمكاناته .

وتعتبر هذه الحاجة أساسية في توسيع إدراك الطفل وتنمية شخصيته ، وتبدأ فى الظهور فى السنتين الأولتين ، ويحتاج الطفل للشعور بالإنجاز

طيلة حياته ، ويمكن أن تسهم وسائل الإعلام فى إشباع هذه الحاجة من خلال ما تعرضه من قصص البطولة ، ولا سيما ما تقدمه برامج الأطفال ، التى تتناول طفولة المشاهير والعظماء والقادة وتشبع حاجة الطفل إلى تأكيد ذاته ، والإنجاز والنجاح لأن الطفل ينمو من خلال التقليد والتقمص ، ولو أعجب ببطل تمثيلية ، قد يتخذه قدوة ويقلده ، كما يمكن أن تقدم بعض الأعمال الفنية التى يفهم منها الأطفال معنى النجاح والصفات التى يجب توافرها للإنسان ، إذا رغب فى النجاح ، كما يمكن أن تقدم للطفل نماذج من الحياة التى يعيشها الشخص الناجح والمرارة التى يعانى منها الشخص الفاشل ، وبذلك تساهم فى تثقيفه تاريخيًّا وحول تراجم وسير هامة فى حياة مجتمعه والعالم .

ويقع على الأسرة عبء أن تدعم ذلك وتشرح للطفل ما يغمض عليه ، وتحاول تذكيره بالنماذج الناجحة التى نعتبرها قدوة فى حياتنا ، وخاصة التى تغلبت على قلة الإمكانيات وضعت نجاحها بفكرها .

٤ - الحاجة إلى المشاركة واحترام الذات :

تشير الحاجة إلى المشاركة واحترام الذات إلى الرغبة فى تحصيل المدح من الآخرين ، وإلى الحصول على المراكز والمكانة العالية مع الأقران وأصحاب السلطة .

وتبدأ هذه الحاجة فى الظهور منذ الشهور الأولى من حياة الطفل ، وتعتبر ذات أهمية بالنسبة لتثبيت حاجة الطفل إلى الإنجاز والنجاح ، ويحتاج النمو السوى للذات وتنمية مفهوم صحى موجب للذات إلى إشباع هذه الحاجة الأساسية .

ويمكن لوسائل الإعلام أن تشبع حاجة الطفل إلى المشاركة ، واحترام الذات بتقديمها نماذج من سلوك أطفال يعملون ، وقد يفشلون أحيانًا ، ولكن مع إتاحة الفرصة لتصحيح الفشل والنجاح فى النهاية ، يأخذ الطفل مكانة فى المجتمع ويحترم عمله ونجاحه ، ويتوحد الطفل المشاهد مع هذا النموذج مما يشبع عنده هذه الحاجة .

ويمكن لهذه البرامج وغيرها من المضامين التى يعرضها التلفزيون أن تشبع هذه الحاجة أيضًا من خلال ما تتضمنه من أعمال فنية يتضح من خلالها ، أن المجتمع يفضل الإنسان الذى يستطيع أن يتحمل المسئولية ، ويعتمد على نفسه ، ولا يستسلم للمشكلات ولكنه يتحداها إلى الأساليب المناسبة للتغلب عليها .

٥ - الحاجة إلى الأمان الاقتصادى :

تشير هذه الحاجة إلى مدى شعور الطفل بالوفاء باحتياجاته الأساسية ، ولا يقاس الأمان الاقتصادى بالثراء أو الممتلكات ، بل باستقرار المركز المالى وضمان استمراره .

وتستطيع وسائل الإعلام إشباع هذه الحاجة بتقديم نماذج من كفاح الذين عانوا من الفقر ، وتخطوه بعملهم ، فقد تبعث هذه القصص والنماذج - وخاصة عند الأطفال الفقراء - طاقة على مواجهة ظروفهم مثل إبطال هذه القصص كما تساهم فى تثقيف الطفل ثقافة اقتصادية مبسطة .

المبحث الثالث
مجالات التأثير السلبية لوسائل الإعلام على ثقافة الطفل

مدخــل :

يدفع تعدد الدراسات وتناقضها فى مجال دور وسائل الإعلام فى نشر العنف والرعب إلى أخذ نتائجها بالحذر ، حيث أن معظمها انتهت إلى احتمال أن يدفع العنف على الشاشة إلى عمل مشابه فى واقع الحياة ، بينما أوضحت بعضها أن ذلك يحدث فى نطاق ضيق وظروف محددة ، بل يرى البعض ومنهم هالوران أنه مما يدعو إلى السخرية ، أن نجعل وسائل الإعلام وخاصة التلفزيون كبش الفداء لأمراضنا الاجتماعية ، لأن التلفزيون ليس السبب الرئيسى لنشر العنف بين أفراد المجتمع حيث يقدم برامجه فى وسط بيئة اجتماعية معقدة ، يدخل فى تشكيل القيم والأخلاقيات فيها عناصر وعوامل عديدة ، ويجب أخذ هذه العوامل فى الحسبان عند دراسة دور وسائل الإعلام فى نشر العنف والرعب .

ويتضح من الاطلاع على أهم الأدبيات فى هذا الموضوع ازدياد الشكوى من العنف فى أجهزة الإعلام منذ الثلاثينات حين ظهر ما سمى

بعنف هوليود الجديد ، الذى ساد محتوى الأفلام فى تلك الفترة ، وبانتشار مشاهدة التلفزيون توجه الاهتمام إلى الأفلام والمسلسلات التى تعرض (مشاهد عنف) باعتبارها تساعد لا شعوريًا على ارتكاب أعمال القسوة والتدمير والعنف وتزداد أهمية التركيز على دراسة هذا المجال من مجالات تأثير وسائل الإعلام على ثقافة الطفل إقبال الأطفال المستمر والمتزايد على مشاهدة الرسوم المتحركة ، ومعظمها مستوردة ومتضمنة لعنف ، وقيم سلبية أشارت إليها العديد من الدراسات التحليلية لمضمون وسائل الإعلام .

ومما يلفت النظر ويثير القلق وتتوفر فيه أدلة التكرار الواسع لأعمال العنف فى وسائل الإعلام من ناحية ، الإثارة التى تتضمنها البرامج والمضامين التى تتضمن العنف من ناحية أخرى مما دفع إلى تزايد الاهتمام بدراسة آثار العنف فى وسائل الإعلام على المجتمع عامة والشباب والأطفال خاصة ، وأجريت منذ الثلاثينات آلاف الدراسات ، وعقدت مئات المؤتمرات والندوات والحلقات الدراسية لمناقشة دور وسائل الإعلام فى نشر العنف والرعب بينما توجد دراسات قليلة جدًا فى المكتبة الإعلامية العربية فى هذا المجال .

وفى رأينا أن هناك ضرورة ملحة لدراسة مضمون المواد الإعلامية بالإضافة إلى دراسة الجمهور عند تناول موضوع دور وسائل الإعلام ، فى نشر الرعب والعنف والانحراف لأن تأثير وسائل الإعلام ثمرة التفاعل الواقعى بين خصائص وسيلة الإعلام وخصائص جمهورها المستهدف فالطفل ، أو الشاب ليس مخلوقًا سلبيًا يعمل فيه التلفزيون كما تعمل

الريح فى الريشة ، وليس من الإنصاف أن ينظر إلى التلفزيون على أنه السبب الوحيد للانحراف لأن الانحراف سلوك معقد للغاية ، ينجم عن مؤثرات متشابكة لها جذورها فى البيت وجماعات الأقران ، والمدرسة والمجتمع ، ولا يعنى ذلك إعفاء التلفزيون ووسائل الإعلام الأخرى من تحمل مسئوليتها عن نشر العنف والرعب ، فمما لا شك فيه أن التعرض المستمر لبرامج التلفزيون مثلاً يؤدى إلى تكوين نظرة كلية شاملة للحياة ، وتقويم غير مرغوب فيه لها ، فالحلول العلمية طويلة الأجل والنظرة الديمقراطية تصبح عديمة الجدوى ، فى حين أن العنف هو الحل الأمثل لمشكلات الحياة مما يدفع البعض إلى إطلاق لقب **جامعة الجريمة** على التلفزيون ، أو كما يصفه أحد الأطباء بأنه إذا كان السجن بالنسبة للمراهقين هو كلية يتعلمون فيها الجريمة فإن التلفزيون هو المدرسة الإعدادية للانحراف .

ونتناول فى هذا المبحث أحد التأثيرات السلبية لوسائل الإعلام على ثقافة الطفل ، والمتمثلة فى نشر العنف والرعب من خلال العناصر الآتية :

أولاً : العنف : تعريفه وأنواعه .

ثانيًا : تطور الاهتمام بدور وسائل الإعلام فى نشر العنف والرعب .

ثالثًا : أسباب زيادة القلق من تزايد حجم العنف والرعب فى وسائل الإعلام على ثقافة الطفل .

رابعًا : حجم العنف فى وسائل الإعلام .

خامسًا : أهم آثار نشر العنف والرعب من خلال وسائل الإعلام على ثقافة الطفل .

أولاً : العنف : تعريفه وأنواعه :

١ - تعريف العنف :

يصعب تقديم تعريف جامع للعنف لاختلاف تعريفاته باختلاف تخصصات الباحثين ، فعلماء السياسة يعرفونه بطريقة تختلف عن رجال الجريمة ، كما أنه يعرف أحيانا بطرق تختلف باختلاف الأغراض التي يرغبون في الوصول إليها وباختلاف الظروف المحيطة ، وفي رأينا أن التعريف الذى التزمت به هيئة الإذاعة البريطانية فى إحدى دراساتها ، أشمل التعريفات التى تناولت العنف حيث عرفت العنف بأنه صورة من التفاعل الإنسانى تؤدى إلى الأذى الذى يصيب الجسد أو النفس أو كليهما ، ويسبب ضررًا قد يؤدى إلى القتل ويكون موجهًا للإنسان ، أو الحيوان ، أو الممتلكات سواء كان ذلك عمدًا أو مصادفة .

٢ - أنواع العنف :

وتوجد تقسيمات عديدة للعنف منها تقسيمه إلى العنف المنظم أكثر أنواع العنف انتشارًا فى المجتمعات ، والعنف التلقائى الذى يعبر فيه الفرد عن إحباطات يعانى منها ، والعنف المرضى وهذا النوع الأخير يقوم به الأفراد الذين يشكون مرضًا جسديًّا أو نفسيًّا ، وعادة يسبق ارتكابهم لهذا النوع من العنف رؤية منظر ما ، أو مقابلة إنسان ما ، أو الاستماع إلى صوت ما يثير رغبة فى العنف .

ويقسم الدكتور عدنان الورى العنف تقسيمًا مختلفًا فهو يرى أن العنف يتضمن عنصرين أساسيين : أولهما ، أسلوب العنف ، والآخر درجة شرعيته ، أما الأسلوب فقد يكون على أنواع هى :

– العنف البدنى : وهو الذى يتم بالسلوك البدنى الضار كالضرب والقتل والإيذاء البدنى .

– العنف الشفوى : وهو الذى يكون بالتهديد باستخدام العنف دون استخدام العنف فعليا وغالبًا ما يسبق العنف البدنى الحقيقى هذا التهديد ولكن لا يشترط تلازمهما فى كل الأحوال .

– العنف بالتسلط على الآخرين لأحداث نتائج اقتصادية ونفسية وعقلية واجتماعية ، ويشترط لتوافر هذا النوع من العنف وجود النية لإحداث النتائج الضارة .

أما عنصر الشرعية فهو مطلب نسبى لا يحدث وفق معايير قاطعة ، إذ هو يتدرج من الشرعية الكاملة حتى يصل إلى درجة اللاشرعية وهو عدة أنواع أهمها :

– العنف المشروع الذى يستخدمه صاحبه لحفظ النظام والقانون كالعنف الذى يستخدمه رجل الشرطة فى القبض على المجرمين ، وعنف بعض ألعاب القوى كالملاكمة والمصارعة والعنف الذى يستخدمه الجندى أثناء القتال ، والعنف المشروع الذى يستخدم بدرجات متفاوتة وفق حق التأديب والضبط إلى غير ذلك من ألوان العنف المشروعة الأخرى .

– العنف اللامشروع وهو الذى يخالف المعايير الاجتماعية والقانونية وهذا العنف قد يكون عنفًا بدنيًا ، أو شفويًا أو الإضرار بمصالح الآخرين .

– العنف الذي يتوسط بين المشروعية واللامشروعية حين يتعدى الأب مثلاً حقه المشروع فى تأديب ابنه ، فيصبح عنفه إساءة لاستخدام حقه المشروع وبالتالى يكون لا مشروعًا .

ثانيًا : تطور الاهتمام بدراسة دور وسائل الإعلام فى نشر العنف والرعب :

دار – وما يزال – نقاش حول تأثير وسائل الإعلام على جمهورها ، ومعظمه حول تأثير التلفزيون في نشر العنف والرعب ، وشارك فى هذا النقاش – سواء بإبداء الآراء أو إجراء الدراسات – الباحثون الإعلاميون والاجتماعيون ورجال الإعلام والقضاء والصحة النفسية والسياسة ، ولعل من يرى حجم العنف والرعب وأفلام الجنس التى تتزايد أعدادها يومًا بعد يوم يندهش من معارضة الأمريكيين عام ١٨٦٨ لعرض فيلم الأرملة جونز لاحتوائه على قبلة واحدة ومن البدايات الهامة لدراسة دور وسائل الإعلام فى نشر العنف والرعب الاستقصاء الذى أعدته لجنة السناتور أيستس كيفونر الفرعية عام ١٩٥٢ ، حول جنوح الأحداث ، واتهمت الشهادات التى أدلى بها الخبراء التلفزيون بأنه مسئول ليس فقط لأنه يعرض العنف ، ولكنه لأنه يحث الأحداث على تقليده ، وتلى ذلك دراسة عام ١٩٥٤ تبين منها أن ٧٠٪ من الآباء

يلقون باللوم على قصص الجريمة ، وبرامج العنف ويرون أنها وراء ظاهرة جناح الأحداث بل كما يرى أحد القضاة فى محاكم الأحداث فى الولايات المتحدة ، أنها جعلت الشباب يخرجون عن طورهم مما دفعه إلى منع أحد الشباب من رؤيتها لعدم موافقة والديه عليها .

وزاد الاهتمام بهذه القضية ، عقب مقتل جون كنيدى عام ١٩٦٣ ، وخصصت الحكومة الأمريكية مليون دولار لدراسة قضية العنف على شاشات التلفزيون تحت عنوان (مشروع بحثى كبير : دراسة كبير الأطباء عن التلفزيون والسلوك الاجتماعى) ، والذى انتهى إلى الإشارة إلى وجود التقاء بين البحوث العلمية التجريبية والميدانية ، بقيام علاقة سببية للعدوان على المدى القصير ، بين بعض الأطفال لمشاهدتهم العنف على الشاشة .

وفى عام ١٩٦٤ أصدرت اللجنة التحقيقية البرلمانية التابعة لمجلس الشيوخ الأمريكى إنذارًا لأصحاب صناعة الإعلام التلفزيونى ، للحد من العنف وكما قال دود رئيس اللجنة : إن ما يعرضه التلفزيون الأمريكى من مشاهد إجرامية زادت بنسبة ٢٠٠٪ خلال السنوات العشر الأخيرة ، وأن ٢٥ مليونًا من الأطفال الذين تقل أعمارهم عن الثانية عشرة ، يتعرضون لمثل هذه الجرائم يوميًا وفى عام ١٩٧٥ منعت حكومة المكسيك أكثر من ٣٠ برنامجًا وفيلمًا لامتلائها بالعنف وساد الخوف من أن يحدث ما انتهت إليه إحدى الدراسات من أننا يجب ألا نتعجب عندما نجد أطفالاً وشبابًا يستخدمون العنف أساسًا لحل مشكلاتهم

الشخصية طالما أنهم يرون كل يوم مشاهد حية ، بها موظفون رسميون يستخدمون العنف فى تعاملهم مع مشكلات المجتمع .

ويتزايد الاهتمام يومًا بعد يوم بدراسة هذه القضية سواء على المستوى الدولى أو العربى .

ثالثًا : أسباب ازدياد القلق من تزايد حجم العنف والرعب فى وسائل الإعلام على ثقافة الأطفال :

يتزايد حجم القلق عندنا مما يحدثه مضمون العنف والرعب فى وسائل الإعلام على ثقافة الأطفال خاصة ، وهناك عدة أسباب وراء ذلك من أهمها :

(أ) تزايد الوقت الذى يتعرض فيه الفرد لوسائل الإعلام يومًا بعد يوم وخاصة مع زيادة وقت الفراغ ، نتيجة للثورة الصناعية وتشريعات العمل والأجهزة الآلية التى تقوم بالعمل بدلاً من العمل اليدوى ، مما دفع البعض إلى القول بأنه لأول مرة فى تاريخ الإنسان نجد عائقًا على الطريق ، لا يتمثل فى الحضارة ذاتها ولكن فى حضارة تتميز بوجود وقت فراغ غير عادى ، ومن المعروف وجود ارتباط واضح بين أوقات الفراغ وبين التقدم العلمى فى مجال التكنولوجيا الصناعية ، وأداء العمل ، فالمكاسب التى تتحقق فى العمل تنعكس مباشرة على أوقات الفراغ ، ذلك أن مزيدًا من التقدم الصناعى يعنى زيادة فى معدلات الإنتاج ، وهذا يرتبط بدوره بارتفاع مستوى المعيشة ، ومن ثم لا يجد

الناس فحسب أوقاتًا متسعة للفراغ ، بل ستتوافر لديهم الإمكانيات الاقتصادية ، والتى يستطيعون معها الإنفاق على قضاء أوقات الفراغ .

وينتج الفراغ الجماهيرى - إلى حد كبير - عن التقدم الملحوظ فى التكنولوجيا ، فقد لاحظ أحد الباحثين أن متوسط أسبوع العمل بين الفلاحين والعمال كان عام ١٨٥٠ حوالى ٧٢ ساعة ، هبط فى عام ١٩٠٠ إلى ٦٠ ساعة وسجل عام ١٩٤٠ (٤٤) ساعة ووصل عام ١٩٦٠ إلى ٤٠ ساعة أسبوعيًا ، بالإضافة إلى زيادة العطلات وانخفاض عمر التقاعد ، وغير ذلك مما أسهم فى زيادة كمية الفراغ ، بالإضافة إلى قصر العام الدراسى والجامعى - بالنسبة للأطفال والشباب - فى العالم العربى وما يستتبعه من طول الإجازة الصيفية ، ولذلك تبين من دراسة ميدانية على الشباب المصرى الجامعى قوامها ٣٧٩٣ طالبًا وطالبة جامعية عام ١٩٨١/١٩٨٠ وجود وقت فراغ لدى ٨٦,٤٣٪ ، وأن التلفزيون يمثل إحدى الوسائل الأساسية لقضاء وقت الفراغ حيث يشاهده ٧٧,١٣٪ ، من هؤلاء المبحوثين ، وتبين من دراسة أخرى أجريت فى الإمارات العربية المتحدة ، إن الفراغ الذى يشعر به المراهقون - ولا يشغلونه ، أو يستثمرونه بأساليب إيجابية بناءه تعود عليهم بالفائدة والنفع على أجسامهم وعقولهم ومعنوياتهم - يكون سببًا لضياعهم واضطراب نفسياتهم ، وهو ما أكدته نتائج هذه الدراسة حيث وجدت أن وقت الفراغ الطويل عند الجانحين ، يستغرق ساعات عديدة يوميًا وأن معظم أنشطة شغل هذا الوقت تتم خارج المنزل بعيدًا عن رقابة الأسرة وأن أهم الأنشطة والهوايات التى يجب

الحد من ممارستها هى : الجلوس مع الأصدقاء (٩٨٪) ، سماع الأشرطة المسجلة (٨٤٪) ، التجول فى الحى (٧٦٪) ، التردد على الأسواق والمقاهى (٦٤٪) ، سماع المذياع (٤٢٪) ، الذهاب إلى السينما (٣٨٪) ، ومشاهدة التلفزيون والفيديو (٩٦٪) ، وتبين أن ٥٢٪ منهم يشاهدون التلفزيون يوميًا و (٦٢٪) أكثر من ساعتين فى اليوم ، وأهم أنواع الأفلام التى يرغبون فى مشاهدتها فى الفيديو هى : أفلام الكاراتيه ، فأفلام العنف والرعب ، فأفلام المغامرات ، فالأفلام الجنسية ، فالأفلام البوليسية ، وأفلام أخرى متنوعة ، ويقرأ ٣٨,٥٪ منهم موضوعات الجريمة فى الصحف تليها الموضوعات الرياضية (٣٢,٥٪) . ولا ينفرد الشخص العربى بزيادة تعرضه لوسائل الإعلام لزيادة وقت الفراغ ، بل تبين أن المرء فى الولايات المتحدة يشاهد التلفزيون من الثانية من عمره حتى الخامسة والستين بما يعادل تسع سنوات ، ويشاهده تلاميذ الثانوية حوالى عشرين ألف ساعة مقابل خمس عشرة ألف ساعة يقضونها فى المدرسة .

(ب) **ظهور وسائل اتصال حديثة كالكاسيت والفيديو كاسيت ، تمكن الطفل من التعرض لكثير من المضامين التى لا تعرض من وسائل الإعلام الجماهيرية من ناحية وفى الوقت المناسب للمتلقى من ناحية** أخرى ، بالإضافة إلى إمكانية التحكم فى المادة التى يتعرض لها سواء بمشاهدتها أكثر من مرة ، أو مشاهدة لقطة معينة أكثر من مرة ، بتثبيت شريط الكاسيت أو الفيديو كاسيت من ناحية ثالثة ، ذلك أن الميزة الأساسية للفيديو ، هى إعادة عرض برامج تم تسجيلها من أجهزة

استقبال تلفزيونية ، أو من واقع الحياة مباشرة ، وذلك من خلال تسجيل الصوت والصورة سواء من كاميرا فيديو خاصة ، أو من إرسال تلفزيونى . ولقد تقدمت صناعة الفيديو كاسيت بصورة سريعة ، وتعددت فوائده واستخداماته بفضل المزايا والخصائص التى تتوفر فيه خاصة أن الفيديو يتفوق على التلفزيون حيث يستخدم كوسيلة لشغل أوقات الفراغ ويعرض أفلامًا ومسرحيات لا يمكن عرضها فى التلفزيون ، إما لأسباب سياسية أو أخلاقية ولذلك يشبع رغبات الجمهور ، التى لا تشبعها وسائل الإعلام بالإضافة إلى حدوث طفرة هائلة فى الأشكال الجديدة التى ظهرت من تقنية الفيديو ، شملت أجهزة الفيديو المنزلية وألعاب الفيديو بالإضافة إلى استخدام شاشة التلفزيون – وهو ما نحذر منه صحيًا – استخدامات جديدة من خلال أجهزة الكمبيوتر المنزلية .

والخلاصة أن المميزات السابقة هى مصدر الخطر فى الفيديو حين يستخدم في أغراض التسلية لمشاهدة أفلام العنف والرعب والجنس ، وهو أمر أشارت إليه عدة دراسات فى المكتبة الإعلامية العربية منها :

* دراسة حسين العودات حول الفيديو فى سوريا ، حيث وجد أن عدد أفلام الفيديو المتداولة فى سوريا حتى نهاية عام ١٩٨٢ ، باعتبار عام ١٩٨٠ سنة الأساس ٣٠٠٠ فيلم تتوزع على الأفلام الأجنبية (٦٥٪) ، والأفلام العربية (٣٥٪) ، وتتوزع على عدة أنواع فى مقدمتها الأفلام البوليسية (٥٠٪) ، أفلام الكاراتيه (١٠٪) ، أفلام الرعب

(٧,٥٪) ، أفلام المغامرات (٧,٥٪) ، بالإضافة إلى الأفلام الاجتماعية (١٥٪) ، والأفلام الكوميدية (٧,٥٪) ، وأفلام الأطفال (٢,٥٪) ، ولا تشكل الأفلام البوليسية وأفلام الرعب والكاراتيه الأكثرية الساحقة من حيث النسبة فقط ، وإنما أيضًا من حيث متوسط الساعات التى تعرض فى الفيديو الواحد سنويًا حيث تبين أنها تتوزع كما يلى : ٢٢٠ ساعة أفلام بوليسية ، و٤٤ ساعة أفلام كاراتيه ، و٣٣ ساعة أفلام رعب ، و٣٣ ساعة أفلام مغامرات من إجمالى ٤٠٧ ساعة لكل فيديو بما يعادل ٧٣,٩٧٪ من إجمالى ساعات تشغيله ، وتهتم بإشباع رغبات غريزية أكثر مما تهتم بمعالجة مصالح أو هموم أو قضايا اجتماعية وثقافية وسياسية .

* دراسة منى الحديدي ، وسلوى إمام حول عادات مشاهدة الفيديو فى القاهرة بجمهورية مصر العربية ، وتبين منها كثافة الإقبال على مشاهدة الفيديو والتفرغ تمامًا لمشاهدته عند ٥٦,٢٪ من المبحوثين ، كما تبين أن ٨,٨ يشاهدون الأفلام الممنوع عرضها فى التلفزيون و١٠,٤ الأفلام البوليسية ، و٥,٧٪ الأفلام الجنسية .

* دراسة اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصرى حول جمهور الكاسيت والفيديو كاسيت ، حيث تبين أن ٩٣,٨٦٪ من حائزى أجهزة الفيديو ، يشاهدونه بانتظام ويفضلون : الأفلام العربية (٨٣,٩٢٪) ، الأفلام الأجنبية (٦٥,٥٪) ، المسرحيات العربية (٦٣,٨٧٪) ، المنوعات الأجنبية (٤١,٥٢٪) ، والرقص الشرقى (٢٥,٤٤٪) .

* دراسة عبد الوهاب كحيل حول تأثير الفيديو على القرية المصرية ، على عينة من أسر المهاجرين العائدين فى إحدى قرى محافظة المنيا بجمهورية مصر العربية فى يناير ١٩٨٧ ، وتبين منها أن ٦٠٪ يشاهدون الفيديو بانتظام فى المقاهى ، و٤٠٪ أحيانا ، وتبين أن أهم أسباب تفضيل مشاهدة الفيديو هى : يعرض مما يريده المشاهد (٤٣,٦٪) ، يعرض أفلامًا أكثر (٤٠,٧٪) ، يشاهده مع أصدقائه (٩,٦٪) ، ويشاهده بعيدًا عن رقابة المنزل (٦,١٪) ، وانتهت الدراسة إلى أن ظهور الفيديو فى القرية أدى إلى تعود السهر الطويل للشباب ، بل والأطفال وله آثاره النفسية لكثرة مشاهدة الأفلام والقصص ، والتى تملأ مخيلة المشاهد وتجعله دائم التفكير فيها ويحاول تقليد أبطالها ولو كانوا مخطئين .

* دراسة نوال عمر حول الفيديو فى حى مصر الجديدة بمدينة القاهرة ، وقرية أكوة بمحافظة الشرقية بجمهورية مصر العربية ، وتبين منها أن ٨٨٪ من المبحوثين (٤٠٠) يمتلكون أجهزة الفيديو ويشاهده ٨٦,٥٪ منهم ، وتستحوذ المشاهدة تمامًا على تفكير ٣٦,٧٪ من المشاهدين ، وأهم أنواع الأفلام التى يقبل المبحوثون على مشاهدتها : أفلام العنف (٢٨٪) موزعة على : الأفلام البوليسية (١٢,٩٪) ، وأفلام الكاراتيه (١٠,٣٪) ، وأفلام العنف والضرب (٤,٨٪) ، ويلى أفلام العنف بأنواعها الثلاثة الأفلام الروائية الكوميدية (٢١,٧٪) ، ولعل أخطر ما أسفرت عنه هذه الدراسة أن ٥٢,٩ من المبحوثين شاهدوا أفلامًا جنسية ، وتزيد النسبة فى الحضر عن الريف (٦٥,٣٪ ، ٥٢,٩٪) ، وبين البالغين ٢٠ سنة إلى أقل من ٣٠ سنة (٧٨,١٪) فالبالغين ١٦–٢٠

سنة (٦٩,٨٪) ، وبلغ أعلى معدل مشاهدة لها بين الجامعيين بالحضر (٧٢,٢٪) ، والريف (٦٤,٣٪) .

* **وتزداد الخطورة حينما يقبل على مشاهدة الفيديو الأطفال ،** فلقد وجدنا فى دراسة ميدانية أجريناها على ٤٠٠ طفل وطفلة إن ١١٪ من الأطفال بالحضر والريف يشاهدون الفيديو ، وأهم المواد والفقرات التلفزيونية التى يشاهدها هؤلاء الأطفال هى : الأفلام والمسرحيات (٩٣٪) ، الأغانى والاستعراضات (١١,٤٪) ، برامج ومواد الأطفال (٩٪) .

* ووجدت إنشراح الشال فى دراستها على ٤٠٤ طفل أن ٣٣٪ منهم تمتلك أسرهم أجهزة الفيديو ، وأظهرت الدراسة **أن الطفل المصرى يثيره المضمون الأجنبى فى أفلام الفيديو ضعف ما يثيره المضمون العربى** ، وركز الأطفال موضع الدراسة على الأفلام الأجنبية التى فيها : إثارة ، عنف ، مغامرة وخيال .

* وتزداد الخطورة أكثر حينما يصل إلى المنازل بدون استئذان إرسال الفيديو عبر جهاز **الفيديو سندر** ، وهو جهاز صغير يوصل بجهاز الفيديو فيرسل المواد التى يبثها إلى مساحات ، تتراوح ما بين مائتى متر وكيلو متر ، فتدخل هذه المواد إلى المنازل دون استئذان ، وغالبًا ما تذاع عبر هذا الجهاز الأفلام المملوءة بالعنف والرعب وأفلام الجنس ، فلقد أجرينا دراسة استطلاعية على عينة عمدية من ممتلكى جهاز إرسال الفيديو ، ومستقبلى هذا الإرسال ببعض مناطق القاهرة ، تبين منها أن

الذين يمتلكون هذه الأجهزة - وهى رخيصة لا يتجاوز ثمن الجهاز ما يعادل ٥٠ جنيها مصريا - يرغبون فى تسلية الجيران أو معاكستهم ، وأهم ما يرسلونه بالإضافة إلى ما سبق المسرحيات والأفلام الجديدة .

(جـ) **انتشار ألعاب الفيديو** : أشار تقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال إلى وجود ثلاثة اتجاهات هامة ، تتمثل فى النمو الضخم فى وسائل الترفيه وإمكاناتها على النطاق العالمى ، مع ما يقترن بذلك عمليًا من مشاركة كافة الوسائل فى شكل الترفيه ، والمبتكرات التكنولوجية الجديدة التى تنتج مزيدًا من وسائل الاتصال ، يمكن للمرء أن يعد برامجها بنفسه ، ويلعب فيها كثيرًا من الناس دورا نشطا لا كمتفرجين ، ولكن كممثلين يقومون بتسلية أنفسهم ، وثالث هذه الاتجاهات نمو صناعة ضخمة توفر انتشارًا واسعًا للإنجازات والعروض الفنية ، وكذلك لوسائل التسلية وللمنتجات الثقافية المصنعة المرتبطة بها ، ومن أولى هذه المبتكرات الجديدة **ألعاب الفيديو** ، ويعد انتشار ألعاب الفيديو سلاحًا ذا حدين يمكن أن يكون نافعًا فى اكتساب مهارات حركية وإدراكية إذا أحسن اختيار مضمونها - وللأسف لم يوجد بعد المضمون العربى فى هذا المجال - ويتم الإشراف على ممارستها بحيث تمارس على شاشات معدة خصيصًا وليس من خلال شاشات التلفزيون مما يضر ببصر المشاهد .

إلا أن الخطورة تتمثل فى **أن أكثر الألعاب انتشارًا تتطلب من الطفل أو اللاعب عامة القيام بأعمال تتسم بالعنف والخطورة** ، وفى رأينا أن التأثير السلبى للعنف هنا أكبر من العنف الذى يعرضه

التلفزيون ، لأنه فى مشاهدة العنف المتلفز يكون المشاهد سلبيًا عكس لاعب الفيديو الذى يتعين عليه أن يركز ويستهلك قدرًا كبيرًا من النشاط العقلى والبدنى .

وتبين أن ألعاب الفيديو انتشرت فى بعض الشوارع فى المدن والقرى فى جمهورية مصر العربية – على سبيل المثال – وأصبحت هواية يمارسها الصغار والكبار ومصدرًا للرزق بالنسبة للبعض بكل ما تتضمنه هذه الألعاب من عنف على الشاشة يتمثل فى معارك يخوضها اللاعب ويشترك فى تقرير مصيرها بالدبابات والصواريخ .

ومما يذكر أن استثمارات ألعاب الفيديو بلغت عام ١٩٨٢ بليون دولار ، وأن ٩٣٪ من الشباب الأمريكى يمارسونها .

(د) **البث المباشر عبر الأقمار الصناعية** : مضى الآن ما يزيد على ثلث قرن منذ إطلاق أول قمر صناعى فى الفضاء فى عام ١٩٥٧ ، ومع بدء عصر البث المباشر بدأ فى رأينا الغزو الثقافى – وبالألوان – وانتشرت الهوائيات الصغيرة التى توضع فى حدائق المنازل ، أو على السطوح وتزداد الخطورة من أقمار البث المباشر لأن بعض هذه القنوات التى تقوم بالبث تقوم به عمدًا لتصل برسالة معينة رغم أنف المشاهدين ، وسوف يكون البث المباشر أعمق تأثيرًا فيمن يتلقاه من بث الراديو الدولى ، ذلك أن المشاهدين يستطيعون استيعاب الرسالة التى تنقلها الصورة بدرجة أكبر مما يحدث بالنسبة للراديو حيث لا يمكن للمستمع أن يتلقى الرسالة إذا لم يكن ملمًا باللغة الأجنبية التى تذاع بها ، وتكمن الخطورة فى أن

بعض هذه المضامين تسعى لجذب المشاهدين بتقديم المضامين الممنوع عرضها فى دولهم لأسباب سياسية أو أخلاقية أو دينية ... إلخ ، ويركز بعضها على العنف والرعب والجنس .

رابعا : حجم العنف فى وسائل الإعلام :

لا نسعى فى هذه الدراسة إلى تقديم حصر بحجم العنف والرعب فى وسائل الإعلام وإنما نكتفى بتقديم نماذج توضح ما سبق الإشارة إليه فى البداية من التكرار الواسع لأعمال العنف فى وسائل الإعلام والإثارة التى تتضمنها البرامج والمضامين التى تتضمن العنف ومن أمثلة ذلك ما يلى :

– تابع شرام وزملاؤه البرامج التلفزيونية المختلفة خلال أسبوع فى أربع محطات ، فوجدوا أن المضامين المخصصة للأطفال تتوزع على : الصور المتحركة (١٨٪) ، الأفلام الغربية (١٣٪) ، أفلام الجريمة (١١٪) ، أفلام خاصة ممتازة (١٠,٥٪) ، أخبار (٧,٧٥٪) ، أفلام فكاهية مثيرة (٥٪) ، مغامرة (٣٪) ، أفلام سياحية (٢٪) ، تمثيليات درامية (١,٥٪) ، موسيقى كلاسيكية (١,٢٥٪) ، **ووجدوا أن المائة ساعة التى عرضت خلالها هذه المضامين تضمنت** : ١٢ جريمة قتل ، ١٦ معركة بالمسدسات ، ٢١ شخصًا يصابون بالرصاص ، ٢١ من الأعمال العنيفة والتضارب بين الإصابة بالرصاص أو الضرب ، ٣٧ من مناظر الصراع والتضارب بالأيدى أو بأدوات مختلفة ، ومحاولات للخنق وصراع تحت الماء وتقييد لليدين ، إصابة بسكين فى الظهر ،

٤ محاولات للانتحار نجح منها ثلاث ، ٤ حوادث سقوط من مرتفعات عالية ، حادثتان لسيارات تسقط من قمة جبل ، محاولتان لدهس أشخاص بالسيارة عمدًا ، منظران لجماهير متجمعة وفى أحد المنظرين يشنقون رجلاً لم يرتكب إثمًا ، مريض هارب من مستشفى الأمراض العقلية يقوم بأعمال جنونية فى طائرة ركاب ، وحادث لرجل يسقط قتيلاً تحت سنابك حصان ، وصور مختلفة لأعمال عنيفة منها صراع فى طائرة ، وقاتل مأجور يتعقب ضحيته ، وحادث سرقة ونشل ، وامرأة تسقط من قطار ومنظر زلزال عنيف وموجْة من الماء عالية ، ومنظر إعدام بالمقصلة .

– وتوصلت هيلموايت وزملاؤها فى دراستهم حول التلفزيون والطفل من فحص البرامج التى يمكن أن يراها الأطفال من سن ١٠–١٤ سنة ، قبل ذهابهم إلى النوم وبين البرامج التى تعرض بعد ذهابهم إلى النوم بالتلفزيون المستقل وتلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية إلى عدة نتائج هامة ، منها أن تلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية عرض خلال ثلاثة شهور ٢٣ تمثيلية شهريًا مقابل ٤٩ عرضها التليفزيون المستقل ، وكانت تمثيليات المغامرة هى النوع الغالب عرضه على كلتا القناتين وأغلبها من إنتاج الولايات المتحدة الأمريكية وعرض التلفزيون المستقل ما يقرب من ٨٤ تمثيلية شهريًا ، بينما عرض تلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية ٤٨ تمثيلية معدة للبالغين وخصصت كل من القناتين نحو خمس الوقت المخصص للتمثيليات لمسلسلات الجريمة ، والبحث البوليسى ، وتبين من تحليل بعض التمثيليات ، وكذلك عشرة من أفلام الغرب الأمريكى ،

وعشرة من برامج الجريمة والبحث البوليسى ، إن أحد الأفلام تضمن إطلاق ١٤٩ طلقة رصاص واختفاء العنف وراء قناع الفكاهة وليست هناك محاولة لتجنب مشاهد العنف إذ تبقى آلة التصوير على من أصيب ، فترى الدم على يديه ، وحبات من العرق على جبينه ، وتسمع صوت شهيقه باحثًا عن الهواء .

– وتبين من دراسة أجريت على أربع قنوات تلفزيونية تذيع ١٢ برنامجًا للأطفال أن هذه البرامج ، تضمنت ٢٢ عملية اغتيال و١٦ معركة بالمسدسات والرشاشات و٢٧ معركة بالأيدى و٢١ مشهد نزاع وعملية قتل بالخنجر ، و٤ حالات انتحار والعديد من السرقات .

– وتبين من تحليل عينة من الأفلام والبرامج التى أذيعت فى اليابان على مدى ٢٤ ساعة إرسال وجود ٥٥ عملية قتل و٥١ معركة بالمسدسات والحجارة والسيوف بل وجد أن ١٤٩ طلقة نارية أطلقت فى أحد الأفلام المخصصة للأطفال .

– كما صنفت إحدى المنظمات الأمريكية المتخصصة فى دراسة العنف فى التلفزيون الكثير من برامج الأطفال التى ما زالت تعرض على شاشات التلفزيونات العربية على أنها تتضمن درجة عالية من العنف مثل طرزان وتوم وجيرى .

– وأحصى أحد الباحثين – كما يقول د . إبراهيم إمام عميد كلية الإعلام الأسبق – مجموعة الأفلام التى تعرض على الأطفال عالميًا فوجد أن ٤٩,٦٪ منها تتناول موضوعات جنسية ، وأن ٢٧,٤٪ منها تعالج

الجريمة ، كما تدور ١٥٪ منها حول الحب بمعناه الشهوانى العصرى المكشوف .

– ووجد بلومر أن الأفلام التجارية التى تنتشر فى العالم تثير الرغبة الجنسية فى معظم موضوعاتها ، وتعلم المراهقين والمراهقات من الفتيات العادات الضارة ، وفنون التقبيل ، والحب ، والمغازلة ، والإثارة الجنسية ، والتدخين ، واحتساء الخمر .

– ولعل ما سبق يشير إلى صحة إحدى الإحصاءات الأمريكية من أن معدل ما يشاهده الطفل الأمريكى على شاشة التلفزيون ، بين سن الخامسة والرابعة عشرة من عمره ، يزيد على ثلاث عشرة ألف جريمة قتل وهذه النوعية من المضامين قادمة لنا بالبث المباشر .

– وتبين من دراسة أخرى عن برامج العنف فى التلفزيونات الأمريكية من أفلام ومسلسلات ، أن الشاب الأمريكى الذى يبلغ عمره ١٦ سنة يكون شاهد ٢٠ الف ساعة ورأى ما لا يقل عن مائتى ألف فعل من أفعال العنف وشاهد مالا يقل عن خمسين الف موقف من مواقف القتل والاغتيال .

وتزداد الخطورة حينما نجد الاتجاه موجودًا نحو عرض أعمال القتل والعنف والرعب فى بعض وسائل الإعلام العربية ، فلقد تبين من الدراسة التحليلية لمضمون تلفزيون الكويت ١٩٦٦ – ١٩٧٥ – وهى الدراسة الوحيدة فى هذا المجال فى المكتبة الإعلامية العربية – أن عدد ساعات برامج العنف والجريمة بلغ ٣٥٦٩ ساعة بنسبة ١٣,٠٣٪ من إجمالى

الإرسال ، وأن نسبة برامج العنف والجريمة فى زيادة مطردة وبلغت قمتها فى عام ١٩٧٢ (١٧,٣٪) ، وأن هذه المضامين تكاد تحافظ على عدد الساعات التى شغلتها على الرغم من انخفاض نسبتها خلال السنوات ١٩٧٣ و١٩٧٤ و١٩٧٥ بالنسبة للبث الكلى ، ويرجع ذلك إلى زيادة ساعات البث الإجمالى فلقد بلغت عام ١٩٧٢ (٤١٩) ساعة بنسبة ١٧,٣٪ من حجم الإرسال ، بينما بلغت عام ١٩٧٥ (٤٣٢) ساعة بنسبة ١٠,٣٪ من إجمالى حجم الإرسال ، وبعضها تضمن مسلسلات مرفوضة فى مجتمعها كالمجتمع الأمريكى بشهادة لجنة تحقيقية لمجلس الشيوخ الأمريكى ، فمسلسل دخان البنادق يتضمن أقسى مشاهد التعذيب البدني والعنف الجسماني ومشاهد القتل والخيانة الزوجية ، والمشاهد اللا أخلاقية واللا إنسانية ، ومسلسل الفرجينى يتضمن فى مشهد منه – على سبيل المثال – قتل ثلاثة عشر شخصًا يتم قتل تسعة منهم بإطلاق النار عليهم ، ويقتل اثنان بالسكاكين ويقتل شخص واحد بالتعذيب البدنى اللا إنسانى ، ويقتل آخر بالاختناق بالدخان ، وفى مسلسل شايان ، وفى مشهد واحد وفى ظرف عشر ثوانى فقط يقتل شخصان بالسكين ويقتل ثالث بإطلاق النار عليه .

ونظرًا لأن الدراسة التى أجرتها وزارة الإعلام الكويتية الوحيدة فى مضمونها فى المكتبة الإعلامية العربية نورد اعتمادًا عليها فيما يلى نماذج من المسلسلات والأفلام العربية ، والأجنبية التى أشارت إليها بوصفها من المواد التى يشيع فيها العنف والقسوة البدنية ، والمشاهد الإجرامية لعلها تساعد التلفزيونات العربية الأخرى والمشاهدين فى الابتعاد عنها :

– من الأفلام العربية التي يشبع فيها العنف والقسوة البدنية والمشاهد الإجرامية : حب وإعدام ، أبو الذهب ، صراع في النيل ، صراع في الجبل ، قاطع طريق ، أبو الليل ، لماذا أعيش ، المشاغب ، هل أقتل زوجى ، دموع في الليل ، المجرم البرىء ابن حميدو ، المشاغبون ، رصيف نمرة ٥ ، لصوص لكن شرفاء ، أيام ضائعة ، هارب من الأيام ، أخطر رجل في العالم ، الثعلب والحرباء ، الشجعان الثلاثة ، مجرم تحت الاختبار ، هي والشيطان ، نهاية الشياطين ، شيطان البسفور ، القاتل ، حياة خطرة ، ربع دستة أشرار ، حسناء المطار ، رحلة صيف ، جعلوني مجرمًا ، أمير الدهاء ، الورطة ، ملوك الشر ، أبو حديد ، الساعات الرهيبة ، موعد مع المجهول .

– من الأفلام الأجنبية المماثلة : خطوات في الليل ، المشنقة ، الفارس الأسود ، جريمة قتل في المسرح ، معركة الجنوب ، الهروب من المحكمة ، الكتيبة المسلحة ، تحت أجنحة الليل ، السرقة الكبرى ، قرصان الفجر ، القاعدة السرية ، السراب ، المسدس الصامت ، نهاية أسبوع مرعبة ، طلقة لها اسم ، الطريق إلى الغرب ، الهروب من السجن ، البلد البعيد ، المدينة المذعورة ، وادى الغموض ، اللص الذكى ، النهر الغامض ، ثرى حرب ، أيام خالدة ، الرجل الأخضر ، الرجل الآخر .

– ومن المسلسلات الأجنبية المماثلة : الرجل الخطر ، غزاة الشمال ، السهم المكسور ، الصراع ، النجدة رقم ٨ ، شرطة باريس ، شرلوك هولمز ، طرازان ، ضربة السوط ، الرجل النحيف ، الهارب ، الشك ، البوليس الدولى ، هتشكوك ، أنا القانون ، العمالقة ، البارون ؛

الغزاة ، القطار الأزرق ، رحلة إلى الأعماق ، الأبطال ، كتيبة الفداء ، المصير الغامض ، نفق الزمن ، ميزان العدالة ، سماران ، أنقذ حياتك ، لعبة المصير ، اللص الظريف ، شايان ، خط النار ، جحيم المعركة ، المهمة المستحيلة ، الفرقة الخاصة ، الوطواط ، المخبر السرى ، المجموعة الباسلة ، الغرفة رقم ٢٢٢ ، الأطباق الطائرة ، هاواى رقم ٥ ، فتى السيرك ، القطط البوليسية ، المطاردة ، جرائم العاطفة ، كوجاك ، الرجل الآلى ، والساحر .

ومن المعروف أن تلفزيونات الدول العربية تستورد العديد من هذه الأفلام والمسلسلات وإذا أخذت مصر كمثال فلقد تبين من واقع الحصر الشامل للبرامج الأجنبية الواردة للتلفزيون المصرى ١٩٧٠ — ١٩٧٨ أن إجمالى ساعات هذه البرامج بلغ ٥٧٣٢,١٧ ساعة قبل التلفزيون منها ٨٠,٣٥٪ ، وتبين من واقع الحصر الشامل للمضمون الأجنبى الذى أعددناه لليونسكو ، واتحاد إذاعات الدول العربية فى الفترة من ٣١ يناير إلى فبراير ١٩٨٣ أنه شغل ٢٧,٩٪ من حجم الإرسال كما شغل المضمون العربى ٧,٢٪ وجاءت الولايات المتحدة الأمريكية كأول دولة بين الدول التى يستورد منها التلفزيون المصرى برامجه (٥٥٪) ، تليها المملكة المتحدة (١٠,٦٪) ، ففرنسا (٩٪) ، وتبين من فحص البرامج التلفزيونية فى الدول الخمس التى شاركت فى البحث : الجزائر ، مصر ، سوريا ، تونس ، واليمن ، أن نسبة البرامج المستوردة فى كل من الجزائر وتونس ٥٥٪ ، وفى اليمن ٤٧٪ ، وفى سوريا ٣٣٪ كما تبين أن الجانب الأكبر من هذه البرامج المستوردة

(٦٩٪) من دول غير عربية ، مقابل ٣١٪ من البرامج العربية وتتوزع على الدول الأجنبية : الولايات المتحدة (٣٣,٠٥٪) ، فرنسا (١٢,٨٪) ، بريطانيا (٦,٧٪) ، اليابان (٥,٩٢٪) ، المانيا الغربية (٥,٥٤٪) ، الاتحاد السوفيتي (٢,٦٥٪) ، تشيكوسلوفاكيا (٠,٧٠٪) ، وعدة دول بنسب أقل ، أما الدول العربية فقد جاء في مقدمتها : الإمارات العربية المتحدة (١٠,٢٢٪) ، يليها مصر (٥,٩٧٪) ، السعودية (٤,٣٩٪) ، الكويت (٤,١٨٪) ، وعدة دول أخرى بنسب أقل .

ولا يقتصر تقديم العنف والجريمة للأفراد على التلفزيون والسينما والإذاعة والفيديو ، فلقد تبين من **دراسة تحليلية للدلالات الاجتماعية لصفحة الجريمة في الصحافة المصرية في الستينات والسبعينات** ، أن الجرائم التقليدية كالسرقة والحوادث والقتل .. الخ احتلت مكان الصدارة في صفحات الحوادث في الصحف المصرية خلال الستينات وحظيت بنسبة ٥٥,٩٪ ، في حين تساوى اهتمام الصحف في السبعينات بين الجرائم التقليدية والجرائم المستحدثة (٤٥٪ لكل منهما) ، ووجدت هذه الدراسة أنه غلب على الجرائم في الستينات الطابع الفردى ، وظهرت في السبعينات الجرائم التي ترتكبها عصابات أو تنظيمات ، ويغلب عليها التدبير واستخدام القوة المسلحة كما كانت الصحف في الستينات أكثر نشرًا للأخبار ذات الطابع الشخصى الخاص بالعلاقات الزوجية والأسرية ، والتى اتسمت بطابع الفضائح وكانت جريدة الجمهورية القاهرية أكثر هذه الصحف ، نشرًا للفضائح وأخبار

الدعارة وجرائم الشرف والخيانة الزوجية والأخبار الغريبة والشاذة وذلك في الستينات والسبعينات على السواء .

ومن يذكر في هذا الصدد أن أهم أنواع الجرائم التقليدية التي عرضتها الصحف في السبعينات هي : السرقة (٣٠,٩٪) ، الحوادث (٢٠٪) ، القتل (١٧,٩٪) ، المخدرات (١٤,٨٪) ، الخطف (٤,٨٪) ، جرائم الضرب (٢,٣٪) ، جرائم الأحداث (٢,٣٪) ، الاغتصاب وهتك العرض (١,٤٪) ، والثأر (٠,٣٪) بينما كانت أهم أنواع الجرائم المستحدثة : هي الجرائم السياسية (٧١,٣٪) ، جرائم التهريب (٧,٤٪) ، جرائم التزوير (٧,١٪) ، جرائم الرشاوى (٤,٥٪) ، جرائم التموين (٣,٤٪) وعدة أنواع أخرى كالهروب من السجن أو التجنيد والثراء غير المشروع وتشرد الأحداث والمؤسف أن هذه الدراسة المتميزة وجدت غلبة الصياغة السلبية على أخبار الجريمة في أكثر الصحف انتشارًا – الأهرام والأخبار – في الستينات والسبعينات بحيث تقتصر الصياغة على مجرد رواية الأحداث ، ووقائع الجريمة دون أن تحاول استغلالها لغرس قيم تربوية لدى القراء ، ومنهم الأطفال والمراهقون مما يؤدى كما ذكرت الدراسة ضمنيًا إلى إشاعة العنف والبلبلة ويصبح الهدف من نشر الجريمة مجرد الإثارة والمؤسف أننا وجدنا في دراسة ميدانية على ٤٠٠ طفل مصرى ، حول الموضوعات التي يحرصون على قراءتها في الصحف والمجلات أن ١٥,٤٦٪ منهم يقرءون أخبار الحوادث ويكاد يتساوى في ذلك الذكور والإناث (١٥,٠٩٪ ، ١٥,٩١٪) وأن معدل الإقبال على قراءتها يزداد كلما انتقل الطفل إلى

صف دراسى أعلى. إذ بينما قرأها ١٥٪ من عينة الطلاب بالصف الخامس الابتدائى ترتفع النسبة إلى ١٦,٠٥٪ بالصف السادس الابتدائى وتصل إلى ٤٠٪ من بين أطفال الريف مقابل ١٠٪ من أطفال الحضر .

خامسًا : آثار نشر العنف والجريمة والجنس من خلال وسائل الإعلام على ثقافة الطفل :

يرجع تخوفنا من نشر العنف والجريمة والجنس من خلال وسائل الإعلام كما سبق وأوضحنا ، إلى أن المشاهدين والمستمعين والقراء فى غالبية المجتمعات يلتهمون هذه المضامين بشغف وشهية متزايدة ، وأكدت نتائج العديد من البحوث وجود علاقة وثيقة بين السلوك العدوانى والتعرض لهذه المضامين ، ومن الآثار التى أشارت إليها نتائج العديد من البحوث نتيجة لمشاهدة : العنف فى التلفزيون ، أو السينما ، أو عبر جهاز الفيديو ما يلى :

(أ) ترفع من حدة الإثارة النفسية والعاطفية عند المتلقى مما يؤدى إلى احتمال حدوث سلوك عدوانى .

وتتمثل أهم العوامل التى تحدد مستوى الاستجابة العدوانية وفقًا لهذه الحالة فيما يلى :

- مستوى الإحباط الذى يشعر به المرء الذى يشاهد التلفزيون أو السينما ، فالحافز العدوانى مثل مشاهدة برنامج ذى طابع عنيف فى التلفزيون ، لا يثير على الدوام استجابة عدائية متوترة ، ولا يثير ايضًا نفس الدرجة من العدوانية لدى كل مشاهدى هذا البرنامج العنيف

فالذى يحدد حجم الاستجابة العدوانية أو درجة العدوانية : الاحباط الذي يعانيه المشاهد في وقت التعرض لبرنامج تلفزيونى ، أو فيلم سينمائى من برامج وأفلام العنف .

– مسوغات العدوان كما تقدمها البرامج المختلفة : فالأمر يتعلق بطبيعة العنف أو هدفه ، فحينما يقدم العنف بشكل له ما يبرره مثل الدفاع عن النفس فإن ذلك يزيد من احتمالات الاستجابة العدوانية ، ذلك لأن المشاهد يمكن أن يعتمد مثل هذه التبريرات ليبرر بها سلوكه العدوانى .

– مدى التشابه بين خبرة المرء الواقعية ، والعنف المقدم من الوسيلة ، وهذا التشابه يمكن أن يتواجد فى أشياء بسيطة مثل تشابه اسم وشخصية الممثل ووظيفته مع الشخص الذى يثير غضب المشاهد وحقه فى حياته العادية .

وأكدت البحوث وجود علاقة وثيقة بين السلوك العدوانى عند الأطفال ومشاهدة العنف ، المتلفز الذى يزيد من التوتر والقلق ، ومن الدراسات التى تناولت ذلك دراسات شرام وهيلموايت بالإضافة إلى دراسة بندورا ، حيث وصل إلى أن التعرض لأفلام عدوانية يزيد من حدة الإثارة النفسية والعاطفية للمتلقى ، وينمى ردود الفعل العدوانية لديه . وتتميز دراسة أخرى أجراها فكتور كلين بأسلوبها الجديد حيث اختار مجموعتين من الأطفال ، كل مجموعة مؤلفة من أطفال وشباب تتراوح أعمارهم ما بين خمس سنوات وأربع عشرة سنة ، حيث كانت

مشاهدة المجموعة الأولى للبرامج والأفلام التلفزيونية قليلة ، خلال العامين السابقين على الدراسة ، بينما كانت المجموعة الثانية تشاهد ٤٢ ساعة أسبوعيا ، وأوصل الباحث كل فرد من أفراد العينتين بأجهزة تسجل الردود الجسمانية الدالة على حالات نفسية ، كردود فعل القلب والتنفس والعرق ، وتبين بعد ثماني دقائق أن هذه الأجهزة سجلت ردود فعل تتناسب إنسانيا مع المشاهدة كالنبض السريع ، وضيق التنفس ، وتصبب العرق بينما تجاهلت العينة الثانية هذه الأشياء مما يشير إلى إدمانها مشاهدة هذا العنف وتخفيف التأثير الناجم عن التعرض له إلى حد الانعدام .

(ب) تعزيز السلوك القائم بالفعل داخل الفرد :

يعزز العنف المتلفز أنماط السلوك الموجودة أصلاً عند المشاهد ، لأن الشخص العنيف - بسبب نوازع العنف داخله - يرى السلوك العنيف على أنه تجربة حقيقة ، وأوضحت دراسة ميدانية أن البرامج العدوانية زادت من السلوك العدوانى لدى الأطفال الذين لديهم نزعة عدوانية نسبيًّا .

(جـ) التعلم والتقليد :

يقول شرام وزملاؤه : إن الطفل يتعلم من التلفزيون ، وإن الأمر لا يحتاج إلى دليل ، ويأتى الجانب الأكبر مما يتعلمه الطفل من أجل الترفيه ، وإنه يعى فى ذاكرته المعرفة التى يكتسبها دون أن يكون ذلك قصده من البداية .

ومن المعروف أن إحدى طرق التعلم هى التقليد بأن تلاحظ شخصًا ما ، يتصرف فى موقف ما ، ثم تقلد هذا السلوك وتكمن الخطورة حينما نتعلم العنف وأساليب ارتكاب الجرائم ، ونقلد مانراه على الشاشة مثلما قلد أحد الأطفال ما شاهده فى بعض المسلسلات مما أدى إلى كسر ساقيه ، وأشارت عدة دراسات إلى ميل غالبية الأطفال والمراهقين إلى تمثيل المشاهد التى يشـاهدونها على الشاشـة ، ويصبح فى إمكانهم ارتكاب الجرائم ، وينتقلون بسهولة من اللعب إلى الحقيقة ، ففى إحدى الدراسات تبين حرص تلميذة فى السادسة عشر من عمرها على ارتداء ثوب مماثل للثوب الذى ترتديه بطلة الفيلم ، الذى تشاهده وتقلد دورها فى الفيلم بإعادة تمثيل مشاهد الحب التى رأتها على الشاشة ، وتبين من دراسة وزارة الإعلام الكويتية التى أجرتها على ١٠١٣ من الطلاب الذين يعانون من مظاهر سلوكية غير سوية أن ٣٩٪ من الأفراد يقلدون ما يشاهدونه باستخدام مسدس أطفال لعبة ، ويقلد ١٩,٤٪ ما يشاهدونه باستخدام سكين أو آلة حادة لعبة مقابل ١٢,٣٪ يستخدمون سكينًا أو آلة حادة حقيقية على سبيل المزاح ، وتبين أن ٥٠٪ من هؤلاء يحسون بالانسجام مع برامج العنف و٣٧,٥٪ يجدون فى هذه البرامج الإثارة ، ويتفق كل ذلك مع ما توصل إليه جورج كوستوك بعد استعراضه لمئات من البحوث حول العنف المتلفز ، ويلخص ما نود أن نؤكده من خلال دراستنا لنظريات تأثير وسائل الإعلام على الأفراد من أن وسائل الاتصال تحاصر الطفل فى أى مكان يذهب إليه ، وفى أى وقت من أوقات الليل والنهار ، وتتعدد مضامينها مما يستلزم دراسة ما يمكن أن تتركه

على ثقافة الطفل من تأثيرات . وقدم علماء الاتصال والاجتماع والسياسة العديد من النظريات التى تشرح تأثير وسائل الاتصال ، ويصعب استعراض هذه النظريات فى هذه الدراسة لتعددها من ناحية وتداخلها من ناحية أخرى . وقد يرجع تعددها إلى اختلاف تخصصات الباحثين . وقد يعود تداخلها إلى أنه ما إن تظهر نظرية وتسود لفترة حتى تظهر نظرية جديدة تحل محلها ، أو تثير الشكوك حولها منهجيًا ، وتدعو إلى المزيد من البحث والتعمق ، ونعتقد أن **نظرية التعلم من خلال الملاحظة** أهم النظريات التى تعرضت لكيفية حدوث تأثير من وسائل الاتصال على ثقافة الطفل ، إذ تشير هذه النظرية إلى أنه يمكن أن يتعلم الأفراد سلوك العنف من مراقبة ، أو مشاهدة برامج العنف والرعب والإثارة ، فالأفراد يتعلمون سلوك العدوان والعنف من خلال مشاهداتهم للتلفزيون بتنميط سلوكهم حسب سلوك الشخصيات التى تعرضها برامج العنف وتنطبق هذه النظرية بشكل أقوى على الأطفال الصغار ، حيث يكون لبيئتهم تأثيرها الهام على ما يتعلمونه ، وتزداد الخطورة حينما يكون التلفزيون بديلاً عن الأبوين . لأن الأطفال يفهمون الأفلام والبرامج التلفزيونية بطريقة مختلفة عن عالم الكبار ، حيث لا يستطيعون فى أحوال كثيرة استنتاج العلاقات بين المشاهد التى يرونها ، أو ترتيبها لتفسير المادة الدرامية مما يجعل تذكرهم للمضمون أشبه ما يكون بالشظايا ، فلا يتمكنون من بناء العلاقات بين برامج الكبار ، واستخلاص العبر من المسلسلات كما قد ينجح فى ذلك الكبار ، مما يمكن معه القول : **إن الصور الذهنية التى تتركها أو تخلقها المضامين**

التلفزيونية ، تترك صورًا مشوهة عن حقيقة العالم ، ذلك أن عقل الطفل يسجل ما يشاهده ويختزنه سواء عن وعى ، أو بدون وعى منه منذ أن يبلغ الثلاثين شهرًا ، ويخيف الطفل مقدار العنف الذى يعرضه التلفزيون ، أو تعرضه السينما ولذلك أدخلت مسلسلات هتشكوك الرعب فى قلوب ملايين الأطفال وأطارت بعض المسلسلات - كمسلسلات بلفجور الفرنسية - النوم من عيونهم ، وكذلك فيلم بونى وكلايد المنتج عام ١٩٦٧ ، حيث ظهر أبطاله دائمًا فى حالة ابتسام وهم يمارسون القتل .

ويرى شرام وزملاؤه أنه إذا عرضت مشاهد العنف والقسوة والسلوك غير الطبيعى علنًا على الجماهير ، ستكون سببًا فى إثارة الرغبة فى السلوك العنيف عند الناس ، ولا يوجد شك فى وجود علاقة ما بين ازدياد جرائم العنف وازدياد البرامج المليئة بالسلوك الإجرامى ، والأعمال العنيفة فى السينما والراديو والتلفزيون والصحف والمجلات والكتب ، وأكدت ذلك دراسة لباندورا حيث قدم مجموعة من التحليلات النفسية والاجتماعية ، التى أكدت اكتساب التصرفات الشرسة عن طريق الاحتكاك بالنماذج العنيفة من خلال وسائل الإعلام ، ولم يعد التعلم قاصرًا على الأفلام والمسلسلات والأعمال الدرامية الأخرى ، فمشاهد العنف موجودة فى الأفلام الإخبارية نفسها ، لدرجة أنه عندما قدم التلفزيون بعض المشاهد من مظاهرات الطلبة فى باريس فى مايو عام ١٩٦٨ ، انتشرت عدوى العنف وشملت فرنسا كلها ، وسرعان ما انتقلت إلى أنحاء مختلفة من أوروبا والولايات المتحدة بل وجدت

هملوايت أن الأطفال يضطربون لمشاهد المظاهرات وإطلاق النار والحرب في نشرات الأخبار ، كما يضطربون لمشاهدة هذه المشاهد فى أفلام الغرب الأمريكى .

وترى نظرية التعلم من خلال الملاحظة أن التعرض لوسائل الإعلام يزيد من احتمال العدوانية عند المستقبلين من خلال ما يلى :

— تزويد المشاهدين بفرص لتعلم العدوان والعنف .

— تقديم شخصيات شريرة يمكن تقليدها ، فلقد تبين أن المشاهدين يقتدون فى أغلب الأحيان بالشخصيات المتحدة معهم فى الجنس والسن والظروف الاجتماعية والاقتصادية ، وأوضحت ذلك دراسة أجريت حول أهمية تأثير النموذج العنيف فى تعلم التصرفات العنيفة لمجرد الاتصال بهذا النموذج ، حيث أجرى المؤلفون دراستهم على عينة من أطفال الحضانة من خلال مراقبتهم تسعة أسابيع على مرحلتين : الأولى مدتها ستة أسابيع كان الأطفال فى أثنائها يشاهدون البرامج التلفزيونية المعدة ضمن تنظيم معين ، والمرحلة الثانية مدتها ثلاثة أسابيع وراقبوا فيها الأطفال أنفسهم وهم فى تصرفاتهم العادية ، وتبين لهم أن الأطفال بعد البرامج التى يكثر فيها العنف يصبحون أكثر عدوانية حيث لاحظوا ازدياد الاشتباكات مع الغير والتقاتل وتحطيم الألعاب بينما يكون الطفل بعد البرامج ذات الطابع الهادى أكثر هدوءًا وطواعية فى تصرفاته .

ومن أمثلة الأخبار التى نشرت فى وسائل الإعلام المصرية — على سبيل المثال — وتبين منها بتعلم الأفراد مما يشاهدون على الشاشة ما يلى :

- قام التلاميذ فى القاهرة بإشعال النار فى المدرسة بخطة مرسومة ، وكان لكل مشترك دوره فى تنفيذ الجريمة ، وأوضحت التحقيقات أنهم قلدوا أحد الأفلام .

- طاردت تلميذة فى المنصورة مدرسها لتتزوجه ، وادعت عليه اغتصابها لتتمكن منه أسوة بما حدث فى أحد الأفلام الأجنبية .

- دست الزوجة فى أسيوط السم للزوج للتخلص منه بالاتفاق مع عشيقها تمامًا كما قدمته أحد الأفلام .

- ألقى أحد الأطفال فى الإسكندرية بنفسه من الدور الثالث مقلدًا بطل أحد الأفلام الهندية التى شاهدها مع أسرته قبل الحادث بليلة واحدة .

- سرق طالب ثانوى بدمنهور أمه ، وذهب للبوليس ليبلغ عن الحادث ، وبعد اكتشاف أمره قال أردت أن أقلد جان بول بلموندو .

- ومن المعروف أن النيابة العامة فى مصر أوقفت إحدى مسلسلات الإذاعة عندما ارتكب أحد المجرمين جريمة مطابقة تمامًا للجريمة الإذاعية ، كما قام بعض الشباب بمداهمة إحدى البارات فى شارع عدلى وسط القاهرة على غرار ما شاهدوه على شاشة السينما مستخدمين المدافع الرشاشة .

وإذا كانت السلوكيات السابقة تحتاج إلى دراسات علمية متعمقة تثبتها ، فإن هناك مئات من السلوكيات المماثلة أشارت إليها دراسات علمية تؤكد على تعلم الأفراد مما يقرءونه أو يسمعونه ، أو يشاهدونه على الشاشة ومنها :

– عرض طفل فى إحدى ضواحى بوسطن ، لا يتجاوز التاسعة من عمره على والده فى تردد التقرير المدرسي الخاص به ، وكان مليئًا بالعلامات الحمراء ، واقترح الطفل على أبيه أن يتخلصا من المدرس بأن يقدما له علبة شيكولاتة مسمومة بمناسبة عيد ميلاده ، وقال الطفل : إن المسألة سهلة وقد رأيتها فى التلفزيون الأسبوع الماضى عندما أراد رجل قتل زوجته ، إذ قدم لها بعض الحلوى المسمومة ولم يعرف البوليس من الذى فعل ذلك .

– وطلب طفل فى بروكلين بنيويورك فى السادسة من عمره من والده الذى يعمل شرطيًا أن يمده بطلقات رصاص حقيقة قائلاً : إن أخته الصغرى لا تسقط قتيلة عندما يطلق عليها رصاص مسدسه ، مثل الأشخاص الذين يقتلهم هوبالونج كاسيدى فى قصته البوليسية .

– وضبطت إحدى الخادمات فى لوس أنجلوس صبيًا فى السابعة من عمره يرش مسحوق الزجاج على طعام الأسرة ، ولم يكن هناك أى دافع من الحقد فى نفس الطفل ، وإنما كان ذلك العمل مجرد تجربة أوحى بها إليه الفضول وحب الاستطلاع ليعرف هل تنجح الفكرة كما رآها فى التلفزيون .

– وقبض على طفل فى العاشرة من عمره متهمًا بكتابة شيكات غير صحيحة ليحصل على نقود يشترى بها حلوى ، وقال المأمور جيرالد جونز ويلر : إن الطفل اعترف باقتباس الفكرة من التلفزيون .

— واعترف صبى فى الثالثة عشرة من عمره للبوليس بأنه استوحى من التلفزيون فكرة إرسال خطابات تهديد لأحد المعلمين ، وقد جاءته الفكرة لأول مرة عندما كان يساعد أحد الأشخاص فى كتابة بعض الرسائل ، فلما تركه وحده لمدة ساعة كتب أول رسالة تهديد ، واعترف الصبى لرجال الشرطة قائلاً : لقد جاءتنى الفكرة عندما شاهدتها فى أحد برامج التلفزيون .

— وتبين من دراسة وزارة الإعلام الكويتية حول أثر برامج العنف والجريمة على الناشئة أن ٣٩٪ من أفراد العينة ، يقلدون ما يشاهدونه من أفلام العنف والعدوان والجنس التى تشجعهم على مزيد من العنف والعدوان لا التطهير ، أو والتنفيس وربما لو كان ذلك صحيحًا لأدى تعرض المجرمين لأفلام العنف والقتل إلى التقليل من عدوانهم وعنفهم .

ويلخص ولبر شرام الموضوع كله على ثقافة الأطفال فيما يلى :

— أن بعض الأطفال وقليلاً من الكبار يخلطون بين عالم الواقع وعالم الخيال ، ويقلدون الأعمال العدائية التى يرونها فى التلفزيون فى تصرفاتهم العادية فى الحياة .

— أن الأطفال الذين يشاهدون التلفزيون وفى نفسهم ميل نحو الاعتداء يحتمل أن يتذكروا الأعمال العدائية ، وأن يقوموا بمثلها إذا أحسوا بميل للاعتداء .

– بصرف النظر عن المبادئ الأخلاقية والقيم نجد الأطفال على استعداد لتذكر العنف واستعمال أساليبه .

– يرغب الأطفال فى أن يكونوا مثل الشخصيات الناجحة التى يرونها فى الخيال ويميلون إلى تقليدها سواء كانت شريرة أو تعمل فى جانب الخير .

مراجع وهوامش

- منظمة الأمم المتحدة للطفولة (يونيسيف) . **وضع الأطفال فى العالم ١٩٩٢** . (عمان : المطبعة الوطنية ، ١٩٩٢) ١٠٠ ص .
- المجلس العربى للطفولة والتنمية . **واقع الطفل فى الوطن العربى ١٩٩٠** (القاهرة : المجلس العربى للطفولة والتنمية ، ١٩٩٠) ص ١٥٤ .
- Hoffman, L., and Hoffman. **Review of child Development Research.** (N.Y., 1964).
- Michael J.H. **Television and Children.** (London: 1977) p. 50.
- عاطف عدلى العبد . **الاتصال والرأى العام : الأسس النظرية والاسهامات العربيـة** . (القاهرة : دار الهانى للطباعة ، ١٩٨٤) الفصل الخامس ص‌ص ١٦٤ – ٢٠٥ .
- أحمد فؤاد درويش/ **سينما الأطفال** . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩) ص‌ص ١٧ – ١٨ .
- Piajet, J. **The Construction of reality in the child** (N.Y.: Basicbooks, 1954).
- Bruner, J. & Goodnaw, J. and Austin, A **Study of Thinking.** (N.Y.: Johnwilew, 1958).

- Huck, C. **Children's literature in the Elementary School.** Third Edition (N.Y.: Holt Rienhart and Winston, Inc. 1976) p. 5.
- أحمد نجيب . **اتجاهات معاصرة فى كتب الأطفال** . (القاهرة : المركز القومى للبحوث التربوية ، ١٩٧٩) ص ٢٠ .
- أحمد نجيب . **المضمون فى كتب الأطفال** . (القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٧٩) ص ١١ - ١٤ .
- هدى برادة وآخرون . **الأطفال يقرأون : الجزء الأول** (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤) ص‌ص ١٩٦ ، ٢٢٠ .
- Slade, P. **Child Drama.** (London: London Univ. Press, 1959) p. 29.
- شعبان محمد خليفة ، محمد عوض . **المواد السمعية والبصرية والمصغرات الفيلمية** (جدة : مكتبة العلم ، ١٩٨١) ص ١٨ .
- Becker, J. **The First Book of Information Science.** (Washington: office of Public Affairs, 1973) p. 56.
- جيهان أحمد رشتى . **الأسس العلمية لنظريات الأعلام** . (القاهرة : دار الفكر العربى ، د .ت) ص‌ص ٦٢٢ - ٦٢٣ .
- Lesser, H. **Television and The Pre-school Child.** (London: Academic Press, 1977).
- Edgar, D. **Audio-Visual Methods.** (N.Y.: Holt Rennart Winston Inc. 1961) p. 197.
- سمير محمد حسين . **فن الاعلان** . (القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٧٧) ص ٤٣ .

- وزارة التربية والتعليم . دراسة تحليلية لمسلسلات رسوم الأطفال المتحركة فى تلفزيون سلطنة عمان . **غير منشور** (مسقط : دائرة البحوث التربوية بوزارة التربية والتعليم ، ١٩٩٠) .
- نواف عدوان وآخرون . قياس أثر بعض برامج الأطفال المقدمة من تلفزيون بغداد على الأطفال . **غير منشور** (بغداد : المركز العربى لبحوث المستمعين والمشاهدين ، ١٩٧٧) .
- ريفرز وليام وآخرون . **وسائل الاعلام والمجتمع الحديث** . **تأليف** : وليام ريفرز ، تيودور بترسون ، جان جنس . **ترجمة** : ابراهيم امام . (القاهرة : دار المعرفة ، ١٩٧٥) .
- جيهان أحمد رشتى . **الأسس العلمية لنظريات الاتصال** . مرجع سابق . ص ٦١ - ٦١٧ .
- حسن الحسن . **الدولة الحديثة : اعلام واستعلام** . (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٦) ص ٢٣١ .
- Boulding, K. **The Image.** (Michigan: Univ. of Michigan press, 1971) p. 6.
- على عجوة . **العلاقات العامة والصورة الذهنية** . (القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٨٣) ص ٤ .
- مختار التهامى . **الرأى العام والدعاية** (القاهرة : دار الهانى للطباعة ، ١٩٨٨) ص ١١٢ .
- عبد القادر القط . فلاح التلفزيون **فى** كتابه : **الكلمة والصورة**

(القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩) ص‌ص ٢٢٣ - ٢٣٩ .

- محمد عاطف غيث (محرر) **قاموس علم الاجتماع** . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩) ص ٣٠١ .

- حامد زهران . **علم نفس النمو** . (القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٧٩) ص ٢٦٧ .

- Barnes, L. **Organizational Systems and Engineering Groups.** (Boston: Harvard Business School, 1960).

- Maslow A. **Motivation and Personality.** (N.Y.: Harper Row, 1954).

- فوزية دياب . **نمو الطفل وتنشئته بين الأسرة ودور الحضانة** . (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٨) ص‌ص ٦٦-٧٢ .

- أولسون ، ويلارد ، وليولن ، جون . **كيف ينمو الأطفال** . **تأليف** : ويلارد أولسون ، جون ليولن ، **ترجمة** : محمد خليفة ، **مراجعة** : عبد العزيز القوصى (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، د .ت) ص ١٢٢ .

- هدى محمد قناوى . **الطفل : تنشئته وحاجاته** . (القاهرة : مكتبة الانجلو ، ١٩٨٣) ص‌ص ١٢٧ - ١٢٨ .

- زيدان عبد الباقى . **الأسرة والطفولة** . (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٠) ص ٢٤٠ .

- كمال الدسوقى . النمو التربوى للطفل والمراهق . (بيروت دار النهضة العربية ١٩٧٩) ص‌ص ١٣٧-١٣٩ .
- سمية فهمى . علم النفس وثقافة الطفل . ط٢ (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٩) ص ٦٣ .
- شرام ، ولبير وآخرون . التلفزيون وآثره فى حياة أطفالنا . تأليف : ولبر شرام ، جاك ليل ، أدوين باركر . ترجمة : زكريا سيد حسن . مراجعة : تماضر توفيق (القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥) ص ١٤ .

- Breckent idge, M. & Vincent, L. **Child Development.** Third Edition. (Philadelphia: W.E. Co., D) p. 191.
- Edgar, P., **op - cit.** p. 19.
- U.N.E.S.C.O. **The effects of Television on children and Adolescents.** (Paris: Unesco, 1964).
- Gerbner, G, violence & Terror in Mass Media. (Paris: uneso, 1988).
- U.S. Government. **Violence on Television: Report** (Washington: U.S. Government printing office, 1977).
- Neumeyer, M. and Neumyer, E. **Leisure and Recreation.** (N.Y.: Ronald company press, 1958).
- Anderson, C. **The Electronic Journalism Introduction to Video.** (N.Y.: Preager publishers, 1973) p. 9.

- ماكبرايد ، شون . أصوات متعددة وعالم واحد : الاتصال والمجتمع اليوم وغدا . تأليف : شون ماكبرايد وآخرون (الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ١٩٨١) ص‌ص ١٧٢ - ١٧٣ .

- Stien, M. Friederich. I.K., and Vondracek, F. **Television Content and Children's Behavior.** in: John P. Murray, Eli. A. Eubinstein and George. A Comstock (eds). **Television and Social Behavior Vol. 2.** (Washington. D.C., U.S. Government Printing Office, 1972, pp. 202 - 317.

فهرس

صفحة

صفحة

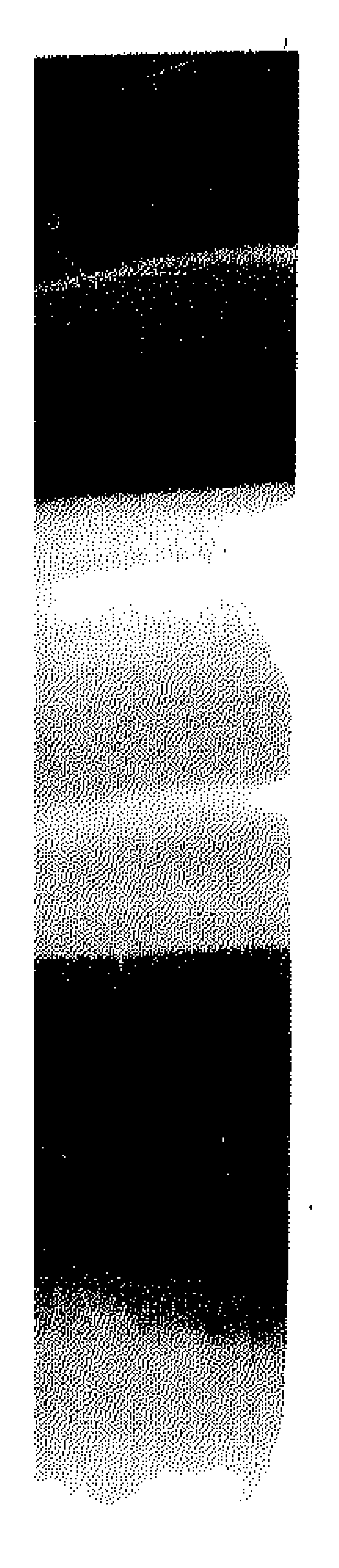
صفحة

صفحة

رقم الإيداع		١٩٩٥/٨٤٨٨
الترقيم الدولى	977 - 02 - 5047 - 3	ISBN

١ / ٩٣ / ٦٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



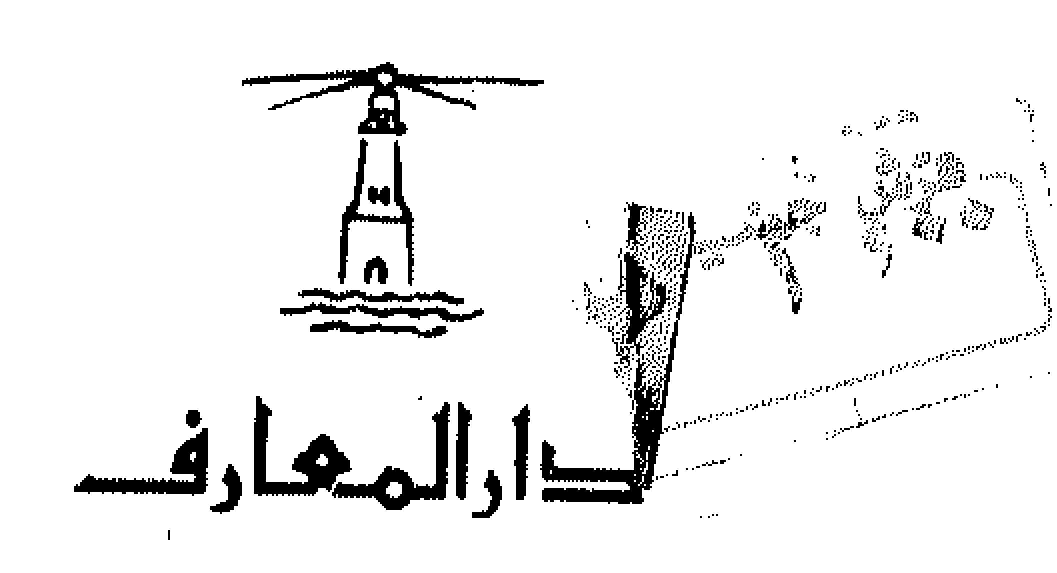
تعد تنمية الطفل ورعايته العامل الأساسى فى التنمية الشاملة ، لأن الرعاية السليمة للطفولة تمثل المستقبل الزاهر لأى أُمَّة .

فماهى حاجات الطفل الأساسية ؟

وما هى المشاكل التى تواجه ثقافة الطفل ومتطلباته ؟

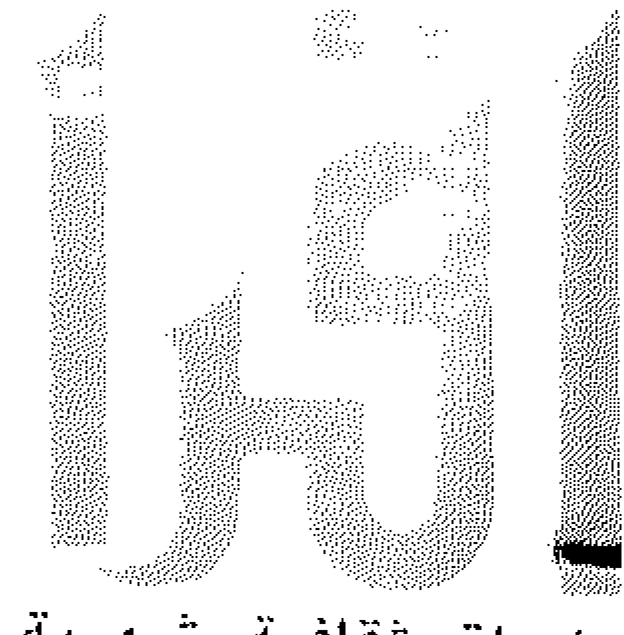
وما هو دور وسائل الإعلام فى تثقيف الطفل وتلبية حاجاته ؟

هذا ما نقدمه لك فى هذا الكتاب .



جمال الغيطانى

قاهريات مملوكية



سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٠٤]

رئيس التحرير: رجب البنا

لوحتا الغلاف

الحريم : للفنان لودج ديوتسن (١٨٥٥)

المقهى : للفنان جون فردريك (١٨٠٥)

جمال الغيطانى

قاهريات مملوكية



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشـاء هـذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربيـة . وأن ينتفعوا ، وأن تـدعـوهـم هذه القـراءة إلى الاستزادة من الثقـافة ، والطموح إلى حياة عقليـة أرقى وأخصب من الحياة العقليـة التى نحيـاهـا .

طـه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مدخل

لكل إنسان مكان يعتصم به ، يلجأ إليه إذا ضاقت به الحال ، ويستعيده فى الغربة ، ويرحل إليه بالذاكرة أو بالخطى إذا قصد البحث عن لحظة فرح ، والمكان صنو للزمان . لا يمكن أن نستعيد لحظة معينة من ماضينا سواء البعيد أو القريب إلا ونجدها مقترنة بموضع . لا يمكن استعادة لحظة مجردة ، منبتة عن المكان الذى أحتواها أو أحتوته ، ولذلك قال القدماء إن الزمان مكان سائل ، والمكان زمان متجمد .

ورغم أن مسقط رأسى فى الجنوب ، إلا أننى أعتبر نفسى قاهرى النشأة والتكوين ، أدين للقاهرة القديمة تحديدا بتأسيس عالمى الخاص . فى حارة درب الطبلاوى المتفرعة من شارع قصر الشوق عشت ثلاثين عامًا من عمرى ، تفتحت عيناى على الأفق المزروع بالمساجد والقباب وظلال الأزمنة المنقضية ، السماء القاهرية حادة الضوء صيفا . الهادئة ، والمقطبة شتاءً أتاحت لوعيى وخيالى الانطلاق عبر تطلعى من السطح الذى كان يمتد أمام مسكننا الصغير إينما وليت وجهى فثمة مئذنة ، قبة ، مدخل مسجد ، لوحة خط ، زخارف ، نواصى مثقلة بالحنين ، وأنفاس الغابرين . مجموع الأحداث التى تجرى عبر الزمان تترك آثارًا غير مرئية .

يصعب إدراكها بالعين المجردة أو الوعى الإنسانى ، أنها آثار لا يمكن تعينها . لكنها تدرك بالحس ، من هنا يجيئ هذا الحضور الخاص لتلك الأزقة والحوارى والشوارع ، أنها أنفاس البشر . وسعيهم . وما جرى ، وتعاقب الأزمنة ، هذه العتاقة ، أو تلك الخصوصية محصلة عوامل عديدة أبرزها فى تقديرى الإبداع الإنسانى المتواصل .

من تلك الظلال وهذه الابداعات سواء كانت فى الحجر أو الخشب أو الزجاج أو النحاس أو الذهب أو الفضة صيغت ذاكرتى الأولى ، وعندما بدأت أفك الحرف ، وأدخل العالم السحرى الرائع الذى أطلعتنى – وتطلعنى – عليه القراءة . كان وجودى على مقربة من مسجد سيدنا ومولانا وأمامنا الحسين ، وكذلك الجامع الأزهر ، خير معين لى ، فحولهما تنتشر المكتبات القديمة ، ومنها نهلت مصادر ثقافتى وتكوينى وما زلت .

مع الانتقال من مرحلة الطفولة حيث الدهشة الأولى البكر ، والتلقى ، إلى الفتوة بدأت أكتشف أبعاد المكان من خلال الزمان ، وفرق كبير أن ترى البناء أو اللوحة وأنت لا تعرف ما يتعلق بهما من ماض وظروف . وأن تطلع عليهما وأنت مزود بما دار حولهما ، هكذا .. كانت قراءة التاريخ ، والنفاذ إلى أسرار الفن الإسلامى العربى والفن القبطى والفن الفرعونى بمثابة الدماء التى تدفقت فجعلت من كل ما أراه وأعايشه كائنات حية .

عشت القاهرة الفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية من خلال

المصادر الكبرى كان أدلتى إليهما مؤرخون عظام . منهم المسبحى . والقضاعى ، وابن واصل ، وابن حجر وابن تغرى بردى والمقريزى والسخاوى ، ثم محمد أحمد بن اياس الحنفى المصرى وعبد الرحمن الجبرتى ، وأولئك الرحالة الأجانب الذين أضافوا أبعادًا لأنهم يرون الواقع وثمة مسافة تفصلهم عنه .

هكذا .. رحت أرحل مع المكان عبر الزمان ، وتوقفت طويلا عند العصر المملوكى الذى انتهى فى سنة ١٥١٧ م – ٩٢٢ هـ ، عندما هزم الجيش المصرى المملوكى فى مرج دابق ولم يعثر لقائده السلطان الشجاع قنصوه الغورى على جثة .

ماتزال الحارات والشوارع تحمل نفس الأسماء التى ذكرها المقريزى فى موسوعته الرائعة « التراجم والآثار » المعروف بالخطط .

كثيرًا ما توقفت عند مدخل مسجد أو قبة أو سبيل ، اسأل نفسى عن الذين عبروه والذين سيرونه من بعدى ، عن علاقة البناء بالوقت ، بالتغير ، عشت تحولات الظلال والطقس والاهمال العام والخاص ، سعيت فى شوارع الجمالية والدرب الأحمر وميدان القلعة وحوارى العطوف وأقمت أوقاتا طويلة فى مساجد السلطان حسن وقايتباى وبرقوق والحاكم بأمر الله ، أعرف حركة الظلال ، والأصوات التى تتردد عند الظهر وعند العصر وذلك الشجن الشفيف الذى يلف أويقات ما قبل الغروب ، وفى لحظة معينة تتحول هذه الأبنية إلى قصائد من الحجر ، وتصبح الفنون القاهرية

مناجاة للكون وخالقه . هذا الثراء ، هذا الجمال فى حاجة إلى رعاية ، إلى استيعاب ، ولكن تأخذنى الحسرات وأنا أرى باب مسجد لا مثيل لجماله ونقوشه مغطى بالوحل .

توقفت عند مسجد ومدرسة السلطان حسن ، ومسجد قايتباى ، عند الأبواب ، عند المشكاوات ، عند ملامح عديدة للقاهرة المملوكية ، وهكذا جاء هذا الكتاب الذى حاولت أن أعبر فيه عن رؤيتى الخاصة وحقائق التاريخ بما يساعد على إقامة صلة ذات مستويات متعددة مع عناصر تكوين هذه المدينة العريقة التى لا مثيل لها فى العالم .

حاولت أن تكون فصول هذا الكتاب فى منزلة رسالة حنين إلى الزمن القاهرى الجميل ، إلى زمنى الخاص والذى سعيت خلاله فى أنحائها ، لعلى معبر عن بعض ما أدركته من أسرارها ، وما أشاعته عندى من بهجة وروعة بفضل عبقرية أهلها وتفردهم .

جمال الغيطانى

القاهرة . . مدينة العصور المتجاورة

أسطورة أو واقع ؟ :

لا ندرى بعد مرور أكثر من ألف سنة . لكن سائر المصادر التاريخية المصرية تذكر تلك الواقعة التى جرت فى ذلك اليوم البعيد ، النائى ، المندثر ، من فبراير ٩٦٩ ميلادية .

مائة ألف مقاتل من القبائل المغربية نزلوا هذا الموضع من بر مصر ، أرض فسيحة ممتدة شمال ثلاث مدن تعاقب تشييدها منذ الفتح العربى لمصر سنة ٦٤٠ هجرية : الفسطاط والعسكر والقطائع .

من اختار المكان ؟ :

أهو القائد العسكرى للجيش الفاطمى الغازى « جوهر الصقلى » ؟ ، أو أنه أحد مساعديه ؟ ، أو أحد عيون الفاطميين فى مصر الذين عملوا من أجلهم قبل قدومهم من شمال أفريقيا ؟ .

لا أحد يدرى ، ما من إجابة قاطعة يقدمها إلينا التاريخ ، لكن الوقائع تنسب الفعل والقرار إلى جوهر قائد الجيش . بعد عبوره النيل قادما من بر الجيزة عند المنيل ، اتجه إلى الصحراء القريبة من تلال المقطم وضرب خيامه ، فيما بعد سيقول له سيده العظيم ،

الخليفة الفاطمى المعز لدين الله : « لو أنك جعلتها قريبة من الماء .. » أى النيل ..

لابد أن اعتبارًا عسكريًا دفع القائد جوهر إلى اختيار الموقع ، ذلك أن جبل المقطم يقوم ناحية الشرق ، فهو بمثابة خط دفاعى حصين وفرته الطبيعة ، لم يكن فى المكان كله إلا دير قبطى قديم « دير العظام » ، وبستان جميل يُعرف بحديقة كافور الذى حكم مصر قبل مجئ الفاطميين .

وضعت قوائم خشبية لتحديد الحصن الجديد . أو القصر الجديد للخليفة الفاطمى الذى سيصل فيما بعد ، أو للمدينة الجديدة التى ستكون مقرًّا لحكمه ، فى ركن ناءٍ وقف المنجمون المغاربة يتشاورون فيما بينهم لتحديد موعد بدء العمل . كانت الأجراس معلقة على الحبال الممتدة من عمود إلى آخر ، وذلك انتظارًا للموعد الذى يحدده أولئك الحكماء ، وحتى يبدأ العمال .

لكن حدث شىء سبق كلمة المنجمين .

إذ وقف طائر على طرف أحد الأعمدة ، وبذلك أخذت جميع النواقيس تدق ، ومن ثم بدأت المعاول تحفر ، ولحظة دق الأجراس ، كان كوكب المريخ فى صعود ، والمريخ أحد أسمائه القاهر ، وبمقاييس المنجمين يعد طالعه مشئومًا . فالقاهر مرتبط بالحرب (مارس فى الغرب) ، لكن .. لم يكن هناك مفر ، هكذا .. بدأت أولى خطوات القاهرة عبر الزمن ، بدأت التقدم فى درب

الأيام الممتد ، لتشمل كل ما سبقها من عواصم ، لتسعى فيها ملايين الحيوات ، ولتتغير من حقبة إلى حقبة ، من مدينة يسكنها الخليفة وحاشيته فقط ، إلى مدينة يسكنها الآن خمسة عشر مليونا . لتستمر حياتها الداخلية فى تدفق مستمر ، أبدى ، فى المكان .. والزمان .

الموقـع

هل كان ممكنًا للقائد جوهر أن ينزل مكانًا آخر ؟ . هل كان ممكنا أن يختار موقعًا آخر للقاهرة ؟ ، أوقن أن الإجابة بالنفى ، فالموضع الذى اختاره لم يحدده هو ، إنما أسهمت فى اختياره عناصر عديدة . منها التاريخية والجغرافية والسياسية ، فمنذ أن توحد القطران فى فجر التاريخ على يدى الملك الفرعونى مينا ، وهذا الموقع هو الأنسب بالنسبة للعاصمة ، كانت المدينة الجديدة مرحلة فى عواصم مصر وقدر لها أن تحتوى كافة المراحل السابقة ، منذ أن كانت منف عاصمة لمصر فى الزمن الفرعونى ، ومنذ أن كان حصن بابليون مركزًا رئيسيًا فى الزمن الرومانى ، ثم شيدت مكانه الفسطاط بعد الفتح العربى ، ثم العسكر بعد أن أصبحت مصر ولاية تابعة للدولة العباسية ، ثم « القطائع » عاصمة الدولة الطولونية المستقلة تقريبا عن الخلافة ، هكذا قدر للقاهرة أن تضم هذه المراحل جميعها من الزمان والمكان ، فكأنها تكوين فريد من العمارة والبشر ، يمتد فى الزمان رأسيًا ، وفى المكان أفقيًا ، ويتضخم حتى يحتوى البلاد كلها ، القاهرة عند المصريين تسمى

« مصر » ، وأهالى الصعيد ، والوجه البحرى عندما يقصدون الذهاب إليها يقولون « نحن ذاهبون إلى مصر » أو نحن قادمون من مصر .

العاصمة إذن مكانها حدده التاريخ واختارته الجغرافيا ، بل إن التضاريس الطبيعية حددت شكل المدينة أيضًا ، فالنيل ، ذلك النهر العظيم الذى وهب الحياة لمصر يمضى من الجنوب إلى الشمال ، قادم من الجنوب حيث المنابع ، ذاهب إلى البحر الأبيض حيث المصب ، ونلاحظ أن كافة المدن المصرية قامت بحذائه ، وأمتدت إلى جواره ، ولذلك نجد أن تصميمها طولى ، يبدأ من الجنوب وينتهى فى الشمال ، ومازال ذلك واضحًا فى مدن الصعيد خاصة القائمة حتى الآن ، دائما يكون المدخل من الجنوب ، والمخرج من الشمال ، فى القاهرة باب زويلة الرئيسى فى الجنوب ، منه كانت تدخل المواكب الرسمية ، والعروض العسكرية لتشق القاهرة وتخرج من باب الفتوح أو باب النصر إلى الصحراء الممتدة شمالا .

هكذا امتد الشارع الرئيسى للمدينة الذى يخترقها من البداية إلى النهاية من الشمال إلى الجنوب ، وما زال هذا الطريق قائمًا ، ويبدأ من ميدان القلعة وينتهى عند مشارف العباسية أو الريدانية كما كانت تعرف فى العصور القديمة . وأشهر أجزائه الآن يعرف بشارع بين القصرين (عنوان ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة) ، إشارة إلى أول ما تم تشييده فى العاصمة الفاطمية ، القصر الشرقى الكبير ، والقصر الغربى الصغير ، والميدان الفسيح الذى كان يفصلهما والذى كان يتسع لجيش قوامه عشرة آلاف جندى ،

لقد تأثرت البيوت القاهرية بالتخطيط الطولى المحاذى للنيل ، فسنجد تصميماتها تتجه من الجنوب إلى الشمال أيضًا ، ويقسم كل منها فناء ، وبذلك تتفق مع حركة الشمس القادمة من المشرق إلى المغرب ، فى النصف الأول من النهار تغطى الشمس الأجزاء الغربية من البيوت والطرقات ، وفى النصف الثانى تتعرض الأجزاء الشرقية إلى أشعة الشمس ، نفس التصميم نلحظه فى المعابد الفرعونية الكبرى والمتبقية حتى الآن مثل الكرنك والأقصر .

هكذا حدد الموقع شكل البناء وفلسفته ، وهكذا احتوت القاهرة كافة ما سبقها من عواصم ، الفسطاط الآن مجرد حى من أحيائها ، يضم أقدم الكنائس القبطية ، إلى جوارها أقدم وأول مسجد أقيم فى مصر ، مسجد عمرو بن العاص ، أما العسكر والقطائع فلم يتبق من معالمهما سوى المسجد الكبير الذى بناه أحمد بن طولون ، ومن الناحية المعمارية يعتبر من أقدم المساجد ، فبناؤه الأصلى مازال قائما كما هو ، لم يطرأ عليه تغيير أو تبديل ، أما مسجد عمرو بن العاص فلم يبقَ حجر واحد من بنائه الأصلى . الموقع فقط هو القديم ، ولكن تعاقبت عليه أعمال التوسيع والترميم حتى بدل تبديلا ، أما مسجد ابن طولون فيمتد فى قلب حى الخليفة (نسبة إلى الخليفة العباسى الذى انتقل مقره إلى القاهرة زمن الظاهر بيبرس . وكانت إقامته قرب القلعة مقر الحكم) . هذا المسجد هو كل ما تبقى من القطائع عاصمة الدولة الطولونية ، وإذا تطلع إليه المرء من فوق قلعة الجبل سيرى تصميمه الفريد محاطا بالبيوت العتيقة ، القديمة التى تلاصق جدرانه ، وهنا

تنبعث فى الذهن الأسطورة ، إذ يُروى أن أحمد بن طولون رأى حلما أفاق منه منزعجًا ، إذ رأى صاعقة من السماء تنزل فتبيد كل ما يحيط بمسجده ، أما المسجد فلم يتأثر بشىء ، وقدم له المفسرون تحليلا مطمئنا لحلمه ، فكل ما يحيطه سوف يبيد . عدا المسجد الذى سيبقى ، وها هوذا المسجد يمتد بجدرانه الأصلية التى كانت تحوى قنوات يسيل فيها المسك ، والعنبر لتنبعث الروائح الطيبة على المصلين ، ولأن المسجد بقي سنوات طويلة لا تقام فيه شعائر صلاة الجمعة ، فقد أوجدت الأسطورة تفسيرًا يتداوله أبناء الحى ، إذ يقولون : إن السيدة نفيسة أحد آل البيت والمدفونة علي مقربة ، غضبت على ابن طولون لسبب ما ، فدعت على مسجده ، أن يحرم من صلاة الجمعة ، وبالفعل فإن الناس هنا لا يذهبون لصلاة الجمعة فى مسجد ابن طولون ، أما المئذنة الملوية المصممة عل طراز ملوية سامراء فنالت حظها أيضًا من الحكايات ، إذ يقال إن ابن طولون كان رجلا صارما جدًّا ، لا يعرف المزاح ، وفى أحد مجالسه سهم قليلا وراح يلف ورقة حول أصبعه ، فلاطفه أحد مساعديه قائلا : لقد ضبطناك تلهو ، فقال ابن طولون : أبدًا – إنما أنا أصمم شكل المئذنة الجديدة !

إنها الرواية الشعبية التى تبرر شكل المئذنة الفريدة بين مآذن القاهرة ، ولكن التبرير الأقرب إلى العقل ، هو نشأة أحمد بن طولون فى مدينة سامراء ، وانطباع شكل المئذنة الملوية الشهيرة فى عقله حتى أخرج تصوره إلى الواقع .

ما من بناء فى القاهرة القديمة إلا وتروى حوله الحكايات ،

فى بعضها عناصر حقيقية من التاريخ ، ومعظمها نسجته المخيلة الشعبية ، وهذا شأن المكان الذى تتراكم فيه طبقات التاريخ ، فى القاهرة القديمة أضرحة صغيرة لمشايخ وأولياء مجهولين ، اسم كل منهم سيدى الأربعين ، لا يعرف أحد على وجه التحديد من هم ، ومن أين جاءوا ، وفى كثير من الليالى كنت أرى شمعة أوقدها مجهول على أحد هذه الأضرحة ، أو عابر سبيل يقف ليقرأ الفاتحة ، وفى الريف المصرى أيضًا تنتشر أضرحة سيدى الأربعين وقد حيرنى هذا طويلا ، إلى أن اهتديت إلى تفسير خاص ، ذلك أن أسطورة إيزيس وأوزيريس تقول : إن إله الشر ست قتل أوزيريس وفرق جسده إلى أربعين قطعة ، دفن كلا منها فى منطقة من أرض الوادى ، وأن إيزيس راحت تبكى دامعة ، وهى تحاول جمع تلك الأجزاء ، ومن دموعها فاض النيل ومازال يفيض ، الأسطورة القديمة بقيت فى الضمير ، وعبرت عن نفسها فى أزقة المدينة الكبيرة وحواريها ، المدينة التى ورثت كل المدن ، الحكايات بلا حد ، ولكننى مورد ما سمعته فى الجمالية حيث نشأت ، فى قلب القاهرة القديم يقوم مسجد سيدى ومولاى الحسين عليه السلام ، إنه ليس المركز الروحى للقاهرة فحسب ، ولكنه المركز الروحى بالنسبة للوادى كله ، لكل محافظة فى مصر وليها وشيخها ، للوجه البحرى وليه وحاميه سيدى أحمد البدوى ، وللصعيد سيدى عبد الرحيم القنائى ، للمنيا سيدى الفولى ، وللأقصر سيدى أبو الحجاج ، ولكل مدينة شيخها الشهير الذى

يقصده الناس ، فكأن هناك نظاما هرميا يبدأ من العاصمة المركز حيث ضريح مولانا الحسين ، وشقيقته الطاهرة زينب ، فكأن العالم الروحى للأولياء والقديسين مواز لهرمية السلطة والإدارة ، إلى الشرق ، من ضريح مولانا يمتد حىٌ قديم اسمه أم الغلام ، تقول الروايات المتداولة : إن رأسه الطاهر بعد أن احتز فى كربلاء طار لمدة أربعين يومًا حتى حط في القاهرة ، (لم تكن القاهرة شيدت بعد) . حط فى حجر امرأة فقيرة تبيع الفاكهة ، تعرفت عليه واحتضنته ، وكان عطر يفوح منها ، خبأت المرأة الرأس الشريف ، وعندما جاء جند يزيد يبحثون عن الرأس ، قامت المرأة بجز رأس ابنها الغلام ، وقدمته إليهم على أنه الرأس الذى حط عندها .

هذا هو تبرير إطلاق اسم أم الغلام على هذه الناحية القريبة من الضريح الحسينى ، ولكن الغريب أنه يوجد شق صغير فى جدار الجزء المتبقى من المسجد الأصلى الذى بناه الفاطميون ، هذا الشق عطر الرائحة ، إذا وضعت اليد فيه خرجت بعطر غريب ، رقيق ،ولكم حملت يدى هذا العبق ، يقول الناس هنا ، إن هذا هو الموضع الذى حط فيه الرأس الشريف بعد أن طار أربعين يوما من كربلاء مسبحا ، موحدا .

من يضع العطر ؟ ما مصدره ؟ لقد سألت ، ودققت ، وحققت ، فلم أصل إلى جواب يقينى .

* * *

إذن ، ورثت المدينة الجديدة التى اختطها جوهر كل ما قام من عواصم قبلها ، وتحولت هذه المدن السابقة إلى مجرد أحياء أصبحت من نسيج المدينة ولحمتها ، الموقع هو الأساس ، يقول الدكتور فتحى مصيلحى فى كتابه عن تطور العاصمة والقاهرة الكبرى الذى صدر العام الماضى ، إن النظم السياسية المتعاقبة على مصر اكتشفت أهمية موقع رأس الدلتا (حيث يبدأ تفرع النيل إلى فرعين) ونهاية الصعيد ، ويحصى حركة العواصم المصرية عبر خمسة آلاف سنة فى عشرين موقعا ، حتى استقر الموقع القاهرى ، وذلك لعدة أسباب منها :

● الموقع الجغرافى المتوسط للوادى كله .

● تمتع موقع القاهرة بإمكانيات حماية طبيعية . إذ تقع فى ملتقى مداخل مصر الأربعة ، الشمالى طرقه سبع غزوات ، الشمالى الغربى جاء منه غزوتان فقط ، ومن الجنوب خطر واحد ، أما المدخل البحرى فجاء منه الخطر الأوروبى .

هذا الموقع المتوسط بالنسبة للمداخل يسمح بوجود شقة أرضية تسمح بالعمليات الحربية وتعوق حركة الغزاة ، أما تلال المقطم فى جنوب شرق القاهرة فتزيد من صعوبة اختراقها بريا ، كما أن هذا المركز نقطة عبور وحركة .

هكذا منح الموقع عناصر الحكم والسيادة بجوانبها المختلفة ، إن على المستوى المادى أو الروحى ، وليس هناك رمز على مركزية

القاهرة مثل قلعة الجبل والمكانة التى كانت تحتلها حتى بدايات القرن التاسع عشر .

القلعة .. وميدانها

عندما زالت الدولة الفاطمية ، وجاء صلاح الدين الأيوبى الذى أجهز على ما تبقى منها ، بدأ بناء قلعة الجبل لتكون مركزا للحكم بدلا من قصور الخلفاء الفاطميين التى احتوت عليها القاهرة ، اختار للقلعة موقعا فريدا فوق تلال المقطم الصخرية ومع مرور الزمن أصبحت القلعة مركزا للحكم خاصة فى العصر المملوكى العثمانى ، اتسعت وأصبحت تشبه مدينة صغيرة مستقلة ، وعندما كانت تنشب الصراعات بين السلطان وخصومه ، كانت النقطة الحاسمة الفاصلة هى الاستيلاء والسيطرة على القلعة ، ومن أهم الأماكن فيها قصر السلطان نفسه ، والإصطبل .. حيث الخيول التى توازى سلاح المدرعات الآن ، والحواصل السلطانية أى مخازن المؤن .

بمجرد الاستيلاء على القلعة ينتهى الصراع ، فكأن المكان رمز حاد للسلطة يحتوى بلغة عصرنا على الإذاعة حيث يبث البيان الأول فى دول العالم الثالث ، ومعسكرات الجيش ، وكافة الهيئات الإدارية ، فأى رمز لمركزية السلطة أبلغ من هذا ؟ .

فى مواجهة القلعة تقوم عمارة أخرى من أعظم العمائر فى العالم الإسلامى ، إنه مسجد السلطان حسن ، كتلة معمارية

هائلة ، كانت تبدو كصرح ضخم للقادم من بعيد قبل أن تقترب منها المبانى وتنال من الفراغ المحيط بها ، إن روعة العمارة . وثقل الزمن القديم المتوارث هنا ، جعل لميدان القلعة خصوصية فريدة ، كان فى الزمن المملوكى يسمى ميدان الرميلة ، وفى العثمانى قره ميدان ، أى الميدان الأسود ، وذلك لوجود سجن شهير على مقربة منه ، ثم أصبح اسمه ميدان صلاح الدين نسبة إلى مشيد القلعة ، غير أننى أفضل تسميته ميدان القلعة . وما من مرة أمضى إليه ، وأقف بين مدرسة السلطان حسن السامقة ، ومسجد الرفاعى الذى أنشئ فى القرن الماضى ، وحاول مهندسه العثمانى محاكاة بناء المدرسة العظيم ، ما من مرة أقف فيها هنا إلا وأشعر أننى انتقلت إلى عدة عصور منقضية ، وليس لعصر واحد فقط ، فى الواجهة تقوم القلعة فوق ربوة مرتفعة ، وإلى جانب الميدان الأيسر مسجد أمير آخور القادم إلينا من الزمن المملوكى .ومسجد المحمودية من الزمن العثمانى ،والرفاعى من القرن الماضى ، أما الميدان نفسه فلكم يوحى ، أتذكر وصف ابن إياس له فى حقبة السلطان الغورى عندما غرس فيه الأشجار ، وأتى إليه بالنباتات النادرة ، وأطلق فيه الغزلان والنادر من الطيور ، وهذا البهلوان الأجنبى الذى جاء ومد حبلا بين مئذنة السلطان حسن والقلعة ، ثم مشى فوقه ، وكان الأمر فرجة لأهالى المدينة هنا كانت تبدأ المواكب السلطانية التى حفظت لنا كتب التاريخ أوصافا رائعة لها ، وحتى بدايات هذا القرن كان موكب المحمل يبدأ من ميدان القلعة ،

كذلك موكب رؤية هلال شهر رمضان ، هنا أيضا كانت تنتهى مواكب السلطان ، بعد أن يشق مدينة القاهرة بدءًا من عبوره بوابة الفتوح ، ثم شارع قصبة القاهرة ، ثم شارع الصليبة ، حتى ميدان القلعة ، وهذه المسميات يمكن اعتبارها اسما لشارع واحد ، مازال متصلا حتى يومنا هذا . ولكنه يقاوم البلى وأيدى الهدم التى لا تحفل بذاكرة التاريخ ، ولا تحتفى بما خلفه لنا الماضى من كنوز وآثار ، إنما تعتبرها عبئا ثقيلا فتحاول الخلاص منه ، تلبية لمتطلبات قصيرة المدى ، أو بدعوى فهم خاطئ للتحديث .

أعود إلى وقفتى بميدان القلعة ، إلى هنا كان يجيئ السفراء الأجانب قبل صعودهم إلى مقابلة السلطان ، كانت التقاليد تقضى أن يدخلوا المدينة من بوابة الفتوح ، وقبل عبورهم يقبلون الأرض ثلاث مرات ، ومازالت بوابة الفتوح قائمة إلى جانب اثنتين أخريتين فى حالة جيدة تماما ، بوابة النصر ، وبوابة زويلة التى استغلها المهندس الذى شيد مسجد المؤيد شيخ الحموى فوضع مئذنتين فوقها مما أكسبها شكلا جماليا فريدا متميزا ، وهذه البوابة هى شعار القاهرة الآن ، توجد بوابة أخرى كشفت عنها الحفائر الحديثة ولكنها ليست فى حالة جيدة ، متكاملة مثل الأخريات ، إنها بوابة البرقية . وهذه البوابات الأربع المتبقية من أصل سبعة كانت تتخلل السور الحجرى العظيم الذى بناه أمير الجيوش بدر الدين الجمالى الأرمنى الأصل قرب نهاية الدولة الفاطمية ،

الدولة الفاطمية ، ومازالت أجزاء كاملة من السور باقية إلى يومنا هذا كأنموذج فريد على العمارة الحربية الإسلامية القديمة .

هنا فى ميدان القلعة كانت تبدأ الاستعراضات العظمى ، والاضطرابات العظمى أيضا ، عند وقوع الفتن ، واندلاع المنازعات ، يلبس المماليك « حرب » ويركبون خيولهم المطهمة ، ويشهرون أسلحتهم ، عندئذ تنسحب المدينة إلى داخل ذاتها ، يغلق الناس أبوابهم ، وحوانيتهم ، وتخلو الشوارع من المارة ، ويسود الترقب والحذر انتظارا لحسم الصراع ، هكذا كان موقف الشعب من فتن المماليك ، وصراعاتهم ، واضطراباتهم ، ولكن هذا الموقف السلبى لم يكن في كل الحالات ، فكثيرا ما كان يتدخل الناس لحسم الصراع ، أو للتعبير عن رأيهم ، كما حدث عندما خرجوا يتظاهرون هنا فى ميدان القلعة مطالبين بعودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعد عزله فى المرة الأولى والمرة الثانية ، وأيضا خلال فتنة الأمير منطاش فى بداية حقبة المماليك الجراكسة .

لكم ضج هذا الميدان العتيق بالحياة ، والحركة ، ولكم تقررت فيه مصائر . كما أنه لا يخلو من دلالات مستمرة حتى الآن . فى تقديرى أن بناء مسجد السلطان حسن الهائل ، القائم فى مواجهة القلعة مقر السلطان يعبر عن مواجهة بين السلطة المدنية (القلعة) والسلطة الدينية ، إن شموخ البناء وقوته وجدرانه العالية الصارمة ، ليبدو وكأنه يتحدى القلعة الواقفة إزاءه ، وبسبب موقع المسجد – المدرسة ، وبرغم كونه رمزا للسلطة الدينية إلا أنه استخدم فى

الصراعات السياسية بسبب موقعه ، فعند حدوث قلاقل فى القاهرة ، كان هدف الثوار الأول تحويل هذا المسجد إلى معقل لهم . فالمنظر الخارجى يشبه حصنا هائلا مكعب الشكل ، يزيد من مظهر ارتفاعه فجوات عمودية بها نوافذ ضيقة ، وحافة بارزة تمتد فى أعلى الجدران ، إن مسجد .. مدرسة السلطان حسن يعد ذروة العمارة المملوكية ، استغرق بناؤه سبع سنوات (٧٥٧ هـ - ٧٦٣ هـ) وبذل فى سبيل إتمامه جهدًا فائقًا ، وأموالا ضخمة ، قال السلطان نفسه ، « لولا أن يقال : ملك مصر عجز عن إتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه » .

إن الوقفة فى ميدان القلعة ، وخاصة أمام مسجد السلطان حسن ، مدخل مناسب للحديث عن خصوصية العمارة الإسلامية المصرية .

خصوصية فريدة

كأنه اليسر بعد العُسر

كأنه الفرج بعد الضيق والشدة ..

كأنه الخروج من محدودية الرحم إلى رحابة الحياة ..

هكذا يبدو الممر غير المستقيم ، المنعطف فجأة بدون سابق تنبيه ، والذى يلى مباشرة المدخل الساحق . شاهق الارتفاع ، المحفوف بالزخارف ، والمقرنصات الحجرية ، فكأن المدخل الهائل

حد فاصل بين الحياة خارج المسجد ، والحياة داخله ، وكأنه اجتياز لبوابة تفصل بين عالمين مختلفين ، عالم المادة وعالم الروح ، لكنك لا تلج العالم الثانى فجأة ، بغتة ، إنما بالتدريج ، وعلى مهل ، وهذا الممر الضيق يتولى ذلك . هذا الممر تجده فى معظم المساجد الضخمة التى شيدت فى الزمن المملوكى ، عصر ازدهار العمارة المصرية ونضجها ، وبلوغها الشخصية المتكاملة فى العصر الوسيط ، سوف تمر به فى مدرسة السلطان حسن ، فى مدرسة السلطان برقوق فى الطريق المؤدى إلى مسجد المنصور قلاوون وقبة الدفن الملحقة به ، فى مسجد السلطان قايتباى ، فى معظم المساجد الهائلة ، لن تلج إلى داخل البناء مباشرة ، إنما لابد من هذا الممر ذى الانعطافات الذى يهيئ الروح للاستقرار هناك ، وفى نفس الوقت ينأى بالعالم الخارجى شيئا فشيئا ، فتبعد أصوات الطريق ، وضجيج الحياة اليومية ، وحمولها ، وهمومها ، لقد اعتدت الخلوة بضعة ساعات فى مدرسة السلطان حسن ، وفى مسجد المؤيد شيخ المحمودى ، وقد مررت بهذه التجربة ، فبعد اجتيازى هذا الممر الملتوى أشعر وكأننى نأيت ، حتى إذا جلست فى الصحن المكشوف أو المغطى تبدو أصوات الطريق كظلال باهتة من عالم آخر ، بعيد ، حتى إذا اقتربت من النوافذ المطلة مباشرة على الطريق أو الميدان ، تبقى تلك المسافة الفاصلة بينى وبين ضجيج الحياة اليومية ، وعند الاقتراب من نهاية هذا الممر الذى يقوم بعملية الانتقال ، لا يلوح داخل المسجد مباشرة ، لا يسفر

الصحن عن نفسه مرة واحدة ، بل ترى جزءًا من الإيوان الشرقى حيث محراب الصلاة وقبة الدفن ، وعندما تعبر الباب المنحنى الضيق ، فكأنك ولدت ولادة جديدة ، وأنا هنا أتمثل معمار مدرسة السلطان حسن باعتباره نموذجا مثاليا لمساجد ومدارس القاهرة .

تعبر إلى الصحن الداخلى ، أربعة إيوانات ضخمة ، لكل مذهب من المذاهب الأربعة إيوان خلفه حجرات الدراسة وأماكن إقامة الطلبة ، إن ارتفاع الإيوانات الشاهقة والتى تنتهى بأقواس حجرية ضخمة محمولة على الفراغ ، لتدعو إلى التفكير فى عبقرية هذا المهندس الذى ظل مجهولا سنوات طويلة حتى عثروا على اسمه منذ فترة قريبة ، محفورا ، متواريا فى ركن قصى من هذا البناء الهائل ، يذكر ستانلى لين بول فى كتابه (سيرة القاهرة) أن السلطان حسن بلغ من شغفه بهذا البناء الرائع ، أن أمر بقطع يد المهندس الذى قام بتشييده ، ظنا منه أن هذا سوف يحد من عبقريته ولا يتيح له فرصة إعادة بناء مثل هذا المسجد الفريد ، ولكننى لم أعثر فى مصادر الفترة التاريخية على تأكيد لهذه الواقعة ، وأظن أن ستانلى لين بول متأثر بالرواية العربية القديمة عن سنمار الذى صار جزاؤه مثلا .

على أية حال ، فإن ضخامة العمارة المصرية لا تؤدى إلى شعور الإنسان بالتضاؤل ، إن المرء لا يشعر بالانسحاق أمام المدخل الشاهق للسلطان حسن ، أو عند وقوفه تحت قبة قلاوون الهائلة ،

بالعكس ، إنه يشعر بنوع من السمو ، إن العمارة تقف عند حد التجريد في خطوطها العامة ، برغم الحشوات أو المقرنصات أو الزخارف المنتشرة هنا أو هناك ، تنتهي الجدران الشاهقة بالعرائس الحجرية شبه المثلثة ، متساوية ، متجاورة فكأنها إشارة إلى صفوف المصلين ، المتساوين أمام الخالق كأسنان المشط ، ولكن إذا دققنا النظر . سوف نرى أن الفراغ الفاصل بين هذه العرائس الحجرية قد اتخذ نفس الهيئة التي حفر عليها الحجر ، فكأنه الأصل والصورة ، كأنه الصوت والصدى ، كأنه المادة الملموسة والروح التي نستشعر وجودها ، لكننا لا نراها .

إن ضخامة المادة هنا مصاغة بطريقة لا تؤدي إلى ترسيخها ، إنما تنفيها ، تمحو الشعور بها ، وكثيرا ما أستعيد صيحة الصديق الشاعر الكبير أدونيس عندما دخل صحن مدرسة السلطان حسن ، وقال :

« إنها قصائد الحجر .. »

موروث معماري طويل يستند إلى تقاليد عتيقة تضرب بجذورها حتى الزمن الفرعوني ، بل إن بعض الرموز القديمة نجدها صراحة ، مثل هذا القارب فرعوني الشكل الذي يعلو جوسق قبة الإمام الشافعي ، والذي يشبه القوارب الفرعونية المرسومة على جدران المعابد ، وكذلك هذا القارب المحفوظ في مسجد سيدي أبي الحجاج الأقصري المقام في قلب معبد رمسيس بالأقصر ، والذي يخرجه المريدون في كل عام ليطوفوا به عند الاحتفال بمولد سيدي

أبى الحجاج ، إن الشكل الفرعونى القديم أكسب العمارة الإسلامية فى مصر خصوصية بلا شك ، حيث تختلف عن العمارة الإسلامية فى الأندلس التى تغطى بالزخارف والمنمنمات التى تذيب المادة تماما عن طريق التجزئ إلى ما لا نهاية ، أو العمارة الإسلامية فى بلاد فارس التى تقوم على أساس عنصر الإبهار بالزخارف الملونة وتغطية الأسطح بالخزف الملون ، ولكن هذا التراث الفرعونى لم يقتصر فقط على الشكل ، إنما امتد أيضا إلى المضمون ، فهذه المساجد العظيمة التى تقوم فى القاهرة القديمة وتحفظ أركانها ، وتصون أفقها ، إنما هى فى حقيقة الأمر عبارة عن مقابر عظيمة أيضا ، وعندما نطالع تاريخ سلاطين المماليك العظام ، فسوف يلفت نظرنا أن السطور الأولى التى يوردها المؤرخ ويسجل فيها أول ما قام به السلطان من أعمال ، أنه شرع فى بناء مسجد ، وهذا المسجد يضم مقبرة له ، وقد يسلك فى سبيل إتمام بناء المسجد أشد الطرق عسفا ، مثلما فعل السلطان مؤيد شيخ الحموى الذى سخر العمال وانتزع أملاك الناس ليضمها إلى مساحة مسجده ، ثم قام بنقل بوابة مسجد السلطان حسن ليضعها على مسجده ، وما تزال باقية حتى الآن ، أما السلطان الغورى فقد اشتط فى الاستيلاء على أموال الناس ، وفك ألواح الرخام من البيوت ليضعها فى مسجده ، وقبته العظيمة التى بناها ليدفن فيها ولكنه قتل فى مرج دابق ولم يعثر له على جثة ، تماما كالسلطان حسن الذى لم يدفن فى مدرسته الهائلة ، العظيمة ، ويسجل ابن

إياس فى كتابه بدائع الزهور فى وقائع الدهور تفاصيل ما قام به السلطان الغورى فى سلب أموال الناس لبناء مسجده ، حتى تندر المصريون فسموه « المسجد الحرام » .

كان ما يحرك هؤلاء السلاطين والحكام ذلك المضمون المصرى القديم المعنى بالخلود ، بالبقاء بعد الموت ، بعد الفناء ، وهذا المضمون ينعكس فى علاقة المصريين بالموت ، لم يكن الأمر مقصورًا على سلاطين المماليك فقط ، ولكن فى العصر الحديث أيضا دفن سعد زغلول فى مقبرة مهيبة كانت مخصصة لدفن المومياات الفرعونية ، وبعد وفاة الزعيم جمال عبد الناصر اتضح أنه كان مساهما فى جمعية تتولى الإشراف على بناء مسجد ضخم فى كوبرى القبة ، وفيه يرقد الآن ، أما أنور السادات فكان يخطط لبناء مقبرة ضخمة فى قرية ميت أبو الكوم ، وقيل فى شارع رمسيس أيضا ، ولكن القدر لم يمهله ، غير أن علاقة الشعب بمكانة الذين سعوا إلى الخلود بهذه العمائر الضخمة معقدة للغاية ، وربما كان مسجد الرفاعى هائل المعمار القائم فى مواجهة القلعة أبلغ مثال على ذلك ، لقد شيد هذا المسجد بواسطة الأميرة خوشيار هانم والدة خديوى مصر ، وأنفقت عليه أموالا جمة حتى يجىء محاكيا ومواجها لمدرسة السلطان حسن ، وفى المسجد دفن الخديوى إسماعيل ، والخديوى توفيق ، والملك فاروق ، وعدد آخر من ملوك أسرة محمد على ، كما دفن فيه مؤخرا شاه ايران ، ومع ذلك فإنك لن تلقى فردًا واحدًا من الشعب يمضى

ليشعل شمعة فوق أضرحتهم ، أو يتصدق على أرواحهم ، أو يتوقف حتى ليقرأ الفاتحة ، أبدا .. إنما يقف الجميع عند قبر رجل فقير يقع فى مدخل المسجد وبعد اجتياز المدخل الشاهق الارتفاع ، إنه سيدى أحمد الرفاعى ، الذى نسب المسجد كله إليه ، وهو ليس الرفاعى المتصوف المشهور وشيخ الطريقة المعروفة ، فهذا الأخير ضريحه فى بغداد ، ولكنه مجرد رجل درويش فقير ، كان بلا مأوى ، اتخذ له مكانا بالقرب من المسجد الهائل الذى بنته الأميرة خوشيار هانم ، واعتقد فيه الناس ، وقصدوه للتبرك به ، وعندما مات دفن فى المسجد الكبير وربما وافق أصحابه بقصد البركة أيضا ، ولكن شيئا فشيئا أصبح ضريح الرجل الفقير هو المركز ، وهو الذى يقف أمامه الناس لقراءة الفاتحة ، وهو الذى يحتفلون بمولده ، ونسب المسجد كله إليه ، فكأن مسعى خوشيار هانم ذهب أدراج الرياح ، وكأنها لم تبن المسجد إلا ليكون تابعا لهذا الفقير المجهول ، وقس على ذلك كل الأضوحة الفخمة والعمائر الضخمة التى بناها الحكام لأنفسهم فى القاهرة ، لن تجد الشعب يحتفل بمولد الأمير قوصون ، أو الأمير شيخون العمرى ، أو سعيد السعداء ، ولا حتى الظاهر بيبرس الذى حولته المخيلة الشعبية إلى بطل ملحمى ، ولكنك ستجد الموالد تقام والاحتفالات تذهب ، والسعى يتم فى اتجاه نفر من الفقراء الصالحين ، الذين ارتبط الناس بهم ، وخلدوا ذكرهم ، ولكم كان التأثر ينال منى وأنا أعبر إحدى حوارى الجمالية فى ليل غميق ، عندما أرى

شمعات صغار يهتز لهيب ذبالاتها الواهنة فوق ضريح بسيط يعلوه غطاء أخضر .. إنه الضمير الجماعى ، الحى ، المتصل ، والذاكرة الشعبية التى تعرف وتميز ولا تنسى .

* * *

إذا نزلت القاهرة ، وتجاوزت بوابات مطارها ، فإن أول طريق تسلكه هو طريق صلاح سالم السريع ، بعد العباسية آخر حدود العمار حتى منتصف هذا القرن (باستثناء ضاحية مصر الجديدة النائية التى أنشئت فى بداية القرن ١٩٠٧) ، وحتى مصر القديمة ، فإن الطريق يمر فى قلب مدينة الموتى ، ستبدو مآذن رشيقة ، وعمائر فخمة مشيدة على الطراز الإسلامى ، وشواهد رخامية متواضعة ، ولكن إذا دققت النظر سوف تلاحظ أن هذه القبور تقف إلى جوار بعضها فى نظام صارم ، الشوارع مستقيمة ، النظافة متوفرة ، الهدوء طبعا غير عادى ، دقة فى واجهات المبانى لا تتوفر فى المناطق العامرة بالأحياء ، بعض العمائر الحجرية الضخمة تحمل اسم منشيئها الذين حرصوا على إضافة ألقابهم (المرحوم فلان .. باشا) (اللواء المرحوم ... .) (أنشأ هذا المدفن المرحوم .. عضو مجلس النواب) .. إلخ لقرافة أو جبانات القاهرة تاريخ طويل ، وقد أفرد المقريزى فى كتابه الخطط قسما كبيرا للحديث عن المدافن المحيطة بالقاهرة ، وهناك كتب خاصة عن القرافة وأماكن الزيارات منها كتاب « الضوء

اللامع فى أعيان القرن التاسع » للمؤرخ السخاوى ، وقد طبع في مصر ، ويذكر ترتيب المقابر ، ويترجم للموتى الذين يرقدون فيها .

بين العالمين

امتدادا لاهتمام المصريين القدماء بفكرة الخلود ، وامتداد الحياة بعد الموت ، سعوا إلى قهر العدم بالمادة ، بالمبانى الضخمة ، الهائلة التى تصمد فى وجه الزمن .. إلى حين مقدر ، وأبرزها الأهرامات ، هذا المضمون الفلسفى والدينى القديم أثر على تركيب المدينة المصرية ، فمدينة الأحياء تقابلها مدينة الأموات ، والقبر نفسه ينقسم إلى قسمين ، الأول يعرض مظاهر الحياة ، والثانى مكان دفن الجثمان محاطا بكل ما كان يستخدمه فى حياته ، كانت المدينة المصرية الفرعونية تتكون من ثلاث محاور . مدينة الأحياء ، ثم مقر الحاكم يليه مدينة الموتى ، والغريب أن هذا التقسيم نجده أيضا فى القاهرة الإسلامية فمدن الأحياء قائمة بالقرب من النيل ، سواء الفسطاط أو القطائع أو العسكر .. أو القاهرة ، ثم يقوم قصر الحاكم ، أو مقر الحكم ، القلعة مثلا ، وإلى الشرق يبدأ امتداد الجبانات ، فكأن القلعة — مقر السلطان — مكان وسط بين عالمين ، عالم الأحياء ، وعالم الموتى .

بعد دخول الإسلام إلى مصر ظلت المقابر المصرية تحتفظ فى تكوينها العام بالجمع بين العالمين ، الدنيوى والأخروى ، ولكن

ظروف البناء أصبحت أفقر معماريا ، وتغير شكل المقبرة نفسه بحيث اقتربت من هيئة المنزل ، ويوجد فى القاهرة حوالى عشرين منطقة للدفن ، كلها تقوم فى الجانب الشرقى من المدينة ، وكما تنقسم مدينة الأحياء إلى مناطق ثرية وفقيرة ، فإن هذا ينعكس أيضًا على مدينة الموت ، إذ توجد مقابر الشواهد والأحواش ، حيث يُدفن الميت تحت الأرض ولا يظهر منه إلا شاهده ، أما مقابر الأحواش فتتكون من حجرتين تحت الأرض ، واحدة للرجال ، والأخرى للحريم ، وفوق الأرض ينقسم البناء إلى قسمين ، الأمامى ، ونجد فيه حجرتين أيضا ومطبخ ودورة مياه ، أما منطقة المدفن فتكون غير مسقوفة فى الغالب ، ويبدو هنا أثر تقسيم المنزل الريفى الذى يتكون من قسم أمامى مفتوح وخلفى غير مسقوف ، وهنا نجد أحواشًا خاصة بعائلة أو فرد ، وأحواشًا جماعية شيدت بواسطة أبناء بلدة واحدة ، لتكون بمثابة مدفن جماعى . وهناك مقابر خاصة جدًّا . مثل مقابر الخلفاء العباسيين . ومقابر أمراء المماليك ، وتنفرد المبانى هنا بالعمارة الجميلة ، والزخارف الدقيقة ، وهناك مقابر للمسيحيين مسورة وتقع فى منطقة معينة ، ومقابر لليهود ، وتنقسم مقابر المسيحيين إلى مدافن للمذاهب المختلفة ، الكاثوليك ، والأرثوذكس .. إلخ ، وفى القاهرة مقبرة واحدة للأجانب من ضحايا الحرب العالمية الثانية ، وتوجد مقابر جماعية يطلق عليها مقابر الصدقة ، وتلك مخصصة للفقراء والذين لا مأوى لهم فى الحياة الأخرى ، وفى الأعم لم

يكن لهم مأوى فى الحياة الدنيا ، إلا أن الميت مهما كان فقيرًا فلن يعدم وسيلة للانتقال إلى مثواه الأخير ، فالمساعدة على الدفن عمل يأتى بخير كثير ، وكما يقال « إكرام الميت دفنه » ، كانت مدينة الموتى مقصورة على سكنى الموتى فقط ، وأحياء قلائل يتولون خدمة المقابر الضخمة ، أو تسهيل عمليات الدفن (التُربية) ، ولكن حدث فى هذا القرن تطور آخر ، إذ بدأ زحف الأحياء لسكنى مدينة الموتى ، وبدأت ظاهرة تعايش الحياة والموت جنبًا إلى جنب تتخذ بعدًا أكثر تجسيدًا ، وساعد على استقرار الأحياء فى مدينة الأموات عدة عوامل ، أهمها تفاقم أزمة الإسكان فى مدينة الأحياء ، إلا أن هناك عوامل موضوعية وعمرانية ساعدت على جذب السكان إلى المقابر ، منها التخطيط المتكامل الذى يميز مدينة الموتى ، وامتدادها الأفقى الكبير ، واتساع الشوارع ، واتساع المبانى العلوية فى الأحواش . وارتقاء المستوى الجمالى لبعضها إلى درجة أنها تعد تحفا معمارية فريدة . وشيئا فشيئا امتدت الكهرباء والمياه ، والمجارى فى بعض المواضع ، وافتتحت المدارس ، وأصبحت المقابر مقرًّا لسكنى الأحياء . ولتشكل هذه الظاهرة بعدًّا فريدا فى تكوين المدينة .

مرحلتان

إذ أستعيد تاريخ القاهرة ، أو أرحل عبره ، فإننى اتوقف طويلا عند مرحلتين زاهيتين ، مزدهرتين ، مشحونتين من عمر المدينة ،

الأولى : تلى تأسيس المدينة مباشرة ؛ المرحلة الفاطمية ، **والثانية** ، المرحلة المملوكية ، ومن المرحلتين امتدت عناصر قوية إلى زماننا الحالى ، تشكل وتصيغ شخصية المدينة برغم جهود التحديث ، والعمارة الحديثة .

السنوات الأولى من عمر القاهرة ، كانت مدينة ملكية ، مقصورة على سكنى الخلفاء الفاطميين ورجال دولتهم وجندهم وعبيدهم ، وكانت الدعوة الفاطمية ذات طابع سرى فى بدايتها ، وأثر هذا على تصميم المدينة الجديدة أيضا ، برغم أن الدعوة لم تعد سرية ، بل أصبح المذهب يحكم إمبراطورية مترامية الأطراف ، فما بين القصرين ، الشرقى الكبير والغربى الصغير امتدت أنفاق صغيرة لكى يتحرك فيها الخلفاء بعيدًا عن الأنظار ، أما الأسوار المحيطة بالقصرين فكانت تحجب ما خلفها تماما ، لنصغ إلى وصف الرحالة والفيلسوف الفارسى ناصر خسرو :

« ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة ، وهو لا يرى من داخل المدينة لارتفاع أسواره ، وهذا القصر يتكون من اثنى عشر بناء . وله عشرة أبواب فوق الأرض ، فضلا عن أبواب أخرى تحتها ، وتحت الأرض باب يخرج منه السلطان راكبا ، وهذا الباب على سرداب يؤدى إلى قصر آخر خارج المدينة ، ولهذا السرداب الذى يصل بين القصرين سقف محكم ،

وجدران القصر من الحجر المنحوت بدقة ، تقول أنها قدّت من صخر واحد .. » .

كانت حراسة القصر يقوم بها ألف رجل مسلح ، وكانت تقترن بعروض مهيبة ، بعد الأذان لصلاة العشاء يقوم الإمام بالصلاة ويتقدم أحد الأمراء إلى سلم القصر ، وعند انتهاء الصلاة يصدر أمره لفرقة من قارعى الطبول ونافخى الأبواق أن يعزفوا ، كما تعزف آلات أخرى قطعا موسيقية جميلة لمدة ساعتين . ثم يترك القصر ضابط معين خصيصا لهذا الأمر فيلوح برمحه ويقذف بها أولا إلى الأرض عند المدخل ، ثم يلتقطها ويغلق الباب ويسير حول القصر سبع مرات ، وبعد أن يتم جولاته يقيم العسس الليلى ، وكان المرور يمنع حتى الفجر .

كانت مواكب الخلفاء الفاطميين ومرات ركوبهم فى رمضان ، والعيدين ، ويوم عاشوراء ، من المشاهد القاهرية المهيبة ، وقد حفظت لنا المصادر التاريخية أوصافًا دقيقة للمواكب . وللموائد الخاصة والعامة ، وللاحتفالات الضخمة ، نجد هذا فى خطط المقريزى ، وفى موسوعة « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » للقلقشندى ، وفى « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » لابن تغرى بردى ، كذلك وصف لنا المؤرخون والرحالة فخامة القصرين ، والخزائن الملحقة بهما ، ودار العلم .

ماذا تبقى فى عصرنا من القصرين العظيمين ؟

لم يتبق إلا بعض ألواح خشبية محفورة ، عليها بعض مناظر العصر من حفلات موسيقية ، ورحلات صيد ، وصور حيوانات تواجه بعضها البعض ، هذه الألواح التى تمثل تحفا نادرة من الفن الإسلامى موجودة الآن فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، بقى أيضا بعض بقايا جدران ما تزال مطمورة تحت أرض مسجد المنصور قلاوون والذى شيد فوق جزء من المكان الذى يشغله القصر الغربى الصغير . هذا القصر الذى أقامت فيه ست الملك شقيقة الحاكم بأمر الله التي تآمرت ضده ، وخططت لقتله ، هكذا تروى مصادر التاريخ ، أما الروايات الأخرى فتقول إنه غاب إلى حين ، وأنه سيرجع يوما ليملأ الدنيا عدلا كما ملئت ظلما وجورًا . مسجد الحاكم بأمر الله باق في القاهرة الفاطمية ، وعبر التاريخ تعرض لمحن عديدة ، تخرب ، واستخدم مكانا لذبح الحيوانات ، وقد أدركته طفلا عندما درست لمدة عام كامل فى مدرسة السلحدار الابتدائية التى كانت مقامة فوق جزء منه ، ولكم جلت ولعبت بين أعمدته وأصغيت إلى الأساطير المتعلقة به ، ولكن بعد مرور السنين وإدراكى لتاريخه . ولسيرة الحاكم بأمر الله أصبح للمكان معنى آخر ، وأبعادًا لا حصر لها ، أما المسجد نفسه فقد أعيد ترميمه خلال السنوات الأخيرة ، وأنفقت عليه طائفة البهرة أكثر من ستين مليون جنيه ، وتجرى الآن أعمال الترميم فى مسجد الأقمر الذى وصلنا أيضا من الحقبة الفاطمية ، أما أعظم المنشآت الدينية التى وصلت إلى عصرنا ، فهى جامعة الأزهر ، أو المسجد

الأزهر والذى لم ينقطع تدفق الحياة العلمية والاجتماعية والسياسية به منذ إنشائه وحتى يومنا هذا .

أما أهم ما تبقى من العصر الفاطمى فى تقديرى ، فهى تلك الآثار الخفية التى تستعصى على الرصد المتعجل ، والتى تشكل ملامح الروح القاهرية ، ومنها حب القاهريين للنزهة ، وللفرجة ، والاحتفالات ، وحب المرح ، والتعلق الشديد بالحياة حتى فى أبسط صورها ، وروح السخرية ، والحيوية ، وحب المصريين جميعا وتقديسهم لآل البيت مع أن مذهبهم سنى ، وما تزال مظاهر الاحتفال بالأعياد الدينية ذات ملامح فاطمية . فكثير من العادات الشعبية مازال مستمرا ، قائما ، ومنها طقوس الاحتفال برؤية رمضان ، وكعك العيد ، والكنافة ، وحب الحياة المزهوة .

الزمن المملوكى

عندما بدأت أطالع مصادر وحوليات التاريخ المصرى فى الزمن المملوكى ، لم أشعر بغربة ، كانت أسماء الحارات والأزقة والشوارع التى يذكرها ابن إياس ، أو المقريزى ، أو ابن تغرى بردى ، ما تزال موجودة حتى الآن ، لم تتغير تقريبا ، كذلك المبانى ، سواء الدينية أو المدنية ، وفى تقديرى أن القاهرة القديمة ما تزال تحتفظ بجانب كبير من ملامح الزمن المملوكى ، ليس فى الحجارة وتخطيط الشوارع فقط ، ولكن فى علاقات الناس ببعضهم ، وحرفهم التى يتقوتون منها . وكثيرا ما أجول فى الحوارى الضيقة

القديمة ، تغمرني الظلال ، وذلك الحضور التاريخى القوى ، حتى يخيل إلىَّ أن فارسا مملوكيا سوف يظهر عند هذه الناصية أو تلك ، وفى رأيى أن شخصية المدينة بلغت ذروتها فى العصر المملوكى . والملامح المرئية أو غير المرئية التى تحدد ملامح المدينة اليوم وكلها وصلت إلينا من العصر المملوكى ، وهنا لابد من التمييز بين عصرين منفصلين تماما ، الأول يبدأ بتأسيس السلطنة المملوكية (١٢٥٠ م) وينتهى فى القرن السادس عشر . تحديدا فى ١٥١٧ ميلادية ، عندما هزمت جيوش السلطان الغورى فى مرج دابق شمال حلب ، وتقدمت جيوش ابن عثمان صوب مصر لتنهى عصر الإمبراطورية ، عصر البنائين العظام من سلاطين المماليك ، لتجهز على حضارة كاملة ، عندما يقدم سليم الأول على تصرف لم أسمع أو أقرأ بمثله ، إذ نقل عمال وصناع ثلاثة وخمسين فنًّا وصنعة بطلت كلها من مصر . أى نقل ثقافة متكاملة إلى عاصمة ملكه فى إستامبول ، ومن هؤلاء الفنانين العرب المصريون بدأت نهضة كل الفنون التركية ، وأذكر أننى كنت أزور مسجدًا صغيرا ، حزينا . فى مدينة بيتش المجرية ، اسمه مسجد حسن يأمونيل ولفت نظرى جمال الخط الذى كتبت به الآيات القرآنية ، وبخط صغير منمق قرأت توقيع الخطاط – محمد بن إسماعيل المصرى – وأنبأنى حدسى أنه أحد أبناء أولئك الذين انتزعوا قسرا من ديارهم بعد الغزو العثمانى الذى مازلنا نعانى من آثاره المظلمة إلى اليوم ونحن نقترب من القرن الحادى والعشرين .

هكذا أسدل الستار على الزمن المملوكى الأول الذى ازدهرت فيه الحضارة بتجلياتها المختلفة فى الثقافة والفنون ، وتحولت القاهرة من عاصمة إمبراطورية تحمى البحرين وتذود عن الحرمين ، إلى مجرد عاصمة ولاية تابعة للدولة العثمانية ، وبدأ العصر العثمانى ، والذى تدهورت فيه المدينة ، وسادتها الفوضى ، وعاد المماليك إلى الظهور ولكن كشراذم وعصابات يثيرون الذعر والفوضى ، وهكذا نقص عدد سكان مصر كلها من ثمانية أو تسعة ملايين فى القرن السادس عشر خلال أقل من قرنين إلى مليونين ونصف فقط ، كان نصيب القاهرة منهم عند مجىء الحملة الفرنسية حوالى ربع مليون نسمة ، وطوال قرنين من الزمان لم تعرف المدينة الاستقرار ، ولم تكن هناك قيمة لحياة الإنسان ، ويمكن أن يقتله عسكر الإنكشارية فى أى لحظة ، أو جند المماليك ، ويمكن اختطاف أى امرأة واغتصابها علنا .. حتى فى المساجد ، أما الفتن بين طوائف العسكر والصناجق فكان يمكن أن تندلع فى أى لحظة ، وتزهق الأرواح ، ويروح كل إنسان على أمره ، ولا يتقص أحد خبره ، ولا تنتطح فى ذلك شاتان .

* * *

إذن تدهورت القاهرة فى الزمن العثمانى . واختفت مظاهر العمران العظيم الذى قام به سلاطين المماليك وأمراؤهم ، كما قلت حركة السكان الترفيهية ، وقل خروجهم إلى المنتزهات ، ونصبهم

الخيام بجوار النيل ، وخروجهم فى القصف والفرجة عن الحد كما كان يقول ابن إياس ، وذلك بسبب انعدام الأمن ، أما أطراف المدينة التى كان المصريون يفضلون سكناها وتعميرها لجودة هوائها ، فتخلوا عنها بسبب تطرفها وانعدام عنصر الأمن . وتدهورت أيضا منشآت القاهرة المعمارية العظيمة بسبب قلة الصيانة . ثم جاءت الحملة الفرنسية لتلحق بالقاهرة دمارًا لا مثيل له ، كان بمثابة المعول الأول الذى أسهم فى تغيير شخصية المدينة ، إذ نزعت أبواب الحارات ، وهدمت مبانى أثرية ، وأزيلت حارات بأكملها ، بل إن أحياء بأكملها تهدمت تماما ، مثل حى الحسينية ، والخروب بمصر القديمة ، وبركة جناق ، وبركة الفيل ، وأقاموا حول سور القاهرة القديم الأسلاك الشائكة ، وسدوا باب الفتوح الجميل ، وكذلك باب البرقية ، وما تزال أسماء جنود الحملة محفورة على سور القاهرة القديم ، شاهد على إقامتهم وتشويههم للأثر ، وعبثهم به .

يقول الدكتور جمال حمدان فى مؤلفه الضخم — شخصية مصر — إن سكان المجتمع القاهرى فى العصر الأيوبى بلغ حوالى مليون نسمة ، وهو عدد لا يستهان به إذا قيس بسكان العصور الوسطى ، ربما كانت القاهرة أكبر مدن العالم وقتئذ ، ولكن من المؤكد أنها كانت أكثر من مليون نسمة فى عصر سلاطين المماليك ، وكما ذكرت فإن عدد سكانها تقلص فى العصر العثمانى حتى بلغ فى زمن الحملة ٢٥٠ ألف ، ولنا أن نتصور أى دمار لحق بالقاهرة ،

البشر والمكان والمعمار .. هكذا تدخل المدينة إلى القرن التاسع عشر .

التحديث ..

فى القاهرة منطقة أسميها ، مثلث الوهم ، أو مثلث الضياع ، إنها منطقة تقع على حافة القاهرة العتيقة المحتوية للأزمنة الفاطمية والمملوكية وحتى العثمانية ، وتمتد حتى مشارف القاهرة الحديثة والتى تبدأ من وسط المدينة التجارى . هذا المثلث يمتد من ميدان رمسيس وينتهى ضلعه فى ميدان العتبة الخضراء ، مرورًا بشارع كلوت بك ، ثم تمتد قاعدته حتى ميدان الأوبرا وشارع عماد الدين ، ويصعد الضلع الآخر على امتداد هذا الشارع حتى ميدان رمسيس .

مبانى هذه المنطقة تنتمى إلى القرن الماضى ، بداية أوْرَبة المدينة ، فى خطوط العمارة مزيج متجانس من خطوط العمارة العثمانية المتأخرة ، وخطوط العمارة الباريسية . يبدو هذا واضحا فى مبنى صندوق الدين ، ومبنى فندق البرلمان ، ومبنى مقر المطافئ المركزى ، أما عمارات الخديوى فى شارع عماد الدين فتستوحى العمارة الباريسية الصريحة ، تقف هذه المنطقة بين زمنين ، القديم والحديث ، وفى القرن الماضى كانت تعتبر امتداد القاهرة الأوروبى ، أو أساس المدينة الحديثة ، ولكنها الآن تائهة ، خاصة أن الإهمال لحق شوارعها التى شقت يوما باعتبارها محاكاة لشوارع باريس الأوروبية ، هكذا

أشرف على باشا مبارك على تخطيط شارع محمد على . واختار لجانبيه البواكى الحجرية بدلاً من الأشجار تقليدًا لشارع ريفولى فى باريس .

وكذلك شارع كلوت بك ، وخلال إنشاء هذه الشوارع الجديدة المستقيمة التى شقت أوصال المدينة العتيقة أزيلت عشرات المبانى الأثرية بلا رحمة ، واختفت من الوجود ، وهكذا وضعت بذرة التحديث الذى سوف يتخذ أشكالاً متعددة حتى يصل إلى هذه المبانى الشاهقة ، المصمتة ، ذات النوافذ الزجاجية وأطر الألومنيوم ، والتى قامت فى فراغ القاهرة بدءا من زمن الانفتاح الاقتصادى فى السبعينيات ، عمارة منتزعة من عواصم أوروبية باردة ، لا تناسب البيئة ، ولا المناخ ، فيها تقليد أعمى للغرب ، وأنانية الطبقة الجديدة من أثرياء الانفتاح ، فمعظم هذه الأبراج الشاهقة قام على جانبى النهر ، ليشكل حاجزًا من الأبنية المرتفعة يقلص علاقة المدينة بنهرها العريق الذى حدد موقعها وملامحها أيضا على مرّ التاريخ . أما القاهرة القديمة فما تزال تقاوم زحف هذا التحديث السرطانى ، الذى يدمر فى طريقه كل معالم الذاكرة ، بما فيها الحياة الاجتماعية للمدنية ، حيث تنتشر بوتيكات البضاعة المستوردة فى أزقة القاهرة الفاطمية التى كانت تزهو بدكاكين الصناعات الحرفية والتقليدية ، ويتقدم مشروب السفن أب ، ليزيل المشاريب القاهرية الجميلة القديمة ، مثل الخروب ، والتمر هندى ، والسوبيا ، والعرقسوس ، والكركريه ، لقد أصبحت هذه المشاريب

الجميلة من ذكريات الماضى البعيد ، وكثير من مظاهر الحياة القاهرية الأصيلة .

* * *

إن الحديث عن تفاصيل تطور القاهرة خلال القرن ونصف الأخير لما يستغرق مجلدات بأكملها ، ويكفى أن عدد السكان ارتفع وتزايد من ربع مليون إلى خمسة عشر مليونا الآن ، ومن المنتظر أن يصل إلى عشرين مليونًا فى بداية القرن القادم ، وإذا كان الطابع الحديث هو الغالب على المدينة الآن ، فيمكن القول أن نواة القاهرة الأصلية مازال سليما فى جوهره ، وهناك اهتمام متزايد خلال السنوات الأخيرة بالحفاظ على الطابع العتيق ، أما الحياة الداخلية للقاهرة كلها فما تزال تحتفظ بحيويتها وأصالتها ، والقاهرة الكبرى التى ستدخل بها القرن العشرين تضم مناطق شاسعة ونائية كانت تعتبر من البلدان المجاورة للقاهرة يوما ما ، وهذه القاهرة الكبرى ستضم أو هى بالفعل تضم الآن عدة عصور متداخلة ، العصر الحجرى فى منطقة المعادى ، ومقابر وادى حوف بحلوان ، والعصر الفرعونى القديم فى سقارة ، وميت رهينة ، والجيزة ، وقاهرة العصر القبطى فى منطقة مار جرجس ، والقاهرة العربية بعواصمها الأربع وامتداداتها الشاسعة ، إنها الحالة الوحيدة فى مدن العالم كله التى تتجاور فيها هذه الأزمنة المتباينة ، وتلك المراحل من التاريخ ، لذا يحق أن نسميها مدينة لكل العصور ، لكل الأزمنة ، أو مدينة المدن .

أحيانا أسأل نفسى ، ماذا يكون رد فعل الشيخ ابن إياس ، أو المقريزى ، أو الجبرتى ، أو أى قاهرى عاش فى المدينة خلال القرون الوسطى ، ماذا يكون رد فعله لو أنه نزل زمننا اليوم ، ورأى المدينة التى تقترب من حافة القرن الواحد والعشرين ؟ كيف ستكون انطباعاته . لنا أن نتخيل الهول الذى سينزل به ، إذا قرأنا ما كتبه الشيخ عبد الرحمن الجبرتى بعد أن خرج من داره يوم الخامس من ديسمبر ١٧٩٨ ، ليتفرج على ما يفعله الفرنسيون ، الذين شرعوا فى شق الطرق ورصفها ، ولنصغ إليه :

« ... فعلوا هذا الشغل الكبير والفعل العظيم فى أقرب زمن ، كانوا يصرفون الرجال من بعد الظهيرة ، ويستعينون فى الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول المعاودة فى العمل وقلة الكلفة ، كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدتان من خلف ، يملأها الفاعل ترابا أو طينا أو حجارة من مقدمها بسهولة ، بحيث تسع مقدار خمسة غلقان ، ثم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه ، فتجرى على عجلتها بأدنى مساعدة إلى محل العمل فيميلها بإحدى يديه ، ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة ، وكذلك لهم فؤوس وقزم محكمة الصنعة ، متقنة الوضع ، وغالب الصناع من جنسهم ولا يقطعون الأحجار والأخشاب إلا بالطرق الهندسية على الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة .. » .

هذه العربة الصغيرة التى تدفع باليد أحدثت هذه الدهشة كلها عند جدنا المؤرخ القاهرى العظيم الجبرتى ، ماذا سيكون رد فعله لو رأى زحام القاهرة ، ومئات الألوف من السيارات ، والكبارى العلوية ، ومترو الأنفاق ، والسفن النهرية . ولكن لنحاول أن ندفع بالمخيلة فى اتجاه آخر . ماذا سيكون عليه وضعنا نحن إذا بعثنا أحياء بعد قرن من الزمان ؟

هل سنتعرف على مدينتنا ؟ أى المباني تعرفها ستظل قائمة : هل سندرك ملامح الأحياء والمناطق ؛ لا أدرى ، ولكن إذا استمر معدل النمو بنفس الوتيرة التى كان عليها خلال القرن الأخير – وحتما سيكون أسرع – فإننا سوف نضل ونتشتى بحثا عن مهرب سريع إلى زمن نعرفه يكون متواريا فى أحشاء المدينة الحبيبة .

مدرسة السلطان حسن . .
قصيد من الحجر

لا أستطيع التحديد .

إذ بعدت الشقة وطالت المسافة . فتمر بى الصور واللحظات منفصلة عن بعضها ، مع أنها كانت تمضى فى سياق واحد مازال بعد مستمرا ، ألا وهو عمرى نفسه .

ها أنذا أصحب والدى طفلا . الوقت ليل ، نمضى عبر ميدان القلعة إلى إحدى الحارات المتفرعة ، نزور أحد أقاربنا من جهينة ، الشيخ محمد حسنين ، شيخ جليل ، قصير يميل قوامه إلى امتلاء . إلى رفوف مكتبته امتدت يدى وأمسكت كتبا تحفظها جلود ذات حمرة ياقوتية ، عليها نقش بارز ، حروف دقاق وكلمات متوالية لافواصل ولانقاط بينها ، كانت السطور تبدو لى كالأحاجى مع أننى قادر على قراءة الكلمات . كان الشيخ الجليل يتطلع إلىّ باسماً ، لا يردنى ، ولا يسحب الكتاب العتيق من يدى . طفل لم يتعد السابعة ، هاو ذا يقعد فوق الكنبة مرتديا قفطانه الشاهى ها هى ذى لحظة أخرى .

أقارب من البلدة ، لحظات ما بعد الغذاء ، أصغى إلى حوارات لم يبق منها فى ذاكرتى حرف ، ما بين العصر والمغرب يصر أبى على الذهاب ، هكذا نعبر الميدان فى لحظات النهار الأصيلية ،

لحظات مؤطرة بوجود المساجد العظمى التى يواجه بعضها بعضًا ، والمآذن السامقة . وعبير الريحان المبثوث فى أصص على نوافذ البيوت ، هذا الريحان الذى ارتبط عندى بالأبدية منذ أن صحبت أبى صبيا يوم أن قصد مقبرة الشيخ المراغى ليزوره ويقرأ عليه الفاتحة ، وكان الفناء المؤدى مكللا بالرياحين .

لا أدنو من ميدان صلاح الدين أو قره ميدان أو الرميلة كما كان يسمى فى زمنى المملوكى الأثير ، لا أجتازه إلا واجتاحتنى مشاعر الأصيل حتى لو كان الوقت صبحا أو ظهرا ، لا تحيط بى مآذن محمد على والمحمودية وأمير آخور والرفاعى إلا وترددت الآية الكريمة فى أعماقى مجودة ومرتلة . ﴿والعصر ، إن الإنسان لفى خسر﴾

لا أتطلع إلى الواجهات السوامق إلا وانتابتنى حالة أصيلية . عصراوية ، دانية من الغروب ، فانفتح على الزمن المندثر . والمراحل المولية ، فأوشك أن أسمع طقطقة ركوب المماليك عند نزولهم من القلعة شاكى السلاح . أو حفحفة السيوف إذ تحتك بالركائب . وربما قرع الطبلخاناه ، وطوسات النحاس .

إذا أردت أن ترى التاريخ رؤيا العين فامض إلى ميدان القلعة ، قف ما بين باب العزب ومسجد الرفاعى وهذا الأثر الماثل الشاهد القائم ، الأعظم الأجل – مدرسة السلطان حسن .

* * *

من صباى البعيد ، ومن صحبتى لأبى عندما كان يسعى لزيارة الأقارب . وأبناء بلدتنا . ليقوم بتقديم عزاء ، أو المشاركة فى فرح ،

أو للتهنئة بمولود . هكذا قطع عمره ، يصحب هذا ويجامل ذاك . وهذا مالم أرثه عنه ، ربما لأن طبيعة الناس الذين سعى بينهم وإليهم كانوا أكثر بساطة وأمنًا من أولئك الذين عرفتهم .

عبر جولاتى معه انطبعت فى وعيى تلك المآذن ، وهذه المنحنيات ، والنواصى ، واجهات الأسبلة ، ومع الزمن بدأت أصحب مؤرخى القاهرة العظام بدءًا من ابن عبد الحكم وحتى الجبرتى مرورًا بالمقريزى . وابن تغرى بردى ، وشيخى ابن إياس . ثم سعيت إلى فهم وتذوق العمارة الإسلامية ، وفنونها ، وشوارع القاهرة القديمة ، حتى ليمكننى القول مزهوًّا فخورًا الآن أننى أعرف مثلا شارع المعز ما بين بوابة الفتوح وباب زويلة حجرًا حجرًا . فلو تشقق جدار لاكتشفته على الفور ، هنا سعيى ، وزادى ومصدر تكوينى ، أما مدرسة السلطان حسن فلها عندى وضع خاص ، يمكننى أن ألخصه فى كلمة « الرهبة » .

كم مرة قصدتها ؟ مئات المرات ، ومع ذلك لا أشرع إلا ويتملكنى تهيب ، يقول المؤرخ الأسحقى إن السلطان سليم العثمانى عندما غزا مصر ، واستتب له الأمر فى القاهرة ، زار مساجدها . ومدارسها وخوانقها ، وعندما رأى مسجد المؤيد شيخ قال : هذه عمارة الملوك ، وعندما رأى قبة الغورى ومسجده قال : هذه عمارة تاجر وعندما رأى مدرسة السلطان حسن قال : هذا حصار ، وأظن – إذا لم أكن مخطئا – أن كلمة حصر تعنى قلعة ، ورأيى أن سليم الأول كان ذواقة . متفهما للعمارة ، حقًّا ..

حقًّا .. إنه حصار ، حصار للعدم ، لا يمكن أن يندثر من الذكريات . والمعانى الجميلة ، إنه تجسيد لأقصى ما يمكن أن يبذله الإنسان ليقاوم النسيان ، ليقول من سيجيئون بعده : اذكرونى .. لقد مررت من هنا !

* * *

حقًّا .. إننى لأتهيب . لذلك لا أدخل مباشرة ، إنما أقترب متمهلا ، دائما أفضل المجىء من شارع محمد على . من بدايته عند ميدان العتبة يمكن رؤية مدرسة السلطان حسن ، كتلة هائلة من الفن ، تضع حدًّا للفراغ ، تصوغ خلفية الشارع المضطرب الذى شقه على باشا مبارك ليحاكى به شارع ريفولى فى باريس ، ويوما كان من أجمل شوارع القاهرة ، لكنه مع الزمن ، والإهمال ، خرجت أحشاؤه ، وأصبح مثالا للقبح .

أتطلع إلى البناء الهائل . أعظم مسجد فى العالم الإسلامى بشرقه وغربه ، وإذا كانت مصر الفرعونية تفخر بالأهرام . فإن مصر الإسلامية قدمت هذا البناء المعجزة ، لنضع فى الاعتبار الإمكانات التقنية فى منتصف القرن الرابع عشر الهجرى ، وبرغم ذلك فإننى أشك كثيرا فى إمكانية بناء مماثل فى زمننا الحالى ، كان الدافع لتجسيد هذه الصروح المعمارية الهائلة داخلى قوى ، وعندما أتأمل الزخارف والنقوش وعبارات الخط العربى ألمح فى ثناياها إحساس عميق بالصفاء ، والإيمان ، كان ممارسة هذه الفنون وإخراجها إلى حيز الوجود شكلا من أشكال العبادة .

على مهل أتجه إلى المدخل الذى يقع فى الطرف الغربى للواجهة

الشمالية المواجهة لمسجد الرفاعى ، والتى تحتوى على ست وتسعين نافذة .

مدخل شاهق مهيب ، وللمداخل فى العمارة الإسلامية شأن عظيم . إنه دعوة إلى العبور من عالم إلى عالم ، من كون إلى كون مغاير ، لذلك تتركز الفنون كلها فيه ، على الجانبين زخارف محفورة فى الرخام مستوحاة من أوراق النبات وعلى الجانبين حنيتين تعلوهما مقرنصات . كتب أعلاها بخط كوفى مزهر قوله تعالى : ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله﴾[1] نرى تربيعتين كتب على أحدهما بالكوفى المربع « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وعلى الأخرى أسماء الخلفاء الراشدين « أبو بكر ، وعمر . وعثمان ، وعلى » .

دائما على مداخل البيوت والمساجد نقرأ تلك العبارات التى تثير الأطمئنان :

﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾[2] ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[3] .

« يامفتح الأبواب افتح لنا خير باب » .

من المغرب إلى سمرقند . قرأت تلك العبارات التى صيغت بأجمل شكل ممكن . إضافة إلى ذلك تنقش الأبواب بزخارف جميلة ، دقيقة ، وفى مصر يغطى خشب الأبواب بالنحاس المشغول . والآيات القرآنية

---

(١) سورة الفتح : الآيتان ١ و ٢ .

(٢) سورة الحجر : الآية ٤٦ .

(٣) سورة الرعد : من الآية ٢٨ .

المحفورة برقة تلغى جمود المادة التى صيغت منها . أتأملها فلا أكاد أدرك صلابة النحاس، إنما أرى رقة الخشوع ، وهفهفة الحنين . أذكر أننى كنت فى فلورنسا الإيطالية يومًا ، جلت فى شوارعها ولفت نظرى أن مداخل البيوت تحتوى ما ينفر ، فالمقابض نحتت على هيئة شياطين ، وزنوج أشكالهم مخيفة . وحيوانات متوحشة ، ولكن فى الأبواب العربية يختلف الأمر، الباب أجمل ما نراه فى الواجهة دائما . وللأسف نزع باب مدرسة السلطان حسن ونقل إلى مسجد المؤيد بالغورية . إشتراه السلطان بخمسمائة دينار فقط ليضعه عند باب مسجده ، أما الباب الخشبى الحالى فلايمت للمدرسة ولا يتناسب مع جلالها ، وشموخها .

* * *

أرفع رأسى إلى أقصى ما يمكن أن تسمح به الوقفة . عبثا أحاول إدراكه حتى النهاية . ارتفاع لا يماثله ارتفاع فى أى بناء آخر . لكنه لا يشعر الإنسان بالضآلة ، الحجر الذى تحول هنا إلى مقرنص ، وإلى زوايا ، وإلى نقوش ، وإلى خطوط ، لا يسحق الإنسان ، إنما يسمو به ، ارتفاع لا يجعلنى أدرك ضآلتى فى مواجهة المصير ، إنما يتناول روحى ويخف بها إلى أعلى . وهذا من سمات العمارة المصرية ، فرعونية كانت أو قبطية أو إسلامية ، الحجر يحنو على الإنسان ولا يدهسه بفخامة مبالغ فيها .

يرتفع المدخل هنا إلى سبعة وثلاثين مترًا وسبعين سنتيمترا . أى ما يعادل بناء حديث من اثنى عشر طابقا ، لكن الفرق أن الفراغ

الذى يحتويه الحجر هنا مطلق ، صاعد إلى أعلى ، ولكى نعبر المدخل ، لابد أن نصعد ، إثنى عشر درجة من الناحيتين ، وسوف نرتقى عددًا آخر من الدرجات طوال عبورنا الدهليز المؤدى إلى صحن المسجد ، هذا الارتقاء مادى وروحى ، فمادى لأنه يرفع أرضية المسجد عن مستوى الطريق . والمنشآت الأخرى الملحقة بالمدرسة . مثل دورات المياه ، والساقية ، وخزائن الطعام المخصص للدارسين وسائر ما شابه ذلك . وروحى لأنه يهيئ الإنسان للانتقال من الخارج المادى ، إلى الداخل الأصفى والأنقى .

وعند نهاية الارتفاع الشاهق منحنى يسميه المعماريون طاقية المدخل . يحتوى على عشرين صفًا من الدلايات التى جمعت على هيئة مثلثات ، إضافة إلى ستة صفوف أخرى تبرز عن مستوى الواجهة .

تقول الدكتورة سعاد ماهر : إن هذه الدلايات تكسب الواجهة تأثرًا بالعمارة السلجوقية ، ربما .. ربما كان هناك مسًا سمرقنديًا ، أو تركمانيًا ، أو خوارزميًا ، لكنه مجرد عنصر خفى قد يرصده أو يختلف عليه بعض المعماريين ، أقول وقد شاهدت العمارات الإسلامية فى آسيا الوسطى إنه لا مثيل لواجهة السلطان حسن ، لا فى تفاصيلها . ولا فى قوة تأثيرها المجرد .

المدخل هو الخطوة الأولى التى تهيئ النفس للولوج إلى المركز ، نجتاز العتبة إلى فراغ مظلل ، محدد ، مربع ، تحفه ثلاثة إيوانات مغطاة بمقرنصات يتوسطها قبة مكسوة بحجر أحمر ، هنا يبدأ اختلاف الضوء ، ويصبح للفراغ حضور مغاير مع أن الفضاء

الخارجى للطريق ، للعالم الخارجى مازال فى متناولنا ، ولكننا ولجنا العالم الخاص الذى يعمل كل جزء فى البناء على تجسيده .

أمامنا مسطبة ، رخام ملون ممتزج برخام أبيض ، أتوقف قليلا محاولا استيعاب هذا الحضور المغاير قبل أن أتجه شمالا لأصعد .

خمس درجات حجرية عريضة تؤدى إلى دهليز يتجه إلى اليسار باستمرار ، دهليز ضيق بالنسبة إلى حجم المدخل ويؤدى فى النهاية إلى الصحن المهيب . تماما مثل كل المساجد المصرية الصميمة ، لا يدخل الإنسان مباشرة من زحام الطريق اليومى إلى صحن المسجد ، إلى المركز ، لابد من عبور هذا الدهليز الذى يتفاوت طوله وارتفاعه وتصميمه من مسجد إلى آخر ، فى المساجد ذات التصميم المتأثر بالأصول المغربية مثل الأقمر ، والحاكم ، والأزهر ، تدخل مباشرة إلى الصحن ، ما من تمهيد . كذلك الأمر فى المساجد التركية الأصل مثل محمد على فى القلعة ، أو الحسين المنشأ فى القرن التاسع عشر ، ولكن فى الأبنية المصرية الصميمة لابد من مسافة تقتضى التخفف تدريجيا من أثقال الحياة اليومية ، والتهيؤ لصفاء الوجدان ، ويعتبر دهليز مدرسة السلطان حسن أطول تمهيد فى العمارة المصرية الإسلامية ، فى بدايته مسقط مرتفع ، منور ، تطل عليه نوافذ حجرات الطلبة ، وتبدو السماء منه بعيدة جدًا على جانبيه ، خاصة الأيمن يمكن أن نرى بعض المنشآت . قرب نهايته ، يبدو لنا مدخل آخر إلى الصحن ، مدخل لا يعد شاهقا . نلمح منه جزءًا من الإيوان الشرقى حيث القبلة ، مجرد جزء .

هنا أتمهل ، وأنصح كل ساع إلى الصحن أن يمشى الهوينا ، ألا يقدم مباشرة على الصحن ، قبل نهاية الدهليز بثلاث خطوات يمكن للنظر أن يرى نهاية ارتفاع الإيوان الشرقى ، فالمسجد لا يكشف عن مركزه مرة واحدة ، بل درجة درجة ، وخطوة خطوة ، ولحظة أن تبدو السماء ، تبدأ اللانهائية كأن الإيوان الشرقى يتصل بالأبدية ، بالأزل ، لم يعد الحجر يؤطر وجودنا . بل هناك صلة بين الأرض والسماء ، بين البناء والفراغ . منها يستمد قوته . ورسوخ حضوره الأشم .

أعبر عتبة المدخل إلى الصحن ، لقد ولجت إلى القلب ، وفوق كيانى كله تتوالى القرون الأولى . كافة ما كان ، ومعظم ما سيكون ، فلأقترب .

فى الصحن

إذن .. عبرنا الدهليز الطويل الضيق ، اجتزنا العسر وها نحن فى بداية اليسر ، وكما أن إدراك حلاوة الفرج لا يكون إلا بعد معاناة الشدة ، فإن رحابة الصحن تضىء داخلنا ، إذ نجد أنفسنا فى مواجهة الفراغ الرهيب . لكن .. لننتبه ، هذا فضاء غير مطلق ، إنه محدود ، بل إن ما يجسد لا نهائيته تلك المحدودية ذاتها ، فلولا الإيوانات الأربع الشاهقة الارتفاع لما كان تجسيد هذا الفراغ الذى ينطلق مباشرة إلى السماء القريبة ، البعيدة .

ألسنا هنا أمام تلك الثنائية الغامضة ، المستعصية على أولى الألباب

منذ فجر الإنسانية ، أعنى الروح والجسد ، أليست هذه الجدران الحجرية الضخمة بمثابة الجسد ، وهذا الفراغ فى منطقة القلب بمثابة المركز ، الحجر يجسد الفضاء المبين ، والفراغ يبرز قوة البنيان المتين ، فهل يمكن فصل أحدهما عن الآخر ؟ .

كلا .. لطالما تأملت هذه الأشكال الحجرية التى تحد جدران المساجد ، والكنائس أيضًا ، ما يسميها المعماريون بالشرافات ، ولا أذكر متى ولا أين سمعت وصفًا آخر لها ، العرائس ؟ .

هذه العرائس التى تختلف أشكالها من مسجد إلى آخر ، فمرة تتكون من ثلاث حدود ، ومرة خمسة ، أو سبعة ، أحيانًا تبدو كزهرة اللوتس المصرية العريقة ، ومرة تبدو مجردة . تتجاور العرائس فى تساو أبدى ، لا تشد واحدة منها ، إذ أتأملها أرى نفس الشكل الحجرى قد صيغ أيضًا خلال الفراغ الذى يتخلل كل اثنتين . عناق المادة بالفراغ ، والروح بالجسد ، إذا فارقت يتحد الفراغ النسبى بالفراغ المطلق ، وبقدر ما تكون بداية بقدر ما تكون نهاية ، ألا يحاكى البنيان هنا الحياة الإنسانية ؟ .

* * *

أربع إيوانات متعامدة متواجهة مشرفة ، أكبرها الشرقى ، حيث التمهيد المؤدى إلى القبة ، دائما أتوقف عند نهاية الدهليز ، متطلعا إلى الإيون المواجه ، حيث القبلة ، عمقه – كما تذكر الدكتورة سعاد ماهر – ثمانية وعشرون مترًا ، ما يتعلق به بصرى ذلك

العقد الحجرى والذى يعتبر اكبر عقد فى العالم الإسلامى ، وقديما كان يضرب بإيوان كسرى المثل فى العبقرية المعمارية ، حيث يقوم فى الفراغ ويعلوه عقد مقوس ، عقد إيوان القبلة فى مدرسة السلطان حسن يزيد على إيوان كسرى بخمسة أذرع . وقد وقفت يومًا ، منذ سنوات امام إيوان كسرى . ويقع قرب مدينة بغداد ، فى منطقة اسمها سلمان بك ، وعلى الرغم من أنه كان يعد من علامات العالم القديم ، خاصة قبل الإسلام ، كان رمزًا للإمبراطورية الشرقية الفارسية ، إلا أن ما تبقى منه لم يحدث عندى أثرًا قويًا ، إنه مجرد طلل بال وإن بقى قائما مرتفعًا . أما مدرسة السلطان حسن فتفيض بالحياة والقوة .

العقد من الحجارة المستطيلة المتجاورة ، ترتفع وتنحدر على مهل فى الفراغ ، لا شيء يسندها ، لا أعمدة ، لا قوائم ، وتتجسد هنا جرأة المصمم وسعة خياله ، إن التصميم المعمارى يحتاج أيضًا إلى المغامرة ، ولكن أى مغامرة فى الفن سواء كان شعرًا أو نثرًا أو نقشًا أو بناءً لابد أن تكون مستندة إلى أصول وتراث ، بعد استيعاب هذا كله يتم الانطلاق لتحقيق الجديد .

ويجسد هذا العقد المعجزة رغبة الإنسان فى الانطلاق ، وفى التحليق إلى السموات العلى ، حتى وإن استخدام أصعب المواد ؛ الحجر .

أتجه إلى منتصف الإيوان القبلى ، أجلس عند طرف أرضيته المرتفعة عن أرضية الصحن الفسيح ، أى أننى أتوسط الفراغ

مواجها القبلة ، وهنا أكتشف خاصية أخرى لهذا البناء الهائل ، فمن أى جهة يمكن استيعاب مساحته بالنظر ، كذا تكوينه ، فى المساجد الفارسية يقع التجزيئ فيؤثر ذلك على إدراك شمولية البناء رغم ضخامته ، ولكن فى العمارة المصرية يلعب التجريد دورًا فى إطلاق الخيال ، والجدران غير منقوشة إلا فى مواضع محددة ، وفى الإيوان الشرقى مثلا شريط من الجص عليه كتابة كوفية على خلفية مستوحاة من أوراق النبات ، نصها :

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ، لِّيغْفـرَ لك اللهُ ما تقدم من ذَنْبك وما تأخر ، ويُتِمَّ نعمته عليك ، ويَهْدِيَكَ صراطًا مُسْتَقِيمًا ، وينصرَكَ اللهُ نَصْرًا عزيزًا ، هو الَّذِى أنزلَ السَّكينةَ فى قلوب المؤمنين ليزدادُوا إيمانًا مع إيمانِهِمْ ولله جنودُ السَّمواتِ والأرضِ وكان الله عليمًا حكيمًا ، لِّيُدْخِلَ المؤمنينَ والمؤمناتِ جنَّات تجرى من تَحْتِهَا الأنهارُ خَالدينَ فيها ويُكَفِّرَ عنهمْ سَيِّأتِهِمْ وكان ذلك عند الله فوزًا عظيمًا ﴾ »[1] .

النص القرآنى هنا جزء رئيسى من البناء ، ويسهم فى إبراز الهدف منه ، وبعث السكينة فى النفوس ، وأرواح الموتى المفترض رقودهم تحت القبة ، خاصة روح من أمر بتشييد المسجد ، السلطان نفسه .

---

(١) سورة الفتح : الآيات ١ : ٥ .

الجدران إذن معظم مساحاتها خالية من الزخارف الدقيقة ، ولكن هذا التجريد الذى يميز العمارة الإسلامية المصرية عامة ، يوحى أكثر مما يصرح به ، أنه لا يغرق البصر فى التفاصيل ، ولكن عن طريق الخطوط الجريئة المنطلقة تتجسد المعانى الكلية الموحية ، الصحن على هيئة مربع تقريبا . طوله ٣٤,٦٠ مترًا وعرضه ٣٢,٥ مترًا ، الأرضية مفروشة بالرخام ، وفى المركز تماما فسقية للوضوء تعلوها قبة خشبية تقوم على ثمانية أعمدة ، كتب على القبة آية الكرسى وتاريخ الفراغ منها ، هذه الميضئة تذكرني بأخرى تتوسط مسجد السلطان برقوق فى النحاسين ، والذى يعدُّ ملخصًا معماريًا جميلا لمدرسة ومسجد السلطان حسن .

أتأهب لعبور الصحن بعد جلسة قد تطول أو تقصر ، إذ يحتوينى الفراغ ، لا أدرى سببا لتردد قصيدة الشيخ الرئيس ابن سينا داخلى ، والتى نظمها عن النفس الإنسانية ويقول فى بدايتها :

هَبَطَتْ إليك من المحل الأرفع
ورقاءُ ذات تعززٍ وتمنع

محجوبة عن كل مقلة عارفٍ
وهى التى سَفَرَتْ ولم تتبرقع

إذ أصل إلى حدود الإيوان الشرقى التفت ناظرًا إلى القبلى ، الغريب إنه ما من مرة جئت فيها إلا وطالعتنى حمامتان أو ثلاث ، تستقران هناك ، فى أعلى العقد الحجرى قرب الشرافات ، كأنهما النقطة فوق النون ، وحضور هذا الحمام يثير شجنا غامضا عندى ،

ولا أرى حمامة مطوقة إلا وتذكرت تردد هديلها ساعة الظهيرة ، سواء كانت فى قريتى بجهينة حيث تتداخل أصوات الحمام برائحة الخبيز ، والطمى الجاف ، والبوص المكدس فوق الأسطح ، يبدو أن الحمام المستقر فوق الإيوانات هنا يتخذ له مقرًّا فى هذا المكان القصى الذى يصعب إدراكه ، كيف يرانا ؟ كيف نبدو فى عيون هذا الحمام المشرف من عل .

أقف الآن فى منتصف الإيوان الشرقى ، يقول الطواشى مقبل الشامى إنه سمع السلطان يقول : انصرف على القالب الذى بنى عليه عقد الإيوان الكبير مائة ألف درهم نقرة ، وهذا القالب (أى الهيكل الخشبى الذى شيد حول الإيوان) مما رمى على الكيمان (أى على تلال القمامة) .

وقال الطواشى أيضًا إن السلطان قال أيضًا : لولا القول أن ملك مصر عجز عن إتمام بنائه لتركته لكثرة ما صرف عليه .

أتوقف هنا أمام باب المنبر الخشبى المغطى بالنحاس المشغول ، وباب المدرسة الحنفية إلى اليمين ، المدرسة الوحيدة التى يمكن الوصول إليها من داخل أحد الإيوانات ، والباب المركب على النافذة المؤدية إلى القبة . لحسن الحظ أن هذه الأبواب الرائعة لم تنقل من أماكنها كما نقل الباب الرئيسى ، والزخارف غاية فى الرقة والشفافية .

أيضا أمام المحراب ، العميق ، المزخرف بالرخام الملون ، على جانبيه لوحتان نقش عليهما :

« جدد هذا المكان المبارك حسن أغا خزيندار الوزير إبراهيم باشا بيد الفقير محمد سنة ١٠٨٢ هـ » .

نجتاز الباب المؤدى إلى داخل القبة ، هنا بيت القصيد ، الضريح الذى وضع فى الوسط مباشرة ، أمام المحراب الداخلى ، إنه الهدف من هذا البناء الهائل ، نفس الفكرة التى تحكم كافة منشآت العمارة المصرية العظمى ، فكرة الخلود ، مقاومة العدم بالمادة ، بالحجر ، ونذكر هذا الشاعر العربى القديم الذى صرخ يوما ، ليت الفتى حجر .

المفارقة الغريبة أن حسن بن قلاوون شيد هذا البنيان الهائل ليحتوى على قبره ، ليدفن فيه ، ولكنه قتل ولم يعثر له على جثمان حتى الآن ،وبقي ضريحه خاليا منه ، ولكن بقى ذكره وسيرته ، وهذا ما قصده أيضا .

قبل ولوج القبة فلنتوقف قليلا عند سيرة هذا السلطان الذى لم تكن سيرته توحى بأنه سيخلف ذلك البناء العظيم .

السلطان حسن وقصيد الحجر

دائما مرجعى ابن إياس ، عندما أشرع فى الهجرة بروحى إلى العصر المملوكى ، أستخرج المراجع المعينة لى من رفوف مكتبتى : السلوك للمقريزى ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، والضوء اللامع للسخاوى ، وتشريف الأيام والعصور ، ومفاكهة الخلان ، ومصادر شتى ، أقلب صفحاتها ، أستعيد وأستوعب ، لكننى دائما أعود إلى « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » والذى أداوم

الهجرة إليه منذ ثلاثين عاما أو أكثر ، لا أسمى اطلاعى على صفحاته قراءة ، بل هجرة ، لأننى أمتلك عبرها عصرًا بأكمله تبدد ، ومضى بلا رجعة ، ولولا ابن إياس وغيره من مؤرخين عظام لما عرفنا شيئا عنه .

لماذا ابن إياس ؟ والله لا أدرى ، مع أننى أحفظ عن ظهر قلب صفحات كاملة منه يحلو لى أن أرددها عندما أكون بمفردى فى صحراء المماليك أو أجلس بمقهى فى مواجهة مدخل أثر عظيم ، أو عندما أمشى من منطقة مار جرجس القبطية حتى الأزهر .

ثمة شيء فى طريقة حكيه ، فى سرده ، تظل ممتنعة عن التفسير عندى ، ولكنها خاصة جدًّا ، أدركها بالحس ولا أقدر على التعبير عنها ، والحديث عن ابن إياس يطول .

إذن .. سأرجع إليه بحثًا عن سيرة السلطان حسن ، الذى يحمل هذا البناء اسمه .

* * *

فى أحداث سنة ٧٤٨ هجرية ، فى صفحة ٥١٩ من الجزء الأول طبعة محمد مصطفى (وأنصح أى قارئ لابن إياس بمطالعة هذه الطبعة التى أفنى المحقق عمره فى إتمامها ، رحمهما الله) ، تطالعنا بداية عهد السلطان حسن . يقول ابن إياس :

« .. وهو التاسع عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار

المصرية ، وهو السابع ممن ولى السلطنة من أولاد الملك
الناصر محمد ابن الملك منصور قلاوون .. » .

بويع بالسلطنة بعد قتل أخيه المظفر حاجى ، قيل إنه لما ولى الملك كان له من العمر نحو ثلاث عشرة سنة ، فقط ثلاث عشرة سنة ، وكم تولى الصبية كرسى السلطنة فى العصر المملوكى ، حتى إنهم نصبوا طفلا رضيعًا بعد وفاة والده المؤيد ، وعندما دقت الطبول تحية له أصيب بصرعة وصاحبته طوال عمره ، وحدث له حول بعينيه نتيجة تلك الفزعة ! .

كالعادة يطالعنا مشهد تنصيب السلطان ، حيث يحضر الخليفة العباسى والقضاة ،وكبار الأمراء ، بعد تكامل المجلس استدعوا الصبى من دور الحريم ، وعندما أرادوا أن يبايعوه بالسلطنة ، كان اسمه قمارى ، لكنه قال للخليفة والقضاة .

« أنا ما اسمى قمارى ، إنما اسمى سيدى حسن » ، فقال الخليفة والأمراء « على بركة الله » .

بدأت المراسم ، باس الأمراء الأرض بين يديه ، وبدأ على الفور يمارس سلطاته . وفى سنواته الأولى شح ماء النيل ، وحدث الطاعون الكبير ، كان الطاعون يعقب شح الفيضان عادة ولكن هذا الوباء بالذات كان فظيعا ، وعرف فى أوروبا بالموت الأسود .

يقول ابن إياس : « وفى شهر رمضان تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية ، وهجم جملة واحدة ، وعظم أمره جدًّا ، حتى صار يخرج من القاهرة فى كل يوم نحو عشرين ألف جنازة ، وقد

ضبط فى مدة شهر شعبان ورمضان من مات فى هذا الطاعون ، فكان نحوا من تسعمائة ألف إنسان ، من رجال ونساء ، وكبار وصغار ، وجوار وعبيد . ولم يسمع بمثل هذا الطاعون فيما تقدم من الطواعين المشهورة فى الإسلام » .

حقًّا . لكم تعذب وطننا هذا ، ومر بفترات شديدة الحلوكة ، لذلك علمتنى قراءة التاريخ ، خاصة المملوكى والعثمانى أن الشدائد تمر ، ويجىء الفرج . دائما أقول لصحبى ، من يقرأ تاريخ مصر فى القرن الثامن عشر يخيل إليه أن هذا الوطن لن تقوم له قائمة ، ولكن بعد أقل من قرن ، ولدت دولة عظمى فى عصر محمد على باشا ، هددت مقر الخلافة التركية ، وتحالفت ضدها كافة القوى العظمى فى ذلك الوقت ، لقد تعلم الغرب الدرس ، فعندما تتماسك مصر ينطلق منها مارد جبار يؤرق الجميع ، لذلك كانت المؤامرات ، والاعتداءات ، والقيود ، والاتفاقيات ، ونشاط الجواسيس ، والكارهون ومن بقلوبهم مرض . حتى لا تصبح مصر قوية ، مؤثرة ، تقضّ المضاجع .

ونعود إلى زمن السلطان حسن ، ففى سنة واحد وخمسين وسبعمائة ، أى بعد ثلاث سنوات من بداية حكمه ، يقول ابن إياس :

« جمع السلطان الأمراء ، وأحضر القضاة الأربعة ورشد نفسه وثبت رشْده فى ذلك اليوم ، واستعذر الأوصية من الأمراء ، فاعذروا له ذلك ، وسلموا إليه أمور المملكة .. » .

فلما ثبت رشده ، قبض على جماعة من الأمراء ، وقيدهم وأرسلهم إلى السجن بثغر الإسكندرية ، ويعلق ابن إياس قائلا :

« وهذا أول تصرفه فى أمور المملكة .. »

بدأ الصبى يتصرف كسلطان حقيقى بعد أن أنهى الوصاية عليه ، وبلغ سن الرشد ، ولكن بعد شهور قليلة وقع المشهد الذى يتكرر كثيرا فى الزمن المملوكى ، إذ لبس الأمراء آلة الحرب ، وأعلنوا الثورة ، وكان على رأس الفتنة الأمير طاز المنصورى ، حطموا باب القلعة ، وطلعوا إلى قاعة الدهيشة ، وقبضوا على السلطان حسن وأدخلوه إلى قاعة الحريم !

مشهد ثورة الأمراء هذا من اللحظات الدرامية فى تاريخ القاهرة ، وكثيرا ما أتخيل تلك الخيول المجهزة بالسلاح والأمراء والسيوف المشهرة ، بينما دور القاهرة تغلق أبوابها ، والمتاجر ، والأسواق تقفر من الناس ، وينتظر الجميع لمن تكون الغلبة ؟ .

ولكن الشعب لم يكن متفرجا على طول الخط ، إنما كثيرا ما كان يتدخل ويحسم الصراع بين الأمراء ،وقد درست الأستاذة الكويتية حياة ناصر الحجى المتخصصة فى تاريخ مصر المملوكية تلك الظاهرة فى دراسة فريدة بعنوان « أحوال العامة فى حكم المماليك » صدرت منذ سنوات .

المهم أن الأمراء عزلوا السلطان حسن بعد ثلاث سنوات وتسعة شهور قضاها فى الحكم ، ولوا من بعده شقيقه صالح وتلقب

بالملك الصالح صلاح الدين صالح . وبعد ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما ، لبس الأمراء آلة الحرب مرة أخرى ، وثاروا عليه وخلعوه ، وضربوا مشورة فيمن يلى السلطنة ، وقرروا عودة السلطان حسن إلى الحكم . فأخرجوه من دور الحرم ونصبوه سلطانا للمرة الثانية .

* * *

للمرة الثانية يتم استدعاء الخليفة الذى كان جاهزًا لتلبية الطلب ، لقد تحول الخليفة العباسى بجلالة قدره ، ورفعة مكانته إلى مجرد موظف عند الأمراء والسلطان ، ويلاحظ الأديب الساخر محمود السعدنى أن الخليفة وصل به الحال أنه كان يرفع طلبا بين الحين والآخر يطلب فيه علاوة غلاء ، وزيادة كمية اللحم المصروفة له ولعياله ! .

سبحان مغير الأحوال ، عاد السلطان قويا ، لقد أصبح شابا ، عنده خبرة بأمور الصراع ، فى تلك السن المبكرة .

قال الشيخ شهاب الدين ابن حجلة عنه : « غاب كالبدر فى سحابة ، وعاد إلى السلطنة كالسيف المسلول من قرابه » .

كان من رجال الدولة الأقوياء وقتئذ الأمير شيخو العمرى ، بدأ سنة ٧٥٧ فى بناء المسجد والخانقاه المتواجهين حتى الآن بشارع الصليبة قرب ميدان القلعة ، لم يكن السلطان قد شرع فى بناء مسجده .

وتجاه القلعة كان يقام سوق الخيل ، وكان أيضا بيت يلبغا

اليحياوى نائب الشام ، استولى السلطان على البيت الذى كان من أجمل وأشهر بيوت القاهرة وهدمه ، وأمر ببدء البناء .

ماذا كان يدور فى ذهنه عندما أقدم على تشييد هذا الصرح العظيم ؟ ليتنى أعرف ؟ كيف تخيل المهندس العبقرى انطلاقة البناء فى الفراغ ، هذه الجرأة الشاهقة ، وهذا الخيال القوى ، وعندما بدءوا حفر الأساس وجدوا فى الرمل مرساة مركب قديم ، هل يعنى ذلك أن النيل كان يمر هناك ؟ تذكرنى هذه الواقعة بواقعة أخرى ذكرها المقريزى فى خططه ، هى العثور على بقايا مركب تحت أرضية شارع المعز لدين الله .لكم تغيرت الأمكنة ، ولكن عذابات الإنسان باقية .

يقول المؤرخون إن السلطان وجد كنزا فيه ذهب يوسفى عند حفر الأساس ، ومنه أنفق على البناء الهائل الذى يفوق إيوانه القبلى إيوان كسرى . ولكن قيل مثل هذا عن ابن طولون أيضا .

نسب الطواشى مقبل إلى السلطان قوله : « لولا أن يقال إن ملك مصر عجز عن إتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه » ، وهذا حق ، لكن ما يثير تأملى ، هو ضخامة البنيان مع أن السلطان نفسه لم يكن من السلاطين العظام ، لم تطاول قامته قامة والده الناصر محمد ، أو الذين جاءوا بعده ، كقايتباى وبرسباى ، والمؤيد ، وبرقوق ، ومع ذلك لم يشيد واحد من هؤلاء مسجدًا يقارب مسجد السلطان حسن ، وربما يعنى ذلك أن خوفو لم يكن أقوى ملوك الدولة القديمة ، وفى رأيى

أن الهرم وهذا المسجد يعكسان حالة إبداعية خاصة تتفجر فى الشعب المصرى الذى يفوق كمونه ما يمكن أن يبدو على السطح منه ، فلا يفهمه الأغراب ولا الأقارب .

كل من مرّ بهذا الصرح وقف مبهورًا ، متأملا ، كلهم قالوا ورددوا ما معناه أنه ليس له نظير فى الدنيا ، ولنا أن نتخيل البناء فى الفراغ المحيط به ، قبل بناء مسجد الرفاعى ، وقبل أن تحجبه مبانى شارع محمد على القبيحة ، تماما كما أخفينا أعظم آثار الدنيا ، الأهرام ، بالمبانى والفنادق والمساكن الشعبية ، حتى ليقف الإنسان الآن على بعد عشرات الأمتار منه ولا يراه ! .

* * *

دائما لا أعيش وقتى ، إنما أنا راحل أبدًا فى الزمان حتى تتم رحلتى ، وتنغلق دائرتى ، وساحات المساجد نقاط انطلاقى ، ومحطات وصولى أيضا ، أقف فوق موضع من الأرض ، فأسأل نفسى عمن مرّ فوقه ، ومن عبره ؟ .

يوم افتتاح المسجد للصلاة ، من حضر ، ومن شهد ، أجهد مخيلتى حتى أكاد أرى الجمع ، فأصبح واحدًا منهم ، أما دليلى فهو شيخى ابن إياس ، حتى وإن لم يكن معاصرًا وشاهدًا بنفسه .

قال : « لما تمت العمارة نزل السلطان من القلعة ، وصلّى بها صلاة الجمعة ، واجتمع بها قضاة القضاة الأربعة والأمراء وهم فى كامل أبهتهم – بالشاش والقماش – وملئت الفسقية التى

تتوسط الصحن والباقية حتى الآن ، ملئت بالماء المذاب فيه السكر والليمون ، وقف عليها جماعة من السقاة يفرقون الليمونادة على الناس بالطاسات السلطانية » .

أكاد أشم عبير المشروب ، وأصغى إلى رنين الطاسات إذ تحتك ببعضها .

بعد الصلاة أخلع السلطان على كل من شارك فى البناء أى قدم إليهم أوسمة العصر ، وكانت من الملابس ،

قدم هداياه إلى المشدّين – والمشرفين – والمهندسين ، والمعلمين ، والمرخمين – فنانى الرخام – والسباكين ، والحدادين ، والمبلطين . وغير ذلك من أرباب الصنائع ، حتى الفعلة . والترابة – كما يقول ابن إياس – نعم .. حتى الفواعلية أهداهم السلطان خلعا وكرمهم ، ومن هؤلاء مات كثيرون تحت الردم ، وإليهم دائما بروح فكرى ، كلنا نعرف خوفو ، لكن من يعرف منا اسم عامل فقير ساهم فى حمل الحجر ، أو حفر النقوش .

كلنا نعرف السلطان حسن ، لكن .. من منا يعرف أولئك الفعلة والترابة . أولئك المجهولون الذين جاءوا وعملوا فى صمت ورحلوا إلى مجاهل التاريخ بعد أن خلفوا هذه العمارة وتلك النقوش ، وهذه الظلال التى لا ترى ، إلى هؤلاء أحن وأرحل .

يقول المؤرخون إن السلطان أنعم على كبير المهندسين بألف دينار ، وخلعة سنية . ولا يذكرون اسمه ، لقد ظل اسمه غير

معروف حتى أربعينيات هذا القرن . يقول العلامة المرحوم حسن عبد الوهاب فى كتابه « مساجد مصر الأثرية »

« وفى يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٩٤٤ – أثناء اشتغالى بمراجعة كتابات الجامع لنشرها مع أستاذى الجليل مسيو فييت ضمن مجموعة الكتابات التاريخية الجارى نشرها – عثرت فى المدرسة الحنفية على اسم المهندس مكتوبا فى طرازها الجص مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إنَّ المتقين فى جنات وعيون ، ادخلوها بسلام آمنين ، ونزعنا ما فى صدورهم ﴾ – إلى قوله تعالى : ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾[1] ، اللهم يا دائم لا يفنى يا من نعمه لا تحصى أدم العزة والتمكين والنصر والفتح المبين ببقاء من أيدت به الإسلام والمسلمين وأحييت ... حسن ابن مولانا السلطان الـ ... . عنه على ما وليته وخلده فى ذريته كِتْبه تحمد دولته ، وشاد عمارته محمد بن بيليك الحسينى .. » .

إذن ، مهندس البناء العظيم هو محمد بن بيليك الحسينى ، ليتنى أعرف اسم كل من شارك فى بناء أعظم قصيد إنسانى من الحجر ، وإذ أوقن من عجزى ، أهدئ النفس باليقين ، إنها عبقرية الشعب المصرى .

---

(١) سورة الحجر : الآيات ٤٥ – ٤٨ .

في مدرسة السلطان قايتباي

إذ تتكأكأ عليّ الكدورات

إذ تتقاطر الهموم وتترى .

إذ أغترب عن الوقت . أسعى إلى زمنى الخاص ، أوغل فى ذاتى ، أنفرد ، أرحل إلى لحظات مولية ، منها ما عشته ، ومنها ما أتخيله . وحتى يكتمل ذلك ويتم ، أحتاج إلى موضع ، إلى مكان .. مكان يمكننى أن أقعى فيه ، أن أستند بظهرى إلى جدار ، أصغى فيه إلى أصداء الحياة اليومية قادمة من بعد سحيق . فتشير إلى ما يجرى ولا تحدده ..

وهل مثل مساجد القاهرة العظيمة ما يوفر لى ذلك ، مع تجوالى نيها ، ورحيلى إليها ، وهجراتى إلى ما ارتبطت به منها ، أصبحت لى أماكن آوى إليها وأعتصم قدرًا من الوقت ، ألوذ بالحجر !

مدرسة ومسجد وضريح وسبيل وكتاب السلطان الأشرف أبى النصر قايتباى أحد قلاعى الذاتية،إليه أمضى، وفيه أقعد ، ومنه أرتحل ، فتكتمل غربتى ، وفى الغربة يتصالح الإنسان مع ذاته .

* * *

فى طفولتى الأولى بقصر الشوق ، سمعت اسم قايتباى لأول مرة ، أو كما ينطقه القاهريون الأصلاء « آيتباى » بالنسبة لى كان

مكانا نائيا . قصيا . موحشا ، فيه مقابر . يسكنها بعض الناس الذين قادتهم مصائرهم إلى هناك . قايتباى بدأ عندى اسم لمكان مرتبط بالصحراء ، والموت ، والعدم ، والإحساس بالخطر ، والبعد أيضًا ، كان إحساسي ببعده في أول عمرى يساوى شعورى الآن ببعد سيبريا أو ألاسكا .. فالأمر دائما نسبي .

فى مدرسة محمد على الإعدادية ، التى أصبح اسمها فيما بعد الحسين ، كان أحد زملائنا يسكن قايتباى . كان اسمه إسحق وكنت أتطلع إليه مخفيا استفساراتى ، كيف يقطن زميلنا هذا المكان الموحش ؟

مع الزمن عرفت الموضع خلال تجوالى القاهرى ، وشيئًا فشيئًا نمت علاقتى به ، من خلال مؤرخى مصر العظام وحفاظ زمانها . كابن إياس ، وابن تغرى بردى ، والجبرتى ، والمقريزى وعلى باشا مبارك ، وغيرهم . هكذا أضيفت أبعاد جديدة ، والمكان يظل أصما بلا معنى إذا لم تربطه بزمنه ، بما جرى فيه ، هكذا سرت الحياة فى الحجارة والنقوش . والزخارف ، وهكذا تتوطد الصلة بين الإنسان وما يظنه جمادًا .

* * *

لنتخيل ما كان عليه المكان فى الزمن القديم ، خلاء ، ممتد ، فسيح . كان بعيدًا عن القاهرة المسكونة الضاجة بالحياة ، ولنضع فى الاعتبار المسافات بحساب الأيام النائية . عندما كان الناس ينتقلون مشيا . أو راكبين الدواب .

هنا قامت قرافة المماليك الشرقية ، والكلمة تطلق على أماكن دفن الموتى فى مصر . كلمة لا توجد إلا فى مصر فقط ، يرجع بعض المؤرخين أصلها إلى قبيلة المغافر العربية ، كان يقال لهم بنو قرافة ، هذا تعليل وربما كانت هناك أصول أخرى للاسم لا ندريها الآن ، المهم أن السلطان قايتباى شرع بعد عامين من توليه الحكم عام ٨٧٢ هجرية ، فى بناء تربته .

يقول ابن إياس فى تاريخه ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور — فى أحداث ذى الحجة عام ٨٧٤ هجرية : « وفيه ابتدأ السلطان بعمارة تربته التى أنشأها فى الصحراء ، وجعل بها جامعا بخطبة ، وقرر به صوفة وحضورًا بعد العصر ، و أنشأ هناك عدة خلاوى برسم الصوفة وحوضًا وصهريجًا وأشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف » .

حقًّا ما أذكى ابن إياس ، لم يقل إن السلطان بنى مسجدا أو مدرسة ، إنما قال إنه أنشأ تربة ، أى مدفنًا ، وهذا عمل لم ينفرد به قايتباى ، إنما كان أول ما يشرع فيه أى حاكم يتولى حكم مصر ، أن يشرع فى بناء تربته ، والحق أنه هم أى مصرى ، أميرًا كان أو موظفًا أو تاجرًا ، أو إنسانًا عاديًا ، والحرص على اقتناء مقبرة لتكون مأوى أبديًا من الأمور الجليلة عند المصريين ، إنه المضمون الفرعونى القديم ، الانشغال بالخلود ، ليس تولها فى الموت ولكن حبًّا فى الحياة الدنيا ، وشوقًا إنسانيًا خالدًا إلى الرغبة فى بقائها على هيئة عمل صالح ، أو عمل جميل يضمن استمرار السيرة ، فالذكر للإنسان عمر ثان ، لم يتغير مضمون مصر القديم

وانشغالها الروحى ، الرموز فقط هى التى تتبدل ، فمن أهرام إلى كنيسة إلى مسجد . وهذا موضوع يطول الحديث فيه .

هناك فى الصحراء التى كانت نهاية العمار . وبداية الخلاء أقام قايتباى تربته ، وللأسف لم أستدل على اسم المهندس الذى صمم وشيد هذا البناء الجميل ، فى وقائع ذى القعدة عام ٨٨٣ هجرية ، يقول ابن إياس : إن السلطان نزل من القلعة وتوجه إلى جهة القرين - بمحافظة الشرقية الآن . وكشف عن الجامع والسبيل الذى أنشأهما هناك . وكان الشادى على العمارة الأمير يشبك الجمالى .

شادى العمائر هو المسئول عن البناء ، فهل هو يشبك ؟ ربما ، وربما سجل المهندس المصرى المجهول لنا اسمه فى ذاوية قصية غير مرئية من البناء . فإلى الملوك والسلاطين تنسب هذه العمائر الجليلة . لكن عباقرة هذا الشعب العظيم البناء لا يذكرون أنفسهم . إنهم يجيئون من أعماق القرى ، ومن على ضفاف النيل ، يحملون الحجارة ، والأتربة ، وينقشون الجص ، ويلونون الجدران ، ثم يمضون فى صمت ، يتجيئون من المجهول ويمضون إلى المجهول ، كلنا نقول هرم خوفو ، أو معبد رمسيس ، أو مسجد السلطان حسن ، أو قلعة محمد على ، لكن من يعرف منا آلاف الذين حركوا هذه الأحجار ، وهذبوها ، ورصوها ، وارتفعوا بها إلى الفراغات العُلى . من مات تحت الردم ، ومن سقط من فوق البناء .

يذكر ابن إياس حادثًا عجيبا غريبا ، وقع أثناء حكم الأشرف قايتباى ، ذلك أن عاملاً فقيرًا ، نجارًا ، سقط من فوق سقالة

اثناء عمله بطباق المماليك بالقلعة ، فأمر السلطان بكفن له من ثلاث طبقات ، وصرف لعائلته الفقيرة مبلغًا من المال ، ونزل وصلى على العامل الفقير ! يقول ابن إياس بالنص فى حوادث شوال سنة ٨٧٦ هجرية : « وفيه وقعت حادثة غريبة وهو أن نجارًا كان عمالا فى القلعة فى بعض الطباق ، فسقط من مكان عال فمات لوقته ، وكان له أولاد وعيال وهو فقير ، فوقف أولاده وعياله بقصة للسلطان يلتمسون منه شيئًا من الصدقة ، فلما وقفوا إليه أمر لهم بمائة دينار ، وأمر للميت بثوب بعلبكى وثلاثة أشرفية يجهزونه بها فعد ذلك من محاسن الأشرف قايتباى » .

من حق ابن إياس أن يعتبر ذلك غريبًا . فلم تسجل لنا وقائع التاريخ أى اهتمام بأولئك الذين شيدوا هذه المبانى ، أو الذين نقشوا الزخارف ، أو كتبوا الخط ، أو الذين صقلوا الأحجار ، وعند زيارتى إلى المبانى العظيمة أذكر أولئك المجهولين وأترحم عليهم ، وأقرأ الفاتحة على أرواحهم ، أولئك الذين لا يعرفهم أحد ، ولا يذكرهم أحد .

لابد أن السلطان اطلع على نموذج للمسجد قبل بنائه ، يذكر المقريزى أن ابن طولون تفحص طويلا نموذجا مصنوعا من الجلد لمسجده ، وكذا بقية السلاطين والأمراء ، ولابد أن مصمم هذا المسجد كان شاعرًا فى أعماقه ، لا أعرف أى مبنى فى العالم رأيت فيه هذا التناسق الفريد بين النسب ، كما تتجسد فى مسجد قايتباى ، بين القبة والمئذنة وبين المسجد والسبيل .

لقد صمم المهندس المصرى المجهول قصيدة من الحجر . هذا

التناسق يبدو من بعيد كما يلوح من قريب ، وفى كل ساعات النهار والليل . فى تقلبات الطقس المختلفة يبدو هذا الجمال الفريد ، والذى جعل مصممو النقود فى النصف الأول من هذا القرن يضعون صورة المسجد على أثمن ورقة مالية وقتئذ ، من فئة المائة جنيه ، كان الناس يقولون : (الورقة أم مئذنة) . إنها مئذنة مسجد قايتباى ، هذه المئذنة الرشيقة . التى أهيم بها إذا نظرت إليها عند عبورى طريق صلاح سالم ، أو عند دنوى منها أو عند صعودى إلى سطح المسجد حيث يبدأ ولوجى داخلها . أو عند وقوفى فى أعلى شرفاتها . فأرى منها الخلاء اللا متناهى ، وأشعر أننى أكثر قربًا من السماء ، من الصفاء ، من الخالق .

وللأسف الموجع ، أحيط خصر هذه المئذنة النحيلة بعدد من مصابيح النيون القبيحة التى تشوهها فى الليل ، وحتى يتم إضاءتها مدوا أسلاكا كهربائية ، بعضها عار داخل المئذنة ، مما يهدد بكارثة مروعة ، فقبة المسجد من الخشب ، وأقل ماس أو شرر يطيح بها .

إننى أنبه وأحذر المسئولين فى هيئة الآثار ، لعلهم يتحركون ، لعلهم يفعلون شيئًا للمسجد الذى لم يهتم به أحد بعد رحيل الشهيد أحمد قدرى . وما نطلبه ليس بعسير . إزالة هذه السلوك ، واستبدال مصابيح النيون بنظام إضاءة من الخارج يبرز ولا يخفى، يكشف عن جمال الأثر ولا يشوهه .. ولله الأمر من قبل ومن بعد .

* * *

لكى نلج المسجد ، لابد أن نرتقي – أن نصعد إليه أربع عشرة درجة عريضة . تؤدى بنا إلى المدخل . وللمداخل فى البنيان الإسلامى شأن عظيم . فالمدخل هو الذى يفصل بين عالمين ، بين العام والخاص ، بين الوضوح والسر ، بين العلانية والخصوصية ، والمدخل طبقًا للتقاليد الإسلامية لابد أن يكون جميلاً .رائعا ، ولهذا تفنن الصناع فى تجميل الأبواب القديمة . ولأن المدخل أول ما تقع عليه عينى الضيف ، فلابد أن يتضمن بحضوره دعوة . وإشهارًا بالأمان . لذلك تكتب الآيات القرآنية أو الجمل المطمئنة المرحبة :

﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾

« يا مفتح الأبواب ، افتح لنا خير باب » .

منذ عامين كنت فى فلورنسة بصحبة الشاعر الكبير أدونيس وأثناء تجولنا فى شوارعها لاحظت الأبواب المتجهمة للبيوت ، وللمنشآت المختلفة ، كانت مقابضها على هيئة حيوانات مفترسة وشياطين بقرون ، ومحاربين بشعى الهيئة ، واستعدنا الأبواب المغربية التى صورتها الفنانة التشكيلية لطيفة التيجاني وجاءت لتعرضها على الإيطاليين ، كل باب تحفة ، والأهم أنه دعوة للسلام ، وللترحيب ، وللشعور بالأمان .. وهكذا أيضًا مدخل مدرسة قايتباى . ولكن يضاف إلى ماذكرته الخصوصية المصرية ، الواجهة المرتفعة المحيطة بالمدخل تذكرنى بالمعابد الفروعونية العظمى من الخارج ، الواجهة هنا بلقاء ، والأبلق مصطلح معمارى يطلق على

الجدران التى كانت صفوف الحجر فيها ذات لونين ، أبيض وأحمر . أو أبيض وقاتم ، وفوق الباب دائرتان محفورتان فى الحجر ، إنهما رنك السلطان أى شارته ، أو شعاره ، أو خاتمه ، أو بمعنى آخر « الخرطوش » الفرعونى القديم . أما كلمة « رنك » فأصلها فارسى وتعنى لون ، كان الرنك أو الختم أو الخرطوش يطبع على سائر ما يمت للسلطان ، أو يصدر عنه ، نراه محفورًا على واجهات الأبنية أو منقوشا على الأبواب ، أو محفورًا فى الأوانى المعدنية ، وعلى الملابس ، إنه نوع من التواجد المستمر للسلطان على الأشياء والموجودات وربما كان البديل له الآن ، الصور التى تعلق فى كل مكان أو الظهور المستمر فى وسائل الإعلام المرئية . لكن هذا كله لا يلغى القيمة التاريخية المستمرة للرنك . كان فى العصر الفرعونى خرطوشة مستطيلة الشكل يكتب داخلها اسم الفرعون وشعاره ، وفى العصر المملوكى أصبح دائرة داخلها اسم السلطان وشعاره . إنه الختم على الأوامر ، والرسائل والمبانى والملابس . سوف نرى رنك قايتباى على جدران المسجد ، أعلى المدخل ، وعلى الجدران الداخلية ، وعلى قاعدة القبة ، وفوق الأخشاب المحفورة .

الأشرف أبو النصر قايتباى .

عز نصره .

إنه الختم الرسمى ، الذى بدونه تفقد أى ورقة مصداقيتها وبدونه لا تنتمى هذه المنشأة إلى صاحبها ومؤسسها . إنه الختم

الذى يؤكد صحة التوقيع ، مهما كانت شخصية الموقع ، ولنا عودة إلى تقاليد الدواوين المصرية .

* * *

نجتاز المدخل ، ومدخل هذا المسجد متواضع ، هامس ، مرحب ، ليس شاهقا مثل مدخل مدرسة السلطان حسن ، وليس غامضا مثل مدخل قبة المنصور قلاوون ، إنه مدخل صريح ، لا يوحى بما سنراه فى الداخل من ثراء روحى ومادى . نجد أنفسنا فى مساحة توازى غرفة متوسطة . إلى اليمين وفى المواجهة باب خشبى جميل يؤدى إلى السلم الصاعد إلى الكتاب الذى يعلو السبيل الموجود خلفنا إلى اليسار ، وإلى السطح حيث بداية ارتقاء المئذنة .

لنتطلع إلى سقف المدخل الخشبى ، هذه الألوان المعتقة المتناغمة ، الكامنة فى الظلال العلوية ، عليك اكتشافها بإطالة النظر إلى أعلى ، مرة توحى بالنجوم ، والليل ، ومرة توحى بزرقة السماء فى النهار ، على الجدران لوحات من الرخام ، مستطيلات ومربعات منقوشة ، الأرضية تتداخل فوقها الأشكال ، مدخل هادئ ، لكن كل جزء فيه أعد بعناية ، منمنم ، وتلك سمة المكان كله .

لنمعن النظر - إلى اليمين دهليز ضيق ، هذا الدهليز قد يطول كما هو الحال فى مسجد السلطان حسن ، أو مسجد الظاهر برقوق ، أو يصبح قصيرا كما هو الحال هنا ، لكن فى كلا الوضعين يؤدى إلى الغرض نفسه . وهو عدم الدخول إلى الصحن الرئيسى ، إلى القلب ، إلى المركز مباشرة ، إنه مرحلة الانتقال من الخارج

إلى الداخل ، أو من الداخل إلى الخارج ، من عالم إلى عالم ، ومن حضور إلى حضور ، تلك سمة تميز المساجد المصرية الصميمة ، بعكس المساجد القاهرية ذات الأصول الوافدة ، ومنها مساجد القاهرة الأولى الفاطمية : الحاكم ، والأقمر ، والأزهر ، والصالح طلائع ، حيث تدخل إلى الصحن مباشرة ، وعند وقوفك فى الطريق الخارجى يمكنك رؤية الداخل أو جانب منه ، فى المساجد المصرية لابد من مرحلة فاصلة ، لابد من عملية تحضير غير مباشرة يقوم بها المدخل والدهليز .

ما من مرة عبرت فيها هذا الدهليز إلا وشعرت أننى أرتحل ، أو أننى أنتقل من طور إلى طور ، فأصل بين عالمين ، المادى اليومى بكل ما فيه من ضجيج وكدورات ، ومشادات ، وصراعات سخيفة ، ومفارقات ، وبين هذا العالم الروحى الذى يتجه فيه العبد إلى ربه ، ويتضح الأمر بين الإنسان وخالقه ، إنها خطوات قليلة ، لكنها تفصل الإنسان وتهيئه للدخول إلى عالم مختلف ، هل لهذا السبب تبدو أصوات الشارع القريب بعيدة جدًّا عند الإصغاء إليها من داخل صحن المسجد ؟ ، عند دخولى إلى قبة قلاوون ، أتطلع إلى شارع المعز عبر النوافذ الضخمة ، الطريق فى متناول اليد لكنه بعيد جدًّا فى نفس الوقت . عند جلوسى مستندًا بظهرى إلى جدار مسجد المؤيد والذى اعتدت أن أقرأ فيه أو أرحل بفكرى إلى هنا أو هناك . يكون الطريق المزدحم لسوق الغورية فى المدى مباشرة ، ولكنه بعيد بكل ضجيجه وصراخ باعته وزبائنه .

هذا الدهليز الفاصل يجتازه الإنسان بخطوات تنقله من عسر إلى يسر ، من ضيق إلى فرج ، كأنه الوصلة ما بين رحم الدنيا والخروج إلى عالم مغاير مختلف .

هكذا يبدأ الصحن الداخلى فى الظهور ، الألوان ، الحضور ، يبدأ انسدال السلام والطمأنينة على الروح . يلوح جانب من الإيوان المواجه ، يبدأ ولوجنا إلى منظومة الألوان ، والأضواء ، والظلال ، وإذ نلج الصحن تمامًا ، نقف فى مدخله ، نتطلع إلى الإيوانات الأربعة ، ينزل برد وسلام على القلب ، هذا كون روحى مصغر ، حيث يشير كل جزء من البناء ، حجرًا كان أو خطًّا أو وحدة زخرفية أو مقرنصة أو قطعة زجاج إلى الخالق الأعظم الذى لا تدركه العيون ولا تحيط به الأبصار .

* * *

لنصغ قليلاً إلى وصف معمارى متخصص ، يقول الدكتور كمال الدين سامح :

« تعتبر مجموعة قايتباى بالقرافة الشرقية من أُبدع وأجمل المجموعات المعمارية فى مصر الإسلامية ، ويتكون المسقط الأفقى من صحن مربع محاط بأربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة ، الجانبيان منهما صغيران وإيوان القبلة يشرف على الصحن بواسطة عقد مدبب من طراز نعل الفرس كما هو الحال فى إيوان القبلة بمدرسة الظاهر برقوق بالنحاسين ، ويكتنف المحراب من جهتيه نافذتان شكلهما من الخارج

داخل تجويف مستطيل الشكل ، ومن الداخل يظهران معقودان ويعلوهما نوافذ مدببة تملؤها أجزاء من الزجاج الملون ، وأسقف الإيوان الرئيسى من الخشب المزخرف والمحلى بنقوش مذهبة ، وقد كان الصحن فى بادئ الأمر بسقف من الخشب يعلوه منور مثمن ، وبجوار إيوان الصلاة الضريح الذى يبرز قليلا عن الواجهة الجانبية ومغطى من أعلاه بقبة حجرية محمولة على مقرنصات مزخرفة من الخارج بزخارف نباتية داخل مناطق هندسية محفورة على الحجر » .

* * *

هذا ما كتبه الدكتور كمال الدين سامح فى كتابه « العمارة الإسلامية فى مصر » ، ولن يخرج الأمر عن ذلك الوصف المختصر فى الدراسات الأخرى الحديثة ، وإن كان الدكتور عفيفى بهنسى قد توقف مطولا أمام المسجد فى كتابه الضخم الفن الإسلامى الذى طبع فى دمشق .

للأسف لا توجد صور دقيقة للمسجد يمكن أن يشتريها الزائر ، لا ملونة ولا غير ملونة ، وفى بلاد العالم المختلفة بعد أو قبل الزيارة يمكن للزائر أن يجد ركنا صغيرًا فى المتحف أو الكنيسة ، يبيع نماذج للمكان أو ما يضمه من تماثيل ولوحات . وسلايدات ، شرائح ملونة ، وبطاقات بريد ، وكتب عن تاريخ المكان ، لماذا لا تقوم هيئة الآثار بعمل منظم يستهدف بيع النماذج واللوحات والكتيبات باللغات المختلفة فى المواقع الأثرية الفرعونية والقبطية

والإسلامية ، إلى جانب دلالة ذلك الثقافية ، فإنه عمل تجارى مربح ، ولكن من يسمع ومن يرى ؟ .

أذكر بعد وقوفى مطولا أمام تمثال موسى الذى أبدعه ميكائيل أنجلو أن خرجت إلى مكتبة صغيرة عند مدخل الكنيسة التى يوجد بها التمثال ، مخصصة فقط لكل ما يدور حوله ، بدءًا بالكتب التى تدور حوله ، حتى بيع نماذج مختلفة الأحجام له ، وقد اشتريت نموذجًا من الرخام دقيقًا إلى حد كبير ، أضعه فوق مكتبى . كمصدر تحد واستفزاز ، أقول لنفسى دائما : يجب أن نتعامل مع الأدب ، مع الكلمات ، كما تعامل ميكيل أنجلو مع الحجر الصلد ، فأوشك أن ينطقه .

وفى القرن التاسع عشر جاء إلى مصر معمارى ومهندس وفنان فرنسى كبير ، إنه « بريس دافن » وزميله المعمارى « باسكال كوست » أمضيا عدة سنوات ليرسما زخارف ونقوش الفنون الإسلامية من عمارة ، وأخشاب ، ورخام ، وجص ، ونحاس ، وجلود ، وخط ، فرنسيان جاءا إلى مصر ورسما ودرسا العمارة الإسلامية ، وكتاباهما يعتبران الآن من النفائس ، وقد طبع كتاب « بريس دافن » فى فرنسا خلال القرن التاسع عشر ، ومنذ سنوات أعادت دار نشر لبنانية خاصة إصداره فى نسخة تشبه تمامًا النسخة الأصلية ، تتكون من نص مكتوب وثلاثة مجلدات ضخمة ، يصل حجمها إلى حوالى متر طولا وسبعين سنتيمتر عرضا ، ويبلغ ثمن هذا الكتاب بضعة آلاف من الجنيهات الآن ، ولكم كنت

أتمنى أن يعاد إصدار مثل هذه الكتب عن دور نشر مصرية ، خاصة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ولكن لم يحدث هذا ، ومنذ عامين أقدم المهندس عهدى فضلى مدير عام مطابع أخبار اليوم على خطوة ذات بعد ثقافى فى مدلولها ، وتدل على حس وطنى سليم ، عندما قام بإصدار نتيجتين ، الأولى تضم ست لوحات من كتاب « بريس دافن » ، والثانية تضم اثنتى عشرة لوحة من نفس الكتاب ، وتباع كل منهما بقروش زهيدة ، وعند سفرى أحمل عددًا منها كهدايا إلى الأصدقاء الأجانب ، ولكم يكون سرورى بالغًا إذ ألمح انبهارهم ، أولاً بجمال الآثار الإسلامية ، وثانيا بروعة الطباعة ، إننى أفضل لوحات « بريس دافن » وأديم النظر فيها ، وكتابه فى متناول يدى باستمرار ، وأتوقف عند مسجد قايتباى ، لأرى كيف كان يبدو فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

* * *

خمس لوحات ضمها المجلد الأول المخصص لفنون العمارة فى معظمه ، ثلاثة منها تصور المسجد من الخارج والداخل ، ولوحة تفصيلية لنقوش المئذنة وأجزائها ، وأخرى لواجهة السبيل .

فاللوحة الأولى : تمثل منظرًا عامًّا للمسجد ، أتصور أن « بريس دافن » كان يقف فى نقطة تقع إلى الشرق باتجاه الشمال قليلاً عندما كان يرسم المسجد ، تظهر فيها الواجهة والمدخل والسبيل والضريح والمئذنة ، الملامح الرئيسية كما هى الآن تقريبا ، ولكن المبنى الأمامى المخصص للحوض والساقية يظهر فى اللوحة

متصلاً بالمسجد ، يصلهما جدار عريض ، أزيل ، وشق طريق ضيق يمر الآن بين المسجد والحوض . في اللوحة بعض أحجار المدخل محطمة ، ودرجات السلم أيضا ، والركن الغربي متهدم ، هذا كله تم ترميمه خلال حقبتين مختلفتين في القرن العشرين الأولى ، قامت بها لجنة حفظ الآثار العربية في بداية القرن ، والثانية في المرحلة التي تولى خلالها الشهيد الدكتور أحمد قدري هيئة الآثار المصرية . نلاحظ في لوحة « دافن » أن البيوت لم تكن ملاصقة للمسجد ، والأرض رملية ، الآن البيوت قبيحة المظهر تطبق على المسجد من الشرق ، والأرض مرصوفة بالأسفلت !! . وأظن أن الرصف بالحجر أنسب لحواري وشوارع القاهرة القديمة ، وقد كانت كلها كذلك ، ولكن عباقرة المحافظة أزالوا الأحجار ورصفوا الحواري بالأسفلت الذي سرعان ما تدب إليه البثور والحفر ، وللعلم .. فإن أهم أجزاء العواصم الأوروبية مرصوف بالحجر ، تماما كما كان الوضع في القرون السابقة .

تنتصب المئذنة في اللوحة سامقة ، شامخة ، إنها واحدة من أجمل المآذن المصرية على الإطلاق ، ولن أتعجل الحديث عنها ، فلي عندها وقفة ستطول .

اللوحة الثانية : تبين الإيوان المواجه للداخل من الدهليز .

أما الثالثة : فللإيوان الشرقي ، حيث القبلة والمحراب . الملامح الأساسية باقية حتى الآن ، وبرغم جمال لوحات « دافن » ، فإنها

مجرد إشارة إلى صرح عظيم ، فللألوان فى مسجد قايتباى منزلة عظمى ، وأعود إلى رؤيتى الخاصة للمسجد ، وإلى علاقتى به .

* * *

جئت إليه مرارًا ، فى الأغلب الأعم بمفردى ، ومرات قليلة مع من أحب ، وأدرك اهتمامه بما سيرى ، وإذ ألمح انفعالا لا أبخل بوصف كل ما أرى ، وما أعتقده من دلالات ، بعد عشر سنوات مع مسجد قايتباى والمساجد الأخرى أزعم أننى توحدت بها ، وبقدر ما تحقق لى هذه المعايشة من ثراء وجدانى وروحى ، بقدر ما أشعر بانعكاس هذا على عالمى الأدبى ، بدءا من الأسلوب اللغوى ، وحتى المعمار الفنى للروايات ، فالفنون متصلة .

جئت إلى المسجد فى أوقات مختلفة ، صباحًا ، وظهرًا ، وعصرًا ، وغروبًا . وليلاً ، وما من مدة أبلغه فيها إلا أقول لنفسى عند دخولى الصحن : هذا كوكب من الضوء ، منظومة من الألوان والزجاج والحجارة والخشب والعاج تحولت إلى كون صغير . مجرة من الجمال المهموس ، هذه ليست أحجارًا صلدة ، ولكنها إشارات إلى الأصل الذى جلبت منه ، وإلى البناء الذى تكونه الآن .

الزجاج الملون يرشح ويحول ويلون الضوء القادم من الخارج ، الحروف العربية متداخلة متشابكة تطوق المكان من خلال السقف والجدران ، وحول المحراب ، العقود من حجارة ، أحدها منقوش والتالى بدون نقش ، يحدث هذا التبادل نوعًا من التجسيد ويضفى

الحركة ، فى جدار الإيوان الرئيسى ثلاث نوافذ من الزجاج الملون المعشق بالجبس ، النافذة الوسطى على هيئة دائرة ، الزجاج أصفر ، ربما رمز إلى الشمس .

المكان كله قائم على الجدران فقط ، على الفراغ ، ما من أعمدة ، ما من جزء مكشوف ، الصحن كله مغطى ، ومع ذلك فالإحساس بالسماء يستمر قويًّا من خلال المساقط الأفقية التى تتخلل الدهليز المؤدى ، وهذا الصفاء المدهش الذى يضفيه المكان .

ومكانى المفضل للجلوس الإيوان الغربى ، المواجه للإيوان الرئيسى . أولى ظهرى للأبواب الخشبية الثلاثة المؤدية إلى الخارج . أرفع البصر محاولا تثبيت النقوش والخطوط والألوان فى ذاكرتى ، أما أفضل أوقاتى ، فلحظات الأصيل ، حيث يقف الموضع كله على مشارف الغروب ، ولا أدرى السبب الذى يجعلنى أصغى إلى تلاوة الشيخ محمد رفعت ، تنبع من داخلى بدون أن يصلنى صوته من مذياع أو أى مصدر آخر ، ينبعث الترتيل الكريم من المكان أيضا ، من الزوايا ، والأركان القصية الظليلة التى أعطاها الفنانون نفس العناية . كل جزء أُعِدَّ وصبغ بدقة رائعة ، وإذ استعيد صوت الشيخ رفعت الرخيم ، خاصة عند تلاوته بعض الآيات التى أرددها دائمًا : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[1] . ﴿ والضُّحَى ، واللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾[2] .

---

(١) سورة القيامة : الآية ٣٦ .

(٢) سورة الضحى : الآيتان ١ ، ٢ .

يُغمرنى هدوء عميق ، وتلفنى سكينة–قبل أن أقوم متوجها إلى القبة التى تحوى الضريح – وأصبح متأهبًا لمصالحة الوجود كافة !

* * *

لنتأهب .. ليبدأ استعدادنا للدخول إلى أقصى وأبعد نقطة فى المكان ، إلى الجزء الثالث من المسجد ، والذى يذكرنى بقدس الأقداس فى معابدنا الفرعونية ، لنولى ظهرنا للصحن ولنمض إلى الضريح . إلى القبة التى يرقد تحتها السلطان الأشرف قايتباى .

لا شىء يوحى بالمكان الذى سنمضى إليه ، مجرد باب من الخشب المنقوش ، المطعم ، لا تميزه أى خصوصية ، فحول الصحن عدد آخر من الأبواب ، وكثيرا ما أدخل الصحن بعد الظهر ، بعد انصراف الحارس المكلف من هيئة الآثار ، إنه يغلق هذه البوابة الصغيرة بقفل فيصبح اجتيازها صعبًا . لو أن شخصا يدخل لأول مرة ويجهل المكان لما خطر له أن خلف هذه البوابة الصغيرة ممر صغير يؤدى بنا إلى كون بأكمله .

نجتازه إذن ، ممر صغير بين جدران الصحن والقبة ،متصل بالسماء ، لا سقف ، سلالم تؤدى إلى الفناء الخلفى ، نجتاز باب القبة ،وسرعان ما يغمر الروح مزيج من أحاسيس مختلفة ، منها السكينة ، والخشوع والرهبة والرضى ، والتسليم . وخوف ناءٍ .

نحن تحت القبة الشاهقة التى تبدو من بعيد متناسقة ، متكاملة مع المئذنة ، محفور عليها زخارف نباتية من نفس الحجر ، رؤيتها من بعيد شىء ، والوقوف تحتها شىء آخر ، القبة تحتها الضريح

دائما ، القبة رمز ومعنى ، أما الرمز فَلِقُبَّةِ الكون الكبرى ، لقبة السماء الزرقاء التى يحدها الأفق ويجعلها أيضا تبدو لا نهائية ، وهى معنى ، لأن الراقد تحت الضريح ، وليًّا من أولياء الله الصالحين كان . أو ملكًا ، أو أميرًا ، أو شيخًا فقيها محدثا ، مضى عن هذ الدنيا ، إلى العالم الآخر ، وهذه القبة التى هى رمز للكون تعنى الأبدية أيضًا .

وللقباب فى المعمار الإسلامى شأن عظيم لنا معه وقفة أخرى ، لكن الذى يعنينى من قبة قايتباى أنها نهاية مطاف فى تطور طويل ، فى قبة قلاوون بقوم البناء على أربعة مداميك . وأربعة أعمدة جرانيتية لابد أنها كانت جزءا من معبد فرعونى ذات يوم . ولكن فى قبتى خانقاه فرج بن برقوق ، وفى قبة قايتباى ، يقوم البناء هنا على فراغ ، على الهو ، نعم .. على اللامادة ، تبدأ جدران القبة من الأرض مربعة وترتفع بما يوازى ارتفاع أربعة طوابق من بناء حديث ، وعند نقطة معينة تبدأ المقرنصات ، إنه الحل الهندسى العبقرى الذى توصل إليه المهندس المصرى المسلم للانتقال من الشكل الرباعى إلى الشكل الدائرى للقبة .

والمقرنص كلمة لم يحسم العلماء أصلها حتى الآن ،وإن كنت أميل إلى رأى الدكتور عبد العزيز مرزوق فى كتابه « الفنون الزخرفية الإسلامية » حيث يقول إن أصلها لفظة مقرفص للتشابه الغريب بين حنية المقرنص وبين الجالس القرفصاء ، أما فى فى قاموس لسان العرب فالمقرص صفة للبازى المعد للصيد أو المربوط

ليسقط ريشه ، وما من صلة بين معنى الكلمة فى لسان العرب ، وشكل المقرنص المعمارى ، أما ما يقوله دياز DIEZ فى دائرة المعارف الإسلامية : إن الكلمة مأخوذة عن كورنيس اليونانية أى كورنيش ، فهذا تعليل واه وكلام فارغ .

والمقرنص حلٌّ معمارى إسلامى خالص ، لا تراه فى أى معمار آخر فى العالم ، يتكون من وحدات متصلة ، منفصلة ، نفس القانون الذى يحكم فن الزخرفة العربية . كل وحدة مستقلة بنفسها ، متصلة بما بعدها ، يمكن أن يستمر التكرار بلا نهاية تمامًا كاستمرار الزمن الأزلى ، ويمكن أن تتوقف الوحدة أو الوحدات عند أى نقطة فيكتمل الشكل الزخرفى أو الهندسى ، تماما كالزمن الفردى المحدود ببداية ونهاية ، ما من شيء يعكس المفهوم الإسلامى للزمن وللحياة كالفن العربى الذى اصطلح على تسميته بالأرابيسك .

والمقرنص الواحد يشبه محراب صغيرا ، أو جزءا طوليا منه ، تتعدد أشكاله ، يذكرنا فى العموم ببيوت النحل . فى الأركان الأربعة لقبة قايتباى تطل علينا المقرنصات الرقيقة ، المتراكمة ، فى حركة صاعدة إلى أعلى . وفى نفس الوقت إذا وصلنا بالبصر إلى نهايتها يخيل إلينا أنها هابطة من أعلى إلى أسفل . المهم أنها نقطة محورية فى البناء ،مرحلة تتدرج فيها الجدران من المربع إلى الدائرى حيث تبدأ القبة التى تميل جدرانها حتى تلتقى كل جهاتها عند المركز الشاهق الذى يعلوه الجوسق النحاسى من الخارج ، وأحيانا يطل العنصر الفرعونى بشدة وإلا فماذا يعنى هذا القارب

الموجود فوق قبة مولانا الإمام الشافعى ، أو قبتى فرج بن برقوق ؟ ! .

ما من مرة أقف تحتها إلا وينتابنى فى البداية إعجاب ودهشة ، كيف واتت الجرأة المعمارى المصرى العبقرى بلوغ الارتفاع الشاهق بدون أعمدة ، صعد بالجدران والقبة مستندًا إلى الهواء ، إن الأمر يحتاج إلى دقة هائلة وإلى قوة خيال أيضا ، وهذا كله وراءه طاقة من الإيمان ورؤية ، يريد المعمارى هنا أن يشعرك باللانهائية إذا تطلعت إلى أعلى صوب الخالق الأعظم .. وحقا قد نجح ، فبرغم أن القبة مصنوعة من المادة ، من الحجر ، فإن الواقف تحت المركز مهما حاول فلن يدرك نهاية القبة ، هذا الفراغ الشاهق ، المنطلق من الأرض إلى العلو ، كالسهم . لا يحد منه شىء حتى القبة نفسها ، لا أقدر على إطالة النظر الا لحيظات معدودات بعدها يرتد بصرى إلى الأرض متعبا ، مرهقا .

لا فائدة ..فالكينونة المادية لن تبلغ أبدا المركز والسمة .

وقد شاء المعمارى أن يشعرك أيضا بمحدودية الحياة الدنيا وقصرها ، هذا هو ضريح سلطان عظيم حكم تسعة وعشرين عاما كاملة ، وكان عصره مزدهرًا ، قويا ، ها هو تحت الأرض ، مجهول للكثيرين ، وحقا .. لكم عجبت لشعبنا المصرى العظيم ،البناء هنا رائع والقبة هائلة ، ومع ذلك لا يقف أحد الزوار البسطاء ليقرأ الفاتحة خصيصا على روح أى سلطان مدفون . وإن فعل يقول « لا رواح موتى المسلمين عامة » ، ومع ذلك

فإن الجموع تتزاحم حول أضرحة الأولياء والمشايخ الذين يجلهم الناس ، إذا أردنا أن نعرف الفرق ، فلنزر القباب التى دفن تحتها السلاطين والأمراء ، مثل قايتباى وقلاوون ، وبرقوق ، والمؤيد ، والقباب المدفون تحتها الأولياء والمشايخ ، مثل الحسين ، والسيدة زينب ، يوم الجمعة الماضى مضيت إلى زيارة أمى وأبى – رحمهما الله – المدفونين على مقربة من سيدى الليث ، وسيدى عقبة ، وسيدى ذى النون ، والإمام الأعظم الشافعى ، انتهيت إليه ، جلست أمام ضريحه ، تحت قبة هائلة الجمال ، عظيمة البنيان ، مجمع للفنون الإسلامية كافة ، رحت أرقب الطائفين بالضريح ، وتطلع الرجال والنساء والأطفال . وتمسحهم بأعتابه ، على بعد متر واحد يقوم ضريح الملك الكامل ، والملكة شمس ، ولكن عبور الجمع أمامهما سريع ، أدركت إلى أى حد يجهل المثقفون منا شعبهم ، وأدركت إلى أى حد أفسدت النظريات علينا حياتنا إلى واقعنا الحقيقى . إلى علاقة الشعب المصرى الخاصة جدا ، والطويلة جدا بقديسيه ، فراعنة كانوا أو مسيحيين ، أو مسلمين .

وتحت قبة الإمام الشافعى ماتزال الحياة تتدفق ، ومجراها يسيل ، تحت قبة قايتباى يزداد الإحساس بالفناء والعدم ، ويبدو أن الملوك أدركوا ذلك ، فتوسلوا بالأولياء ليذكرهم الناس ، حتى إن بعضهم كان يُدفن عند قدمى شيخ فقير صالح اعتقد الناس فيه .

وعلى الطرف الآخر من القبة يوجد مربع داخله حجر أسود عليه أثر قدم ، يقال إنها أثر قدم سيدنا وشفيعنا محمد عليه الصلاة

والسلام ، وإلى هذا الأثر يسعى العشرات من البسطاء يوميا ، يقبلونه ، ويتبركون به ، وقد يلتفتون إلى السلطان الراقد تحت تربة من الرخام البارد .

كل ما فى القبة أصداء ورموز ، فالمكان رمز للأول وللآخر ، للبداية والنهاية ، للحياة وللموت ، الكلمات المكتوبة بخط عربى رائع متشابكة حول القبة ، آيات بينات ، النوافذ الملونة الموزعة على الارتفاع الشاهق ، هنا أجمل وأرق مجموعة من النوافذ ذات الزجاج المعشق بالجبس ، أحدها مستديرة ناحية الشرق ، زجاجها أصغر ، رمز للشمس ؟ ربما ، بعضها داخله أشجار خضراء ربما رمز لشجر الجنة ، فى الأعالى ست عشرة نافذة علوية شاهقة تنتظم حول القبة الدائرية . هناك فى أقصى الارتفاع أربع ، كل منها تواجد جهة أصلية من جهات العالم .

وعلى امتداد النهار ينفذ الضوء ، ولكنه لا يصلنا فى صورته الأصلية ، إنما يلامس الجدران ملونًا ، أتأمل البقع المتداخلة والتى لا يمكن تصنيفها ، فلا هى حمراء ولا صفراء ولا خضراء إنما هى ألوان لا وجود لمثلها فى العالم الحسى ، إنما هى شفرات يستعصى فكها لأنها باختصار .. ليست من عالمنا ..

هكذا يتحول الحجر إلى همسة . والخشب إلى صدى ، والكلمة إلى رمز ،والوجود كله إلى حلم ، يعلو على الضريح كرسى المصحف ، من الخشب المطعم بالعاج ، أما المصحف نفسه فيستقر

الآن فى مبنى دار الكتب المصرية المطل على النيل والمعروف بالهيئة المصرية العامة للكتاب .

أخطو تجاه الضريح ، أقرأ له الفاتحة ، فلم يكن قايتباى ظالما ، ولا غشوما ، هكذا عرفته من خلال تاريخه ، ومن أصدق من ابن إياس المعاصر له ، وحتى نقف على بعض من ملامحه لنستعيد بعضا منه ، خاصة البداية والنهاية .

* * *

فى كتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، يذكر السخاوى أن قايتباى ولد تقريبا سنة ثمانمائة وعشرين ، أحضره إلى مصر تاجر الرقيق محمود بن رستم لذلك لقب بالمحمودى ، اشتراه الأشرف برسباى سلطان مصر ، ثم انتقلت ملكيته إلى السلطان الظاهر جقمق الذى أعتقه ، وهكذا بدأ ارتقاء السلم المملوكى ، يذكر السخاوى أن بعض الشيوخ الكرام تنبئوا له بأنه سوف يصير ملكًا ، هكذا قال له المحب الطوفى ، ومحمد العراقى شيخ خانقاه سرياقوس الذى قالها صريحة فى وجهه : استفق فإنك الملك وكن من الله على حذر وإيقان . وتلك نبوءة تعرض للقتل ، فقد كان سلاطين المماليك يخشون الأمراء الأقوياء الذين يمكن أن يخلفوهم ، ويحاولون الاستيلاء على سلطنتهم تقول مصادر التاريخ : إن المنجمين قالوا للسلطان الغورى إن من سيخلفه على عرش مصر يبدأ اسمه بحرف السين ، وسرعان ما بدأ الغورى يتعقب الأمراء الأقوياء الذين تبدأ أسماؤهم بحرف السين ، ويعمل على تصفيتهم ، خاصة

سيباى نائب الشام ، ولكن الغورى لم يفكر قط فى سليم العثمانى الذى غزا مصر وحولها إلى ولاية تابعة للآستانة وقتل الغورى نفسه ! .

وقد رأى أحد الصالحين رؤيا أخبر عنها ، إذْ شاهد شجرة رمان عليها ثمرة واحدة فقط وقايتباى يمد يده ليقطفها . ولكن قايتباى أمره بكتمان ما رأى .. طبعا تحوطًا وحذرًا .

يقول ابن إياس : إنه فى رجب سنة ٨٧٢ هـ ، قرر الأمراء خلع السلطان تمربغا ، ومبايعة الأتابكى قايتباى وتلقب بالملك الأشرف ، وعندما تقدموا إليه بشعار الملك ، العمامة السوداء ، والجبة السوداء المطرزة بالذهب والسيف البداوى ، تمنّع وبكى ، وألبسوه الشعار غصبًا ، وهو يتمنع غاية التمنع .

هل كان تمنعه هذا ناتجًا عن رهبة حقيقية من المسئولية الجديدة ، أو أنه كان يتظاهر ؟ .

المهم أننى لاحظت أن الذين تمنعوا وبكوا من سلاطين المماليك هم الذين قضوا أطول الفترات فى الحكم ، أمضى قايتباى حوالى تسعة وعشرين سنة ، ومات على فراشه ، وهذا أمر نادر فى العصر المملوكى ، لم تقطع رأسه ولم يخوزق ولم يدس أحدهم السم له ، وكان عصره أزهى الأزمنة المملوكية ، وكان بداية النهاية أيضًا التى أكتملت عام ٩٢٢ هـ على يدى سليم العثمانى .

كان قايتباى سلطانا عظيما . يذكرنا بملوك مصر الأقدمين رمسيس الثانى ، وتحتمس ، وأحمس ، الحقيقة أن سلاطين المماليك

كانوا فراعنة مسلمين ، وأنا أقصد المضمون الثقافى والسياسى الذى استمر على امتداد التاريخ المصرى ، ولهذا تفصيل طويل ! .

* * *

أتطلع إلى القبر ، إلى الضريح الرخامى المهمل ، أستيعد صوت ابن إياس وهو يصف موكب توليه السلطنة :

« فلما ركب سار ومشت قدّامه الأمراء بالشاش والقماش ، وركب الخليفة عن يمينه ، وسار حتى طلع من باب سرّ القصر الكبير ، فلما طلع جلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء الأرض ، وذلك يوم الأثنين سادس رجب من السنة المذكورة ، قيل ولى الملك وله من العمر أربعة وخمسون سنة » .

يبدأ إذن عصر قايتباى ، وتصل الفنون فيه إلى مستويات رفيعة هذه القبة شاهد عليها ، هذا التناسق . هذه الرقة التى تعتبر طابعًا للمكان كله ، خلال سنوات حكمه بدأ قايتباى كبناء عظيم ، انتشرت منشآته فى مصر والشام والحجاز . ويضيق المجال عن حصرها ، لكن أهمها بلاشك هذا المسجد ، وقلعته الشهيرة فى الإسكندرية القائمة حتى يومنا هذا ، والتى قامت على أنقاض منارة الإسكندرية وإعادة بناء المسجد النبوى الشريف فى المدينة المنورة بعد الحريق الذى شبّ فيه ، ومازال البناء الذى شيده قايتباى يشكل النواة الأساسية للمسجد ولشخصيته المعمارية . فمنشآت قايتباى المعمارية عديدة وهامة ، كثيرة تفاصيل الأحداث التى تخللتها مدته ، ونصل إلى النهاية مع ابن إياس إذ يقول :

« فلما كان يوم الأحد سابع وعشرين ذى القعدة من سنة إحدى وتسعمائة . فيه كانت وفاة الملك الأشرف أبى النصر قايتباى المحمودى الظاهرى ، توفى إلى رحمة الله تعالى فى ذلك اليوم بعد العصر وبات بالقلعة ، وأخرج صبيحة يوم الاثنين ثامن عشرينه فتوفى وله من العمر نحو من أربعة وثمانين سنة ومات بعلة الدبلة ، واعتراه علّة البطن أيضا ، وامتنع عن الأكل مدة انقطاعه حتى مات .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية تسعة وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحدا وعشرين يومًا ، بما فيه من مدة انقطاعه عند توعك جسده .

يقول ابن إياس إنه عاش عمره كله وهو فى عز وشهامة ، من حين كان خاصكيا إلى أن بقى سلطانًا ولا نفى قط ، ولا تقيد ولا سُجن ، وكان عليه سكينة ووقار ، مهاب الشكل فى العيون ،جميل الهيئة ، مبجلاً فى موكبه ، كفوا للسلطنة ، وافر العقل ، سديد الرأى ،عارفًا بأحوال المملكة ،يضع الأشياء فى محلها .

حسنًا يا شيخنا العظيم ابن إياس .. فلتستمر فى سردك ، ولأقرأ أنا الفاتحة على روح السلطان الذى دونت هذا عنه ، فقد أصبح تحت تراب هذه القبة .وأنت أيضا فى مكان ما من هذه الأرض ، مازلت أجهله ولم أستدل عليه ، لكننى أترحم عليك قبل تأهبى للصعود إلى المئذنة ، وأقرأ على روحك الفاتحة ، فكلنا مصيرنا إلى هذه الرقدة الأبدية وحسن الحظ من سيذكره الناس يوما ، ومن أجل هذه الذكرى قامت هذه القبة ، وذلك المسجد ، وانتظمت هذه الفنون كلها .

كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ

ما من مرة افترشت فيها صحن مسجد . إلا وتعلق بصرى بالمشكاوات الزجاجية المتدلية من السقف . والتى تنافس الفنانون المسلمون في تجميلها ، وزخرفتها ، بحيث أصبح لها حضور خاص بين سائر الأوانى المصنوعة من الزجاج . ألم ترد فى القرآن الكريم ؟ .

أتطلع إلى تلك الآنية ذات الخصر الأضيق ، مرتلاً فى وعيى الآية الكريمة فى (سورة النور) وهى قوله تعالى :

﴿ اللهُ نورُ السموات والأرض ، مثلُ نوره كمشكوة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مُبَاركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نارٌ نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثَال للناس والله بكل شىء عليم ﴾ . [الآية : ٣٥] .

وكثيرا ما أشرق أو أغرب في المكان ، وفجأة أجد نفسى مرتلا هذه الآية الكريمة . مستعيدًا أشكالا مختلفة من المشكاوات .

من اللغة إلى الصناعة

والمشكاة لفظ عربى أصيل ، يعنى كل كوة فى الجدار غير نافذة ، سواء كانت معقودة أو مقعرة ، نصف دائرية أومتوازية المستطيلات ، حتى الآن نراها فى القصور أوالمساجد أوبيوت الريف البسيطة ، تغور

فى الجدار كتجويف قد يبطن بالفسيفساء أو الرخام أويصبح مجرد تجويف فى جدار بسيط من الطوب اللبن ، توضع فيها تحف أوقناديل ، وكثيرا ما تتخلل الجدران الخارجية بغرض الزخرفة .

ثم امتد اللفظ ليشمل كل زجاجة أو قنديل الذى يوضع فيه المصباح ، وكانت وظيفته حفظ النار من هبات الرياح ، وتحويلها إلى ضوء مشع ينتشر فى المكان .

المصباح يوضع داخل المشكاة ، يثبت إليها بواسطة سلوك تمتد من الحافة إلى القلب ، أما المشكاة نفسها فتعلق بواسطة سلاسل تتصل بالسقف أو عوارض تمتد فى فراغ المسجد ، وتلتف حول بدن المشكاة ، أحيانا كانت هذه السلاسل من الذهب أو الفضة فى القصور ، أما الآن فلا نراها مصنوعة إلا من الحديد .

وتشبه المشكاة فى شكلها العام إناء الزهور ، فهى ذات بدن فسيح ينساب إلى أسفل ، وينتهى بقاعدة لها رقبة على هيئة قمع متسع وألوانا بين الأخضر والأحمر والأبيض والوردى ، وتتصل صناعة المشكاوات بصناعة عريقة فى القدم وهى صناعة الزجاج .

الزجاج الإسلامى ..

يذكر المؤرخ الفينيقى بلينى أن تجارا فينقيين خيموا على شاطئ نهر بيلوس وطهوا طعامهم على قطع من النطرون كانت معهم ، وفى الصباح وجدوا أن الرمل والصودا اللذين تتكون منهما تلك القطع قد اتحدا وكونا مادة زجاجية . وهكذا عرف الإنسان الزجاج ..

لكن يثبت الواقع أن الإنسان قد عرف الزجاج منذ حقب بعيدة ، ويحدد علم الآثار الجديد ثلاثة مراكز فى الشرق كانت أول من صنع الزجاج ، مصر . والشام . والعراق . وفى العصر الإسلامى شهدت الصناعة تطورًا كبيرًا ، خاصة فى الحقبة المملوكية . وورث الصناع خبرة طويلة تمتد إلى آلاف السنين . وكانت الحقبة المملوكية ذروة هذا الفن ، وفيها تطورت أساليب النفخ واستخدام القالب والزخرفة بالإضافة إلى القطع والطبع والتهذيب والتلوين والبريق المعدنى .

يقول الدكتور حسن الباشا إن الصناع المصريين والسوريين ورثوا التقاليد القديمة فى عصر الأيوبيين والمماليك ، وساروا بها نحو الكمال .

وفى العصر المملوكى تفوق صناع الزجاج فى فن تمويه الزجاج بالمينا والذهب ، واستخدموا هذه الطريقة فى زخرفة كثير من الأوانى الزجاجية المختلفة كالأكواب والقنينات والكؤوس والصحون وغيرها . وكانت زخارفهم للمشكاوات تتم بهذه الطريقة . ولكن الأمر بالنسبة لهذه الآنية بالذات يختلف ، إذ كان الشعور الدينى العميق يتجلى فى مدى العناية بها ومحاولة الوصول بها إلى ذرى الفن الإنسانى ، ألم يرد ذكرها فى القرآن الكريم ؛ هذا الشعور الذى يرقق الزخارف والألوان نجده فى سائر الفنون التى لها صلة بدور العبادة عامة ، وفن زخرفة وكتابة المصاحف . لم يكن الفنان المسلم يمارس صناعته كعمل مجرد ، ولكن باعتباره نشاطا وثيق الصلة بعالمه الروحى ، بإنسانيته .

من هنا كان للمشكاة موقع خاص ، لأن القرآن الكريم ذكرها ،

لأنها شبهت بالكوكب الدرى ، ولأن موقعها دائما بأعلى ، فإذا تطلع الإنسان إليها فإنما يتطلع إلى السماء فى نفس الوقت ، ولأنها أيضا مصدر النور الذى ذكره البارئ تعالى ، والذى يعبر عن مضمون سورة كاملة فى القرآن الكريم ..

نماذج مشهورة

وصل إلينا من العصر المملوكى عدد كبير من المشكاوات الرائعة ، تتوزع الآن على متاحف العالم . إنها أبرز ما نراه فى الأقسام المخصصة للفن الإسلامى . فى برلين ، فى الأرميتاج ، فى اللوفر ، ولكن متحف الفن الإسلامى فى القاهرة يحتفظ بمجموعة نادرة .

وما يلفت نظرنا ليس شفافية الزجاج وصفاء ألوانه ، وإنما نرى زخارف مستوحاة من عالم النبات ، وكتابة عربية ، هذه الكتابة إما دينية ، أو تذكارية أو تاريخية .

الأولى : تشمل آيات من القرآن الكريم ، وكثيرا ما تكتب الآية الكريمة التى تذكر فيها المشكاة ، والواردة فى سورة النور ، أو الآية الكريمة ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ ، أو آيات أخرى ، أما الكتابات التذكارية على المشكاوات فتتضمن حقائق تاريخية واجتماعية قد تساهم أحيانا فى إثراء مصادر التاريخ . إذ تحوى اسم من أمر بعمل المشكاة نفسها ، وقد يلحق بالاسم وظيفة صاحبه ، وتاريخ الصنع ، ودعاء له ،

والمكان الذى صنعت فيه المشكاة ، وأحيانا ، نجد اسم الصانع متواريا ، وبأصغر حجم ممكن .

الكتابة

وتحيط الكتابة بدن المشكاة على هيئة شريط عند الرقبة أو القاعدة ، وجميع المشكاوات التى وصلت إلى زماننا من العصر المملوكى كُتبت بخط فخم جميل يعرف بالخط النسخ المملوكى وهو قريب من خط الثلث ، وكان قد احتل مكانة الخط الكوفى القديم بدءًا من القرن السادس الهجرى ، وبلغ ذروة جماله فى السابع الهجرى .

وكثيرا ما نرى الكتابات على المشكاوات تتخلل زخارف نباتية أو العكس ، مستوحاة من أوراق الغصون والأزهار ، وهذا أسلوب شائع فى الكتابة العربية عندما يمتزج الخط والحرف بالغصن والزهرة . ففى المشكاوات يتحقق أقصى قدر من المهارة التى تحقق التوازن بين النبات والخط .

وأحيانا تتخلل شرائط الخط العربى ، دوائر تحمل رنك السلطان ، أو الأمير ، أو الشخص الذى أن بصنع المشكاة . والرنك أى الشعار أو العلامة التى يتخذها صاحب سلطة معينة للدلالة على نفسه وما يتمتع به من قوة أو نفوذ ، ولكن هذا لا يحتل إلا أضيق المساحات فى ذلك الجسم الزجاجى ، الجميل التكوين البديع النسب ، الذى يشع منه الضوء ، وفى السنوات الأخيرة لاحظت

دبيب الحيوية فى صناعة المشكاوات ، حيث تقدم بعض محلات التحف الشرقية نماذج منها تستوحى الميراث الطويل ، ومن أشهر الفنانين الذين يكتبون الآيات القرآنية والأدعية عليها الآن . الفنان المصرى محمد أباظة ، وبعض الأثرياء الجدد يزينون بها الآن غرف استقبالهم ، أو ردهات بيوتهم ، ولكن تظل المشكاة مرتبطة أبدا بالمسجد ، فمن سقفه تتدلى ، وفى فراغه يضىء النور منها سواء كان مصباحا تقليديا فى القديم أو كهربائيا فى زماننا ، مرسلا إشعاعه مذكرًا دائما بالمشكاة ، كأنها كوكب دُرى .

يا مفتح الأبواب افتح لنا خير باب

عام ثمانية وثمانين وتسعمائة وألف ، نزلت مدينة بولونيا الإيطالية للمشاركة فى دورة الجامعة العربية - الأوروبية والتى عقدت فى المدينة القديمة التى كانت تحتفل بمرور تسعة قرون على تأسيس الجامعة التى درس بها دانتى وعدد من مشاهير النهضة الأوروبية ، وفيها درست مؤلفات ابن رشد الفيلسوف العربى العظيم .

من المغرب جاءت الفنانة التشكيلية لطيفة التيجانى ، وقدمت عرضًا ممتعًا لأبواب مغربية من خلال عشرات الشرائح الملونة التى التقطتها لبوابات ملكية وأخرى شعبية ، والحق أنها لفتت النظر إلى أحد عناصر الجمال فى العمارة العربية عامة ، والمغربية خاصة .

كانت الأبواب التى عرضتها تحشد كافة عناصر الجمال الفنى الرفيع ،أليست أول ما يعرفه الإنسان من البناء ، ولفت نظرى العبارات المطمئنة المكتوبة عليها .

« يا مفتح الأبواب افتح لنا خير باب »

﴿ ادخلوها بسلام آمنين ﴾

إلى غير ذلك بعكس البوابات الأوروبية القديمة والتى مررنا أمامها فى تلك الأيام . فى بولونيا . أو فلورنسا . أو روما ، بوابات جهمة ، تصد ولا تدعو ، تخيف ولا تطمئن . فيها تهديد ، المقابض عبارةعن رؤوس شياطين ، أو حيوانات مفترسة ، أو عبيد سود مكشرين عن أنيابهم ، إذن ثمة رؤية ونظرة وراء كل جانب ، منذ زيارتى تلك صرت أكثر اهتمامًا بالأبواب ، أبواب المدن ، المساجد ، البيوت ، المنشآت العامة ، وكل من هذه الأبواب يحتاج إلى وقفة ، لكن لنبدأ من مفهوم الباب بشكل عام .

البداية

مثل مطلع القصيدة الذى يجب أن يكون جميلا ، معبرًا ، دالاً على المضمون ، مثل المقدمة الموسيقية التى تمهد للألحان المتوالية كذلك الباب فى العمارة العربية .

إنه المدخل فى سور المدينة ، أو واجهة القصر ، أو البيت ، أو داخله بين الغرف ، كذلك يطلق على مدخل المنبر والخزائن ، وقد يغلق الباب بمصراع واحد ، أو اثنين ، وليس صدفة أن بيت الشعر العربى ينقسم إلى شطرين كل منهما اسمه مصراع . هذه المصاريع تختلف أشكالها طبقا لأغراضها ، فإذا كانت عند مداخل المدن ، تبدو ضخمة ، سميكة ، يغطى خشبها بالحديد ، يعكس مظهرها القوة ، يبدو ذلك فى بوابات المدن ، مثل باب الفتوح ، والنصر وذويلة ، البوابات الثلاث المتبقية من سور مدينة القاهرة القديم .

أما إذا كانت عند مداخل المساجد فإننا سوف نرى ذروة الفن الإسلامى ، هكذا يغطى الخشب بالنحاس المشغول ، المنقوش بدقة ورقة تستهدف الوصول بالمادة إلى حالة من التلاشى والشفافية . أحيانا تكون المصاريع من خشب الساج الثمين المطعم بالعاج ، أو المغطى بصفائح الفضة والذهب كما نرى فى المراقد المقدسة بالنجف وكربلاء وبغداد ، أما أبواب المنازل فتنافس فى الدقة وإبراز الزخارف المتخذة من الخشب ، أو المغطاة بالمعادن ، ولكم توقفت أثناء سعيى فى القاهرة القديمة ، أو المدن العربية التى زرتها ، أمام باب جميل لسبيل ، أو مسجد يتوارى وسط الزحام وضجيج الحياة اليومية ، كنز من الجمال الحقيقى .

التفاصيل

تفنن الصناع العرب فى العناية بأجزاء الأبواب ، بدءا من المصراعين ، إلى المطارق ، سوف نرى مطارق على هيئة أيدى مضمومة ، أو على هيئة نجمة مخمسة ، أو على هيئة قلب تتوسطه آية قرآنية ، كذلك المزاليج والمفاتيح والمفصلات الحديدية ، والمسامير ذات الرؤوس الكبيرة الموزعة بشكل مدروس وفى تناسق بديع ، وقد قام صناع الخشب بتقطيعه إلى أجزاء صغيرة ، وتكوين أشكال هندسية رائعة منها . وتشبيك بعضها ببعض ، مما يرفع عدد القطع التى يتألف منها المصراع الواحد أحيانا إلى المئات ، وكلها مخرمة

محفورة ، ومطعمة بمواد مختلفة من العاج والنحاس إلى المعادن الثمينة .

تذكر وقائع التاريخ أن المسجد الأقصى أصيب بزلزال قوى عام ١٣٠ هـ/ ٧٤٧ م ولم يكن فى خزانة أبى جعفر المنصور ما يكفى لإعادة تعميره ، فأمر بنزع صفائح الذهب والفضة التى كانت على الأبواب وضربها دنانير ودراهم ورمم بها ما تهدم .

يتألف الباب عادة من صندوق أو إطار يثبت فى الجدار ، وحاجب يخفى خطوط الالتصاق بين الحائط والباب ، وقد يتكون الباب من مصراعين أو أكثر طبقا لاتساع المداخل ، والمصراع يتكون من إطار وعوارض تتخللها حشوات منجمة أو مضلعة تصغر أو تكبر طبقا للإمكانيات المتاحة . وللباب عتبة عليا تسمى (الساكف) وسفلى هى (الإسكفة) .

وفى المنازل القديمة ، كان الباب لا يؤدى إلى صحن المنزل مباشرة ، إنما يؤدى إلى مدخل صغير له باب يتعامد على الأول بحيث لا يمكن للمار فى الطريق أن يرى داخل البيت ، ويبدو هذا واضحا فى بيت السحيمى القاهرى الذى بنى فى القرن السادس عشر ، والمسافرخانة ، وقد لاحظت نفس التصميم فى البيوت المغربية العريقة ذات الطابع الأندلسى الصميم ، هنا نجد التصميم يحترم خصوصية الحياة الإنسانية ، ولكن فى المساجد نرى الأبواب مفتوحة دائمًا ، تؤدى مباشرة إلى الصحن المخصص للصلاة حتى لو كانت هناك ممرات مؤدية ، أو مداخل تمهيدية ، أبواب البيوت الخاصة تتعامد لتحجب ، ولكنها

لا تصد مثل البيوت الأوروبية التى تنذر أبوابها وتهدد ، وفى نفس الوقت يحرص صاحب البيت العربى على كتابة بعض العبارات المطمئنة التى تعلن الترخيب بالزائرين والقادمين . المهم فى المدخل أن يكون جميلا ، سواء كان البيت ثريا أو فقيرا ، وقد رأيت فى بعض البيوت الفقيرة بالقرى المغربية أبوابا تفنن أصحابها فى تجميلها ، أما أبواب البيوت النوبية فى جنوب مصر فقطع فنية متكاملة ..

أبواب خاصة

تتعدد الأبواب فى جدران المساجد ، فى مسجد ابن طولون نجد تسعة عشر بابا ، وفى المسجد الأزهر عدة أبواب ، منها ما عرف باسم طائفة معينة كانت تجلس خارجه ، مثل باب المزينين ، أو باب العميان ، أما أروقة الطلبة فلكل منها باب خاص به .

طبعا الغرض من تعدد الأبواب فى المنشآت الدينية الكبرى هو تسهيل حركة المصلين فى الخروج والدخول ، خاصة فى الأعياد والمناسبات ، ونلاحظ أن هناك بابا خاصا للخليفة أو السلطان ، مخصص لدخوله وخروجه ، وهذا معمول به حتى العصر الحديث .

أذكر أننى زرت المستشرق الفرنسى أندريه ميكائيل عندما كان مديرا للمكتبة الوطنية فى باريس ، وعند انصرافى أصر على أن يصحبنى عبر باب جانبى مخصص له ولكبار الزائرين .

فى القصور القديمة والبيوت أيضا نجد مثل هذه الأبواب الخاصة ، وهناك ما يعرف بباب السر ، وهذا باب خاص جدا ، يمكن استخدامه

عند حالات الخطر وكم من سلاطين مماليك عبروا هذا الباب فى القلعة عند اقتراب الثائرين ، وخرجوا منه إلى الخلاء .

وهناك أبواب مصمتة لا تؤدى إلى شىء ، وأقدم نماذجها تلك التى نراها فى المقابر الفرعونية القديمة ، حيث لا تخلو مقبرة من باب وهمى ، يقال إنه مخصص لتضليل اللصوص ، وإن كنت أشك أنه يخفى غرضًا دينيا .

ثمة أبواب مشهورة فى المدن العربية ، أصبحت أسماؤها دالة على أحياء بأكملها ، مثل باب الفتوح فى القاهرة ، وباب الوداية فى الرباط ، والباب الشرقى فى بغداد ، وفى الجغرافيا أصبح للبحار أيضا أبواب ، مثل باب المندب ، المدخل الجنوبى للبحر الأحمر .

* * *

التسامح .
في طوبغرافية القاهرة

« امتزجت حياتى بالقاهرة واتحدت ، أيام عمرى توزعت على شوارعها وحاراتها ونواصيها ومساجدها وأسبلتها وخانقاواتها وبيوتها المتجاورة فى المكان ، التى وصلت من أزمنة مختلفة .

هكذا يكون تجوالى فيها بحثًا عن دفائن ذاكرتى وخباياها وما فقدته من لحظات حميمة عبر مرور الأيام بى أو مرورها بى .

القاهرة الآن مدينة شاسعة المساحة ، يعيش فيها أكثر من خمسة عشر مليونًا من البشر ، تتجاور فيها الأزمنة التاريخية ، المختلفة ، ما قبل التاريخ فى المقطم والمعادى . الفرعونى فى الجيزة ، القبطى فى مصر القديمة . الإسلامى الذى يشكل إطارًا لهذا كله . مركزه ما يعرف بالقاهرة الفاطمية أو المدينة القديمة . فى هذه المدينة عشت ، نشأت وتعلمت وتأملت وما تزال حتى الآن مرجعى الأول والأخير حتى بالنسبة لدقائق الأمور » .

بعد الفتح العربى لمصر عام ٦٤١ ميلادية أسس العرب أول مدينة إسلامية والتى عُرفت باسم الفسطاط ، كان الفسطاط الذى ضربه القائد الفاتح عمرو بن العاص على بعد أمتار قليلة من حصن

بابليون الرومانى ، ومجموعة الكنائس القبطية الشهيرة فى المنطقة المعروفة الآن . بمار جرجس حيث توجد أشهر الكنائس القديمة فى مصر ، وهى الكنيسة المعلقة ويرجع تاريخها إلى أواخر القرن الرابع الميلادى ، وإلى نفس الحقبة يرجع تاريخ كنيسة أبى سرجة ، وكنيسة القديسة بربارة ، وهذه الكنائس إضافة إلى المتحف القبطى تعتبر من أهم المزارات التاريخية والسياحية الآن فى القاهرة .

فى نفس المنطقة التى بنى فيها الفاتح العربى ، والقائد المسلم عمرو بن العاص أساس أول مدينة إسلامية ليس فى مصر فقط ولكن فى أفريقيا كان يوجد عدد من معابد اليهود الهامة . ويذكر المؤرخ الذى صان تاريخ القاهرة القديم من الاندثار ، المقريزى ، الذى عاش فى القرن الخامس عشر الميلادى ونقل عن مصادر قديمة لم تصلنا ، يذكر عدد من المعابد اليهودية فى الفسطاط منها معبد « المصاصة » الذى بنى قبل الفتح الإسلامى ، يقول المقريزى عنه :

« هذه الكنيسة يجلها اليهود وهى بخط المصاصة من مدينة مصر ويزعمون أنها رممت فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وموضعها يعرف بدرب الكرمة ، وبنيت فى سنة خمس عشرة وثلثمائة للإسكندرية وذلك قبل الملة الإسلامية بنحو ستمائة وإحدى وعشرين سنة ويزعم اليهود أن هذه الكنيسة كانت مجلسًا لنبى الله إلياس » ..

يحدثنا المقريزى عن معبد (أو كنيسة كما يسميه) الشاميون بخط قصر الشمع بالفسطاط ، ومعبد العراقيين .

عندما تم فتح مصر على أيدى العرب المسلمين كان أهل مصر من المسيحيين واليهود ، الغالبية من المسيحيين ، وأقلية من اليهود ، وكانت كلمة « قبطى » تطلق على جميع المصريين ، ثم أصبحت تعنى بعد ذلك المصريين المسيحيين ، لقد عقد صلح بين المصريين والفاتحين الجدد ، وأعلن أمان يكفل للمصريين من المسيحيين واليهود ممارسة حرية العبادة في الكنائس والمعابد ، ويشمل الأمان أنفسهم وأموالهم وأراضيهم ، كان عمرو بن العاص وهو يمنح المصريين هذا الأمان يعبر عن جوهر الدين الجديد من تسامح وسمو روحى ، وقد ظل هذا جوهر الدين الإسلامى فيما تلي ذلك من عصور ، عندما زرت الأندلس والمجر ويوغسلافيا وبلغاريا رأيت عددًا من المساجد التى تمت إلى الزمن العثمانى يعلوها الصلبان ، فى الأندلس جرت محاولات لطمس الملامح المعمارية الإسلامية ، وجدت أيضًا الكنائس القديمة السابقة على دخول المسلمين تلك الديار سليمة لم تمس ، كذلك الآثار الرومانية . لم تتعرض للتدمير على أيدى العرب أو الأتراك المسلمين ، فى مصر لم تمس الكنائس القبطية ، أو المعابد اليهودية فى أول مدينة يشيدها العرب المسلمون ، الفسطاط ، ولم يقتصر الأمر على المنشآت الدينية فقط ، إنما امتد الأمان والتسامح إلى رجال الدين ، إلى الأموال ، إلى البشر .

هكذا .. ظهر البطرك القبطى بنيامين الذى اختفى قبيل وصول قيرس حاكم مصر من قبل الإمبراطور البيزنطى هرقل إلى الإسكندرية

سنة ٦٣١ ميلادية ، عندما علم عمرو بن العاص باختفائه أرسل كتابًا إلى جميع أقاليم مصر يؤمنه فيه على نفسه ويدعوه للظهور حتى يشرف على شئون القبط ، وفعلاً عاد البطرك إلى مقره فى الإسكندرية بعد اختفاء استمر ثلاثة عشر عامًا .

« ونتيجة لعوامل عديدة منها أصالة الإسلام ، وتسامحه ، وقدرته على استيعاب الحضارات القديمة وتكييفها وإعادة تقديمها ، ومنها قدرة مصر على استيعاب الوافد ، وتمصيره ، لم ينقسم الشعب المصرى إلى طوائف منعزلة عن بعضها ، متباعدة أو منغلقة على نفسها بعد دخول أعداد كبيرة من المصريين فى الدين الجديد ، لقد ظل المصريون وحتى الآن جماعة واحدة ، متداخلة ، متجانسة ، منهم المسلم ، ومنهم القبطى ، ومنهم اليهودى . وانعكس ذلك على شتى مظاهر الحياة ، وبالتحديد طوبغرافية القاهرة التى لم تعرف على امتداد تاريخها التمايز فى المناطق السكنية ، حيث تخلو تماما من وجود مناطق أو أجزاء مغلقة على سكان ينتمون إلى دين معين أو جنس ما ، هناك تداخل وتجانس فى المدينة كلها ، وإذا كنا بدأنا من الفسطاط حيث الكنائس العتيقة ما تزال فى مواقعها العتيقة ، تتلامس فى الفراغ ظلال أبراجها التى ترفع الصلبان مع مآذن المساجد التى تنتهى بالهلال ، ومنها مئذنة أول مسجد فى مصر . وفى أفريقيا كلها ، مسجد عمرو بن العاص » .

لقد استمر التسامح هو القانون العام ، والمنطق الأول لتدفق الحياة فى المدينتين التاليتين ، العسكر التى أسسها الخلفاء العباسيون

القطائع التى أسسها أحمد بن طولون ، العسكر والقطائع الآن أحياء صغيرة فى المدينة القديمة ، القاهرة التى وضع أساسها جوهر الصقلى القائد الفاطمى ، بالتحديد فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هجرية (٦ يوليو ٩٦٩ ميلادية) . لقد نمت عاصمة الفاطميين واتسعت واحتوت كافة المواضع والمدن التى سبقتها ، وأصبحت العواصم السابقة مجرد مناطق صغيرة من مكوناتها ، بدءا من منف الفرعونية ، وبابليون الرومانية ، والفسطاط والقطائع والعسكر الإسلامية ، هكذا احتوت القاهرة الأزمنة المختلفة وحولتها إلى عناصر فى زمنها الخاص ، وهذا جوهر وقتى الخاص أيضا ..

قصر الشوق

دير للأقباط اسمه دير العظام .

بستان

حصن صغير قديم ، كان معروفًا باسم « قصر الشوق » .

هذا ما كان موجودًا فى تلك المنطقة الممتدة قرب جبل المقطم والتى أرسى فيها جوهر الصقلى أساس المدينة الجديدة ، القاهرة .

حصن « قصر الشوك » اختفى ، بقى منه الآن الاسم فقط ، أصبح « قصر الشوق » إنه اسم شارع شهير بالجمالية . ويحمله أيضًا الجزء الثانى من ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة . حارة صغيرة اسمها « درب الطبلاوى » تتفرع من شارع قصر الشوق . فى أحد بيوتها أمضيت طفولتى وشبابى .

« يوم ما .. لا يمكنني تحديد موقعه الآن ، لا من مسيرة الزمن ، ولا من عمرى ، أذكر خروجى بصحبة أبى لزيارة أحد أبناء بلدتنا جهينة التى ولدت بها فى أعالى الصعيد ، إنه قبطى ، مازلت أذكر اسمه ، « فخرى غورس » ، كان تاجرًا ، يمتلك متجرًا يبيع فيه الثوم والليمون والزيتون بالقرب من مسجد الحاكم بأمر الله ، أذكر زيارتنا له في بيته مهنئين بأحد أعياد المسيحيين ، لا أذكر اسم العيد ، ولكننى أذكر أنه قدم إلينا طبقا من البسكويت والكعك الذى يقدمه المسلمون فى عيد الفطر ، كعك العيد الذى كانت تسهر والدتى - رحمها اللّه - الليالى الأخيرة من شهر رمضان لإعداده ، إنه نفس الكعك المحشو بالملبن أو البلح والمغطى بالسكر الناعم ، ويُقال إن المصريين عرفوه لأول مرة فى العصر الفاطمى ، لقد عرف المجتمع المصرى أعيادً للأقباط وأعيادًا للمسلمين وأعيادًا لليهود ، كل عيد اتصف بمظهر وتقاليد معينة ، ونلاحظ احترام كل عنصر للآخر ، بل والحرص على المشاركة ، وهناك أعياد يحتفل بها المصريون جميعًا وهذا موضوع يحتاج إلى دراسة مستقلة . غير أننى أشير إلى شهر رمضان الكريم وحرص جيراننا الأقباط على احترام شعور إخوانهم المسلمين ، بل تناول الوجبة الرئيسية داخل بيوتهم بعد الغروب ، والحرص على تقديم التهنئة للجيران المسلمين فى عيد الفطر وعيد الأضحى ، وأذكر أثناء ترحالى فى صعيد مصر مشاركة المسلمين بأعداد كبيرة فى موالد « العذراء » التى تقام بالأديرة القبطية ، وفى تقديرى أن

هذه الموالد تحوى الكثير من العناصر المنحدرة إلينا من العصر الفرعونى .

من درب الطبلاوى بقصر الشوق كنت أخرج بصحبة الوالد إلى ميدان سيدنا الحسين إلى المسجد الأزهر ، إلى باب زويلة ، وكثيرا ما كنا نعبر منطقة الباطنية ، ونمر فى قلب المنطقة المزدحمة ، العامرة بالبيوت ، والمساجد ، وأضرحة أولياء الله المسلمين .. نمر أمام كنيسة عتيقة ، مهيبة المظهر . وكثيرا ما تطلعت إليها ، وعندما تقدم بى العمر ، ورحت أجوس خلال المدينة بمفردى ، إما فى شوارعها أو زمنها ، كنت أفكر فى تاريخ هذه الكنيسة ، وموقعها الفريد ، القريب من الجامع الأزهر ، وشيئا فشيئا تتكشف إحدى المعالم القوية ، الثابتة ، للتسامح فى قاهرتنا العريقة .

الكنائس ..

يذكر المقريزى فى كتابه الموسوعى « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، المعروف بالخطط المقريزية سبعة عشر كنيسة قبطية فى القاهرة ، موزعة على جميع أنحاء المدينة ، ولا تتركز فى منطقة واحدة ، بل نلاحظ أن معظمها يقع فى قلب المدينة وجنبا إلى جنب مع المساجد الكبرى ، من الكنائس التى ذكرها المقريزى :

كنيستا الخندق وكنيسة حارة زويلة ، وكنيسة المغيثة بحارة الروم ، وكنيسة بومنا وكنيسة المعلقة وكنيسة شنودة وكنيسة مريم

وكنيسة بوجرج وكنيسة بربارة وكنيسة بوسرجة وكنيسة بابليون وكنيسة تادرس الشهيد وكنيسة بومنا بجوار بابليون وكنيسة بومنا وكنيسة الزهرى وكنيسة ميكائيل وكنيسة مريم .

وفى خطط على باشا مبارك المكتوبة فى القرن التاسع عشر ، يذكر على باشا مبارك ثمانية وعشرين كنيسة إذا تأملنا مواقعها سوف نجد أنها تغطى المدينة من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها .

- كنيسة الأرمن ، بوسط شارع بين السورين .
- كنيسة الأرمن الكاثوليك ، داخل عطفة الأحمر بدرب الجنينة .
- كنيسة الأروام ، وهى بشارع الحمزاوى على يمين المار من الحمزاوى إلى الوراقين (ما تزال موجودة وتبعد عن الجامع الأزهر أقل من نصف كيلو متر) .
- كنيسة الأروام : داخل حارة الروم من شارع السكرية .
- كنيسة الروم : داخل عطفة البطريق بحارة الروم .
- كنيسة خميس العدس : بجوار مدرسة الفرنساوية بآخر شارع خميس العدس .
- كنيسة درب الطباخ : بشارع حارة اليهود .
- كنيسة الدير : داخل عطفة الدير بشارع وكالة الصابون .
- كنيسة السريانى : داخل درب قطرى من درب الجنينة .

- كنيسة السبع بنات : آخر حارة الدحديرة الموصلة لشارع كلوت بك .
- كنيسة الشوام : داخل عطفة البحرى بدرب الجنينة .
- كنيسة القبط : بحارة زويلة .
- كنيسة القبط : داخل عطفة من شارع الدرب الواسع الموصل لشارع كلوت بك .
- كنيسة القبط : أول درب المواهى من شارع حارة الحمام بقرب حارة السقائين .
- كنيسة الموارنة : داخل درب الجنينة .

ثم يذكر كنائس أخرى بالخرنفش ، وشارع الدهان ، ودرب المبلط وشارع الدروة ودرب الكتان ، ودرب النصيرى . وشارع الصقالبة ، وداخل حوش الصوف ، وفى عطفة المصريين ، وداخل حارة البرابرة بالموسكى . ويتحدث علي باشا مبارك مطولاً عن مقر البطريركية الأرثوذكسية بمنطقة الأزبكية والتى شيدت عام ١٨٠٠ ميلادية ، ويوجد مقر البطريركية الآن فى العباسية ، وهذا المقر المهيب اختار موقعه وتبرع بتكاليفه الزعيم الراحل جمال عبد الناصر فى الستينات ، ونلاحظ أن المقر البطريركى الحالى أو القديم فى الأزبكية أو الأقدم فى حارة الروم ، فى كل هذه الحالات والعصور كان المقر قائمًا فى منطقة لا توجد بها أغلبية قبطية ، بالعكس .. ذلك أن القاهرة لم تعرف كما ذكرت الأحياء

أو المناطق المغلقة على طائفة واحدة ، أو أصحاب دين واحد ، ذلك أن المجتمع المصرى كان مجتمعا يعيش فيه المصريون كجماعة واحدة ، داخلها مسلمون وأقباط ويهود ، ويكفى أن نراجع مرة أخرى مواقع دور العبادة والقائمة حتى الآن لنتأكد من هذه الحقيقة .

المعابد ..

« فى قلب القاهرة الفاطمية توجد منطقة اسمها حارة اليهود ، تقع غرب خان الخليلى السوق الشهيرة ، وعلى بعد أقل من نصف كيلو متر من مسجد الإمام الحسين ، المركز الروحى ليس للقاهرة فقط وإنما للقطر المصرى كله ، تتكون حارة اليهود من أزقة صغيرة متداخلة ، بها عدد كبير من المتاجر التى تصنع التحف الصغيرة ، خاصة الفضية والذهبية ، وعلب القطيفة ، والصناعات الدقيقة اليدوية ، ومع أن الحارة اسمها حارة اليهود ولكن لا يمكن اعتبارها بمثابة (جيتو) لليهود ، أو (ملاح) كما تسمى أحياء اليهود فى المغرب العربى ، والتى تمتد إلى جوار القصر الملكى مباشرة رمزًا لحماية سلطان المغرب المسلم للأقلية اليهودية .

حارة اليهود فى القاهرة ليست مغلقة على اليهود فقط ، سواء فى العصر الفاطمى ، أو المملوكى ، أو العثمانى ، أو .. الحديث » .

تماما مثل المساجد والكنائس المسيحية تتوزع المعابد اليهودية على القاهرة ، وحتى عام ١٩٣٠ كان فى القاهرة نحو ٣٠ معبدًا

ومخفلاً تنتمى إلى مجموعات ومجتمعات متباينة ، يهود مغاربة وأتراك ، ويهود من أصول إيطالية ، وأسبانية ، وفرنسية ، إلى جانب اليهود المصريين الذين كانوا منذ القدم جزءا من المجتمع المصرى .

وأكبر معابد القاهرة الآن يوجد الآن فى شارع عدلى ، شيدته عائلة موصيرى عام ١٩٠٣ ، ويعتبر من أجمل المعابد معماريًا والشعائر لم تنقطع به قط منذ إنشائه ، أما حارة اليهود فتضم عددًا من المساجد والكنائس إضافة إلى معبد المصريين الذى تأسس زمن الفاطميين سنة ١٠٣٨ ميلادية ، والطريف أن عدد المسلمين فى هذه المنطقة المعروفة بحارة اليهود كان يفوق عدد المسيحيين واليهود معًا .

* * *

هكذا تعكس طوبغرافية القاهرة ذلك التسامح الذى ساد المجتمع المصرى وكان مصدره جوهر الإسلام نفسه وطبيعة المجتمع المصرى ، وهذا التسامح لا يبدو فقط فى امتزاج المصريين فى المكان ، ولكن يتخطى ذلك إلى تشابه العادات والتقاليد فى المناسبات والأعياد ، وفى أوراق البردى القديمة لم يستطع الباحثون تبين ديانة هذا المصرى من ذاك لأن معظم الأسماء متشابهة ، أما البيع والشراء منذ القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، نرى القوم يتعاملون فى عقود البيع والشراء عند المسلمين والمسيحيين واليهود طبقًا للشريعة الإسلامية . وإذا تأملنا جميع جوانب الحياة

ومظاهرها ، سوف نجد روح التسامح هى السائدة وهى الأساس رغم شوائب عابرة هى فى الحقيقة جد ضئيلة ، لم ولن تحجب هذه الروح العميقة من التسامح والتى تسود بدءا من طوبغرافية المدينة وعناصر العمارة والأزياء والطعام .. ولكن الأهم تلك العناصر التى لا يمكن تحديدها أو رصدها والتى تنتمى إلى التكوين والجوهر القديم .

مصاحف نادرة

في دار الكتب المصرية بالقاهرة مجموعة من أندر المصاحف الشريفة يرجع بعضها إلى القرن الأول الهجرى ، كتب بعضها فوق رق الغزال ، والبعض الآخر فوق قطع عريضة من عظام الجمال ، نسخ أخرى من عصور شتى ، قديمة ومتوسطة وحديثة ، تتميز بينها هذه المصاحف التى خطت فى الزمن المملوكى ، والتى تجلت فيها آيات من الجمال ، وروعة الفن العربى ، كان سلاطين المماليك يوقفون الأموال الطائلة على نسخ المصاحف ، وتذهيبها ، خاصة المصاحف التى خصصت للمساجد التى تحمل أسماءهم ، والتى شيدوها أيضا لتكون مقرا لمثواهم الأبدى ، كانت زخرفة وتذهيب هذه المصاحف ذروة الفن العربى ، الذى عرف فى تجميل المخطوطات وزخرفتها ، كان تلوين وتذهيب المصاحف يتم بداية فى حدود معينة ، اقتصر على أجزاء من الصفحات ، مثلا الأشرطة التى تفصل بين السور بعضها وبعض ، والفواصل بين الآيات القرآنية ، وبعض العناصر الزخرفية التى تدل على أجزاء المصحف وأقسامه ، كالنصف ، والربع ، كان الشريط الذى يحيط الصفحة الواحدة أهم هذه الأجزاء ، حيث زينت بعناصر زخرفية مختلفة ، فيها الجدائل ، والأشكال المتشابكة ، أو رسوم هندسية من دوائر أو أجزاء من دوائر أو مربعات صغيرة تتداخل وتتفرق ، تتلاقى وتتباعد ، تتماس أو تتقاطع ، تماما كالمصائر الإنسانية ، والمعانى .

أما فواصل الآيات فكانت فى معظمها دوائر ، أما علامات الأجزاء فدوائر فى داخلها مربعات ، تتداخل مكونة أشكالاً نجمية مع البؤرة منها يكتب ما يدل على الجزء ، فى هذه الزخارف استخدمت الألوان الذهبية والزرقاء والخضراء ، وأحيانًا الحمراء ، وكانت الرسوم تحدد باللون الأسود .

فى بداية القرن الثانى الهجرى ، الثامن الميلادى - بدأت كتابة أسماء السور داخل الأشرطة بحروف مذهبة ، وبدأت الزخارف تصبح أكثر تعقيدا ، ثم اتجهت العناية إلى الصفحات الأولى ، خاصة المساحة الخالية التى كانت تحيط سورة الفاتحة ، وفى الصفحة المقابلة أول سورة البقرة ، حيث استخدمت الزخارف النباتية ، والأشكال الهندسية المعقدة ، ذروة هذا الفن نجدها فى العصر المملوكى ، ومنه وصلت إلينا مجموعة من المصاحف الشهيرة النادرة ، بعضها معروض فى متحف خصص لها الآن بمبنى دار الكتب المصرية افتتح فى ليلة القدر من شهر رمضان المعظم عام ١٣٨٧هـ ، بمناسبة مرور أربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم ، والبعض الآخر محفوظ فى خزائن دار الكتب لم يعرض بعد ، يوضح المعرض صورًا مختلفة من التطور فى نسخ المصاحف ، إذ يضم نماذج مختلفة ، ربما كان أقدمها هذا المصحف الذى ينسب إلى سيدنا عثمان ، وقد أحضر إلى دار الكتب المصرية من مسجد سيدنا عمرو بن العاص ، وذكر المقريزى فى خططه (جـ٢ - ص٢٤٦ - طبعة بولاق) أنه أحد المصحفين اللذين

أحضرا إلى مصر ، وأنه مصحف سيدنا عثمان ، الذى كان بين يديه يوم استشهاده ، وأنه استخرج من الخليفة المقتدر ، فأخذه ابو بكر الخازن وجعله فى مسجد سيدنا عمرو بن العاص .

وتوجد صورة طبق الأصل من مصحف آخر ينتسب ايضا إلى سيدنا عثمان ، وكان أصله فى سمرقند ، ثم نقل إلى بطرسبرج عاصمة روسيا القيصرية ، وبعد ثورة ١٩١٧ نقل إلى تركستان ، ويوجد الآن فى طشقند ، وقد نشرته جمعية الآثار القديمة على يد الخطاط المصور الروسى بلوساركس وتم طبع خمسين نسخة منه ، والنسخة الموجودة حاليا فى القاهرة أهديت إلى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر فى منتصف الستينيات .

يوجد مصحف آخر مكتوب بخط كوفى على الرق ، فى آخره ، أنه كتب بخط أبى سعيد الحسن البصرى سنة ٧٧هـ ، وثمة مصحف بخط الإمام جعفر الصادق ، مكتوب فى القرن الثانى الهجرى على ورق ، ومصحف مكتوب فى أوائل القرن الثالث الهجرى على رق غزال ، بالقلم الكوفى على طريقة أبى الأسود الدؤلى .

ثمة مجموعة أخرى من المصاحف المكتوبة بخط كوفى مجهولة التواريخ على وجه الدقة ، وإن كانت تمت إلى القرن الأول والثانى للهجرة .

ثم نتوقف طويلا ، أمام مجموعة المصاحف التى نسخت فى العصر المملوكى ، ذروة الفن العربى فى كتابة المصاحف .

مصحف السلطان محمد بن قلاوون

إنه مصحف متوسط الحجم ، تخلو صفحاته من المستطيلات الزخرفية ، ماعدا فراغ السور ، فى الصفحة الاستهلالية التى تسبق سورة الفاتحة ، المصحف كله مكتوب بماء الذهب ، بالخط الثلث ، إنه من المصاحف النادرة التى كتبت كلها بماء الذهب ، مضبوط الشكل الكامل ، كتب فى ٧٦٤هـ ، وبالرغم من ذلك تبدو صفحاته بسيطة ، رقيقة ، تجبر الناظر على طول التأمل والتمعن ، إن العصور العظيمة تنتج فناً عظيمًا وبسيطا ، لا يقدم نفسه من خلال ترف المادة وحشدها ، هذا مانعيه إذ نطيل تأمل هذا المصحف الرقيق الجميل ، لقد أنفرد الناصر محمد بن قلاوون بين سلاطين المماليك بطول مدة حكمه ، فقد استقر على عرشه ما مجموعه حوالى أربعين سنة كاملة ، خلع مرتين ، وعاد واستمرت سلطنته الثالثة وحدها اثنتين وثلاثين سنة ، طرد آخر بقايا الصليبيين من عكا ، ونقل باب كنيستهم ليضعه فى واجهة مسجده الباقى حتى الآن بالنحاسين بالقاهرة القديمة ، وخلال فترة حكمه شهدت البلاد نهضة عمرانية كبرى ، أنشأ الميدان العظيم ، والقصر الأبلق ، والإيوان ، ومسجد القلعة ، والمصحف الذى نراه اليوم كتب خصيصا من أجل هذا المسجد ، أوقفه عليه ، وظل به حتى نقل إلى دار الكتب المصرية ، أنشأ الإيوان بالقلعة ، وأعاد بناء قناطر السباع التى بناها الظاهر بيبرس ، وأنشأ ميدان المهاد ، وفى الريف

مد قناة مياه من القاهرة إلى سرياقوس ، وخانقاه للصوفية فى المكان الذى يعرف إلى اليوم باسمها (الخانكة – تحريف خانقاه) ومد فى كل بلد جسرا أو قنطرة ، وطور وسائل الرى ، ومد جهده إلى الشام ، العديد والعديد من المنشآت ، اقامها ونشرها ، لكن معظمها إندثر ، أو وصل إلينا ناقصا ، أو مشوها ، تآكلت الجدران ، وردمت الخلجان ، والقصور التى عمرها ، والإيوان الذى كان فيه تخت ملكه ، شىء واحد فقط وصل إلينا من عصره سليما ، كأن لم يكتمل إلا البارحة ، شىء واحد ظل زاهيا حتى الآن ، فكأن يدا لم تمسه عبر هذه القرون كلها ، حقا ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ ..

برقــــوق

السادس من ذى الحجة ، سنة ٨٠١هـ .

فى هذا اليوم ، بلغ نهر النيل ستة عشر ذراعا ، هكذا سجل مقياس الروضة ، وهذا يعنى أن النيل قد أوفى ، انطلق المنادون يبشرون المصريين .

فى نفس هذا اليوم ، انتهى الخطاط الشهير عبد الرحمن الصائغ من كتابة المصحف الذى أمر السلطان برقوق بكتابته ، فرغ الخطاط عبد الرحمن الصائغ المشهور بابن البتون بعد عمل متصل استغرق سبعين يومًا فقط ، وبقلم واحد لم يغيره .

المصحف مكتوب بالخط الثلث الواضح ، منقوش بالذهب والألوان

الزاهية ، الرائعة ، اللون الذهبى استخدم فيه الذهب الخالص ، والأزرق اللازوردى والأحمر الياقوتى ، وتتخلل الألوان مساحات من البياض التى تضفى على الألوان عمقا وجمالا ، أما الزخارف ذاتها فتتكون من وحدات هندسية ، وأوراق نباتية ، تغطى الصفحتين الاستهلاليتين ، والصفحة التى كتبت بها سورة الفاتحة ، والصفحة التى بها بداية سورة البقرة ، أما فواتح السور فقد كتبت فى إطارات مزخرفة ، مستطيلة ، محفوفة بالألوان المتداخلة ، المتناغمة .

كان السلطان برقوق محبوبًا من عامة الناس ، وساعدت فترات حكمه الطويلة على الاستقرار ، وانعكس ذلك على ماوصلنا من فنون سواء تمثلت فى هذا المصحف الذى نراه معروضًا الآن فى دار الكتب المصرية ، أو مسجد برقوق بالنحاسين ، الذى يعد تحفة معمارية فريدة فى تراث العمارة الإسلامية ، وقد كان مصحفا موقوفا على هذا المسجد ، حفظ لنا التاريخ اسم الخطاط ، والفنان الذى أشرف على تنفيذه ، رحم الله الفنان القدير عبد الرحمن الصائغ الذى لا نعرف عنه إلا اسمه ، ولكن نتاج عمله يظل عدة قرون درة خالدة فى تاريخ الفن الإسلامى .

الابـــــن

عندما توفى السلطان برقوق لم يدفن فى مدرسته التى أنشأها بقلب القاهرة ، إنما أوصى بأن يدفن تحت أقدام المتصوفة والفقراء بالصحراء ، وأوصى ابنه فرجا أن يبنى فوقهم تربة ، ونفذ فرج وصية والده ،

وبدأ فى بناء تربة ومسجد وخانقاه ، كذلك بنى حولها مدينة عامرة الأسواق ، واوقف مالا لكتابة مصحف شريف يوضع فى الخانقاه ..» إنه المصحف الذى نراه فى دار الكتب المصرية ، والموضوع على بعد خطوات من مصحف والده .

مصحف بديع ، ضخم فى رقة ، هادئ الحضور ، اتسمت زخارفه بالوقار الجميل ، الزخارف الدائرية المتعانقة المتشابكة ، والإطار المذهب الذى يحيط الصفحتين ، الأولى ، والثانية ، ثم تتابع الصفحات بدون إطارات مذهبة أو مزخرفة ، حيث الخط يمضى سلسا عبر صفحات وردية اللون كأنها رحيق الزمن النائى ، خط الثلث الواضح ، فى كل صفحة وحدتين زخرفيتين فقط ، العلوية دائرية مستوحاة من شكل قرص الشمس بأشعته ، وداخلها دائرة أصغر حجما ملونة ، والوحدة الزخرفية الموجودة إلى أسفل تتخذ شكل ورقة شجر منسقة الحواف ، يوجد داخلها إطار به دوائر متداخلة ، فواتح السور وعناوينها داخل مستطيل تتخلله أشكال دائرية ، الطابع العام للزخارف هادىء ، يتناسب مع الأثر المعمارى الذى وضع فيه المصحف ، خانقاه فرج بن برقوق ، التى تقف على حافة الأبدية فى صحراء القاهرة ، وأعيد ترميمها بواسطة هيئة الآثار المصرية ، بدأ الناصر فرج فى إنشائها سنة ٨٠١هـ - ١٣٩٨ ميلادية واستغرق بناؤها أربعة عشر عاما ، أنه من أضخم مبانى العصر المملوكى وأجلها ، ولا يستطيع الإنسان عند وقوفه فى الصحن المكشوف إلا أن يتنفس بهدوء ، وأن يصغى إلى الزمن السارى ، وأن يتخيل هؤلاء الصالحين ، العاكفين ، الزاهدين ،

الذين طالعوا سطور هذا المصحف بعيونهم ، وضبطوا منه وتلوا آياته ورتلوها ترتيلا .

برسباى

إنه ثامن ملوك الجراكسة ، تولى السلطنة يوم الأربعاء - ثامن ربيع الآخر من تلك السنة ، فتح جزيرة قبرص ، وأسر ملكها ، وما تزال خوذته معلقة فى أعلى مدخل مسجده بشارع المعز لدين الله ، بدأ فى بناء هذا المسجد فى العام الأول لتوليه الحكم عام ٨٢٦هـ ، اختار موقعها بخط العنبرانيين ، كان ثمة فندق وعدة حوانيت ، اشتراهم السلطان بدون إجبار وأرضى أصحابهم فى الثمن كما يقول ابن إياس المؤرخ العظيم ، وفى نفس اليوم الذى أرسى فيه أساس مدرسته بدأ بكتابة المصحف الذى قرر أن يوقفه ليقرأ الناس فيه القرآن الكريم .

هذا المصحف نراه الآن فى دار الكتب المصرية إنه يتكون من مجلدين طول الصفحة سبعون سنتيمترا ، وهو بذلك خلاف المصاحف الأخرى التى تقع فى مجلد واحد والمصحف بمجلديه فى حالة جيدة على الرغم من انقضاء تسعمائه وخمسين عاما على كتابته وإعداده .

فى الصفحة الاستهلالية زخارف غريبة جميلة باللازورد الأزرق ، والذهب الخالص ، صيغته فى هيئة رقيقة لاتبرز إحساسا بالبذخ بقدر ما تبرز رقة وإحساسا مرهفا خاشعا ، يتوسط الزخرفة شكل

دائرى مستوحي من الشمس ، وتتفرع الأشعة لتتقاطع وتتعانق فى وحدة وتنوع أخاذين ، وبدءا من الفاتحة وحتى آخر صفحة فى المصحف تجد كل صفحة تحتوى على ثلاثة إطارات متداخلة تشكل الإطار المحيط بالسور المكتوبة بخط نسخ جميل ، تتخلله شعيرات ذهبية أما الفواصل بين الآيات فعبارة عن وحدة زخرفية مستوحاة من أوراق الشجر .

ثلاثة إطارات متجاورة ، متباينة ، منسجمة ، الإطار الخارجى من اللازورد الأزرق المشعر بالذهب ، يحتوى على أشكال هندسية وزخرفية متعانقة وحواف هذا الاطار خطوط رقيقة مستوحاة أيضا من أشعة الشمس ، ثم يلى الإطار فاصل أبيض نحيل ، ثم إطار من الذهب يتخلله شكل هندسى أزرق اللون ، مزيج من المستطيل والدائرة ، يتخلل اللون اللازوردى الأزرق اسم الصورة مكتوبًا باللون الذهبى ، ترى مساحات بلون أحمر شفقى موزعة خلال الإطار الذى يليه فاصل ابيض نحيل ، ثم إطار من اللازوردى الأزرق اقل مساحة من الإطار الثانى ، وبه أشكال هندسية تقارب الأشكال التى يحتوى عليها الإطار الخارجى .

المجلد الأول يبدأ بفاتحة القرآن الكريم ، وينتهى بسورة الكهف ، أما المجلد الثانى فيبدأ بسورة مريم ، حيث نقرأ فى الصفحتين الأولين ..

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كهيعص ، ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه نداء خفيا ، قال ربى إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا ، وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرًا ، فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا﴾

وتتوالى الصفحات ، غنية بدقة زخارفها ، عميقة برقتها ، وهذا الحس المرهف الكامن خلف اختيار الألوان وتناغمها .

* * *

قايتبـــاى

للسلطان قايتباى مصحفين زائعين ، تحتفظ بهما دار الكتب المصرية ، الأول فى قاعة العرض المتاحة للجمهور ، نقل إليها عند إنشائها فى القرن الماضى ، من مسجد قايتباى فى الصحراء الواقعة خارج القاهرة ، والذى يضم تربته حيث دفن ، وبدأ تشييده فى شوال ٨١٧هـ ، وقد جاء فريدا فى معماره وزخارفه ، وتؤدى به شعائر الصلاة حتى يومنا هذا ، ويضم عدة منشآت ، التربة والمسجد والسبيل ، والصهريج ، وخلاوى الصوفية ، أقيمت فيه شعائر الصلاة لأول مرة فى رجب ٨٧٩هـ .

إذن ، كتب المصحف الذى نراه فى قاعة العرض خلال هذه الفترة التى تقع بين عام ٨٧٤ هـ و٨٧٦هـ ، وقد عين له الشيخ

ناصر الدين الأخميم كقارئ متفرغ ، المصحف محلى بالذهب ، واللازورد ، مكتوب بخط نسخ جميل ، وفواتح السور محلاة بزخارف نباتية ، وأخرى مستوحاة من نجوم السماء .

المصحف الثانى محفوظ فى مكتبة محفوظات الدار ، تحت رقم ١٩ يبلغ حجمه ضعف حجم المصحف الأول ، ويقع فى مجلدين كتبه أحد كبار رجال الدولة ، الأمير جالشم السيفى بك الدوادار الكبير .

ولا شك أن هذين المصحفين يعكسان رسوخ عصر السلطان قايتباى واستقراره فى روعتها ، ودقة زخارفها ، كان قايتباى راعيًا للفنانين ، والقراء ، والرياضيين ، عرف فى عصره الشيخ جعفر السنهورى كواحد من أعظم قرّاء القرآن الكريم كان يقرأ بأربعة عشر رواية .

ولا شك أن العديد من المصاحف الرائعة تم نسخها فى عهد السلطان قايتباى ، ولا يمكننا تحديد عددها بالضبط ، لكن هذين المصحفين الرائعين يقدمان لنا دليلاً وعلامة .

مصاحف أخرى

من أشهر المصاحف التى كتبت فى العصر المملوكى ، مصحف السلطان شعبان ، الصفحة الأولى منه محلاة بالذهب واللازورد والمنقوش بالنقوش العربية الرائعة البديعة ، كتب سنة ٧٦٤هـ

ومصحف السلطان المؤيد ، الذى كتب فى عام ٨١٥هـ ،

والمعروض منه مجلد واحد يمثل نصفه فقط ، وآخره سورة الكهف .

ومصحف السيدة خوندر بركة أم السلطان شعبان ، كتب عام ٧٧٥هـ .

ومصحف الأمير حدغمتش (٧٧٦ هـ) ، وفيه نرى ظاهرة فريدة ، إذ التزم كاتبه العبقرى ، أن يبدأ كل صفحة بكلمة قرآنية تبدأ بحرف أ . ومصحف السلطان خشقدم (٨٦٦ هـ) ، يحتفظ حتى الآن بزهاء ألوانه ، كأنه كتب بالأمس ، ورقه من الكتان المعالج بمواد أخرى ، وردى اللون ، وعلى الرغم من ضخامته ، إذ يتجاوز طول صفحاته المتر وعشرين سنتيمترا ، إلا أن نقوشه بسيطة ، رقيقة ، جميع السور مكتوبة بخط نسخ كبير ، عدد كلمات كل سطر تسع أو عشر كلمات ولا توجد أى إطارات زخرفية تحيط بالسور داخل الصفحات ، إنما يحيطها الفراغ الوردى الجميل .

تحتفظ دار الكتب المصرية بعدد كبير من مصاحف أخرى تمت إلى أزمنة شتى ، ومن مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، تمثل فى مجموعها ذروة الفن الإسلامى وتفرده ، واقتدار الفنانين المسلمين الذين بذلوا أقصى جهودهم الإبداعية فى كتابة وتذهيب هذه المصاحف الشريفة .

بيت السحيمى ..

تهل ليالى رمضان مثقلة بالذكريات ، من لحظات قرب ولَّتْ بعد أن اكتملت فى أمسياته العبقة بالماضى الجميل ، ومن جلسات تغيرت ، وغاب حضورها ، وروائح شتى ، ونداء باعة تميز وتغرد ، أذكر منهم ذلك البائع الضرير الذى كان يسعى ليعبر حارتنا وقت الإفطار ، عندما ينزل الصمت بعد صعود الصغار إلى بيوتهم ، كان صوته شجيا ، منغما ، يثير وقتئذ فى النفس أحاسيس غامضة ، أما الآن فيبعث تذكره شجىً وألما خفيفًا .

فى عام ١٩٥٦ انتقلنا للسكنى فى حارة الدرب الأصفر ، بعد أن عشنا زمنا فى حارة درب الطبلاوى ، وفيما بعد رجعنا إليها مرة أخرى ، الدرب الأصفر أكبر من حارة ، حقا إنه درب ، يصل بين شارعى المعز لدين الله ، والجمالية ، درب عتيق ، عمره من عمر القاهرة القديمة ، فعندما وضع أساسها القائد جوهر الصقلى ، وبنى القصرين العظيمين ، الشرقى الكبير ، والغربى الصغير ، ليكونا مقرا لسكنى الخلفاء الفاطميين ، كان مذبح القصرين حيث تنحر الذبائح فى موقع هذا الدرب ، إنه درب مدجج بالتاريخ والآثار ، فى مواجهة عمارة عليش التى سكناها ، تقوم زاوية أو تكية بيبرس ، كتلة مهيبة من العمارة الإسلامية والفن الدقيق ، بناها الأمير بيبرس الجاشنكير لتكون مقرًا لأحباب

الله من الصوفية ، هو نفسه الأمير الذى أضاف الجزء العلوى إلى مئذنتى مسجد الحاكم ، ومسجد ابن طولون ، بعد أن هدمهما الزلزال الشهير الذى أزال فنار الإسكندرية القديم ، وموقعه الآن قلعة قايتباى ، زاوية بيبرس هذه كما تعرف بين أهالى المنطقة لكم مررت عليها ، وأشرفت من النافذة على نقوشها ، ولكم دثرتنى ظلالها ، كنت جاهلاً بتاريخها فى هذا العمر البعيد ، وفيما بعد سعيت إلى المصادر والمراجع ، فنطقت الحجارة وجاوبتنى نقوش الباب الضخم الجميل المطعم بالنحاس ، الزاوية تقع فى الجهة الشرقية من الدرب ، وعند الطرف الغربى ، حيث شارع المعز ، أرشيف العمارة الإسلامية الحى ، الشارع الذى كان يسمى قصبة القاهرة ، حيث تتعاقب فيه المنشآت الإسلامية بدءا من العصر الفاطمى وحتى العصر العثمانى ، وكلها منشآت من الطبقة الأولى ، شيدها خلفاء ، وسلاطين ، هذه الآثار التى عانت هوانا لسنوات طويلة ، حتى بدأ الأثرى القدير أحمد قدري ينفض عنها غبار الإهمال والقذارة ، بحيث يحق لنا القول أن تلك الآثار تعيش عصرها الذهبى الآن ، وليت جهود أحمد قدرى تتكاتف مع جهود الأجهزة الأخرى فى المنطقة ، عندئذ .. يمكننا استرداد منطقة تموج بالتاريخ ، بالروح الإسلامية والقاهرية الصميمة ، لكن لهذا حديث آخر .. فى مواجهة مدخل الدرب بوابة حارة برجوان ، حيث ولد المقريزى ، وما بين البوابة وزاوية بيبرس يمتد الدرب الأصفر ، وفى القلب منه .. بيت السحيمى ..

مع توالى الزمن تتغير الوجوه ، أهالى الحى الذين كنت أعرفهم كثير منهم رحلوا ، ويوما بعد يوم تزداد الملامح المجهولة عندى . لقد انتقلنا من الحى عام ١٩٧١ ، الأطفال الذين ولدوا فى هذه الأيام يتأهبون الآن لدخول الجامعة ، ما أسرع مرور الأيام ، وعندى هنا مواقع أتردد عليها ، وأقيم الود مع أصحابها ، فلكم أكره أن تتحول زياراتى إلى المنطقة العزيزة علىّ إلى زيارات سياحية ، من هذه المواقع ، مقهى الفيشاوى ، وأصدقائى فى خان الخليلى ، ومقهى لا نضى فى قصر الشوق ، وسبيل أوده باشا حيث يتخذ الصديق عدلى باعيسى من الطابق العلوى فيه مقرا لجمعية فقراء الجمالية ، أما الموقع الذى أسعى إليه عندما ينوء الضيق أو يشتد الحنين ، فهو بيت السحيمى ، البيت مفتوح للزائرين ، لكننى أدخله كصديق للمشرف عليه ، المقيم فيه ، والذى يرجع إليه الفضل فى الحفاظ على روحه الخفية ، ونظافته التى تشعر بها للوهلة الأولى ، وعند أى مقارنة بالبيوت الأخرى ، كذلك الحفاظ على حديقته خضراء ، مورقة بالأشجار الجميلة ، سواء الحديقة التى تتوسط فناء البيت ، أو الحديقة التى تقع فى الفناء الخلفى ، إنه الصديق محمد مجاهد الذى ارتبط بالبيت منذ أيام عمره الأولى ، ومنذ طفولته تعلم فن النجارة العربية ، أى أنه متخصص فى خرط الخشب ، وتصميم الأرابيسك والحق أننى مدين له فى فهم هذا النوع من الفن الإسلامى ، فهو أنواع ، ولكل جزء منه اسم : ومنه ما بطل عمله ، ومنه مازال ممكنا إنتاجه ، فى عام ١٩٥٦

كنت أمر بباب البيت ، وأختلس النظر إلى الحديقة ويتأجج الخيال ثم أمضى ، عند الاقتراب منه نرى جدرانه الرمادية ، ومشربياته ، المطلة على الطريق ، أمام الباب فيؤدى إلى باب آخر يشكل معه زاوية قائمة ، كشأن كل بيوت القاهرة القديمة ، حتى لا يمكن للمار فى الطريق أن يرى الفناء الداخلى ، بمجرد عبور الممر القصير يبدأ تأثير المنزل فى النفاذ إلى الروح ، منذ أسابيع طلب منى السفير الفرنسى بيير هانت أن يرى الجمالية من خلال عينى ، صحبته إلى بيت السحيمى وبمجرد دخوله إلى الحديقة ، قال كلمة واحدة « السلام » ..

قلت له ، لقد عبرت بهذه الكلمة عن الكثير ، فالبيت العربى القديم شديد الخصوصية ، أنه مصمت من الخارج ، مفتوح على الداخل يحجب الإنسان عن ضجيج العالم الخارجى ، إنه كون صغير ، مستقل ، يحتفظ بصلته مع السماء عن طريق الفناء المكشوف ، لا تصل إليه أصوات الخارج ، وإن تمكنت من النفاذ فهى شاحبة ، ضعيفة ، تضفى إحساسا بالبعد أكثر مما تضفى إحساسا بالقرب ، أما المعمارى القديم فقد راعى المناخ ودرجات الحرارة ، فصمم البيت بحيث يكون صيفا أبرد عشر درجات على الأقل عن درجة الحرارة فى الخارج ، وذلك بواسطة ملاقف الهواء القائمة فى أعلى البيت ، تفتح صيفاً فيتدفق الهواء البارد ، وتغلق شتاء فيسرى الدفء ، أين ذلك من مبانى الزجاج والألمونيوم التى شوهت وجه عاصمتنا ، والتى خرجت تصميماتها من ملفات

الأجانب ، بدون مراعاة المناخ والبيئة ، وكأن قاهرتنا مدينة من مدن الثلج والضباب .

* * *

أحب في بيت السحيمي القعدة فوق الدكة في الفناء ، أو بتعبير الزمن القديم ، التختبوش ، أجلس إلى محمد مجاهد ، نتحدث وأكاد أصغي إلى سعي الأسر التي تعاقبت على سكنى هذا البيت ، بناه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي سنة ١٠٥٨ هـ - ١٦٤٨ م ، وفي سنة ١٧٩٧ م - ١٢١١ هـ اشتراه الشيخ إسماعيل شلبي ، أضاف إليه الجزء البحري من البيت ، ويضم القاعة الكبيرة ، والقاعة الأرضية ذات الفسقية الرخامية النادرة ، والحجرة العلوية الجميلة المكسوة بالقيشاني ، أما الحجرة التي تطل على الحديقة الخلفية في الطابق الأرضي ، فإنها تهدهد روحي ، ويخفف المكوث فيها من كآباتي ، في هذه الحجرة مشربية عريضة أعتبرها من أجمل وأرق ما وصل إلينا من هذا الفن ، تتوزع فيها أشكال جميلة ، لا يتشابه أحدها مع الآخر ، تفتت الضوء ، تحيله إلى همسات ضوئية ، وفي النهار يكون التأثير عميقا خاصة وأن أشجار الحديقة الخلفية تشكل إيقاعا لونيا جميلا إذ يمتزج بالضوء ، أما القاعة التي كانت مخصصة لتلاوة القرآن ، فلا يسعك فيها إلا الخشوع والإصغاء بعمق إلى آثار لم تبل بعد لترتيل تم يوما هنا ، في الطابق العلوي حيث الحرملك ، قاعة جميلة ، كسيت جدرانها ببلاطات الخزف التركي ، أما الحمام فتتأمل فيه

صنابير المياه الساخنة ، والأخرى الباردة ، تمضى غرفه وردهاته فى سلاسة ، تتعدد المستويات ، إن المهندس القديم راعى الظروف الاجتماعية السائدة ، وليس ظروف المناخ فحسب ، حيث كانت المرأة تتحرك بحرية بدون أن تنال منها العيون أو النظرات المتلصصة ..

* * *

فى بيت السحيمى نلتقى بفنان تشكيلى كبير ، سامى محمد على ، خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة التقى به كلما ترددت ، لقد تفرغ لعملية فنية دقيقة ، إذ أنه يرسم قاعات البيتن وزواياه ، وحدائقه فى لوحات ضخمة الحجم ، يمكن القول إنه يعيد خلق البيت من جديد ، يسجل النقوش ، أبيات الشعر المكتوبة على الجدران ، بردة البوصيرى ، يرسم من خلال منظور مستحدث يعبر عن الرؤية الإسلامية للكون ، رؤية شاملة ، يبدو فيها الكلى والجزئى ، يعمل الرجل فى صبر وأناة ، تذكرنا بأولئك الفنانين العظام المجهولين الذين أبدعوا هذه الحشوات الخشبية ، ونقوش الجدران ، والرخام ، ثم مضوا فى صمت بدون أن يخلفوا حتى توقيعهم !

* * *

لبيت السحيمى متاعبه فى عصرنا فالطريق المؤدى إليه قذر ، ولا أدرى العبقرى الذى استبدل الأسفلت بالحجارة القديمة فى رصف الحوارى هنا ، وعواصم أوربا تحافظ على شوارعها المبلطة بالحجارة ، حتى أن شارع الشانزليزيه مازال مرصوفا بها ، أيضا

يواجه البيت متاعبه من الجيران فثمة مبنى مجاور يضم ورش الومنيوم والمخارط التى تعمل تسبب ذبذبتها شروخا فى البيت ، أما الجيران القاطنون فى الناحية البحرية فسامحهم الله ، إذ يقذفون بمخلفاتهم فى الحديقة الخلفية ، وأحيانا بعض الأحجار .

* * *

لكل زيارة نهاية ، وإذ أنتزع نفسى من البيت ، فإنما أخلع ذاتى من زمن قديم ، رائق ، ولى ، أشد على يد محمد مجاهد[1] ابن الجمالية ، ابن البلد الذى لم يفقد سماته بعد ، أخرج إلى الدرب الذى كنت ألعب فيه وأنا ابن عشرة أعوام ، أمضى بخطى بطيئة بحثًا عن زمن مفقود !!

(١) رحل محمد مجاهد عن عالمنا فى سبتمبر ١٩٩٥ بعد أن أرغم على مفارقة البيت فمات قهرًا .

دراما مملوكية

الغورية .. جزء من عمرى ، توزع فيها من الطفولة ، من الصبا والشباب وعلى كثرة ما سافرت وتناقلت ورأيت من عواصم العالم المختلفة ، فإن مرأى مئذنتى مسجد المؤيد فوق باب زويلة يظل الأكثر مهابة ، والأروع جمالاً والأرق معنى .

إلى مسجد المؤيد أمضى أسبوعيا ، أعبر مدخله الشاهق ، وقبل أن ألمح صحنه الداخلى الفسيح ، حيث تحيط بالميضئة أشجار عتيقة ، ويبدو الزمان معزولاً قصيا عن كل الكدورات ، قبل جلوسى متكئا إلى أحد أعمدة الرواق القبلى الذى مازال سليمًا إلى حد كبير ، أتوقف فى حجرة الدفن المؤدية إلى صحن الجامع .

المهندس الذى صمم المسجد وضع تربة المؤيد شيخ الحموى بالمدخل بحيث لابد من المرور بها عند الدخول ، وفوق التربتين تقوم القبة الشاهقة ، التى ترتفع ارتفاعًا سامقًا يفوق حدودها المادية ، بحيث تحقق أعلى إحساس ممكن بالعلو والارتقاء من خلال المادة ، من خلال الحجارة ، وتلك عبقرية المعمارى الإسلامى ، وفلسفة العمارة الإسلامية المصرية التى تسمو بالروح الإنسانى ولا تجثم عليه برغم ضخامتها ، وعناصر قوتها .

أنزل بنظرى إلى الأرض ، ثمة تربة مكسوة بالرخام ، يرقد

تحتها السلطان المؤيد شيخ الحموى ، وإلى جانبها تربة أصغر حجما ، يرقد تحتها إبراهيم ابن السلطان ، استعيد عصرًا كاملاً انقضى ، وأتخذ من المؤرخ المصرى الكبير وشيخى ودليلى إلى تاريخ مصر المملوكية محمد أحمد بن إياس الحنفى ، الذى دون عناصر دراما إنسانية فاجعة شهدتها تلك الأيام النائيات وترقد على مرأى منى فى هاتين التربتين .

* * *

العام هو ٨١٥ هجرى ، الموافق ١٤١٢ ميلادى ، واليوم ، هو الاثنين ، فى هذا اليوم تولى الأمير شيخ المحمودى الملك ، بويع بالقلعة عند المقعد الموجود أمام باب السلسلة ، وكان أول من بايعه من العلماء جلال الدين البلقينى ، وعلى الفور قدمت إليه خلعة السلطنة ، وهى جبة سوداء مطرزة ، وعمامة سوداء ، وتلقب بالملك المؤيد .

بدأ عصر المؤيد أو بدأ حكمه ، ولم يكن سلطانًا من السلاطين الضعاف ، إنما كان ذا شخصية قوية ، وفى بداية عهده شهدت مصر اضطرابات شتى ، كان أخطرها الطاعون الكبير الذى أفنى حتى الطيور فى الهواء ، كان الناس يتساقطون فى الطرقات ، حتى أن الواحد قبل خروجه من بيته كان يكتب اسمه على ذراعه ، ليعرفه الناس إذا مات وعندما اشتد الأمر خرج السلطان حافيا ، عارى الرأس إلى صحراء العباسية ، وهناك صلى فوق الرمال لكى تنزاح الغمة .

بعد ثلاث سنوات من بدء حكمه ، شرع في تنفيذ نذر كان قد قطعه على نفسه ، فقبل توليه السلطنة ، سجن لفترة فى أحد سجون القاهرة البشعة ، وكان معروفًا باسم خزانة شمائل .

وضعوه فيه داخل إحدى الحفر القذرة ، قيدوا يديه وساقيه وعنقه بسلاسل حديدية متينة فى الحائط ، ربما تأمل فى أحوال المماليك وقتئذ ، فى الصراع الدموى على السلطة ، فى أن واحدًا منهم لا يأمن على نفسه ، مهما علا قدره ، ومهما تولى من المناصب ، قد ينقلب هذا فى لحظة ، فى إغماضة عين ، عندئذ تقطع رقبته أو يلقى فى السجن ، فى خزانة شمائل مر المؤيد بلحظات صعبة ، فنذر لله تعالى إن تيسر له ملك مصر أن يجعل مكان هذه البقعة مسجدًا لله عز وجل ، وقد كان ، لم يمض وقت طويل ، حتى خرج من السجن ، وتقلب فى مناصب عديدة ، وقاسى محنًا وشدائد استغرقت من عمره وقتًا ، لكنه لم ينس نذره ، أن يجعل من السجن مسجدًا ، وبالفعل ، تم إزالة خزانة شمائل ، وبدأ فى إقامة المسجد ، فى عام ٨٢٠ هجرية ، انتهت عمارة المسجد ، شمخت المئذنتان فوق بوابة زويلة ، لقد استقر الحكم للسلطان ، واتسم عهده باستقرار ، وشهد صورا زاهية للأبهة المملوكية ، لم يكن المؤيد شيخا غافلا عن أية محاولة لخلعه ، أو التآمر عليه ، كان خبيرا بشئون الحكم ، وخباياه ، ودروبه ، ومضت السنوات منذ ٨١٥ هجرية ، حتى العام الثامن لحكم المؤيد ٨٢٣ هجرية ، فى هذه السنة وقعت ما يسميه ابن إياس ، كائنة سيدى إبراهيم بن السلطان .

كان يلقب بالصارمى ، وكان شجاعا ، وكريما ، محبوبا من عامة الناس ، مقدامًا فى الحرب ، منذ سنوات عمره الأولى أتقن فنون القتال ، والرياضة ، كان مجيدا فى ضرب الكرة ، أى لعبة البولو ، وكان متقنا لفنون المبارزة ، ومع تولية والده السلطنة ، أصبح الصارمى إبراهيم قائدا من قواد الجيش البارزين ، وكانت مخاطر عديدة تتهدد الدولة المملوكية ، ومناوشات عديدة تجرى على حدودها المترامية الأطراف ، وعلى رأس التجاريد التى كانت تخرج لتأديب العصاة نرى الصارمى إبراهيم وفق فى كل ما كلف به .

وفى عام ٨٢٠ هجرية ، دقت الطبول فى القلعة ، وصدحت الكوسات ، وخرج المنادون إلى الشوارع القاهرية ، يعلنون أن الصارمى إبراهيم ابن السلطان قد خرج من حلب ، وأنه توجه إلى بلدة قيسارية ، وأنه حاصرها حتى ملكها ، وضمها إلى السلطنة المصرية المملوكية ، وأقام بها نائبًا عن السلطان .

تلقى المؤيد الأخبار بسرور ، فنجم إبراهيم فى صعود دائم ، وأصبح المؤيد متأكدًا من ضمان ملكه بعد وفاته ، فإبراهيم خير امتداد له .

استقر الملك للسلطان المؤيد وأصبح من أقوى سلاطين المماليك ولمع نجم ابنه إبراهيم الذى حقق عدة انتصارات عسكرية جعلت الناس يعجبون به ، ونجمه يلمع بقوة فى سماء الدولة المملوكية ، ولكن كان هذا النجاح مقدمة للمأساة التى جرت .

وقد واصل الصارمى إبراهيم فتوحاته ، ويقول ابن إياس :

« وفيه جاءت الأنباء بأن سيدى إبراهيم ابن السلطان استولى على ملطية وعدة بلاد ، وبعث الأتابكى القرمشى مع جماعة من العسكر إلى ارتكلى ولا رندة ، فكبسوا على ابن قزمان ففر منهم ، فنهبوا وطاقة العسكر ، وأسروا جماعة من أمرائه وعسكره » .

فى رمضان من نفس العام أرسل الصارمى إبراهيم برأس المتمرد مصطفى بن قزمان ، وأمر المؤيد أن تعلق على باب النصر .

بعد أن اجتث الصارمى إبراهيم التمرد والعصيان ، عاد إلى القاهرة بعد غيبة قاربت على العام ومع اقترابه من القاهرة كانت المأساة توشك أن تبدأ .

خرج الأمراء كلهم ، وكبار رجال الدولة لاستقبال الصارمى إبراهيم عند بلبيس ، كان عائدًا ، منتصرا ، وعندما اقترب الموكب من القاهرة خرج المؤيد بنفسه ليستقبل ابنه ، وعندما لمح إبراهيم والده ، نزل من فوق حصانه ، وقبل الأرض ، وكذلك فعل الأمراء ، وتهيأ الجميع للدخول من القاهرة ، اجتاز موكبهم الحافل بوابة الفتوح ، ومشوا فى شارع الصليبة وزغردت النساء من الطيقان ، ونثرت عليهم الزهور وذرات الملح ، وكان الأسرى الذين أحضرهم الصارمى إبراهيم فى الموكب وعددهم حوالى مائتى إنسان .

وفى الليل خلا المؤيد إلى ابنه إبراهيم واستمع منه إلى تفاصيل انتصاراته ، أصغى إليه فى هدوء قلعة الجبل ، وكان يحدق فى عينى ولده اللتين تشبهان عينيه تماما ، ولابد أن سرورا ملأ قلبه ،

وفخرا ، فهو الذى رباه ، وأشرف على تعليمه ، وتدريبه ، وها هو ابنه حديث كل الناس ، والأمراء لكن !!

دخلت سنة ٨٢٣ هجرية ، مر منها المحرم ، وصفر ، وربيع الأول ، وفى ربيع الآخر كان القلق قد بدأ يدب إلى نفس السلطان إن تقارير البصاصين التابعين له ، تؤكد أن الإعجاب بإبراهيم بدأ يفوق الحد ، الناس معجبون به ، يتحدثون عن شجاعته ، عن كرمه ، لكن الخطير ، انهم يقارنون بينه وبين والده ، وهنا مكمن الخطر ، تقارير أخرى أدق تقول : إن الأمراء وكبار رجال الدولة بدءوا يظهرون إعجابهم بمهارة إبراهيم وقدرته على قمع العصاة ، لقد عظم قدره فى عيون الأمراء بعد انتصاره .

القلق يعظم فى نفس المؤيد ، وفى خضم هذا القلق ، طلب كاتب السر ابن البارزى مقابلته فأجابه إلى طلبه فورًا ، خلا ابن البارزى به واطلعه على تقارير تقول : إن الأمراء ينوون خلع المؤيد وتنصيب ابنه مكانه ، وقامت الدنيا فى عينى المؤيد ، هل شارك إبراهيم فى ذلك ؟ لا يدرى ولم يهتم أن يعلم هل يستدعيه ليتحقق من الأمر ؟ الغيظ والغل لم يدعا له فرصة للتفكير ، لكن لماذا يثور هذه الثورة كلها وقد قرر أن يسلم مقاليد الحكم لابنه إبراهيم ؟ .

نعم . « لقد أوصى بذلك ولكن بعد وفاته صحيح أنه الآن فى الخامسة والستين ولكن أبهة الملك وطبيعة الحكم ومظاهرة

كل هذا يوحى لمن يحكم أن دولته دائمة ، وأنها لن تزول أبدًا ، وأن كل شىء باق .. ثابت ، ينسى فى خضم الحقد البشرى والمشاعر الزائلة ما تردد على السامع مرارا وتكرارا ، كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

نسى المؤيد هذا كله ، وفى لحظة غل ، وفى لحظة غضب آثم ، وسخط شامل ، نظر إلى كاتب السر ابن البارزى :

— وما العمل ؟

قال ابن البارزى :

— ندس له السم البطئ .

بدا المؤيد وكأنه فوجئ ، غير أن البارزى قال بسرعة ..

— مولاى .. سيخلعك الأمراء وربما قتلوك .

* * *

دسوا له السم البطئ فى الحلوى ، أى السم الذى يظهر أثره بعد مدة ، وبدأت معالم وجه سيدى إبراهيم تتغير ، هزل ، وأصفر لونه ، وتساقطت أسنانه ، ولم يعد قادرًا على المشى ، حتى أنهم حملوه إلى بولاق فى محفة ليشم الهواء ، فى جمادى الآخرة اشتد المرض به ، ومات ليلة جمعة ، أخرجت جنازته من القلعة ، ومشى الأمراء كلهم أمامه ، وشيعه الناس البسطاء بالعويل ، فقد كان محبوبًا منهم .

وصلوا بنعشه إلى مسجد المؤيد ، دخلوا به من هذا الباب ،

عبروا هذا الممر ، صلوا عليه هنا فى نفس المكان الذى أقف فيه بعد ستمائة سنة ، وفوق هذا المحراب خطب الخطيب ، وروى الحديث الشريف عن النبى ﷺ لما مات ولده إبراهيم فقال « إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإننا لفراقك يا إبراهيم لمحزنون » .

هنا بكى المؤيد لما سمع ذلك ، لقد أدركه الندم ، ولكن هل ينفع الندم ، بعد فوات الأوان ؟ كلا .. كلا ، فى هذه التربة واروا الصارمى إبراهيم ومن هذه البوابة الضخمة خرج المؤيد بطئ الخطى ، حزيناً على ما فعله ، لم يكن يدرى بعد أن دفن ابنه إنه سيرقد إلى جواره بعد سبعة شهور لا غير ، وهنا فى هذا الشارع احتشد الناس ، وعند ظهوره أمامهم صاحوا فى وجهه ، ودعوا عليه جهارا « يا قاتل ابنك » ، وصار لا يستطيع النزول من القلعة ، فلما شق موكبه من القاهرة دعا عليه الناس .

كان الندم والحزن يغربان قلب السلطان ، لقد بدأ غروبه .

* * *

وحتى يخفف عن روحه آثامها ، دس السم لابن البارزى الذى اقترح عليه قتل ابنه ، ومات ابن البارزى ، وفى شوال مرض السلطان مرض الموت ، وكان احتضاره طويلاً شاقا ، استمر طوال ذى القعدة ، وذى الحجة ، وفى المحرم ، بداية عام ٨٢٤ هجرية ، لفظ السلطان المؤيد أنفاسه ، هجر الملك ، فكان كما قيل فى

المعنى : ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء خانته فروج الأصابع .

يقول ابن إياس :

قيل لما أرادوا غسل الملك المؤيد ، لم يجدوا له إناء صغير يصبون به عليه الماء ، ولا وجدوا له منشفة ينشفون بها لحيته ، حتى أخذوا منديل بعض من حضر غسله ، ولا وجدوا له مئزرا يستر به عورته ، حتى أخذوا مئزر بعض الجوار النائحات ، وهو مئزر أسود صعيدى خشن ، فسبحانه من يعز ويذل ..

وحقا ، سبحان من يعز ويذل ، هذا ما أقوله لنفسى كلما مررت تحت هذه القبة التى يرقد تحتها الأب قاتل ابنه ، والذى لحقه بعد سبعة شهور وأيام غير أن الدراما لم تنته تمامًا فى ذلك العصر البعيد ..

* * *

من ديوان العرب

قال امرؤ القيس :

أجارتنا إن المـــزار قريب وإنى مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبـــان ها هنا وكل غـريب للغريب نسيب

علامات الزمن .. رمضانيات

من الذى يتغير ؟ الإنسان أم الزمن ؟

وما الفرق بين الأحاسيس والمشاعر التى تراود من كان فى مثل عمرى الآن تجاه الشهر الكريم ؟ رمضان من علامات الزمن البارزة فى حياتنا ، بموقعه ، ومكانته ، وخصوصية أيامه ، وعبق لياليه ، أجدنى الآن أرحل إلى سنوات الطفولة ، وأقارن ، واستعيد التفاصيل ، فى الجمالية العريقة نشأت ، وفى حواريها التى تنز جدران مبانيها بالتاريخ ، عشت رمضان الخمسينات ، والستينات ، وجزءا من السبعينات ، حقا .. ما أسرع كر الأيام ، فى الطفولة ، كانت الأسابيع المؤدية إلى رمضان تشهد انتظار الليلة الأولى ، خاصة بعد ليلة النصف من شعبان ، هذه الليلة أبرز العلامات التى تسبق رمضان ، فيها تقوم الأسر كلها ، ميسورها ومعسرها بالتوسيع ، أى إعداد طعام يخرج عن المألوف احتفالا بها ، ونرى رمضان قد أصبح قريبًا ، حتى إذا دنت ليلة الرؤية ، تزدحم الحارة بالأطفال ، فى العادة يرجعون إلى بيت الأهل مع نزول الليل ، ولكن فى هذه الليلة مسموح اللعب والضجيج واللهو ، وبعد صلاة العشاء ندرك أن اللحظات الحاسمة تقترب ، وإذ يعلن ثبوت الرؤية ، تتناقل الأسر النبأ عبر الشرفات ، ونسمع التهنئة « كل

سنة وأنت طيب » ، نخرج لشراء طعام السحور ، لقد ظهر باعة الفول ، وحوالى العاشرة أو الحادية عشرة يمر باعة الزبادى ، فى الحارة ، يرتدى الواحد منهم جلبابًا نظيفًا أبيض ويحمل فوق رأسه صينية خشبية مستديرة صفت عليها سلاطين الزبادى المصنوعة من الفخار . كان زبادى دسم ، له رائحة افتقدها الآن ، تغطيه طبقة القشدة ، السميكة ، فلم يكن لبن البودرة قد عرف بعد ، كذلك أكواب البلاستيك التى يباع فيها الآن ، فى أول الشهر الكريم تبدو النهارات ذات طبيعة خاصة ، فالهدوء سائد ، والكل مشغول بالسعى ، وإعداد طعام الإفطار ، مقاهى الجمالية كلها مغلقة نهارا ، كذلك باعة الشاى الذين يقفون قرب تجمعات الحرفيين ، المتاجر أعادت ترتيب بضاعتها ، وعرضت أجمل ماعندها ، حتى إذا ما اقترب وقت المغرب خرج أطفال الحارة إلى المدخل حيث يقوم مسجد سيدى مرزوق ، نتجمع أمامه ، ها هو « البولاقى » يعرض أنواع المخلل ، وكان رجلاً قصير القامة ، نحيلها ، لا أدرى عمله الآخر .. ولكنه فى رمضان يتفرغ تماما لبيع المخلل ، فقط فى رمضان ، أوان زجاجية مليئة بليمون كبير الحجم ، أصفر ، تبدو منه ذرات العصفر ، وأوان أخرى فيها باذنجان أسود مستطيل شق وحشى بقدونس أخضر ، وخيار ، ولفت ، وكان مقابل قرش صاغ يملأ طبقا كبيرًا ، المقاهى تفتح أبوابها قبل المغرب ، ترش الأرض بالماء وتصف المناضد والمقاعد ، وإليها يأوى بعض الغرباء وابناء السبيل ، يضع كل منهم أمامه طعامه الذى جاء به ،

أو أرسل فى شزائه من مطعم قريب ، ينتظرون مدفع الإفطار ، حدثنى بعض العجائز والمعمرين فى الجمالية ، أنه حتى ثلاثينات هذا القرن كانت بيوت الأثرياء فى المنطقة تفتح فى رمضان ، وفى الأفنية الداخلية تعد الموائد ، وعليها أطباق الطعام ، متاحة لأى فقير لا يملك زاد يومه ، أو أى عابر سبيل فاجأه ميعاد الإفطار وهو على الطريق ، يدخل فلا يسأل عن شخصه ولا عن مقصده ، يتناول إفطاره ثم يمضى ، وقد أدركت آثارًا من هذه العادة القديمة ، فبعض الحرفيين الكبار فى خان الخليلى كانوا يقيمون مأدبة إفطار جماعية ، ولكن لمرة واحدة فى الشهر الكريم ، ولا أظن أن هذا التقليد مستمر .

* * *

يتردد صوت الشيخ محمد رفعت يتلو آيات القرآن الكريم ، وما من صوت يعيد إلى كل ما أفتقده من أيام رمضان النائية هذه كصوت الشيخ محمد رفعت ، وعندما يرتفع صوت الآذان يصيح الأطفال مهللين ، وسرعان ما ينصرفون إلى بيوتهم لتناول الإفطار ، كثيرون منهم كانوا يصرون على الصيام ، برغم تحايل الأهل عليهم لصغر السن ، فى رمضان يصبح للإفطار أكثر من معنى ، فأى طعام له لذة ، سواء كان فولا ، أو طبيخا فيه لحم ومرق ، فالطعام يعد بعناية ، والأكل يسبقه شرب قمر الدين أو أى عصير ميسور ، فى معظم الأحيان تتطلع أنظار الصغار خلسة إلى صينية الكنافة

المغطاة بشاش أبيض نظيف أو القطايف منتظرة دورها بعد الانتهاء من الطعام .

فى الإفطار الرمضانى شعور بالأمن أيضًا ، فالأسرة كلها مكتملة ، مجتمعة ، فى الأيام العادية قد يتأخر الأب فى عمله ، قد يتناول الصغار طعامهم إذ يجوعون ، ولكن فى رمضان ينتظم الكل حول المائدة ، ويلتئم الشمل ، لحظات الإفطار يخيم صمت عميق على الحارة ، صمت معقم ، ومازلت اذكر رنة صوت شحاذ عجوز كان يمر أثناء تناول الإفطار ، يتوكأ على كتف امرأة عجوز ، كان نداؤه حزينا متعبا منغما ، وكان عديدون يقدمون إليه ماتيسر .

الإذاعة أضافت إلى علامات الزمن ، فمع مطلع الشهر الكريم تتردد أغنيتان شجيتان « رمضان جانا » لمحمد عبد المطلب ، و« وحوى ياوحوى » لأحمد عبد القادر ، معهما ندرك أن عامًا قد انقضى ، وإن رمضان جديدا قد أقبل ، ومع اللحن المميز لحلقات ألف ليلة وليلة تأليف طاهر أبو فاشا ، ندرك أن وقت الإفطار قد انتهى ، وأن صلاة العشاء تقترب .. يمضى الكبار إلى مسجد مولانا الحسين لصلاة العشاء والتراويح ، تتبادل الأسر الزيارات ، كان جيراننا الأقباط يشاركوننا مظاهر الاحتفال بالشهر الكريم ، فلا يجهر أحدهم بإفطاره قط ، وكانوا يتناولون الغداء عند حلول المغرب ، وفى الحارة يحمل أطفالهم فوانيس رمضان ، ويلعبون معا ، صورة من صور التسامح الدينى الجميل ، والمشاركة الوجدانية التى عرفتها مصر على مر عصورها بين طوائفها المختلفة .

كانت فوانيس رمضان من الصفيح والزجاج الملون ، تنحدر من العصر الفاطمى ، بعضها صنع على هيئة نجمة ، أو مركب ، أو طائرة ، لسنوات طويلة اختفت هذه الفوانيس ، وظهرت أخرى من البلاستيك ، مصنوعة فى هونج كونج ! تمامًا كتلك الحوارى المصنوعة التى تعلن عنها الفنادق الكبرى ، وتجعل من موظفيها شحاذين لزوم الفلوكلور . وتحول الشهر الكريم إلى ظاهرة سياحية .

فى العام الحالى ظهر فانوس رمضان القديم ، ولكن شتان ما بين أسعار زمان ، والأسعار الحالية ، هذا الفانوس طالما تغزل فيه الشعراء ، يقول الرشيد أبو عبد الله من شعراء مصر فى القرن السابع الهجرى :

أحبب بفانوس غدا صاعدا

وضوؤه دان من العين

يقضى بصوم وبفطر معا

فقد حوى وصف الهلالين

أما أبو العز مظفر الأعمى فيقول :

وما الليل إلا قانص لغزالة

بفانوس نار نحوها يتطلب

ينطلق الأطفال فى الحوارى والشوارع ، يسعون خلف المارة

منشدين نفس النشيد الذى تردد عبر عصور متوالية فى الزمن القاهرى .

وحوى يا وحوى .. إيّاحه

أدونا العادة .. يا الله نكبر .. الخ

وفى ميدان الحسين يجئ الرواد من أهالى الأحياء الأخرى فى القاهرة ، كان مقهى الفيشاوى العتيق بمقاصيره القديمة ، ملتقى الفنانين والشخصيات البارزة ، والدراويش ، وأهل السبيل ، لم يعد باق من الفيشاوى إلا شظايا مكان ، ولأننى لا أطيق الزحام المفتعل ، وظهور أعداد كبيرة من الأجانب فى الليالى الرمضانية خلال السنوات الأخيرة ، فإننى أمضى إلى المقاهى الصغيرة فى الحى الأصيل ، أو إلى حديقة بيت السحيمى الذى وصلنا سالما من العصر العثمانى ، وبقى نظيفاً ، جليلاً بحديقته النادرة ، بفضل عناية مديره الصديق محمد مجاهد ، هذا البيت وفناؤه الذى تغطيه الظلال الثقيلة الليلية بمثابة ركنى السديد الذى أوى إليه فى رمضان ملتمسا الزمن الحلو القديم الذى لن يرجع قط .

نمضى الليلة ، ويقترب موعد مرور المسحراتى ، نطل من النوافذ والشرفات يظهر عم حسن الباجورى مسحراتى حارتنا يقرع بعصاه الأبواب والنوافذ ، مناديا كلا باسمه ، وإذ يصيح « وحد الله يا أبو جمال » أصيح فرحا ، فقد سمعت اسم الوالد الكريم ، ومن قبلى ومن بعدى صاح أطفال الحارة .

نتناول السحور ، وبعده يمر أحد الرجال على بقية السكان منبها إياهم إلى صلاة الفجر ، وفى الصمت نسمع أصوات القباقيب تخطو فى صالات البيوت وصنابير المياه عند الوضوء ، فى الحارة يتجمع الرجال ، يمضون جماعة إلى مسجد الحبيب سيد الشهداء ، ثم يغلبنا النوم ، فيهجع الصغار .

مع الأيام الأخيرة كان الوالد يقول لنا مداعبا إن الشيخ رمضان يحزم متاعه ويستعد للرحيل ، وكنا بمخيلتنا نراه شيخا مهيبا قد جاء فوزع السرور والألفة والبهجة ، ثم بدأ يستعد للرحيل ، ليجىء من بعده شوال والعيد ، وعندما يرحل رمضان تخيم على القلب وحشة ، ويفتقد الفؤاد أنسه وحيويته وحركته ، ونتطلع بلهفة إلى عام جديد مقبل .

* * *

رمضان الذى عشناه فى طفولتنا النائية ، ليس رمضان الذى عاشه أهل القرن التاسع عشر ، لنصغ معا إلى واحد من أهل الغرب الذين عشقوا مصر ، يقول إدوارد لين الإنجليزى :

« يبدأ الصوم عندما يتم شعبان ثلاثين يومًا ، وفى مساء ذلك اليوم يسير موكب المحتسب ومشايخ الحرف المتعددة الطحانين والخبازين ، والجزارين والبدالين وباعة الفاكهة ، ومعهم بعض أعضاء من هذه الحرف ، وفرق من الموسيقى ، وفرق من الجنود من القلعة إلى مجلس القاضى ، وينتظرون شهود الرؤية ، غير أن

الموكب المدنى والديني استبدل أكثره بعرض عسكرى فيتكون موكب ليلة الرؤية الآن من مشاة النظام خاصة ويتقدم حاملو المشاعل ، كل فرقة من الجنود ويتبعونها لينيروا لهم الطريق ، ويختم المحتسب وتابعوه الموكب .

في رمضان لا يشاهد المرء المارة يمسكون بشبكهم (أدوات التدخين) كما كان يشاهد فى أوقات أخرى ، فيراهم بدلا من ذلك إلى ما قبل الغروب ، وتبدو الشوارع خالية كئيبة فى الصباح ، إذ أن كثيرًا من الحوانيت يغلق ، غير أنها تفتح جميعا فى العصر وتزدحم كالمعتاد ، وعادة كبار الأتراك بالقاهرة وكثيرون غيرهم أن يقصدوا مسجد الإمام الحسين ، عصر كل يوم من رمضان للصلاة. ومن الشائع فى هذا الشهر أن تشاهد تجارا فى حوانيتهم يتلون القرآن أو الأدعية أو يوزعون الخبز على الفقراء وفى الليل تزدحم المقاهي بأخلاط الناس لتناول القهوة والتدخين فى الشبك ، وفى رمضان على العموم ، يوضع كرسى عليه صينية الطعام قبيل الغروب فى غرفة الاستقبال : بمنازل الطبقتين العليا والوسطى ، ويوضع عليها صحاف عديدة في انتظار الوافدين عليهم على غير انتظار ، وبعد الفراغ من الطعام وشرب القهوة وتدخين الشبك يقيمون صلاة العشاء ويؤدون صلاة التراويح ..

هذه بعض ملامح الصورة كما كانت منذ قرن ونصف قرن من الزمان .

* * *

الآذان

في ليالي رمضان لا أغمض عيني إلا بعد استماعي إلى شعائر صلاة الفجر من مسجد الإمام الحسين ، وأنا في مسكني بضاحية حلوان النائية ، وقد كنت أحضرها وأشهدها قبل أن ينأى المكان بي .

من المذياع أيضا أصغي طوال الليل إلى إذاعة إستامبول ، عبر المسافات البعيدة يصلني أصوات مقرئي القرآن الكريم الأتراك ، لتلاوتهم إيقاع خاص ، ولتراتيلهم الصوفية مضمون غامض وحزين أصغي إلى أناشيد جلال الدين الرومي ، إلى الموسيقى الصوفية الخاصة ، أما آذان الفجر فقد سمعته أول مرة من مساجد إستامبول عندما كنت أعبر البوسفور على ظهر سفينة عام ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين ، كان صوت المؤذن فيه شجي ، وتلخيص للمصير الإنساني ، ينبعث من الأرض متجها إلى عنان السماء ، كأنه معبر عن حزن المخلوق الذي انفصل عن الخالق ، كأنه تعبير عن غربة الروح الإنسانية في هذا العالم المادي ، فيه قوة تعبر عن رغبة الإنسان في الوصول وتخطي المستحيل ، وفيه حزن مقطر يعبر عن إدراك الإنسان لعجزه وتقصيره ، كأنه شكوى غامضة تعبر عن انقضاء الزمان ومرور الأيام وانتهاء أجل الإنسان الفرد عند مدى بعينة ، استغاثة مهذبة ، خجول ، طامعة في الرحمة .

إذ يرتفع هذا الآذان من الضفاف البعيدة ، يأتينى عبر بقايا الليل ، إذ يرتفع آذان الفجر من منابر مساجدنا ، يسود الليل صمت ، وتنزل فى قلبى سكينة ، وأصغي إلى إيقاع الزمن الخفى الذى لاراد له ، وأتساءل مستعرضًا كل ما مر بى من أيامى الرمضانية ، من تغير .. من ؟ الإنسان أم الزمان ؟

فهرس الموضوعات

الصفحة

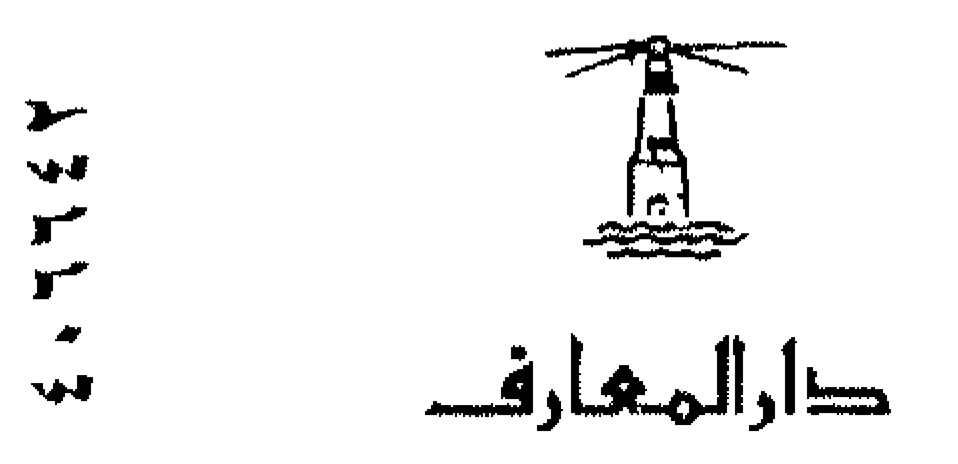
رقم الإيداع	١٩٩٥/١١٧١٢	
الترقيم الدولى	977-02-5209-3	ISBN

١/٩٥/٦٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

إذ تتكأكأ عليَّ الكدورات
إذ تتقاطر الهموم وتترى
إذ أغترب عن الوقت ، أسعى إلى زمنى الخاص ، أوغل فى ذاتى ، أنفرد ، أرحل إلى لحظات مولية منها ما عشته ، ومنها ما أتخيله ، وحتى يكتمل ذلك ويتم أحتاج إلى مكان أقعى فيه ، وأستند بظهرى إلى جدار وأصغى إلى أصداء الحياة اليومية قادمة من بعد سحيق فتشير إلى ما يجرى ولا تحدده .

مساجد القاهرة العظيمة توفر لى ذلك . . أعتصم بها قدرًا من الوقت ، ألوذ بالحجر !!

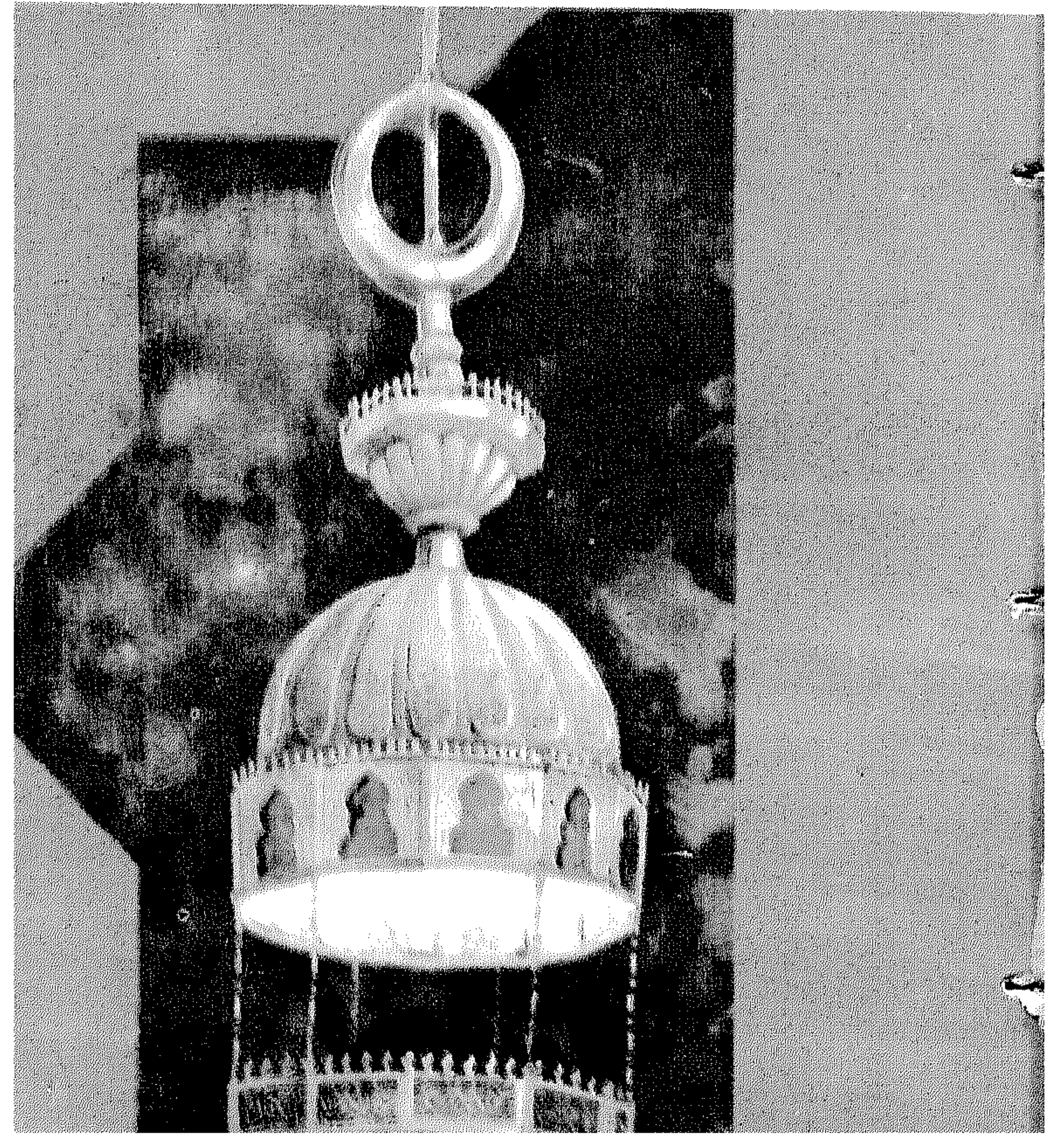


اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

دكتورة ثريا العسيلى

تأملات في كتاب الله





سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٠٥]

تصميم الغلاف : **شريفة أبو سيف**

دكتورة ثريا العسيلى

تأملات في كتاب الله



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الإهـــداء

إلى روح أبي الذى أحببت آيات القرآن الكريم مرتّلاً بصوته الحبيب ، مع إشراقة كل صباح .

وإلى أمّى – حفظها الله – التى أعتز بدعواتها ورضاها ، ومازلتُ أتعلم منها ، وأحاول الاقتداء بها ، فى إصرارها على سماع آيات القرآن الكريم ، معظم نهارها .

د . ثريا العسيلى

مدخل أو مقدمة

منذ طفولتي المبكرة ، كنتُ أستيقظُ فأجِدُ والدي رحمه الله ، وقد جلس بعد أداء صلاة الفجر يقرأ آيات القرآن الكريم بخشوع ، وحب ، وسعادة وبصوت مسموع ..

علقت بذاكرتي منذ ذلك الوقت كلمات ، وآيات كثيرة لم أكن أفقه معناها ، وحين بدأت أستطيع نطق العبارات التي حفظتها ، أخذت أسأله أحيانا عن المعاني فيقربها إليّ ، ويشرحها ببساطة وحنوّ ، في صورة تتناسب مع فهمي ، وإدراكي في ذلك العمر ومع دراستي حتى المرحلة الثانوية أخذت معرفتي بالكثير من الآيات القرآنية ، والسور ، وحفظي لها يزداد حيث كان أبي يشجعني على ذلك ، ويحكي لي كيف اهتم جدّي الذي لم أره ، بتحفيظه القرآن الكريم منذ طفولته وقد كان جدي أستاذاً بالأزهر ، كما لا أستطيع نسيان دور أحد أخوالي ، الذي كان بالمرحلة النهائية بكلية أصول الدين بالأزهر وكلما تردد علينا لزيارتنا ، كان يعقد مسابقة بيني وبين أختي في حفظ سورة يسمعها من كل منا في الزيارة القادمة ، ويكون للفائزة جائزة مالية كبيرة .. وقد أصبح خالي بعد ذلك من أساتذة الأزهر وعلمائه المعروفين الذين يساهمون في الدعوة وعلوم الدين في العالم الإسلامي ، وكلما رأيته نتذكر

سويًّا هذه الذكريات الجميلة ، وأننى لا أنسى قط جائزته لى حين حفظت (سورة النور) .

خلال دراستى الجامعية أخذت فى التعرف على المزيد من الثقافة الدينية ، وقراءة التفاسير ، والمراجع ، وساعدنى على ذلك وجود مكتبة أبى الذى كان أحد رواد التربية والتعليم . وبمكتبته أيضا ما ورث عن والده من كتب الدين .

عملت بالتدريس فى المراحل المختلفة ، حتى المرحلة الثانوية بمدرسة المتفوقين الثانوية ، وساعدنى تدريس التربية الإسلامية كثيرا على حفظ الكثير من سور القرآن الكريم .

فى كل هذه المراحل من حياتى ، أقف دائما منبهرة ، معجبة بآيات الكتاب العظيم ، وأذكر فى كل موقف من مواقف حياتى اليومية آيات تجيب عن كل تساؤلاتى ، وتساعدنى على الاطمئنان والشعور بالراحة ، والسكينة ، وهدوء النفس ، ويلازمنى شعور دائم ، والحمد لله ، أننى بذكرى للخالق سبحانه فى كل وقت ، قد امتلكت كنزًا أغلى وأروع من كل كنوز العالم ؛ هذا الشعور العظيم يدفعنى دائما إلى مزيد من التعلق والشغف بكتاب الله العظيم ، أتلو من آياته الكريمة كل يوم قدر استطاعتى ، وأنصت إلى قرّائه فى سعادة بالغة ، وأتأمل فأجد كل ما يمتع النفس ، ويسمو بالروح ، ويقنع الفكر ..

ما أعظم كتاب الله الكريم ، إننا نجد فيه دائما ما يكشف

الغامض ، ويجيب السؤال ، بما يهدّئ الخاطر ، ويريح البال . كما نجد فى تلاوته كل ما يمتع النفس والروح من أسلوب رائع معجز ، مقنع ، من أجل هذا رغبت أن يشاركنى القراء بعضا من هذا الاستمتاع ، وهذا الاقتناع بما يحتوى هذا الفيض العظيم ، من بعض آيات الكتاب الكريم من معان ومضامين ، تعجز الأقلام عن وصفها :

قال تعالى : ﴿وَلَو أَنَّ ما فِي الأرض مِن شجرةٍ أَقلامٌ وَالبحرُ يمدُّهُ مِن بعدِهِ سبعةُ أَبحرٍ ما نفِدَت ، كلِماتُ الله إن الله عزيزٌ حكيمٌ﴾ . [سورة لقمان : الآية ٧٢]

وفى هذا الكتاب محاولة لتأمل بعض مواقف حياتنا وربطها بآيات القرآن الكريم ، نهتدى بها ونسير على دربها .

وأرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ فى التَّعبير عن بعض حبى وإعجابى وتقديسى لآيات القرآن الكريم فهى المعين لى ، ولغيرى من البشر فى الدنيا . والعمل بها هو وحده ما يضمن رضى الله سبحانه والجنة فى الآخرة الباقية .

وفقنا الله جميعا ، إلى الاهتداء بهدى كتابه الكريم .

د . ثريا العسيلى

تأملات شاعرة

اختار الله سبحانه اللغة العربية لتكون لغة كتابه العظيم ، القرآن الكريم ، وليكون للبشر كافة هاديًا لكل قول وفعل ، يضمن سعادتهم ، ورضاه سبحانه . وتأملاتى الطويلة فى كتاب الله المعجز ، تجعلنى أدهش كثيرا لِما أجد عليه نفسى من أحوال ، فى هذا العالم السَّاحر الأخـَّاذ ؛ إننى أقرأ آيات من القرآن الكريم فى كل يوم وأحرصُ على ذلك مهما كانت الظروف ، وأجد نفسى دائما وفى كل تلاوة مبهورة ،معجبة بآيات القرآن الكريم التى لا تطاولها بلاغة ، وبالمشاعر الرائعة التى تضفيها على نفسى ، فى كل مرة ، السكينة ، وراحة البال ، هدوء النفس ، واطمئنان القلب . كما أعجب لنفسى عند كل قراءة ، فكأنى دائمًا أكْتشف دلالاتٍ جديدة ، ومعانيَ جديدة ، وظلالا للمعانى إن قراءة القرآن الكريم ، تسعد نفسى ، وتبهج قلبى ، وتطمئن فؤادى ، وتجعل الحياة جميلة رائعة فى عينى ، كما تجعل المستقبل مطمئنا .

وحين أنشغل فى أعمالى اليومية أتوق أحيانا إلى قراءة الشعر ، وفى قليل من الأحيان أحِنُّ إلى كتابته فأنتقل فى الحالين إلى مشاعر مليئة بالسعادة والراحة .. مما دفعنى إلى هذه التأملات .

لابد أن فطرة الله سبحانه وتعالى ، التى فطر الإنسان عليها ، تجعله سعيدا بالجمال ، وبالأسلوب الجميل المعبّر الصادق ؛ مع تنزيه كلام الله ، تعالت قدرته ، وعظمته ، عن كلام مخلوقاته من البشر - الشُّعراء . والقرآن الكريم لم يغض من قيمة الشِّعر بوصفه فنا فى ذاته ، ولم يقلل من أهمية الشِّعر فى الآيات الكريمة التى نفت الشعر عن الرسول ﷺ : ﴿وما علمناه الشِّعر وما ينبغى له﴾ . [سورة يس : الآية ٦٩]

وتفسير « ابن رشيق » فى كتابه « العمدة » : إن معنى الآية الكريمة ، ما الذى علمناه شعرا ، وما ينبغى له أن يبلغ عنا شعرا .. ولو أن كون النبى عليه السلام غير شاعر ، غض من قيمة الشّعر ، لكانتْ أُمِّيته غضًّا من قيمة الكتابة .

وموقف الرسول ﷺ من الشعر يؤكد اعتزازه بالشعر ولا ننسى من أقواله عليه السلام : « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه » .

كما أن من الشعراء من كتبوا عنه عليه السلام ، وعن رسالته كحسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وعدى بن حاتم الطائى ، وعباس بن مرداس السلمى .

وتنزيه « القرآن الكريم » عن أن يكون شعرًا ،وأن يكون الرسول شاعرًا ليس تقليلا من جمال الشعْر ، أو طعنا فيه ، وإنما هو إقرار لواقع لا شك فيه . فالقرآن الكريم كلام الخالق سبحانه ، صورة فريدة تبعد كل البعد عن كلام البشر ، شعرا أو

سجعا كسجع الكهان وذكر كلمة الشِّعر فى القرآن الكريم ، فى عدة مواضع ينفى أن التنزيل الكريم شعْر ، أو أن الرسول ﷺ شاعر ﴿ وَما علَّمناهُ الشِّعرَ ، وما ينبغى له إن هو إلاَّ ذكر وقرآن مبين ﴾. [سورة يس : الآية ٦٩]

وقال تعالى : ﴿بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾. [سورة الأنبياء : الآية ٥]

و﴿ ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ﴾.
[سورة الصافات : الآية ٣٦]

و﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾.
[سورة الطور : الآية ٣٠]

و﴿إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾ .
[سورة الحاقة : الآيتان ٤٠ ، ٤١]

لقد كان هدف المشركين التهوين من شأن القرآن الكريم ، معجزة الرسول عليه الصلاة والسلام فوصفوه بالشِّعر، فجاءت الآيات الكريمة ردًّا على افتراءاتهم، لذا نلاحظ أن هذه الآيات مكِّيَّة.

وقد حاول بعض المستشرقين إثبات وجود « شِعر » فى « القرآن الكريم » ، محاولين تضليل العقول بفكرتهم أن القرآن ليس وحيا من عند الله .

وأشاروا إلى بعض الآيات الكريمة مثل قوله تعالى : ﴿ومن يتق

الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ .

[سورة الطلاق : الآيتان ٢ ، ٣]

وقوله تعالى : ﴿والعاديات ضبحا ، فالموريات قدْحا ، فالمغيرات صبحا﴾ . [سورة العاديات : الآيات ١ : ٣]

وغيرها من الآيات الكريمة التى عثروا فيها على إيقاعات تسير على البحور الشعرية المعروفة .بعضها أبيات متكاملة ،وبعضها شطور موزونة .

لكن محاولات المستشرقين باءت بالفشل . فمزاعمهم لا تعنى وجود شعر فى القرآن الكريم .

وقد ردَّ الجاحظ قديما على هذه الادعاءات بأن أحاديث الناس وخطبهم ربما احتوت وزنا فى كلماتها أحيانا . إن القرآن الكريم فى نفيه أن تكون آياته شعرا صادق ، ولكنه لا يغض من قيمة الشعر ، حتى فى سورة الشعراء التى توهم البعض أنها طعن فى الشعر والشعراء ، آياتها فى هذا الموضوع مدنية ، رغم أن بقية السورة نزلت فى مكة مما يؤكد اختلاف دلالتها ومقاصدها .

قال تعالى : ﴿والشّعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كلٍّ وادٍ يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون﴾ . [سورة الشعراء : الآيات ٢٢٤ – ٢٢٧]

إن الآيات الكريمة تصف شعراء قريش الكفار الذين ناصبوا

الإسلام والرسول العداء ، لكنّها تستثنى الشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا اسم الله كثيرا .

لقد كان القرآن الكريم ، كلام الله العظيم ؛ هدفا لأعداء الإسلام على مر الأزمان .قال تعالى : ﴿وما لهم بِهِ من علم إن يتّبعون إلا الظنّ وإن الّظنّ لا يغنى من الحق شيئا ، فأعرض عن مّن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدُّنيا ، ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلمُ بمن اهتدى﴾ .

[سورة النجم : الآيات ٢٨ – ٣٠]

إن هؤلاء الكفار بأفكارهم التى تستند إلى الباطل ، لم يحاولوا قراءة القرآن الكريم بفطرةٍ نقية ، وقلبٍ سليم لذا وقعوا فى الضّلال المبين .

قال تعالى : ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾. [سورة آل عمران : الآية ٧]

إن المناهج الدنيوية والنظرية تندثر ويثبت فشلها ، ويظل القرآن ثابتا لا يتغير ولا يتبدل .

قال تعالى : ﴿أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ . [سورة النساء : الآية ٨٢]

لقد حاول اليهود قديما إقحام العناصر الخبيثة فيما عرف

« بالإسرائيليات » حيث حرفوا كلمات الله سبحانه وتعالى . ونزلت الآيات القرآنية تحذر المسلمين من شرهم . قال تعالى :

﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾

[سورة البقرة : الآية ٧٥]

وقال تعالى :﴿وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب . ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب ، وهم يعلمون﴾ .

[سورة آل عمران : الآية ٧٨]

لقد أمرنا الإسلام بالإيمان بالرسل جميعا ، قبل خاتم الأنبياء محمد ﷺ ورسالاتهم ، وبقى أن الإسلام استخلص منها ما ظل موجودًا بالقرآن الكريم ، وما أراد للبشرية أن تسير على نهجه .

وبعد تلك الإسرائيليات والعصبيات السياسية والمذهبية والفرق الكلامـيَّة ، وتأويلات الأعاجم المغرضة لبعض آيات القرآن الكريم وأخيرا مع الغزو الاستعمارى منذ بداية العصر الحديث والانبهار بحضارة الغرب ظهرت تلك المحاولات لتفسير القرآن الكريم تفسيرا علمانيا ، ومع التسليم والاطمئنان إلى قوله سبحانه وتعالى :

﴿إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[سورة الحجر: الآية ٩]

فنحن نشعر بأهمية تلك الرسالة العظيمة التى تقع على عاتق علمائنا ؛ وكل من يتصدى لتنشئة أجيالنا بتفسير القرآن الكريم ، مع ضرورة

الفهم العميق لعلوم اللغة العربية وعلوم القرآن الكريم ، وعلوم الحديث ، وعلم التوحيد ، وأصول الدين ، وأحكام الفقه المستنبطة من الكتاب والسنة ، ومعرفة تاريخ الإسلام ، والحضارة الإسلامية .

إن الرسالة عظيمة ، على عاتق علمائنا نحو أجيالنا ، والرسالة عظيمة على عاتق الآباء والأمهات ، والمسئولين فى كل موقع ، حتى نأخذ بأيدى أبنائنا ، وبناتنا بعيدا عن الحيرة ، والضياع .

قال تعالى : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ .

[سورة آل عمران : الآية ١٠٤]

حقا إن الله سبحانه متم نوره ولو كره الكافرون ، أما هؤلاء الذين أنكروا وجود الخالق ؛ فإن أهم الدوافع التى حدت بهم إلى ذلك ؛ هى تلك النفوس المنحلّة التى لم تتعهدها تربية صالحة ، فتقومها ، وتبعدها عن الضعف الذى يدفعها إلى الميل مع الهوى ؛ والغرائز ، وتدربها على سمو الروح ، وحسن القصد، ولم تهتم هى بترويض النفس وتأمل الحقيقة ، وتحرى الحلال والحرام فى السلوك ، فنمت فيها النزعات المادية التى نأت بها عن الفطرة السليمة ، التى خلق الله البشر عليها ، والتى تجعل الإنسان السوىّ ذا العقل السليم ، يسلم بوجود الخالق سبحانه، ويؤمن بالملائكة ، والكتب ، والرسل ، والقدر خيره وشره، وبالموت ، والبعث، والحساب ، والثواب والعقاب .

لقد حاول البعض قديما ، وحديثا ، تجاهل هذه الحقائق الأساسية الهامة ، وركضوا تجاه كل ما هو مادى ، يتوسمون فيه مصالح دنيوية ، وخاصة أن الإيمان بالله الواحد الخالق العظيم ، وبالإسلام الذى ارتضاه للبشر خاتما للأديان ، يلزم بتعاليم وشرائع ، وعبادات ، وتكاليف ،هم مشغولون عنها بتكالبهم على الدنيا ، والمال ، والشّهوات متوهمين أنهم سيحققون السعادة ، وما أبعد شعور السعادة عن نفوسهم ، وما أصعب طريق هناءة الروح ، ورضى الخاطر عليهم ، وما أسهل الوصول إليه على المسلمين الصالحين الذين يؤمنون بالله سبحانه ، فيحبونه ، ويحبهم هؤلاء ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

[سورة الرعد : الآية ٢٨]

إن الطاقة الروحيّة العظمى التى يمد بها الله سبحانه المؤمنين ، الذين يحسنون عبادته ، قد أوصلت الأمة الإسلامية فى مراحل من التاريخ إلى الحضارة والازدهار ، والقوة ، وقيادة العالم .

وذلك حين عرفوا الله حق المعرفة ، وما أجدرنا فى هذا العصر الذى كثرت فيه الدعاوى الباطلة ؛ أن نعود إلى الحق ، ونتأمل نعم الله سبحانه التى لا يمكن حصرها ، وأن نتّقى الله ؛ ونحمده ، ونخشى غضبه ، ونقمته قال تعالى :

﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبًا ، واتّقوا الله الذى أنتم به مؤمنون﴾ .

[سورة المائدة : الآية ٨٨]

إن الكفار يظلمون أنفسهم ، بكفرهم ؛ وإلحادهم ، ولا يتبصرون الحقيقة بجمالها ، وبداهتها ، ولو تركوا أنفسهم مع الفطرة السليمة لعرفوا أن رحمة الله سبحانه ، لا تشمل إلا المؤمنين الصالحين ، الذين تمتلئ قلوبهم بالمحبة ، وبنصرة بعضهم لبعض ، فيقبلون بإخلاص على كل عمل قويم حث عليه القرآن الكريم .

قال تعالى : ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم﴾ .
[سورة التوبة : الآية ٧١]

شتَّان بين المؤمنين ، الملتزمين بحدود الله ، وبالخلق الكريم وبين أولئك الملحدين ، لقد وصف الله سبحانه المؤمنين بقوله تعالى : ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وبشِّر المؤمنين﴾ .
[سورة التوبة : الآية ١١٢]

أما من يكفرون بالله ، فإن عذاب الله شديد .

قال تعالى : ﴿وإذ تأذَّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إنَّ عذابى لشديد﴾ . [سورة إبراهيم : الآية ٧]

إن أمل المؤمنين الصالحين ، أن ينعم البشرُ جميعا بمثل ما ينعمون به من الاطمئنان ، والرضى والسعادة ، بالإيمان الذى يعمر قلوبهم ، وباتباعهم شريعة الله سبحانه ، ذلك أنه إذا شاع الإيمان

والسلوك الإسلامى فى مجتمعاتنا حقق الإنسان لنفسه شعور السعادة والرضى فى الدنيا ، ونعم برضى الله وتوفيقه ، وبالجنة فى الآخرة ؛ لكن المؤمنين الصالحين إذا وجدوا إعراضا ولغوا ممن لا يسمعون القول فيتبعون أحسنه ، لا يملكون إلا الإعراض عنهم .

قال تعالى : ﴿وإذا سمعوا اللغو أعْرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم ، لا نبتغى الجاهلين﴾ .

[سورة القصص : الآية ٥٥]

ولا نملك إلا أن ندعو الله سبحانه أن يهدينا ويهدى البشر أجْمعين .

قال تعالى : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾

[سورة غافر : الآية ١٤]

ولن تتحقق الهداية ، إلا بالعلاقة القوية بين الإنسان والكتاب العظيم ، القرآن الكريم .فهو أروع صديق ، وخير رفيق ، تعجز التأملات ، وتقصر الكلمات عن تصويره ، والتعبير عن عمق المشاعر تجاهه ، إن ترتيله ،وقراءته ، والعمل بآياته يشفى النفوس .. قال سبحانه :

﴿ونترِّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾ .

[سورة الإسراء : الآية ٨٢]

إنك إذا أقبلت عليه تقرأ شيئا من آياته الكريمة فى أى وقت ، شعرت بالطمأنينة ، وهدوء النفس ، ووجدت الهداية ، فآياته العظيمة ، لم تترك شأنا يهم الإنسان فى أمور دينه ، ودنياه إلا ذكرتْهُ لم تترك

سؤالا يمكن أن يطرأ على ذهن بشر إلا وأجابت عنه ، فما أجمل ، وما أروع أن نقبل على قراءته لنجد ما يعرفنا بربنا الخالق الأوحد ، العظيم جل جلاله ؛ الذى يستحق وحده العبادة .

نقرأ القرآن فنجد ما يؤكد ربوبية الله وحده للوجود ، وما فيه ، ومن فيه ، فهو سبحانه القادر على النفع والضر ، والخلق والإنشاء ، كما تشهد الأرض ، وتشهد السماء ، وكما يشهد كل شىء فى الأرض وفى السماء .

قال تعالى : ﴿قل من رب السماوات والأرض ، قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهَّار﴾ . [سورة الرعد : الآية ١٦]

إن هذه الآيات الكريمة ، وغيرها ، تدفع الإنسان إلى تأمل آثار الله سبحانه المتجليةِ فى الكون ، فهو مهيمن على الوجود من فوق عرشه الأعلى رفع السماوات بغير عمد ، وسخر الشمس والقمر ، وفق تقدير محكم ، ومهد الأرض ، وثبتها ، وأجرى فيها الأنهار ، وأعدها لاستقبال الحياة .

نقرأ القرآن فيهدينا الله ، إلى الإيمان به ، والتسليم بأنه سبحانه خالقنا ، ويعلم كل شئوننا ويحيط بما فى السر وما فى الجهر ، ولا يغير واقعنا حتى نغيِّر واقعنا الروحى ، وواقعنا فى العبادة ،

وفى السلوك ، كما يرضى لنا ، وحتى نخلِصَ أنفسنا كلها ، وواقعنا كله لله سبحانه .

﴿إن الله لا يغير ما بِقومٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم﴾ .
[سورة الرعد : الآية ١١]

فقدر الله سبحانه العادل ، مرتبط بفعل الإنسان .

ونزداد يقينا أن الله سبحانه خلق الإنسان وقدّر له دورا على هذه الأرض ، ووضع له غايةً ، أهّله لبلوغها ، بما منحه من استعدادات وقدرات وسخر له الكون لينهض بالخلافة عن الله فى الأرض ، وأراد له أن يصارع الشيطان، ويكدح فى الأرض ليؤدى دوره ، وينجح فى ابتلاء الله سبحانه له بالحياة ، و بالموت، ويرجع إلى ربه كاسِبًا مأجورا.

قال تعالى : ﴿إن المتقين فى جنات وعيون ، ادخلوها بسلامٍ آمنين ، ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍّ إخوانا على سرر متقابلين ، لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بِمخْرَجين﴾ .
[سورة الحجر : الآيات من ٤٥ – ٤٨]

نقرأ القرآن الكريم ، فنشعر بالأمان ، والسكينة والاطمئنان .. قال تعالى :

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ، الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ، كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوَ عليهمُ الذى أوحينا إليك ، وهم

يكفرون بالرحمن . قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ، ولو أن قرآنا سيِّرت به الجبالُ أو قطِّعتْ به الأرضُ أو كلِّم به الموتى بل لله الأمر جميعا أفلم ييأسِ الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ، ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحلُّ قريبًا مِّن دارهم حتىّ يأتِيَ وعدُ الله إن الله لا يخلِفُ الميعاد﴾. [سورة الرعد : الآيات من ٢٨ – ٣١]

نقرأ القرآن فنجد الملجأ والإجابة عن كل التساؤلات التى يصعب علينا معرفة إجاباتها ، لتضىء لنا دروبنا ، وظلماتٍ كثيرة تحيط بعالمنا .

قال تعالى : ﴿واتلُ ما أوحى إليك من كتاب ربّك لا مبدل لكلماته ، ولن تجد من دونه ملتحدا﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٧]

ما أحوجنا دائما إلى أن نقرأ ونتأمل آيات القرآن الكريم وأن نتعلم ونسترشد بأمثاله ، وما جاء به من أحسن القصص لأجيال ، وأجيال سابقة قبل الإسلام ، وبعده .. فنجد ما يهدينا فى حياتنا وما يضىء قلوبنا ، وما ينأى بنا عن كل جدلٍ عقيم إن القرآن الكريم نبع ثرى خالد ؛ أتى بكل مايضمن للإنسان السعادة ، وشفاء النفس ، وتحمل تشريعاته كل ما يهدى البشر . قال تعالى : ﴿ولقد صرَّفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شىء جدلا﴾ . [سورة الكهف : الآية ٥٤]

الرضا واطمئنان القلب

طالما أنصتُ إلى البشر من حولى ، وكثيرا ما يلفت انتباهى ذلك الإحساس الذى يعبر عنه الكثيرون والكثيرات ، والذى يؤكد عدم الرِّضا بما يمر عليهم من مواقف وأحداث الحياة . ويدفعنى ذلك إلى التأكيد على تلك الحقيقة الأساسية الهامة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، وهى أن الرضا واطمئنان القلب ، لا يتحقق للإنسان إلا إذا عمق إيمانه بربه سبحانه وتعالى ، وتذكره دائما فى كل لحظة ، وفى كل قول وفى كل فعل وشكره على أنعمه .

إن الإنسان إذا رضى بحاله فقيرًا كان أو غنيا ، صحيح البدن أو عليلا ، رزق بالأبناء أم حرم منهم ، سوف يؤدى به شعور الرضا واطمئنان القلب إلى عدل الله سبحانه ، إلى شعور هادئ ، مطمئن ، يضمن له راحة البال ، وهدوء النفس .

إن الرضا يحقق السعادة ، أما السخط وعدم الرضا والتذمر بالحال فلن يعود على صاحبه ، إلا بذلك الإحساس من التعاسة ، لأنه يجحد نعمة الله العادل الذى يمنح البشر جميعا من أنعمه بالعدل ويمتحنهم ، فمن يرضى بحاله يجد السعادة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة .

إن المسلم يكون راضيا شاكرا لله ، والشكور من صفات الله تعالى ، ومن أسمائه الحسنى ، قال تعالى : ﴿وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾.[سورة فاطر: الآية ٣٤]

وقال تعالى : ﴿ إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم ﴾ . [سورة التغابن : الآية ١٧]

إن الإنسان قادر بإرادته أن يعوّد نفسه على الرِّضا فى مواجهة المواقف والأحوال التى لا يستطيع أن يغيرها . وأن يدرب نفسه على قبولها بشجاعة ، فيكون عندئذ حكيما ، يأخذ نفسه بالحكمة ، حين يعودها الرضا﴿ ومن يؤتَ الحكمة فقد أُوتى خيرا كثيرا﴾ .
[سورة البقرة : الآية ٢٦٩]

لقد كان الأنبياء راضين شاكرين ، ووصفهم القرآن الكريم فقال الله تعالى عن سيدنا « موسى » : ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ . [سورة إبراهيم : الآية ٥]

وعن سيدنا نوح قال تعالى :
﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا﴾ .
[سورة الإسراء : الآية ٣]

على المؤمن دائما أن يشكر الله تعالى على ما منحه من رزق .
قال تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ .
[سورة البقرة : الآية ١٥٢]

وقال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾. [سورة البقرة : الآية ١٧٢]

أما هؤلاء الذين لا يشكرون الله ، ويبطرون ويجحدون نعمة ربهم ، لا يشعرون أبدا بالرضا فى حياتهم ، ويهلكهم الله . قال تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾.

[سورة القصص : الآية ٥٨]

وقال تعالى : ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس﴾. [سورة الأنفال : الآية ٤٧]

إن شكر الله سبحانه والرضا بكل ما يمر بنا من أحداث حزينة أو سعيدة ، وذكر الله ، والاطمئنان إلى رحمته وفضله يشرح الصدور ، ويزيح الهموم . قال تعالى : ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

[سورة الرعد : الآية ٢٨]

فالمؤمنون الراضون دائما ، يستبشرون وتطمئن قلوبهم فى كل الأحوال . ﴿يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، الذين استجابوا لله والرسول من بعدِ ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسسْهمْ سوءٌ واتبعوا رضوانَ الله ، والله ذو فضل عظيم﴾.

[سورة آل عمران : الآيات ١٧١-١٧٤]

الحب العظيم

حين نستمع إلى كلمة (الحب) أو تقع أعيننا عليها مكتوبة كما هى فى عنوان هذا المقال ، ربما تتوارد إلى بعض الأذهان صور ومعان شتى ، توحى إليها الكلمة ، أو تستدعيها . صور كثيرة ، وظلال لمعنى الكلمة ، أو إيحاءات لا تعنى دلالاتها الحقيقية ، وذلك بتأثير ما حملته الكلمة من معانٍ زائفة ظالمة لها من خلال أجهزة السينما ، والإذاعة ، والروايات والأشعار المبتذلة . مما يجعلنا نشعر بالحرج أحيانا من النطق بها ، لكننا إذا منحنا هذه الكلمة (الحب) دلالاتها الحقيقية الأصيلة العظيمة ، كانت لها صورها الرائعة ، وآثارها الجليلة فى نفوسنا .

ذلك أن الله سبحانه وتعالى أحبَّنا ، أحب البشر ولحبِّه لنا كرمنا عن كل مخلوقاته ، ومنحنا العقل الذى يعى ويفكر ، ويميز ، ويدفعنا إلى تعمير الكون وتجميله حولنا .

وأحبنا الخالق سبحانه فخلقنا فى أحسن صورة ، أحسن تقويم .

أحبنا الخالق تبارك وتعالى ففرض علينا العبادات ، وأنزل لنا « القرآن الكريم » على لسان الرسول : ﷺ حتى نتمكن من

خلال فهمنا وعباداتنا وعملنا ، أن نحيا حياة مطمئنة سعيدة ونجد الجنة جزاء لأعمالنا الصالحة فى الآخرة .

منحنا الله سبحانه وتعالى حبه بسخاء وكرم ، وأورد كلمة (الحب) فى القرآن الكريم معبرة عن هذه العاطفة السامية العظيمة ، بينه وبين عباده الصالحين فى مواضع كثيرة منها قوله تعالى : ﴿والذين آمنوا أشد حبًّا لله﴾. [سورة البقرة: الآية ١٦٥]
وقوله تعالى : ﴿قل إن كنتم تحبُّون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾ .
[سورة آل عمران : الآية ٣١]
وقوله سبحانه : ﴿يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقومٍ يحبهم ويحبونه﴾. [سورة المائدة : الآية ٥٤]

وقيل إن شاعر الصوفية الكبير « جلال الدين الرومى » بكى حين قرئت أمامه هذه الآية الكريمة تأثرا بالمعنى العظيم الذى تعبر عنه .

ومن الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر كلمة الحب ، قوله تعالى : ﴿إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾ . [سورة القصص : الآية ٥٦]
وقوله تعالى : ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيانٌ مرصوص﴾ . [سورة الصف : الآية ٤]

إن الإسلام بعظمته قادر على احتواء كل ايديولوجيات الأزمنة فى الماضى والحاضر ، وبمنهجه العظيم القائم على « الحب الكبير »

من الخالق سبحانه لعباده وحبهم له ، هو الدين الحق الذى حفظ الله تعالى كتابه الكريم .

ومن خلال هذا الحب العظيم ، تنتشر كل معانى المودة والرحمة فى الأسرة والمجتمع والتى أكد عليها القرآن الكريم دائما .

قال تعالى : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ . [سورة الروم : الآية ٢١]

وحين يشيع الحب فى المجتمع ينتج ويعمر الكون حوله وينشر فيه كل جمال ، بما يعمر القلوب من اطمئنان وراحة بال .

إن الحب هو الفطرة التى خلق الله سبحانه الوجود على أساسها ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾ .
[سورة البقرة : الآية ١٣٨]

هذه الفطرة السليمة تضمن تهذيب الروح . وحفظ القلب . والضمير الإنسانى الذى يقدر الخير ويحبه . وتقدر الحق وتسمو بالروح فتوحد الله توحيدًا نقيا خالصا ، وتسمو فى إدارة كل شئون الحياة .

وهذه الفطرة المجبولة على « الحب » العظيم النقى للبشر ، تحب حتى الجماد والأشياء . فالإنسان يجد نفسه مرتبطا وجدانيًا بالمكان الذى قضى فيه فترة من الزمن وبجدرانه قال الشاعر : (لك يامنازل فى القلوب منازل) وترك لنا شعراء العصر الجاهلى معلقات من القصائد الطوال يتغنون فيها بأطلال المنازل التى رحل عنها أحباؤهم والإنسان يحب الزمان . ويحن إلى الزمن الماضى ويتذكر أحداثه ، بما فيها من

مباهج ، وأحزان هكذا يكون الإنسان ، كما خلقه الله سبحانه بعاطفته النقية القادرة دائما على (الحب العظيم) ، وفى مجال الحديث عن تلك العاطفة العظيمة لا يمكن أن نغفل جماعة المتصوفة ، بما تركوه لنا من تراث عظيم فى الشعر والنثر ، تغنوا فيها بحبهم الكبير لله سبحانه نذكر منه قول (ابن عربى) :

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وقول (رابعة العدوية) :

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك لى الحجْبَ حتى أراكا
فَلاَ الحمد فى ذا وفى ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

إن التصوف ملكة نفسية يتمتع بها البعض من البشر . حيث تسمو قواهم الروحية .

ومهما اختلفت الأقوال والآراء حول التصوف والمتصوفة ، فنزعة الحب العظيم التى عبروا عنها ، تشير إلى ثروة الروح وثروة العقول وقد وضع الإسلام التصوف فى موضعه الذى يصلح به من ينتمى إليه ، حيث يجد فى القرآن الكريم والسنة النبوية ، ما يعينه على الوصول إلى القوى الروحية التى تسعده .

التقوى

لا أكون مبالغة فى قولى ، حين أقول بصدق : إن تأملاتى الطويلة فى دلالة كلمة (التقوى) كانت الدافع الأساسى لكتابة هذه المقالات ، التى أحاول فى كل منها تأمل أحد السلوكيات والقيم الإسلامية التى يحثنا عليها الخطاب الإسلامى ، من خلال « القرآن الكريم » ، والسنة النبوية المطهرة .

لقد لاحظت منذ طفولتى أثر « التقوى » على سلوك الإنسان ، كنت أراقب والدى رحمه الله الذى كان نموذجا من ذلك الجيل الذى اقتدى بالسلف الصالح فكان يعبر فى أعماله وأقواله عن الدين وتعاليمه وعلم أجيالا تذكر تأثرها به ، كان يحكى لنا دائما بدوره عن والده الذى كان عالما وأستاذا بالأزهر الشريف وكان من المتقين الصالحين ، أما والدتى التى أرجو لها دوام الصحة ، فكانت ولا تزال ترافق القرآن الكريم وتعبر فى أفعالها وأقوالها عن خشية الله . والتقوى التى تربت عليها منذ نعومة أظافرها .

لقد تنبهت منذ طفولتى إلى تلك الحقيقة الهامة التى تؤثر فى سلوكيات الإنسان وهى الحرص على رضا الله سبحانه والخشية من عقابه ، وببساطة شديدة أدركت أن الاهتمام بتطبيق شرائع

الدين بأداء الصلاة فى أوقاتها ، وقراءة القرآن الكريم والعمل بأوامره هو أساس الحياة فى جو أسرى يسوده الطمأنينة وحب الناس .

وحين عملت بالتدريس سنوات طوال كنت كلما شرحت وناقشت الطالبات أو الطلبة فى الآيات القرآنية الكريمة أو الأحاديث النبوية الشريفة لفتت نظرى بشدة تلك الحقيقة الأساسية التى مؤداها أن الخطاب الإسلامى يهدف دائما إلى تنظيم حياة الجماعة الإسلامية ، بما يحقق لأفرادها كل الاستقرار النفسى والسعادة فى الدنيا ، ورضا الله والجنة فى الآخرة ، وأن ذلك كله يتحقق بتقوى الله قال تعالى : ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين﴾ .

[سورة آل عمران : الآيتان ١٣٣ و ١٣٤]

إن الإنسان إذا اتقى ربه طهرت نفسه ، واهتم بعمل الخير ، وإذا ارتكب إثما سارع إلى طلب المغفرة ، وهو ينفق مما يمنحه الله دون أذى لمشاعر غيره ممن يحسن إليهم ، إنه يتقى الله فيكظم غيظه وغضبه دون حقد ، أو كراهية لغيره ، بل يعفو ويسامح دائما وينتصر على شهوات نفسه فلا يبخل .

وهكذا تكون (التقوى) منبعا لكل سلوك طيب ، والإنسان التقي يستعين بذكر الله سبحانه وتعالى ، حتى لا يترك فى قلبه

مجالا للشيطان ، ولا يقترب من أى خاطر شيطانى يقوده إلى الضلال .

قال تعالى : ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ . [سورة الأعراف : الآية ٢٠١]

إن خير سلاح يتسلح به المسلم ، ضد وسوسة الشيطان ، ونوازع هوى النفس ، الأمارة بالسوء ، وإغراءات من لا يخشون الله من البشر ، هو سلاح (التقوى) ، فإذا حسن إيمان المسلم ، عمق شعوره بتقوى الله ، ومخافة غضبه ، وعدم معصيته سبحانه فى قول أو فعل .

قال تعالى : ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾.

[سورة البقرة: الآية ١٩٧]

وقال سبحانه : ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾.

[سورة الأعراف: الآية ٢٦]

كما قال عز وجل: ﴿وتناجوا بالبر والتقوى﴾.

[سورة المجادلة : الآية ٩]

إن تقوى الله تضمن العمل الصالح وهى أيضا معيار تفضيل الله سبحانه لعباده .

قال تعالى : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾.

[سورة الحجرات : الآية ١٣]

يوصينا الله سبحانه وتعالى بالتقوى، لتصلح أعمالنا ، وليرضى عنا .

قال تعالى : ﴿يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ .
[سورة الأعراف : الآية ٣٥]

إن الله سبحانه وتعالى قد جعل الحساب والجزاء وفقا لعمل الإنسان المبنى على تقوى الله فى كل قول ، وفعل ، وحركة أو سكون .

ونجد الكثير من الجزاء فى الدنيا متمثلا فى تيسير الله سبحانه وتعالى لعباده المتقين أما فى الآخرة فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون .

ويشير القرآن الكريم إلى ما حدث لأقوام سابقة فى التاريخ لنأخذ العظة والعبرة ، ونعلم يقينا أن الإنسان حين يتقى الله فى أعماله ينعم بالخير فى حياته والجزاء الطيب فى الآخرة .

قال تعالى : ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ . [سورة الأعراف : الآية ٩٦]

والبركات التى يعد الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين المتقين بها ليست بركات مادية فحسب ، إنما هى بركات فى المشاعر وفى النفوس حيث تشعر القلوب بالطمأنينة والراحة ، لذلك يجب العمل بمنهج الله وشريعته العظيمة وصالح لكل زمان ومكان قائم على تقوى الله وخشيته ، فإذا عمر قلب الإنسان بالإيمان خشى ربه وراقب نفسه فى كل سلوك ، أو قول أو فعل ، فناصر الحق ، وقاوم الباطل .

مواقف من الحياة

مثل غيرى من البشر ، مررت على مدى العمر ، بمواقف كثيرة منها ما كان له فى النفس عميق الأثر ، حتى هز الوجدان هزا ، ومنها ما أثار التأمل العميق ، ووصل بالروح إلى آفاق من السمو والإيمان ، والصلة الروحية بخالقنا سبحانه ، ومنها ما كان يأخذ النفس إلى دوامة الحياة . فيبتعد بها أحيانا عن ذلك العالم الروحانى العظيم ، عالم القرآن الكريم ، ومحاولة تأدية العبادات بما تتطلبه من هدوء ، وتأن وعدم تعجل ، رغبة للحاق بالعالم اللاهث حولنا ، حول ماديات الحياة ومطالبها ، لكننى أحمد الله إنى كنت حتى فى هذه المواقف التى تجذب الإنسان إلى ما هو دنيوى أستشعر تلك الصلة العظيمة بينى وبين ربى ، وأثق أنه لن ينسانى مادام ذكره ملء قلبى ، والشعور بقوته وقدرته سبحانه ، وتمنحنى القوة على مجابهة كل مواقف حياتى ، كنت أشعر بالتقصير كلما منعتنى الشواغل الدنيوية عن أداء الصلاة بالصورة التى يجب أن تكون عليها ، لتأتى بثمارها ، فتكون بردا وسلاما على القلب والنفس ، حين أتأمل بإمعان وخشوع كل كلمة من آيات القرآن أنطق بها ، وأشعر بخشوع فى كل سجود وركوع ، فالصلاة دعاء من الأعماق نتوجه به إلى الخالق سبحانه أن ﴿اهدنا الصراط

المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين﴾ . [سورة الفاتحة : الآيتان ٦ و ٧]

أشعر دائمًا إذا ما أديت الصلاة بصدق وتمعن وبهدوء النفس وراحة البال ، وحين أنتهى منها كأننى ألقيت بكل همومى وآلامى ، وطرحت آمالى وأمنياتى لدى الخالق سبحانه القادر على العون وإجابة كل مطلب ، للإنسان العابد الذى يذكره ويدعوه ، فيستجيب .

قال تعالى : ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ . [سورة البقرة : الآية ١١٢]

● وكثيرة هى تلك المواقف الروحية الرائعة التى مررت بها فى حياتى ، فجعلتنى أشعر من أعماقى بقدرته سبحانه واستحقاقه وحده للعبادة الخالصة ، والذكر ، آناء الليل وأطراف النهار فى كل كلمة ننطقها ، وفى كل عمل نقوم به ليكلأنا برحمته وتوفيقه ورضاه ، ولقد تأكدت من مواقف كثيرة أن الإنسان حين يخلص الدعاء لله يستجيب لدعائه بأسرع مما يتصور قال تعالى : ﴿ ادعونى أستجب لكم﴾ . [سورة غافر : ٦٠]

فى المرة التى أنعم الله على بأداء فريضة الحج فى السبعينيات ، كنت أعمل بدولة الإمارات ، ورتبت مع والدتى وإحدى قريباتى مقابلتهما فى جدة وضمهما إلى فريق من أسر الزملاء والزميلات لأداء الفريضة واستحال معرفة موعد حضورهما إلى جدة حتى

وقت سفرنا وأدائنا للطواف والسعى بالمسجد الحرام بمكة ، ووجدتنى فجأة أصلى وعيناى تدمعان أمام الحرم الشريف طالبة من الله سبحانه تيسير لقائى بهما لتأكدى من عدم معرفتهما لظروف السفر أو الإقامة فلم يبارحا مصر ، قط ، ليس ذلك فحسب بل ربما لم يبرحا المنزل إلا للضرورة القصوى .

وفجأة فى فجر يوم وكان لابد عقب ذلك اليوم من تحرك المجموعة من مكة ، وجدتنى أصر على الذهاب مع رفقة من أسر صديقة إلى جدة وكأننى أشعر أن الله سبحانه لن يخيب دعائى فى اللحظة التى وصلنا إلى مطار جدة ، وجدت وسط خضم كبير من البشر والدتى وقد خرجت لتوها من الصالة وكأنها متأكدة أنها ستلقانى دون موعد سابق ، حتى حقائبهما لم يتسلماها بعد وانتهى الموقف وقتها . ومازلت كلما أذكره أشعر أنه لابد من التمسك بهذه الصلة الرائعة العميقة بينى وبين ربى وإحساسى به فى كل سلوك أسلكه . وفى كل لحظة تمر بى ، وألا أترك الحياة تبعدنى عن هذا الكنز الذى يمنحه الله سبحانه للإنسان حين تصفو نيته ، ويقترب منه ، ويحاول أن يسير على الطريق الذى جعله منهجا عظيما يهدى للتى هى أقوم من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

وتأخذنى الحياة فأبتعد درجات عن هذا المنزل لا أنهل منه كثيرا ، فأقرأ القرآن ، أحيانا ، وربما أؤدى الصلاة بسرعة دون

تعمق ، وأناة ، وخشوع ، وتأمل .. وفجأة يأتى موقف آخر مثلا : أجدنى فى وقت من الأوقات وقد انتابتنى آلام مبرحة بأكتافى ، ولا أجد سببا عند الأطباء ولا علاجا شافيا ، وفجأة ألقى بالدواء وأجلس إلى القرآن أقرأ بتأمل ودعاء من الأعماق قال تعالى : ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾ . [سورة الإسراء : الآية ٨٢]

وفجأة تذهب الآلام إلى غير رجعة وبعد إتمامى قراءة الأجزاء التى تيسر لى قراءتها وبعد الدعاء لله بتضرع ، وأمل ، ورجاء .

● بعد أن انتهيت من دراستى للدكتوراه ، وقفت ضارعة إلى الله سبحانه أن يلهمنى إلى ما فيه الخير ورضاه عنى ، فوجدتنى أميل إلى الاستقالة من عملى كمديرة للاتصال السياسى بالتربية والتعليم ، والتفرغ للاستزادة من الثقافة الدينية وأداء العبادات كما يجب أن تؤدى دون تسرع بتوجيه الارتباط اليومى بالعمل بكل ما فيه ، وفعلا فعلت وجدتنى أكثر ما أكون سعادة بقراءة القرآن بتمعن وأناة وبالصلاة فى أوقاتها بتؤدة وهدوء نفسى ، وجدت عالما من النور الوضىء يملأ حياتى ، وسكينة النفس تهون كل الأمور على نفسى ، وتشدنى إلى عالم رحب من السعادة بقراءة القرآن الكريم ، والكتب الدينية لكبار المفكرين العالميين وشعرت رغم صلتى بهذا العالم العظيم ، عالم القرآن الكريم ،

على مدى عمرى كله ، أن العمل اليومى كان يستنفد الكثير من جهدى فلا تكون الإفادة والسعادة والاستمتاع الروحى . بهذه الصورة التى أستشعرها .

● وفى ليلة شاهدت الدكتور مصطفى محمود ، على شاشة التليفزيون يروى قصة السيدة التى أسلمت وكانت فى رحلة إلى بلد عربى مع رفقة من الأجانب واستقرت بتلك البلدة وأصابها مرض السرطان وشخص الأطباء بعد كل الأشعات استفحال مرحلة المرض ، واستيقاظها فى الصباح فجأة على زوال المرض نهائيا ، بعد قضائها الليل فى الصلاة والتضرع إلى الله ، سعدت جدا بحديث الدكتور مصطفى محمود واستشعرت صدقه وروعته ، فى الوقت الذى يقابل الكثيرون مثل هذه المواقف التى تحدث لبشر ويحكون عنها بعدم الصدق ، وربما الاستنكار والسخرية . وهذا يرجع بلا شك إلى عدم محاولتهم أداء العبادات بالصورة التى يجب أن تؤدى بها .

اختيار الأصدقاء

لم يدع التشريع الإسلامى أمرًا من الأمور التى تصلح بها حياة الأفراد ، والجماعات ، فى أية بيئة ، وفى أى عصر إلا ذكره ، وشرحه ، بما يحقق السعادة لهم فى دنياهم ورضى اللّه سبحانه ، وجنة الخلد فى الحياة الآخرة ، الباقية كما اتضح من سنة رسولنا الكريم .. محمد ﷺ كل سلوك يرضى اللّه ، ويسعد البشر .

وحسن اختيار الأصدقاء ، من الأمور الهامة التى تؤثر فى حياة الإنسان ، لذا وجهنا « القرآن الكريم » إلى أهمية ذلك قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ .

[سورة آل عمران : الآية ١١٨]

إن صحبة الأصدقاء الملتزمين بتعاليم الدين ، تشجع الإنسان على الابتعاد عن كل ما يغضب اللّه ، ومن هنا كانت المسئولية هامة على عاتق الأسرة ، حيث توجه وترشد وتراقب الأبناء منذ الصغر ، لتغرس فى نفوسهم أهمية الفضائل ، ومحبة الخير ، والقيم الفاضلة ، التى نتعلمها من التشريعات الإسلامية العظيمة ؛ فيشب

الصغير على محبة الأخيار ، والألفة والبعد عن كل من لا يراعى قيم الدين فى سلوكه .

كما قال أحد الشعراء :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

إن مصاحبة المسلم الذى يراعى ربه فى كل سلوك ، وكل قول ، وكل فعل ، تدفع إلى عمل كل ما يصلح من شأن الفرد فى الحياة وقد حث القرآن الكريم على اختيار الأصدقاء الصالحين الأخيار ، الذين يعملون الصالحات ، ويبتعدون عن المنكرات .

وألا نترك صحبتهم ، ونرغب فى صحبة آخرين ممن يهتمون بمظاهر الحياة الزائفة ، ويغفلون عن ذكر اللّه والعمل بأوامره واجتناب نواهيه ، قال تعالى : ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطا﴾ . [سورة الكهف : الآية ٢٨]

وأكد القرآن الكريم أهمية الود والألفة والأخوة بين المؤمنين ، حيث يجمعهم حب الله سبحانه ، قال تعالى ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا اللّه لعلكم ترحمون﴾ .

[سورة الحجرات : الآية ١٠]

أما خير مقياس للصداقة الطيبة ، فهو أن تكون دافعة إلى كل ما فيه خير ، ورعاية للحقوق ، وعملا بسلوكيات الإسلام التى

تنشر الوئام ، والرضى والسعادة بين الناس ، وحين يصلح عمل الإنسان ، وينشأ في البيئة التي تؤكد في فكره وسلوكه قيم الإسلام ، يهتدى إلى الرفقة الطيبة الصالحة .

حيث تتألف القلوب في ظل العمل بسلوكيات وقيم الإسلام قال تعالى : ﴿وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن اللّه ألف بينهم إنه عزيز حكيم ، يأيها النبي حسبك اللّه ومن اتبعك من المؤمنين﴾ .

[سورة الأنفال : الآيتان ٦٣ ، ٦٤]

وحين يحسن إسلام المرء ، يهتدى إلى الصحبة الطيبة ، وحين تستظل الجماعة بروح الإسلام وتعاليمه يصلح حالها ، وتسود المحبة بين أفرادها ، وتنمحي البغضاء .

قال تعالى : ﴿واذكروا نعمة اللّه عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ . [سورة آل عمران : الآية ١٠٣]

لقد ساءت العلاقات بين العرب قبل الإسلام ، فسادت بينهم الصراعات والعداوات ، فلما أرسل اللّه سيدنا محمدا ﷺ خاتم الأنبياء برسالته العظيمة ، اتحدوا تحت لواء الإسلام ، وزالت الخصومات ، وألف اللّه تعالى بين قلوبهم ، فنعموا بالأخوة الخالصة النقية ، التي حققت لهم العزة والمجد ، فما أحرانا بالسير على هذا الدرب ، واتباع ما أرشدنا إليه القرآن الكريم ، والرسول عليه السلام ، من ضرورة حسن اختيار الأصدقاء .

والصداقة التى تجمع الأصدقاء على أساس الالتزام بالسلوك الإسلامى بكل ما يمثل من قيم فاضلة ، تختلف تماما عن تلك التى تؤلف بين الأصدقاء الذين تجمعهم المعصية ، فهؤلاء يكونون فى الآخرة خصوما أعداء ، يتلاومون ، حيث يحاول كل منهم لوم الآخر .. قال تعالى ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ . [سورة الزخرف : الآية ٦٧]

وإذا تأملنا أحاديث الرسول عليه السلام ، نجد الكثير منها يؤكد أهمية حسن اختيار الأصدقاء . قال عليه السلام : « إنما مثل الجليس الصالح ، وجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة » .

ومما يشير إلى عمق أثر الصداقة فى نفوس الأصدقاء ، وفى سلوكهم قول الرسول عليه السلام : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » .

والصداقة التى قوامها الاتفاق فى العمل بسلوكيات الإسلام العظيمة ، والتحاب فى اللّه سبحانه . هى تلك العلاقة العظيمة بين البشر الذين ينطبق عليهم قول الرسول ﷺ : « إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من اللّه تعالى ، قالوا يا رسول اللّه ، تخبرنا من

هم ؟ قال : « هم قوم تحابوا بروح اللّه على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فو الله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » .

إن الأصدقاء الذين يتخذون من حب اللّه تعالى ، والإيمان به والاتحاد على العمل بتعاليم الإسلام ، تشملهم كل مشاعر المحبة والسماحة ، والوفاء ، فيحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه ، وينصحه النصيحة المخلصة ، ويسانده وقت الشدة قال عليه السلام : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما قيل كيف أنصره ظالما ؟ قال تحجزه عن الظلم ، فإن ذلك نصره » .

لقد دعا الرسول عليه السلام المسلمين إلى الصداقة والمحبة التى تجمعهم على العمل بسلوكيات الإسلام وتقوى اللّه سبحانه ، فتكون أقوالهم وأعمالهم فى الدنيا نقية طاهرة ، كما ينعمون فى الآخرة ، منهم إخوان متحابون لا يشغلهم إلا الحمد للّه ، والاعتراف بفضله ، والعمل بتشريعاته العظيمة ، ومنهم ممن قال عنهم سبحانه وتعالى : ﴿ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ .
[سورة الأعراف : الآية ٤٣]

إنهم ينعمون بالصداقة الجميلة فى الدنيا ، تلك الصداقة التى

تطرح عن كواهلهم متاعب الدنيا ، وأحزانها ، وهم فى الآخرة فى نعيم الجنة ، يشكرون اللّه على نعمائه .

قال تعالى عنهم :

﴿وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ .
[سورة فاطر : الآية ٣٤]

إن الصداقة المبنية على الولاء لشريعة الإسلام وآدابه وتأثيره فى النفوس والقلوب ، لمليئة بالثقة ، مُضْفيةً بكل المحبة والود الصادق على الأصدقاء شعورًا بالسعادة والهناءة والرضى .

الأخوّة

مالى لا أجد الكلمات التى تعبر بعمق وصدق عن مشاعرى حين أقف كثيرا أمام كل آية من آيات القرآن الكريم متأملة مأخوذة بروعة التعبير ، وجمال الصياغة ، وإعجاز المضمون .

إن آيات القرآن الكريم لا تهتم بعقيدة الإنسان وفكره فحسب بل تقدم له صورًا رائعة للمنهج العظيم لعلاقاته بمن حوله . حتى يعيش الأفراد والجماعات فى محبة وسعادة ، فى إطار أروع المشاعر النبيلة التى تربط بينهم ، ونحن فى هذا الزمان نجد أحيانًا ما نعجب له ، ونندهش ، من افتقار للعلاقات الحميمة بين بعض الناس ، وعدم حرصهم على العلاقات العظيمة ، التى تثرى الحياة ويعمر بها وجدان الإنسان ، فتحفز طاقاته للعمل البناء المثمر ، إن علاقات الأخوة النبيلة ، والمحبة العظيمة بين البشر تؤثر على سلوكياتهم ورؤاهم للحياة وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، لذا نجد كثيرا من الآيات القرآنية الكريمة تضرب الأمثلة للأخوة والمحبة بين الأنبياء وأقوامهم .

قال : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحًا . قال يا قوم اعبدوا اللّه ما لكم من إله غيره﴾ . [سورة الأعراف : الآية ٧٣]

كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا اللّه ما لكم من إله غيره﴾ . [سورة الأعراف: الآية ٨٥]

وقال تعالى : ﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا اللّه ما لكم من إله غيره﴾ . [سورة هود : الآية ٥٠]

إن هذه الآيات تشير إلى مشاعر الأخوة التى يتحدث بها الأنبياء إلى أقوامهم وهم يقدمون النصح بعبادة اللّه وحده .

وقد أكد اللّه سبحانه وتعالى رابطة الأخوة بين المؤمنين جميعا .

فقال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا اللّه حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين اللّه لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ .

[سورة آل عمران : الآيتان ١٠٢ ، ١٠٣] .

صورت هذه الآية الكريمة مشاعر المؤمنين الذين تربطهم الأخوة فينعمون بآثارها فى حياتهم كما يكونون إخوة أحباء فى الجنة بفضل تعاونهم وأخوتهم النبيلة فى الحياة الدنيا ، واجتماعهم على حب الله سبحانه ، والعمل بتعاليمه ، وقد خلت قلوبهم من البغضاء ، والضغائن ، ولم تحمل إلا المحبة والأخاء .

قال تعالى : ﴿إن المتقين فى جنات وعيون ، ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما فى صدورهم من غل ، إخوانا على سرر متقابلين ، لا يمسهم

فيها نصب وما هم منها بمخرجين﴾ .

[سورة الحجر : الآيات من ٤٥ : ٤٨]

وتؤكد هذه الآية الكريمة أيضا أخوة المؤمنين بعضهم لبعض ، وأهمية مشاعر المحبة بينهم جميعًا ، والصلح بين من يتخاصم منهم .

قال تعالى : ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ . [سورة الحجرات : الآية ١٠]

ومما يعمق الأخوة بين الناس ، أن يراعى كل منهم آداب الأخوة لتظل المشاعر صادقة جميلة دون شائبة تشوبها ، وتضم القلوب بالمحبة الصافية . ومن هذه الآداب صون اللسان فلا يذكر الإنسان أحدًا بسوء أو بذنب أو غيبة قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا اللّه إن اللّه تواب رحيم﴾ . [سورة الحجرات : الآية ١٢]

ومن آداب الأخوة تنقية النفوس من الأحقاد ، والعفو عن الأخطاء ، ومراعاة حقوق الغير .

قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ .

[سورة البقرة : الآية ١٧٨]

ومما يوثق عرى الأخوة والمحبة أن تراعى الحقوق بين الإخوة فى المواريث ، ولم يغفل القرآن الكريم ذكر ذلك .

قال تعالى : ﴿إن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهم السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار ، وصية من اللّه ، واللّه عليم حليم﴾ [سورة النساء : الآية ١٢]

ما أعظم الإسلام ! ما أروع منهجه وتشريعاته ! إنه يوضح للإنسان القيم والسلوكيات التى تنظم علاقاته ، فى أسرته ، وفى مجتمعه ، فهو دين ودنيا ، عقيدة وسلوك لم يترك علاقة بين البشر إلا وضحها بما يضمن السعادة والرضا بين الأفراد جميعا بين الزوج وزوجها ، بين الإنسان وأمه وأبيه وأبنائه وأصدقائه وزملائه .

وضع الدستور الذى لا يترك الإنسان تائها ضائعًا لا يدرى ماذا يترك ، وماذا يأخذ ، وكيف يختار موقفه وطريقه فى الحياة ليحقق استقراره النفسى ، وهدوء البال — شرح وفصل كل شيء فى عبارات بليغة كل البلاغة فهى كلمات الخالق سبحانه .

قال تعالى : ﴿إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا﴾ .

[سورة الإسراء : الآية ٩]

ومن أسرار روعة وبلاغة القرآن الكريم أنه قريب الفهم ميسر حتى للقارئ العادى رغم عظم وبلاغة أسلوبه .

ما أجدرنا معشر المسلمين أن نحاول فى هذا العصر الذى تطغى فيه الماديات على سلوكيات البشر ، أن نعود إلى دستورنا العظيم فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، لنجتمع على المحبة النقية والأخوة الصادقة ، حتى نحظى بالسعادة ، وهناءة النفس فى الدنيا ورضا اللّه سبحانه وتعالى وجنة الخلد فى الآخرة .

حب المتصوفة

منذ صباى المبكر أحببت المتصوفة ، بل ولا أبالغ حين أقول : إننى منذ الطفولة ، وأثناء مرحلة الدراسة الابتدائية ، كنت أقع فى مكتبة والدى على كتب ضمت أشعار الكثيرين منهم مثل ابن الفارض ، ورابعة العدوية ، كنت أقرأ هذه الأشعار وأستعيد قراءتها بسعادة بالغة ، ولا أدرك تمامًا سر هذا الصدى العميق لها فى نفسى، وأدركت رويدا رويدا أن عاطفة الحب القوية التى تعبر عنها هذه الأشعار فى صدق وجمال ، ويسر ، هى سر إعجابى بها . ومن هنا جاء اهتمامى بالقراءة عن سيرة المتصوفة ، وشخصياتهم وأحوالهم . لكن ما دفعنى إلى المزيد من الاقتراب من عالمهم الثرى الساحر، دراستنا للفلسفة الإسلامية فى كلية الآداب ، وكنت دائما أحب أن أقرأ المراجع الكثيرة التى تعيننى على استيعاب الموضوعات من جذورها.. فكانت فرصة طيبة لى للولوج إلى عالم المتصوفة الرحب ، بما يحوى من أنماط خاصة للحياة ، وتفرغ تام للعبادة ، وإعراض عن زينة الحياة ومباهجها ، وتقشف وزهد .

وتعبيرات خاصة لغوية فى كتاباتهم حاولت فهمها من (الرسالة القشيرية) للقشيرى ، وشعر أخاذ جميل ، ونثر ثرى بالحكمة والجمال ، والحب الإلهى .

ومهما اختلفت الآراء حول مدى منطقية أحوالهم ، وأفكارهم . فقد ظل هذا الجانب العظيم يجذبنى إليهم ، جانب الحب الكبير للخالق الواحد القدير ، سبحانه ، وإنتاجهم الأدبى الرائع المعبر عن هذا الحب .

إن الحب لديهم لم ينبع من الطمع فى الثواب والخوف من العقاب بل إنه حب عظيم عبرت عنه رابعة العدوية فى قولها :

« اللهم إن كنت تعلم أنى أعبدك طمعا فى جنتك فاحرمنى نعيم جنتك ، وإن كنت تعلم أننى أعبدك رهبة من نارك فعذبنى بنارك » .

إن علاقة الحب العظيم دفعت المتصوفة إلى التعمق فى التفكير ، والتأمل لاستطلاع روائع الكون وأسراره كما دفعتهم إلى دراسة آيات القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، حتى كثرت كتاباتهم ، ومذاهبهم ، أما كثرة كتاباتهم فى مجال الشعر والنثر فهى جميلة عظيمة . وأما تنوع مذاهبهم فيرجع إلى أن الكثيرين دانوا بالإسلام وكان منهم الهنود والفرس ، وجماعات الحاميين ، والطورانيين والساميين ، والعرب وغيرهم ، ولما كان لكل شعب مزاجه فقد كان لكل فريق من المتصوفة رؤاها ، ويظل دائما الحب العظيم الذى جعلهم يتركون لنا زادا عظيما من الأدب الصوفى الشعرى والنثرى الذى يفيض حكمة ، وجمالا ، وعذوبة .

فما أجمل ما كتب الغزالى ، ومحيى الدين بن عربى ، وذو النون المصرى . وما أجمل تأملات الكثيرين من المتصوفة فى آيات القرآن

الكريم ، وتفسيراتهم لها ، وأخص المتصوفة المسلمين ، فهم دائما أصحاب المنطق السليم . إن أهم أثر يتركه التأمل لإنتاج كبار صوفية الإسلام هو ما يمكن أن أعبر عنه من خلال شعورى الخاص جدا فى هذا الجانب ، وهو عدوى الحب ، أو حب الحب الكبير العظيم المؤثر الذى كان السمة الأساسية لعلاقة المتصوف بالخالق سبحانه وتعالى ، حيث أغبط المتصوف وأعجب بعاطفته ، وأتوق أن أصل بروحى وعاطفتى إلى مثل ما وصل إليه .

إن إشارة بسيطة وفقا لما يتيحه المجال هنا لبعض كتب المتصوف الكبير (محيى الدين بن عربى) تفتح أمامنا عالمه الأخاذ .

من كتبه الكثيرة العظيمة (الفتوحات المكية) و (فصوص الحكم) وترجمان الأشواق والتجليات الإلهية كان لابن عربى تفسيره الخاص للقرآن الكريم الذى تأثر فيه بالتلاوة من القلب لا من طرف اللسان وذلك يجعله وارثا للرسول عليه السلام ، فبالورع والتقوى وتقليد الرسول عليه السلام يتهيأ القلب لفهم ما ينطوى عليه القرآن من معان .

إن نزول القرآن فى قلب المؤمن هو نزول الحق فيه ، فيكلمه الله سبحانه من سره يقول (حدّثنى قلبى عن ربِّى من غير واسطة) وفى ذلك إشارة إلى قوله تعالى : ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ .
[سورة البقرة : الآية ٢٨٢]

يقول ابن عربى فى كتابه : « الفتوحات المكيّة » إشارة إلى معنى الحديث الشريف الذى جعله المتصوفة شِعارًا لهم : « استفْت

قلبك ، ولو أفتاك المفتون » . فأحالهم على قلوبهم ، عصمة إلهيَّة لا يشعر بها إلا أهل المراقبة .

أما رأى ابن عربى فى الصلة بين (نفس الإنسان وبدنه) فقد أوضحه فى تفسيره للآية الكريمة : ﴿يأيها الإنسان ما غرَّك بربِّك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدَلك فى أى صورة ما شاء ركّبك﴾ .
[سورة الانفطار : الآيات ٦ — ٨]

فسَّر قوله تعالى ﴿فى أى صورة ما شاء ركبك﴾ . بأن هناك تجانسا بين كل نفس وبين الجسد الذى تحل فيه ، تحقيقا لوجود أفضل ، فالله سبحانه يخلق كل شىء وفقا لعلمه ، وحكمته ، وعدله . قال ابن عربى : (إن الصورة المعدلة لا تقبل إلا روحا تشاكل مزاجها) « الفتوحات المكية » .

إن الله قد جعل الإنسان وعقله يحكم مزاج جسده ، فإن النفس لا تدرك شيئا إلا بواسطة هذه القوى التى ركب الله فى هذه النشأة فهى للنفس كالآلة فإن كانت الآلة مستقيمة على الوزن الصحيح ظهر حسن الصنعة بها إذا كانت النفس عالمة بالصنعة .

التفاؤل والتبشير

حين يقبل شهر رمضان كل عام تملؤنى سعادة جميلة مباغتة . وتفاؤل واستبشار ، ولا شك أن هذا الشعور ليس مقصورًا على وحدى .

إن من الأزمنة والأيام ، ما يحمل لنا الاستبشار والتفاؤل ، كما أن للأماكن التى تطؤها أقدامنا ما يشعرنا بالبهجة والسعادة ، والاستبشار .

ومن الناس من نجد فى أحاديثهم التفاؤل ، فتسعدنا رؤيتهم بملامحهم المستبشرة ، ولا عجب فى ذلك فإن الله سبحانه وتعالى خالق كل شىء ، يبشر المؤمنين فى كثير من آيات القرآن الكريم منها قوله تعالى : ﴿إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا كبيرًا﴾ .

[سورة الإسراء : الآية ٩]

ويقول سبحانه مبشرا المؤمنين بالجنة : ﴿بشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾ . [سورة البقرة : الآية ٢٥]

ويبشر سبحانه وتعالى المؤمنين بالمغفرة والفضل الكبير قال تعالى : ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر ، وخشى الرحمن بالغيب ، فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾ . [سورة يس : الآية ١١]

وبشر سبحانه وتعالى الصابرين بقوله الكريم : ﴿ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾ . [سورة البقرة : الآية ١٥٥]

وبشر سبحانه وتعالى المحسنين فى قوله : ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ، وبشر المحسنين﴾ . [سورة الحج : الآية ٣٧]

وقد بشرنا الله سبحانه وتعالى بإرسال الرياح ، ليعم المطر وتخرج الثمرات ، قال تعالى : ﴿وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ .
[سورة الأعراف : الآية ٥٧]

وجعل الله تعالى أنبياءه مبشرين بالهداية والجنة كما أنهم منذرون بالنار قال تعالى : ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ . [سورة سبأ : الآية ٢٨]

إن البشرى السارة تدخل السعادة والبهجة على نفس الإنسان قال تعالى : ﴿فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ، قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ .
[سورة يوسف : الآية ٩٦]

ويصور القرآن الكريم أهل الجنة بأنهم يستبشرون بما أفاء الله عليهم بنعيم الجنة قال تعالى : ﴿وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة﴾ . [سورة عبس الآيتان : ٣٨ ، ٣٩]

ما أجمل أن نعتاد على سلوك التبشير والاستبشار والتفاؤل حتى يكون تأثيرنا جميلاً يسعد الناس برؤيتنا ، وبالتعامل معنا ونكون دائمًا مبشرين لا منفرين لمن حولنا فنسعد ، ونسعد الآخرين بوجودنا .

نحن والقرن الحادى والعشرون

ونحن نستقبل القرن الحادى والعشرين ، ونأمل فى غد مشرق سعيد ، نتأمل أحداث الماضى ، وصورة الحاضر ، فى عالمنا ، ونأمل أن يتمكن الإنسان من تحسين كل صور الحياة حوله .. ونتذكر تلك المسئولية العظمى التى يحملها ليعمر الكون الذى خلقه الله سبحانه وتعالى له ، فكان عليه أن ينهض بالأمانة ، فيعمل ، ويهتدى ويؤثر على غيره تأثيرًا طيبًا :

ونحن نستقبل القرن الحادى والعشرين ، لابد أن نتضامن جميعا لنأخذ أنفسنا بالالتزام الجاد للقيام بمسئوليتنا نحو بناء غدٍ مشرق سعيد .

وهذا لا يتأتى إطلاقا إلا من خلال الاهتمام والالتزام بدستور الإسلام العظيم القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة فى كل أقوالنا وأفعالنا . وحركاتنا وسكناتنا وكما تعودت دائما فى لقاءاتى مع القراء الأعزاء .

يسعدنى أن أؤكد المحور الثابت فى هذه المقالات وهو أن سلوكيات المسلم الذى يلتزم بتشريعات الإسلام وقيمه ، هى الضمان الوحيد لنجاحه فى اجتياز الطريق لسعادة الدنيا وجنة الآخرة ، وهذا التأكيد أحب دائما أن يكون من خلال الآيات

القرآنية الكريمة العظيمة ، وليس من خلال عرض بأسلوبى الخاص ، ولا شك أن هذه الآيات الكريمة التى تشير إلى القيم الإسلامية ، تنطق بصورة رائعة معجزة بعظمة وقدرة الخالق سبحانه .

ومن الآيات القرآنية التى تؤكد مسئولية الإنسان :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿تالله لتسألن عما كنتم تفترون﴾ .
[سورة النحل : الآية ٥٦]

﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾ . [سورة التكاثر : الآية ٨]

﴿وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ، ومساكنكم لعلكم تسألون﴾ .
[سورة الأنبياء : الآية ١٣]

﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾[سورة الأنبياء : الآية ٢٣]

﴿أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾ .
[سورة الزخرف : الآية ١٩]

﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾ .
[سورة الزخرف: الآية ٤٤]

﴿وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه﴾ .
[سورة الإسراء : الآية ١٣]

﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا﴾ .
[سورة الإسراء : الآية ٣٤]

﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾ .
[سورة الإسراء : الآية ٣٦]

﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا﴾ . [سورة الأحزاب : الآية ١٥]
﴿وقفوهم إنهم مسئولون﴾ . [سورة الصافات : الآية ٢٤]
﴿ولا يسأل حميم حميمًا﴾ [سورة المعارج : الآية ١٠]
﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ . [سورة فاطر : الآية ١٨]
﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ . [سورة المدثر : الآية ٣٨]

هذه بعض الآيات القرآنية العظيمة التى تؤكد اهتمام الإسلام بمسئولية الفرد عن كل موقف وكل عمل يقوم به ، وكل لفظ ينطق به ، هذه المسئولية العظمى التى تتناسب مع تكريم الله سبحانه له .

وجعله خليفة له على الأرض يعمرها بعمله ، وإيمانه ، وقيمه العظيمة ، وأمانته ووفائه فى القيام بمسئوليته فى الخلافة وعدم اتباعه لأهوائه .

قال تعالى : ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ .
[سورة الحديد : الآية ٧]
﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا﴾ .
[سورة البقرة : الآية ٢٩]
وقال تعالى : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ .
[سورة آل عمران : الآية ١١٠]

إن شعورنا بمسئوليتنا ونحن نستقبل القرن الحادى والعشرين ،

شعور الفطرة السليمة ، والعقول السليمة الناضجة ، والنفوس النقية الطاهرة ، يجعلنا نتأمل أحداث التاريخ الماضية ، لندرك أن كل أمة بعدت عن القوانين الإلهية التى ذكرها القرآن الكريم ، وعن القيم الفاضلة التى حث عليها عاقبها الله سبحانه فمحاها من الوجود ، وصارت عدما بعد حياة ورمادا بعد تألق ، وازدهار .

ونحن نستشرف القرن الحادى والعشرين لابد أن نتنبه أن الطريق الذى لا شك فى أنه سيؤدى بنا إلى كل تقدم وازدهار وسعادة هو العمل بما جاء فى القرآن الكريم . كتاب الله العظيم والاقتداء بتشريعاته لتجد دائما ما يرشد العقل ويوجه وينمى الأخلاق ويهذبها ، ويغذى الروح ويعلى من شأنها وكذلك الاقتداء بسيرة الرسول ﷺ ، وأخلاقه وأحاديثه .

وهذا هو الطريق الذى لاشك قادر على أن يمنح البشر عالما تسوده المحبة والأمن والمودة والسلام ليكونوا عند قيامهم بمسئولياتهم الكاملة فى الاهتداء بالقرآن الكريم والسنة النبوية والعمل بقيمها وتوجيهاتها ، من هؤلاء الذين قال عنهم الله سبحانه وتعالى .

﴿الذين إن مكناهم فى الأرض ، أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر﴾ . [سورة الحج : الآية ٤١]

طاعة الوالدين

من الملاحظ فى عصرنا هذا شكوى الكثير من الآباء والأمهات من معاملة الأبناء لهم ، وما تتسم به من عناد أو جحود أو تمرد أو عصيان أو غير ذلك من السلوكيات التى لم تكن سائدة فى الأجيال السابقة ، حيث كانت الطاعة المطلقة لآراء الوالدين والاحترام لهما ومراعاة مشاعرهما .

وأرى أن الأسباب الجوهرية لهذه التغيرات السيئة الطارئة على سلوكيات الأبناء أسباب كثيرة لكن أهم تلك الأسباب هو عدم اهتمام الكثير من الأسر ، والمدارس ، والمعاهد ، والصحافة ، ووسائل الإعلام ، أى عدم اهتمام كل هؤلاء بالمسئولية العظيمة المنوطة بهم وهى إرساء المبادئ الإسلامية فى توجيه وتربية الأبناء .

إن الفكر الإسلامى يقدم لنا من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ما يؤكد دائمًا أن جوهر الإسلام وهدفه هو إصلاح الفرد والمجتمع وإرساء القيم والمبادئ التى تضمن كرامة الإنسان وسعادته .

ومن أهم القيم التى تحكم السلوك البشرى ، علاقة الأبناء

بآبائهم وأمهاتهم وروابط المحبة ، والولاء والطاعة من الأبناء ، والتربية الإسلامية كمسئولية هامة على عاتق الآباء والأمهات .

إن الكثير من آيات القرآن الكريم توضح أساليب تعامل الأبناء الصحيحة لآبائهم وأمهاتهم ، والتى تقوم على طاعة المسلم لله سبحانه وتعالى لتعامله معهم ، ومراعاته لحقوقهم .

تورد الكثير من آيات القرآن الكريم الأمر بطاعة الوالدين مباشرة بعد الأمر بطاعة الله سبحانه وتعالى ، طاعة حب وولاء ، وإقرار بالفضل .

قال تعالى : ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئًا ، وبالوالدين إحسانا﴾ . [سورة الأنعام : الآية ١٥١]

وتؤكد الكثير من آيات القرآن الكريم أن من أعظم صفات المؤمنين الإحسان إلى الوالدين .

﴿ووصينا الإنسان بوالديه . حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير﴾ .

[سورة لقمان : الآية ١٤]

وأمر الله سبحانه وتعالى برعاية الوالدين والإنفاق عليهما كأول من يجب على الإنسان رعايتهم والإنفاق عليهم من خير الله .

قال تعالى : ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ . [سورة البقرة : الآية ٢١٥]

حتى إذا كان الوالدان ممن لم يهدهم الله سبحانه وتعالى إلى طاعته ورضاه فلا يحق للأبناء الإساءة إليهما أو التلفظ بما يسيء إليهما أو يؤلمهما ، وإنما يجب إحسان القول لهما ومحاولة التنبيه إلى ما يرضى الله فإذا صعب إنصات الآباء والأمهات لصوت العقل والدين يكون إعراض الأبناء عن طريقهم .

قال تعالى : ﴿وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورًا ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورًا﴾ .[سورة الإسراء : الآيتان ٢٨، ٢٩]

إن الطاعة المطلقة للوالدين واجبة فى كل الأمور ، إلا فى أمر واحد هو عدم طاعة الله ، أو الشرك به .

وسقوط حق الوالدين فى طاعة الابن عند أمرهما له بالشرك بالله ، لا يسقط حقهما فى حسن معاملتهما ، والبر بهما . وربما كانت طاعة وبر الابن المسلم الذى هداه الله لوالديه سببا فى هدايتهما إلى الحق .

قال تعالى : ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ .

[سورة لقمان : الآية ١٥]

إن قيمنا الإسلامية تهتم بتماسك الأسرة ، وتماسك الجماعة ،

ومن هنا كان تقليد سلوكيات الغرب ، بمادياته وبعده عن القيم الفاضلة لا يعود على حياتنا إلا بالتعاسة والتفكك .

إن علاقات الأسرة فى الغرب لا تسودها مشاعر الاحترام والمحبة بين الأبناء والآباء ، ولاشك أن حياتها وتقدمها أو تخلفها سيرجع فى النهاية إلى مدى التزامها أو بعدها عن القوانين الإلهية التى ذكرها القرآن الكريم والسنة النبوية .

الكلمة الطيبة

للكلمة فى حياة البشر أثرها ، وخطرها ، وأهميتها ولاشك أن كلمات الكتاب ، والأدباء ، والصحفيين ، لها أهميتها الكبيرة ، فهم يتوسلون بها ، لتوصيل أفكارهم ورؤاهم التى يكون لها آثارها فى نفوس القراء ، والمتلقين ومن هنا تأتى خطورة كلمات الكتاب ، التى لابد أن تعبر عن ضمير يقظ مخلص ، وقلم لا ينطق عن هوى ، أو ضلالة وكاتب يتقى الله سبحانه ، فلا تأتى كلماته بأية إيحاءات تؤثر سلبيا فى توجيه الشباب ، وفى فكرهم . أو تيسر لهم الغواية والضلال ، ولا تأتى كلماته محرضة على أذى بشر ،أو مزورة لحق ، مجملة لباطل . لابد أن تصدر كلمات الكاتب عن ضمير يقظ ، وفكر مستقيم مؤمن ، يتقى الخالق سبحانه ، فيحق الحق ، ويلتزم الصدق ويبتعد عن الصغائر .

ومما يؤلم النفس أننا كثيرا ما نقرأ مقالات لكتاب تفرد لهم مساحات كبيرة من الصفحات بجرائدنا ، وهم لا يتوخون فى كتاباتهم شيئا مما أشرت إليه من مسئوليات الكاتب ، فهم يحرضون بلا شعور بإثم ، على غيرهم من الكتاب . أو المشتغلين بالكتابة ، أو المؤثرين بفكرهم المختلف ، والواجب على الكاتب الجاد ،

الذى يخشى ربه أن ينأى بقلمه عن الهجوم على غيره ، وتسفيه رأيه ، أو التحريض عليه ، وأن يتقى الله فى كل كلمة يكتبها ، فهو مسئول أمام الخالق العظيم ، أن يقول الكلمة الطيبة ، التى تأتى بثمارها الطيبة ، فى أخلاقيات وسلوكيات المتلقين لكلماته ، سواء أكانت فى الصحافة أو الكتب ، أو وسائل الإعلام .

كما أن الفرد العادى ، الذى لا يعمل بالكتابة ، يكون مسئولاً عن كلماته التى ينطق بها ، وآثارها فى أقوال وسلوكيات من حوله .

إن للكلمة الطيبة قدرتها على التأثير فى عمل الخير ، كما أن للكلمة الخبيثة أثرها فى جانب الشر .

وقد عودنا القرآن الكريم ألا يترك أمرا من الأمور التى يهتم الإنسان بها فى حياته إلا ذكره ، ووضحه فى بلاغة وصدق ، وجمال .

قال تعالى فى شأن الكلمة وآدابها : ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا ، وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ .

[سورة إبراهيم : الآيات من ٢٤ – ٢٧]

إن الكلمة الطيبة تحدث أثرها الطيب فى النفوس ، وهى كالدوحة الوارفة الظلال ، العميقة الجذور . تظل آثارها ممتدة ، حيث

تتعلمها الأجيال من الأجيال ، فينشأ الناشئون على الإيمان الثابت ، والأعمال الصالحة .

أما الكلمة الخبيثة فلا ظل لها ولا أثر كالشجرة الخبيثة ، ثمارها مرة : ليس لها قرار ، هزيلة ، لا أساس لها ، ولا جذور صحيحة .

والأمثلة على الكلمة الطيبة كثيرة ، تبدأ من الإيمان بالله ، قولا يصدقه العمل ، حيث يتفرع من هذا الإيمان كل السلوكيات الطيبة كالنصح المخلص ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والحث على الإخلاص والأمانة ، والصدق فى الحديث ، وفى الشهادة ، وكلمة المحبة والصفح .. والصدق .

قال تعالى : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ .
[سورة فاطر : الآية ١٠]

وقال تعالى : ﴿قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾ . [سورة المائدة : الآية ١١٩]

والآيات القرآنية الكريمة التى تحثنا على اتباع الحق ، وقول الصدق كثيرة .

منها قوله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ . [سورة التوبة : الآية ١١٩]

إن الكلمة الطيبة ، تقوم على الصدق ، والتزام الحق قولاً وفعلاً

عقيدة ، وسلوكا ، حثا على الخير ، وصرفا عن الشر ، وصلحا بين الناس ، ودفعا للضرر عنهم .

والخالق سبحانه يوجهنا إلى أهمية قول الصدق . فالمسلم إذا ما ارتفع ضميره ، بِهَدْيٍ من الإيمان . وخشيته سبحانه لا يعبأ بمصلحة شخصية ، أو بانحياز لصديق أو قريب ليقول كلمة صادقة .

فكلماته دائما مع الحق ، والصدق قال تعالى : ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾ . [سورة الأنعام : الآية ١٥٢]

كما يحث المسلم على التزام الصدق والقول السديد ، ويعده بالمغفرة لذنوبه جزاء على صدقه . قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدًا ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما﴾ [سورة الأحزاب : الآيتان ٧٠-٧١] والكلمة الطيبة والقول السديد فى صالح من يكون فى ولاية المسلم ، من يتامى الأقربين ، أو الغرباء ، أو عندما يحضر وصايا الغير لذرياتهم أو للأجانب عنهم . لا تغفله آيات القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا﴾ . [سورة النساء : الآية ٩]

والكلمة الطيبة الحانية لها أهميتها فى كثير من المواقف مثلا هى

هامة فى وقت تقديم الزكاة أو الصدقة ، فلابد أن يكون العطاء مقرونا بالكلمة الطيبة الحانية ، التى لا توحى بالمن ، ولا تؤذى المشاعر . قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ . [سورة البقرة : الآية ٢٦٤]

وقال سبحانه وتعالى : ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾ . [سورة البقرة : الآية ٢٦٣]

والله سبحانه يعد الصادق بتثبيته بكلماته الصادقة فى حياته ، وفى آخرته . قال تعالى : ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا ، وفى الآخرة﴾ . [سورة إبراهيم : الآية ٢٧]

إن الله سبحانه يثبت المؤمن الصادق على الحق واليقين ، فى الدنيا يثبته على العمل الصالح ، والخير ، والكلمة الطيبة .

وفى الآخرة يثبته على كلمة الإيمان ، والإسلام ، عند الحساب . المسلم يقول الحق ويسانده ، ويرشد إليه ، ويشهد به ، وله .

ولا يكتم الحق ، ولا يخشى فى الحق لوما أو أذى . ولا يلبس الحق بالباطل ، ولا يتبع الظن ، ولا يقف فى وجه الحق ، وهو يعلم يقينا أن الباطل لا يقوى على الوقوف فى وجه الحق أبدًا .. قال تعالى : ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ . [سورة الأنبياء : الآية ١٨]

إن طاعتنا للخالق سبحانه توجب علينا قول الحقّ ونصرته واتباعنا

لسنة رسولنا الكريم ﷺ ، تهدينا إلى الاقتداء به فى صدق القول والفعل .

قال ﷺ : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل بها له رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى يظن أنَّها تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه من سخطه إلى يوم يلقاه) .

ويقول ﷺ : (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه) .

ويقول فى حديث آخر : (عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقا) .

ولا شك أن الإنسان المؤمن الذى لا يقول إلا الحق والصدق والكلمة الطيبة ، يجد الجزاء السريع فى اطمئنان قلبه ، وراحة ضميره .

تحريم إيذاء الغير

في هذه المرحلة التاريخية التى نعيشها ، يظهر بوضوح لكل من يتأمل ، ويفكر فى مجريات الأحداث بالعالم ، مدى تصدى فئات كثيرة فى أرجاء العالم ، لمحاربة الإسلام ، واستغلالهم المواقف ، أو صنعهم لها ، حتى يحاولوا الصاق التهم ، والافتراءات ، على الإسلام ، وهو منها برىء وهو منزه عنها كل التنزيه ، وهو بنفسه وقيمه وقرآنه العظيم المعجز ، وسيرة رسوله الكريم ، شاهد واضح على عظمته ، وسماحته ، وليس فى حاجة إلى دفاع أحد مهما وصلت بلاغته ، وقوة حجته .

وليس على من يريد الإيمان بذلك والوصول بيسر وسهولة إلى التسليم بصحته إلا أن يقرأ بنفس صافية ، ورغبة حقيقية فى معرفة الحقيقة دون افتراء ، أو جهل ، أو عناد ، إن الإسلام هذا الدين العظيم ، خاتم الأديان أراد بكل تعاليمه ، وتشريعاته ، أن يعيش البشر جميعا ، تظللهم حياة هانئة ، تسودها المحبة ، والرحمة ، والتكافل الاجتماعى والعلاقات الحميمة بين البشر .

ومن السلوكيات الكثيرة التى أكد عليها القرآن الكريم تحريمه إيذاء الغير .

قال تعالى : ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا﴾ . [سورة الأحزاب : الآية ٥٨]

وقد أمر الله سبحانه المسلمين بالابتعاد عن الأذى ، حتى إذا قدمنا الإحسان مقترنا بإيذاء شعور من نحسن إليه أبطل الأذى الإحسان . بل وضعف أثر الإحسان تماما وربما يكون قول المعروف خيرًا من الإحسان الذى يتبعه أذى .

قال تعالى : ﴿قول معروف ومغفرة ، خير من صدقة يتبعهآ أذى ، والله غنى حليم﴾ . [سورة البقرة : الآية ٢٦٣]

إن الأذى يبطل الصدقة ويمحو حسنتها ، كما يمحو المطر التراب من الحجارة .

قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب، فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين﴾. [سورة البقرة: الآية ٢٦٤]

وقد نهى الله سبحانه المسلمين عن إيذاء النبى ﷺ ولو دون قصد منهم ، بالبقاء فى مجلسه طويلا ، أو بالتفكير فى الزواج بإحدى زوجاته بعد وفاته .

قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستئنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى

منكم ، والله لا يستحى من الحق ، وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، إن ذلكم كان عند الله عظيما﴾ . [سورة الأحزاب : الآية ٥٣]

لقد أكدت الكثير من الآيات القرآنية الكريمة ضرورة كف الأذى كسلوك من السلوكيات التى لابد للمسلم أن يلتزم بها .

وما أصدق الدلالات العملية فى هذه الفترة من تاريخ العالم ، التى تؤكد عدم التزام غير المسلمين فى كل أرجاء العالم بهذه القيمة الإسلامية العظيمة ، عدم إيذاء الغير ، وذلك لأنهم لا يدينون بالإسلام ، ويعاندون الفطرة البشرية السليمة التى تنادى البشر ذوى النفوس النقية ، والعقول التى تعى وتتأمل وتفهم ، وهم يخشون الإسلام ويهابونه لضعف أصاب نفوسهم المريضة ، ووهن أضعف أرواحهم وضلالة خيمت على عقولهم ، فيضعون كل إمكاناتهم لضرب الإسلام والمسلمين فى كل مكان فى العالم .

لكن الله سبحانه ، قادر على نصرة المسلمين مهما كانت الأحوال .

وقد وجه القرآن الكريم الرسول عليه السلام إلى الصبر على أذى الكفار والمنافقين ، والتذرع بالإيمان بالله ، والتوكل عليه ، والإيمان والتوكل لا يعنيان السكون والسلبية أمام كل ما يحدث وإنما لابد من محاولة مساندة الحق ، والاجتماع على كلمة واحدة

ضد الباطل ، والوقوف مع المسلمين الذين يواجهون قوى شرسة ظالمة فى أنحاء كثيرة من العالم ، البوسنة ، الشيشان .

قال تعالى : ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبإ المرسلين﴾ . [سورة الأنعام : الآية ٣٤]

وقال تعالى : ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين ، ودع أذاهم وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا﴾ . [سورة الأحزاب : الآية ٤٨]

إن المسلمين فى أنحاء العالم يواجهون حربًا نفسية ضارية ، ومازال الغرب وسيظل يسلط عليهم أفكاره التى تحاول زعزعة الإيمان من قلوبهم ، والتأثير على سلوكياتهم ونحن فى أمس الحاجة إلى التمسك بقيمنا الإسلامية العظيمة التى تضمن للفرد هدوء النفس ، وراحة الضمير ، وللجماعة الحياة السعيدة الآمنة الهادئة .. فى ظل التراحم والمحبة التى تحكمها قوانين سماوية عظيمة ، وضعها خالقنا ، وخالق كل شىء .

الدعاء

إذا واجه المرء مشكلة أو موقفا صعبًا لا يجد قط ما يشعره بالأمن والهدوء إلا ابتهاله ودعاءه إلى الله سبحانه القادر وحده على الاستجابة ، وإعانة الملهوف ، ومساعدة الضعيف ، وإزالة الكرب .

إن دعوة الإنسان ورجاءه لله سبحانه وحده ، قال تعالى :﴿له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ، ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال﴾ .
[سورة الرعد : الآية ١٤]

إن الذى يدعو غير الله يكون مثله كالظمآن الذى يبسط كفيه إلى الماء يريد وصوله إلى فمه لكن الماء لا يبلغ فمه أبدًا .

ونجد من الآيات القرآنية أمثلة رائعة تشير إلى استجابة الله سبحانه القادر وحده لدعاء عباده منها هذه الآية الكريمة :
﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبًا فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين﴾ .

[سورة الأنبياء : الآيتان ٨٧ ، ٨٨]

إن الله سبحانه قد استجاب لدعوة « يونس بن متى » أرسله الله تعالى إلى قرية نينوى من أرض الموصل فدعاهم إلى الله لكنهم تمادوا في كفرهم فخرج من بينهم مغاضبًا لهم ووعدهم بالعذاب ، فلما تأكدوا أنه نبى لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ودعوا الله أن يرفع عنهم العذاب ، فاستجاب لهم الله سبحانه ورفع العذاب عنهم .

وذهب يونس عليه السلام مع قومه فركبوا فى سفينة تأرجحت بهم فخافوا أن يغرقوا ، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم ليخففوا الثقل عن السفينة ، فوقعت القرعة ثلاث مرات على يونس .

قام يونس يتجرد من ثيابه وألقى بنفسه فى البحر فأرسل الله سبحانه وتعالى حوتا فابتلعه وأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا يأكل له لحما ولا يهشم له عظما فإن يونس ليس لك رزقا ، وإنما بطنك تكون له سجنا ، ثم نادى يونس عليه السلام وهو فى بطن الحوت بكلمة التوحيد « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » .

استجاب الله دعاء يونس ونجاه من الكرب والشدة ، وأمر الحوت أن يقذفه على الساحل . هكذا يستجيب الله سبحانه القادر لدعاء المؤمنين إذا وقعوا فى شدة ، ودعوه مخلصين . خاصة إذا دعوه بهذا الدعاء الذى يقر بقدرة الله سبحانه وحده على إجابة الدعاء .

قال ﷺ « دعوة أخى ذا النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت ، ما دعا بها مؤمن إلا استجيب له » .

وفى رواية أخرى : دعوة ذا النون إذ هو فى بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له .

وقال ﷺ : « إنى لأعلم كلمة لايقولها مكروب إلا فرج الله عنه . كلمة أخى يونس » .

وكان الرسول ﷺ « يدعو دعاءه لإزالة الكرب والغم « لا إله إلا الله الحليم العظيم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش العظيم » .

إن الإنسان إذا واجه موقفا صعبًا على نفسه ، أو معضلة لا يجد لها حلاً ، يبتهل إلى ربه ، ويجد عنده سبحانه الإجابة ، وكشف السوء وراحة البال ، وهدوء النفس .

لقد وعدنا الله سبحانه بإجابة دعاء من يداومون على عبادته ، فتسمو أرواحهم ويكون دعاؤهم مستجابًا مقبولاً عند ربهم .

قال تعالى : ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾ .

[سورة البقرة : الآية ١٨٦]

إن هذه الآية الكريمة تؤكد قرب الله سبحانه وتعالى من عباده المؤمنين ، وسرعة إجابته دعوة سائليه .

قال سبحانه : ﴿أجيب دعوة الداع﴾ وهذا السياق العظيم المعجز فى الآية الكريمة يؤكد سرعة استجابة الدعاء .

وعن الدعاء واستجابة الله سبحانه وتعالى لطلب عبده المؤمن ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليستحى أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيرا فيردهما خائبتين » . رواه أبو داود الترمذى – ابن ماجه .

وقال أيضا ﷺ : « ما على ظهر الأرض من رجل مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة إلا آتاه الله إياها ، أو كف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » رواه الترمذى .

كيف للإنسان أن ينسى الدعاء ، وطلب الرحمة وكف الضر ، من خالقه وحده ، القادر .

قال تعالى : ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون﴾ .

[سورة النمل : الآية ٦٢]

ومن العجيب أن الإنسان كثيرًا ما يجحد نعمة ربه أو ينساها فلا يذكرها ، فيخسر بذلك الكثير ولا ينعم بذلك الشعور الرائع بقربه من خالقه سبحانه الذى يلجأ إليه فى كل وقت بصادق الدعاء ، ويشعر بالاطمئنان وإجابة الرجاء .

قال تعالى : ﴿ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين﴾ . [سورة غافر : الآية ٦٠]

والإخلاص فى الدعاء صفة من صفات الواثقين فى الله سبحانه

قال تعالى : ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون﴾ .
[سورة غافر : الآية ١٤]

على المسلم دائما أن يلجأ إلى ربه ويدعوه بإخلاص وثقة كما دعاه الأنبياء فلبى لهم كل دعاء .

قال تعالى : ﴿اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء﴾ .
[سورة المائدة : الآية ١١٤]

هكذا دعا عيسى عليه السلام ربه .

وقد أوصانا رسول الله ﷺ بالدعاء حين أوصى معاذا فى حديثه الشريف : « يا معاذ أوصيك أن تقول فى دبر كل صلاة اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » .

وأننا عندما نقرأ القرآن الكريم نجد كثيرا من الآيات القرآنية التى تطمئن القلب وتريح النفس .

قال تعالى : ﴿ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار﴾ .
[سورة آل عمران : الآية ١٩٣]

وقال تعالى من الأدعية القرآنية : ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ . [سورة البقرة : الآية ٢٨٦]

طيب المأكل والمشرب

طيب المأكل والمشرب عنصر أساسى وهام بالنسبة لكل إنسان حتى ينعم بصحة البدن وسلامة الروح .

● وكما عودنا القرآن الكريم لم يتركنا دون إرشاد فى هذا الشأن الهام فقد وضح لنا الشروط الهامة التى لابد من توافرها حتى نحقق لأنفسنا طيب المأكل والمشرب .

أولها : أن يكون مصدر المال الذى ننفقه على الغذاء حلالاً طيبًا ، وقد توعد الله سبحانه وتعالى بالعذاب الأليم كل معتد على أموال اليتامى بغير الحق .

قال تعالى : ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾ . [سورة النساء : الآية ١٠]

وقال تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ .
[سورة البقرة : الآية ١٨٨]

وقال تعالى : ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا﴾. [سورة النساء : الآية ٤]

وأبشع وأفظع لون من ألوان أكل مال الغير ، الربا قال تعالى :

﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ .

[سورة البقرة : الآية ٢٧٥]

إن النفوس الخيرة الطيبة لا تستطيب المأكل والمشرب إلا إذا كان حلالا طيبا .

● وثانى الشروط لطيب المأكل والمشرب هو أن يكون حلالاً طيبًا لم يحرمه الله سبحانه وتعالى ، فمن المأكولات والمشروبات ما حرم الله لتأثيرها السيىء على صحة الإنسان وحياته كلها ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يريد لمخلوقاته إلا كل خير وسعادة فمن المشروبات المحرمة الخمر .

قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ .

[سورة المائدة : الآية ٩٠]

أما المأكولات التى حرم الله سبحانه وتعالى أكلها وأثبتت الاكتشافات العلمية فى عصرنا هذا أثرها الضار جدًّا بالصحة فقد وردت فى قوله تعالى : ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم﴾ .

[سورة النحل : الآية ١١٥]

وثالث الشروط التى يتحقق بها طيب المأكل والمشرب تتضح فى الآداب التى يلتزمها الإنسان فى طعامه حتى يكون حلالا طيبا .

قال تعالى : ﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ . [سورة النحل : الآية ١١٤]

إن المسلم يشكر ربه ويأكل الحلال دون إسراف .

قال تعالى : ﴿يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ .
[سورة الأعراف : الآية ٣١]

وقال تعالى : ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ، ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى﴾ .
[سورة طه : الآية ٨١]

ومن آداب الطعام ذكر اسم الله عند إعداده وعند تناوله وعند ذبح ذبيحته .

قال تعالى : ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ، وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه . وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ، وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك أعلم بالمعتدين﴾ . [سورة الأنعام : الآيتان ١١٨ و ١١٩]

لقدْ أحل الله لعباده أكل الطيبات وحرم كل ما فيه إضرار بصحتهم وبحياتهم .

قال تعالى : ﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ، واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾ . [سورة المائدة : الآية ٤]

● وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالتصدق بالأكل وإطعام المساكين .

قال تعالى : ﴿وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ . [سورة الحج : الآيتان ٢٧ ، ٢٨]

حسن الإنفاق

إذا سألتنى عن أهم سلوك لا أحب أن أتعامل مع صاحبه قط ، أو تربطنى به أية صلة ، أجبتك مباشرة ودون أدنى تردد (البخل) .

تأكدت طوال حياتى ، وتجاربى وعلاقاتى أن الإنسان البخيل يصعب التعامل معه ، ولا يسعد الإنسان بمعرفته . ليس ذلك لأنى أو غيرى يريد من الغير أن يغدق عليه عطاء ، بل لأسباب أخرى تماما ، ذلك أن البخيل تنعكس على كل سلوكياته صفات ذميمة تنبع كلها من محور ثابت لديه هو البخل .

إن شعوره مركز فى شخصيته وفى الاحتفاظ لها بكل شىء ، حتى المشاعر الحلوة الطبيعية يبخل بها .

مثلا إذا أحبت زوجة بخيلة زوجها ، فهى تريده أن يحبها هى فقط ، وهى تتألم وتتعب ، إذا أبدى محبته واهتمامه بآخرين ، فكان بارا بوالديه مثلا ، محبا لإخوته أو لأصدقائه .

إن حبها له بهذه الصورة يتحول إلى نقمة وعذاب ليس لها فحسب وإنما له أيضا .

وإذا تأملنا الآيات القرآنية الكريمة التى نهت المسلمين عن هذه الصفة الذميمة نجد الكثير من المعانى العظيمة .. قال تعالى ناهيا

عن البخل موضحا أن البخيل يطوق يوم القيامة بما بخل به فى الدنيا من نعم الله وفضله :

﴿وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا تردى﴾ . [سورة الليل : الآيات ٨ – ١١]

وقال تعالى : ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير﴾ .

[سورة آل عمران : الآية ١٨٠]

وقد تحدث القرآن الكريم عن المنافقين الذين تعهدوا بأن ينفقوا مما يعطيهم الله ، فلما أعطاهم ضنوا وأخلفوا : ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون﴾ .

[سورة التوبة : الآيات ٧٥ – ٧٧]

وقد استنكر القرآن الكريم سلوك البخيل الذى يحث غيره على البخل ويسخر ممن يوفقه الله إلى بذل جزء من ماله فى عمل الخير والبر .

قال تعالى : ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم ، فيسخرون منهم ، سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ . [سورة التوبة : الآية ٧٩]

قال تعالى : ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينًا﴾ .

[سورة النساء : الآية ٣٧]

إن الإنسان الذى يحب أن ينهج السلوك القويم الذى يسعد به ويسعد من حوله يكون معتدلا فى إنفاقه ويتعهد نفسه بالتقويم فيبتعد عن الشح ، وأيضا عن الإسراف والتبذير ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ . [سورة الحشر : الآية ٩]

إن الإسلام يحث دائمًا على الاعتدال فى السلوك فإذا كانت الحياة بمباهجها وشهواتها تدفع الإنسان أحيانا إلى حبها فإن كبح جماح النفس أولى وأعظم .

قال تعالى : ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ .

[سورة آل عمران : الآية ١٤]

ما أجمل سلوك الاعتدال فى الإنفاق الذى تحدثنا عنه الكثير من آيات القرآن الكريم .

قال تعالى : ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾ . [سورة الفرقان : الآية ٦٧]

قال تعالى : ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل

البسط فتقعد ملوما محسورا ، إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا﴾ .

[سورة الإسراء : الآيتان ٢٩ ، ٣٠]

لقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلم بالاعتدال دائما والتوسط فى الإنفاق بين البخل والتبذير .

قال تعالى : ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا﴾ .

[سورة الإسراء : الآيتان ٢٦ ، ٢٧]

يا رسول الله
يا فارس كل عصر

●● لا شك أن كل من ينير الإيمان قلبه فيقرأ القرآن الكريم ، ويتعرف على السنة النبوية المطهرة ، وعلى خلق الرسول ﷺ وحياته ، بكل ما حفل بها من أحداث ومواقف يتعلم الدروس العظيمة ، ويزداد إيمانا ويقينا وسعادة ، ويتهذب ويحسن عملا ، ويرق روحًا .

●● حين نتأمل الأحداث العظيمة التى حدثت فى بدايات تاريخ الدعوة الإسلامية ، ومن أهمها ذلك الحدث الذى كان نهاية عهد تعرض فيه المسلمون للأذى والاضطهاد فكانت « الهجرة من مكة إلى المدينة » .

●● كانت الهجرة الأولى فى الحبشة حين قابلت قريش الدعوة الإسلامية ، بالجهل والحمق ، والطغيان والعناد .

●● نستروح نسمات الإيمان التى عمرت بها قلوب المسلمين الذين أخلصوا لله ، فكانوا أمثلة للإيمان والتضحية واستجابوا لقول الرسول ﷺ « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكا عظيما لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه .. » .

●● وكانت بداية الهجرة إلى الحبشة فى شهر رجب من السنة الخامسة بعد الهجرة .

وأول ما نتعلم حين نتأمل دروس الهجرة ، حسن الاستجابة والطاعة لأقوال الرسول ﷺ الذى اختاره الله سبحانه وتعالى بشيرا ونذيرا .

●● ما أعظم الفرق بين الكافر والمكابر ، والمسلم المطيع أما الكفار فقد قال عنهم القرآن الكريم : ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا﴾ .

[سورة الإسراء : الآيات ٩٠ - ٩٣] .

ونقف كثيرا لنتأمل ما تحمَّله المسلمون من إيذاء المشركين ، ونتأمل اتباعهم للقدوة الحسنة ، والمثل العظيم ، الرسول الكريم ، الذى أثنى عليه الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ . [سورة القلم : الآية ٤]

●● فى موسم الحج عرض الرسول ﷺ القرآن الكريم على بعض من الأنصار فهداهم الله وكانوا دعاة له فى يثرب ، وكثر أتباعه وأنصاره فى المدينة .

●● وفى موسم الحج الثانى خرج منهم جماعة للقائه وبايعوه على الإيمان والنصرة وطلبوا منه الهجرة إليهم هو وأصحابه .

●● أمر الرسول ﷺ المسلمين بالهجرة معه من مكة إلى المدينة ، فأزمعت قريش قتله وجعل دمه مفرقا بين القبائل ، لكن الله سبحانه حفظه وقال فى كتابه الكريم : ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين﴾ . [سورة الأنفال : الآية ٣٠]

●● إننا حين نتأمل أحداث الهجرة والمواقف التى أحاطت بالهجرة نزداد إيمانا بهذا الدين العظيم الذى لم تستطع العقلية الجاهلية فى البداية أن تستوعب ما حمله من دعوة إلى التوحيد ، وبعد عن عبادة ما لا يملك نفعا ولا ضرًا ، والالتزام بالقيم العظيمة التى تضمن للإنسان السعادة فى الدنيا والآخرة .

●● إن تأملنا فى أحداث الهجرة يزيد من تمسكنا بما دعا إليه الإسلام العظيم من سلوكيات تقترب من كل ما هو نبيل وجميل وتبتعد عن كل ما هو قبيح ورذيل .

●● إننا نحب مكة كما أحبها الرسول « عليه السلام » فرغم ما واجه من صعاب من بداية الدعوة بها ، قال عندما خرج منها ليلا : « والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله ، وأحب بلاد الله إلى ، ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت » .

●● فى ذكرى الهجرة نتعلم من إيمان الرسول ﷺ أهمية الإيمان

والصبر ، والعمل بكل ما أمرنا به الله سبحانه وتعالى من سلوك قويم ونثق تمامًا فى عون الله وحمايته ورعايته وتأييده .

●● لا نملك فى ذكرى الهجرة إلا أن نحييك يا حبيبنا يا رسول الله ، يا فارس كل عصر وكل زمان ، ونذكرك دائما ، ونذكر عظمة هجرتك غير هياب ولا وجل ، لنشر الدين العظيم والقرآن الكريم ، ومعك رفيقك أبو بكر الصديق « رضى الله عنه » الذى نتعلم منه كيف تكون عظمة الصداقة والمحبة بين البشر .

●● نحييك يا حبيبنا ليس بالكلام فحسب بل ندعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا إلى السير على دربك وسنتك العظيمة .

المرأة فى ظل الإسلام

تقف المرأة فى عالمنا المعاصر حائرة بين تيارات متضاربة عجيبة فنسمع ونرى بعضا من الكاتبات فى عالمنا العربى ، يتحمسن للكتابة عن المرأة ، وعن (الأدب النسائى) ، وعن حقوق المرأة .. الخ وكأن المرأة كائن غريب لها عالمها الخاص ، المنفصل تماما عن عالم الرجل .

وتارة أخرى نسمع ونرى الكتاب الذين يكتبون عن المطالبة بالحرية الكاملة للمرأة ، حتى تواكب حضارة العصر ، وأنه ليس هناك ضير من الملابس الكاشفة عن جسدها ، فالمرأة « المتحضرة » فى الغرب ، ترتدى ما يحلو لها .

وفى ذات الوقت نجد من يدعون إلى عودة المرأة إلى البيت وعدم ضرورة تعليمها ، أو عملها ، فقد أفسد العلم والعمل حياتها . وبين كل هذه الآراء المتضاربة تقف المرأة حائرة .. من هنا كان لابد من وقفة تأمل سريعة ، وفقا لما يتيحه المقام ، لكنها تحتاج من كل منا ذكرا أو أنثى إلى وقفات طويلة ، وتأملاتٍ ومحاولات للوصول إلى الحقائق التى لا يريحنا إلا الاهتداء بهديها ، ولا يرضينا ، ويطمئن قلوبنا إلا الارتواء بريها ، والعمل بما جاء فيها .

هذه التأملات والوقفات عند ما يقدم لنا الدستور العظيم الذى لا يبلى ، ولا يفنى ، ولا يستحدث ، القرآن الكريم .. ذلك أن الله سبحانه ، خالقنا العظيم ، ارتضى الإسلام خاتما للأديان ، والقرآن الكريم دستورا صالحا للحياة فى كل زمان ومكان ، نتعلم ونهتدى بهديه .. ونستضىء بسنة نبيه محمد ﷺ خاتم الرسل .

إن الإسلام العظيم لم يفصل بين معاملته للمرأة ، ومعاملته للرجل ، ذلك الفصل الذى يتوهمه الكثيرون .. وإنما أراد الخالق سبحانه أن يكون أصل البشرية نفسا واحدة ، وطبيعة واحدة ، وفطرة واحدة ، ثم بث منها رجالا ونساء ، ليكون المجتمع ، وتعمر الحياة بالأبناء والحفدة قال تعالى : ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون﴾ .

[سورة النحل : الآية ٧٢]

وقال تعالى : ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾ .

[سورة النساء : الآية ١]

إن مصدرنا جميعا من أصل واحد ، ونفس واحدة ، فالمرأة نفس خلقت لنفس ، وشطر يكمل شطرا وليكونا زوجين متكاملين ، متحابين .

قال تعالى ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾
[سورة الروم : الآية ٢١]

إن كلا من الزوج ، والزوجة ، يجد فى الآخر سكن النفس وهدوء البال ، وهذه العلاقة الحميمة من المودة والرحمة والمحبة ولكل منهما دوره الهام فى حياة الأسرة ، والمجتمع ، والأبناء ، والأحفاد .

ما أعظم وما أروع القرآن الكريم وتشريعاته التى كفلت للمسلمين كل ما يضمن لهم السعادة فى الدنيا ، ورضا الله سبحانه وتعالى والجنة الخالدة فى الآخرة .

أما المرأة ، فما أعظم تشريعات القرآن الكريم التى أرادت لها الكرامة والعزة .. إنها لم تلق فى ظل عصر من العصور السابقة ، ولن تجد أبدا فى عصور لاحقة ما ضمنه لها القرآن الكريم وتشريعاته من تكريم ، فهو لم يعتبرها بشرا كريما فحسب وإنما شرع ما يضمن لها أعظم التكريم .. وأعز التبجيل .

أعطى الإسلام المرأة كل الحقوق التى للرجل ، وزاد لها حقوقا أخرى عند الرجل ، مزيدا فى حمايتها ، ورعايتها .

فقد أعطاها كل الحق فى حماية الرجل لها ، ورعايتها معنويا ، وماديا ..

وأى تكريم وأى اجلال ، واعزاز لها حين أمر القرآن الكريم

بغض البصر احتراما للمرأة وتوقيرا لها ، وحين أمر المرأة بغض البصر عن الرجال لمزيد من التوقير والاحترام لها .

وحين أمر المرأة بالاحتشام وعدم التبرج فى مظهرها وملبسها وزينتها للبعد عن الفتنة ، ولضمان كرامة الرجل والمرأة على السواء .

قال تعالى موجها الخطاب للرجال : ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون﴾ .
[سورة النور : الآية ٣٠]

وقال سبحانه وتعالى موجها الخطاب للنساء : ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ .
[سورة النور : الآية ٣١]

هناك الكثيرون والكثيرات ممن يتعدون عن الحقائق والبديهيات الواضحة حين يناقشون (زى المرأة المسلمة) ، مدعين أن الأمر بالاحتشام والحجاب خاص بزوجات النبى ﷺ ، والحقيقة الواضحة أن الأمر ينسحب على النساء جميعا ، وحتى حين خص الله

سبحانه وتعالى « نساء النبى » كان ذلك ليجعلهن مثلا يقتدى بهن المؤمنات فى كل ما يضمن لهن الاحترام والوقار ، والأمان من نظرات ذوى القلوب المريضة ، حرصا على كرامة المرأة ، وعدم خدش حيائها وحمايتها ، وإغلاق كل أبواب الفتنة ، التى تسبب مشاكل المجتمع قال تعالى : ﴿يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾
[سورة الأعراف : الآية ٢٧]

إن المظهر الوقور المحتشم يحقق للمرأة الرضى عن نفسها ، والاحترام من النساء والرجال على السواء ، ورضى وتوفيق الله سبحانه فعليها أن تغطى جميع بدنها إلا الوجه والكفين .

قال ﷺ : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لا يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا الوجه والكفين » ..

ويجب ألا يكون الزى زينة في نفسه يلفت النظر ، ولا يكون شفافا لقوله ﷺ : « سيكون فى آخر أمتى نساء كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت » .

ومن تكريم الإسلام للمرأة ، ودورها الهام فى الحياة ، انه منحها حق العلم والتعليم ، ولم يفرق بينها وبين الرجل فى طلب العلم أو العمل بصورة تضمن احترامها ، وتقدير مكانتها ، مما يؤكد أن موقف الإسلام من المرأة هو نفس الموقف من قضايا الإنسان عامة فى الحياة كلها قال رسول الله ﷺ : « من سلك طريقا

يبتغى فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ، رضى بما صنع ، وإن العالم لتستغفر له ما فى السموات ، ومن فى الأرض ، حتى الحيتان فى الماء . وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وأن العلماء ورثة الأنبياء ، وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ حظا وافرا » .

وقال تعالى : ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب﴾ . [سورة الزمر : الآية ٩]

كانت النساء تجتمعن فى مسجد الرسول عليه السلام حتى يسمعنه ، ويصلين معه ، ويتعلمن منه .

وكان لكثير من النساء دور عظيم فى العلم والتعليم والعمل ، وقد شاركت المرأة فى المعارك فى عهد الرسول ﷺ .. ومواقفها لا تنسى فى معركة القادسية .

ما أبعد البون بين موقف المرأة فى ظل الإسلام ، وموقفها دون تكريمه واجلاله لها .

قبل ظهور الإسلام ، فى الجاهلية ، عاشت تحت وطأة الظلم حرمت من الارث ، ومنعت فى حالة الطلاق أو وفاة الزوج من الزواج وورثت كما يورث المتاع فى حين كان الرجل يتزوج بمن يشاء ، وبأى عدد من النساء .

وكانت المرأة توأد خوفا من العار ، أو لأنها سوداء ، أو برصاء

أو خشية من الفقر ، وكانت تشترى وتباع وتكره على الزواج وتورث ، وتملك ، ولا تملك .

وفى عصرنا الحديث إذا ما نظرنا إلى ما آل اليه حال المرأة فى دول الغرب التى اعتبرها الكثيرون قد وصلت إلى قمة التطور والرقى .

نجد أن المرأة قد ضاعت أنوثتها ، وتوقيرها ، فهى تعمل فى الحانات وفى أى مكان ، وليس لها حقوق خاصة فهى محرومة من الميراث فى كثير من البلدان ، مطالبة بكفالة نفسها حين تبلغ سنا معينة .

وهى تفقد اسمها وشخصيتها المدنية ، عند زواجها ، ولا يكون لها أهلية التعاقد أو التملك وإجراء العقود من بيع وشراء فى كثير من دول الغرب .

وليس هناك من القوانين ما يضمن صيانة شرفها فلا عقوبة على من يغدر بها أو يعتدى عليها ، إلا إذا كانت قاصرا .

أين ذلك كله ، من تلك الحماية ، والرعاية ، التى منحها الإسلام للمرأة حين جعل لها كيانا اقتصاديا مستقلا ، فهى تستطيع أن تمتلك ، وتتصرف بنفسها ، وبلا وسيط ، وقد نص القرآن الكريم فى كثير من آياته الكريمة على حقوقها فى الميراث ومن أمثلة ذلك الآيات الثلاث من سورة النساء التى تتضمن أصول الميراث ، ثم انبثقت منها فروع وضحتها السنة النبوية الشريفة .

قال تعالى : ﴿يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس ، من بعد وصية يوصى بها أو دين ، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله ، إن الله كان عليما حكيما﴾ .
[سورة النساء : الآية ١١]

وقال تعالى : ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن ، من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله ، والله عليم حليم﴾ .
[سورة النساء : الآية ١٢]

وقال تعالى : ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ، إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم﴾ . [سورة النساء : الآية ١٧٦]

فأى تكريم وأى إجلال وتعزيز ما حظيت به المرأة فى ظل الإسلام .

وأى جمال وأى إجلال ، ذلك الذى أضفاه الإسلام على المرأة .

وما أعظم وما أروع القرآن الكريم وتشريعاته التى قدمت للمسلم ، وللمسلمة ، كل الآيات العظيمة التى تضمن لكل منهما عند اتباعها ، السعادة فى الدنيا . والجنة الخالدة ورضى الله سبحانه وتعالى فى الآخرة الباقية .

الإسلام والطفولة

إن مرحلة التلقى هى مرحلة الطفولة الأساسية التى تلعب دورا رئيسيا فى تكوين شخصية الفرد وهى تبدأ من الأسرة حيث ينهل أهم المبادئ والسلوكيات من خلال توجيه الأب والأم والأخ الأكبر .

إن الطفل يتعلم من كل هؤلاء السلوكيات والآداب ، والعقائد والعبادات ، وبقدر اهتمام الأسرة بتربية أبنائها تكون أجيال المستقبل

قال الشاعر :

وينشأ ناشيء الفتيان منا   على ما كان عـوده أبوه

إذا عاش الطفل بين أم صالحة وأب صالح يرعى كل منهما أمور الآخر ويقوم كل منهما بواجباته نحو ربه ، ونحو أسرته ومجتمعه ، ينضج فردا صالحا لأن الطفل لبنة طيبة طيِّعة والأسرة هى المسئولة الأولى عن مستقبله .

حقا تتداخل عوامل أخرى مع الأسرة فى مسئوليتها حين يكبر الطفل فتكون المدرسة والكلية أو المعهد لكن تظل مهمة الأسرة أساسية لها الأثر الأعظم والأعمق فى تكوين شخصيته .

من هنا كان اهتمام الإسلام بكل التشريعات التى تضمن حسن تربية الأطفال وتعهدهم حتى قبل وجودهم فى الحياة ، فمنذ البداية حث الشباب على اختيار الزوجة الصالحة .

قال الرسول ﷺ : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » .

لقد أراد الإسلام أن ينشأ الأبناء فى بيت مسلم يحافظ على الإسلام وسلوكياته لذلك حرم على المؤمن أن يتزوج مشركة كما حرم على المؤمنة أن تتزوج مشركا .

قال تعالى : ﴿لا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾
[سورة البقرة – الآية ٢٢١]

لقد أراد الإسلام للطفل أن ينشأ فى بيت يرعاه خير الرعاية ويحفظه ويضمن الحصانة والطهارة وأن ينشأ نتيجة علاقة شرعية بعيدا عن جريمة الزنا الشنعاء ويضمن للطفل ثبوت النسب إلى الوالدين حتى لا يواجه الحياة عاجزاً لا ولى له ولذلك يؤكد الإسلام على ضرورة الاستقامة والعلاقات السوية الشرعية بين الرجل والمرأة حفاظا على الطفولة التى هى العنصر الهام فى تكوين الأجيال من شباب المستقبل .

لقد اهتم الإسلام بحق الطفل فى ثبوت نسبه إلى أبيه ، فى

حال إنكار الأب لبنوته أوجب الإسلام تدبير أمر الطفل واكتفى في ذلك بشهادة شاهد مؤمن ، أو وثيقة وعد بالزواج أو علانية لصلة بين الرجل والمرأة يشهد بها ، كل ذلك وقاية للطفولة من التشرد والضياع .

لقد اهتم الإسلام بنشأة الطفل في بيت مستقر قائم على احترام لقواعد الإسلام ، يعمره الإيمان ويسوده التفاهم وأن يكون له اسم وينسب إلى الأب .

قال تعالى : ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما﴾ .

[سورة الأحزاب : الآية ٥]

وقد أوجب الإسلام على الأب أن ينفق على طفله وهو نطفة في بطن أمه حتى إذا مات الأب تظل نفقة الأم الحامل على من ورث الأب المتوفى . أما الأب الحي فيظل مكلفا بالإنفاق على ابنه حتى يستطيع الابن الارتزاق وهكذا نجد الإسلام دائما يسبق كل القوانين في العالم مهما اجتهد فيها المجتهدون وحاولوا الزعم أنهم يرعون حقوق الطفولة . هكذا نرى روعة الإسلام وحرصه على الطفولة وعدم تشردها أو إرهاقها بالعمل في سن صغيرة .

كما أوجبت قوانين الإسلام العظيمة على المجتمع المسلم التعاون والتكافل لرعاية الطفل الذى يعجز والده عن رعايته ، فالمسلمون

مستخلفون فى الأرض وعليهم مساعدة غيرهم حتى يظل المجتمع المسلم دائما مجتمع تضامنٍ وتحَاب لتنشأ أجيال قادرة على الاعتزاز بقيم الإسلام العظيمة .

أما حق الطفل في أن يرضع لبن أمه فهو حق مكفول حتى أن الإسلام أباح لها أن تفطر إذا شعرت أن فى الصيام خطرا على طفلها كما كفل للأم أن ترضع وهى آمنة على رزقها وقوتها وسكنها وعلى الرجل الإنفاق عليها ، حتى إذا تم طلاقها وهى حامل تظل نفقتها مستمرة إلى أن تضع فتكون لولدها نفقة أخرى .

وإذا مات الرجل وهى حامل فإنها ترثه كما يرث ابنها .

وعلى الوارث أن يقوم بواجب الوالد المتوفى لاسترضاع الطفل من أمه أو من غيرها وكله بأجر .

وتأتى الأهمية الكبرى فى تربية الأطفال من خلال تعليمهم الإسلام وعقائده وسلوكياته ، وتقع المسئولية كاملة فى هذا الصدد على الأسرة ثم المدرسين والأساتذة والمربين فى كل مراحل التعليم قال الرسول ﷺ :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الأمير راع ، والرجل راع على بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . [رواه البخارى]

إن كلاًّ من الأب ، أو الأم ، أو المعلم يعمل فى تربيته للأطفال

على حسن الخلق واتباع الإسلام وعلى وقايتهم وإبعادهم عن كل ما يسبب لهم الألم أو العذاب فى الدنيا ثم فى الآخرة .

قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾ .
[سورة التحريم : الآية ٦]

وقد حدد القرآن الكريم أهمية تنشئة الأطفال منذ الصغر على الإيمان والعقيدة الإسلامية الصحيحة ، وضرب بذلك مثلا وصية لقمان لابنه .

قال تعالى : ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ . [سورة لقمان : الآية ١٣]

وعلى الأسرة أيضا الاهتمام بتعويد الطفل على ممارسة العبادات من صلاة وصوم ويتعرف أيضا على بقية العبادات التى تجب عليه عند بلوغه من زكاة وحج إلى بيت الله الحرام .

إن تعليم هذه العبادات للطفل منذ نشأته وتعريف أركانها وسننها ونوافلها يؤثر تأثيرا عميقا فى نفسه فيشب معتادا عليها متمسكا بها .

قال تعالى : ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ .
[سورة طه : الآية ١٣٢]

وقال الرسول ﷺ : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » . (رواه الحاكم ، وأبو داود) .

كما يجب تعويد الطفل قراءة القرآن الكريم عن على بن أبى طالب « رضى الله عنه » أن النبى ﷺ قال : « أدبوا أولادكم على ثلاث خصال حب نبيكم ، وحب آل بيته ، وتلاوة القرآن ، فإن حملة القرآن فى ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه » . (رواه الطبرانى) .

ونحن لا يمكن أن ننسى أهمية الأسوة الحسنة ، والقدوة التى يحتاجها الطفل يحاول أن يتمثل بسلوكياتها فى حياته خاصة فى عصرنا الحاضر فلابد أن يحاول كل منا فى موقعه أبا كان أو أما أو معلما ، أو أخا ، أو رئيسا فى العمل أو موجها لصغار أن يكون مثلا وقدوة حسنة ونذكر من التراث العظيم هذه الرسالة التى كتبها عمرو بن عتبة إلى أحد المعلمين لأولاده قال : « ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك ، فإن عيونهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما صنعت والقبيح عندهم ما تركت ، علمهم كتاب الله ، ولا تملهم فيه فيملوك فيكرهوه .

ولا تتركهم فيه فيهجروه . ارو لهم من الحديث أشرفه . ومن الشعر أعذبه ، ولا تنقلهم من علم إلى آخر حتى يحكموه . فإن ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم ، وعلمهم سنن الحكماء ، وجنبهم محادثة النساء ، ولا تتكل على عذر منى لك ، فقد اتكلت على كفاية منك » .

● إن الطفل فى عصرنا الحاضر يجد نفسه حائرًا تائها بين تيارات وآراء وتوجيهات متضاربة .

● حقا إن الطفولة تعيش هذا العصر فى ظروف تختلف تماما عن أية ظروف أخرى فى أى عصر مضى ، حيث أتاح التقدم العلمى والتكنولوجى كثيرا من الوسائل التى تقدم كل أنواع المعرفة ، ومختلف صنوف التسلية للطفل . وهنا مكمن الخطر .

● إن البيت المسلم ، والمجتمع الذى يهتم بتربية الطفل تربية إسلامية صحيحة ، يمكن أن يوظف كل هذه الوسائل فى سبيل نمو الطفل وجدانيا ، وذهنيا على أجمل وأكمل وجه .

أما إذا افتقدنا فى بيوتنا ومدارسنا أو معاهدنا وجامعاتنا الرغبة الصادقة فى تعهد الطفولة تعهدا يضمن شبابا عظيما فى المستقبل ، يكون الضياع .

● من هنا يجب الاهتمام فى تربية الأطفال علي قيم الإسلام العظيمة بكل ما فيها من جمال وتعويدهم على كل قيم الإسلام منذ نعومة أظافرهم .

● علينا أن نهتم بتعليمهم تلاوة القرآن الكريم ومحبة الصلاة فى المساجد حتى يشبوا على ذلك .

قال تعالى : ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله . فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ . [سورة التوبة : الآية ١٨]

ولا يخفى على كل من يتحمل مسئولية توجيه الطفل أن يقدم له القدوة والأسوة العظيمة التى يحاول كل مسلم الاقتداء بها ،

سوند محمد ﷺ الذى وصفه القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿وإنك على خلق عظيم﴾ . [سورة القلم : الآية ٤]

. . هو عن نفسه : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وقال تعالى : ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ .

[سورة الأحزاب : الآية ٢١]

● أما الجانب الثقافى فهو هام للغاية لتربية وجدان وسلوكيات الإنسان منذ الطفولة .

ويلفت النظر بصورة كبيرة جهود السيدة « سوزان مبارك » حرم رئيس جمهورية مصر العربية ، بشأن ثقافة الطفل والعناية بها وإنشاء المكتبات التى تضم كل ما يهم الطفل فى جميع أنحاء الجمهورية .

● كما يلفت النظر الاهتمام بالمجلس الأعلى للثقافة ، والهيئة العامة للكتاب بإصدار الكتب الهامة ، وكتب التراث بأسعار زهيدة .

● وتظل مسئولية الآباء والأمهات والمربين فى اختيار الكتب المناسبة لأعمار وعقول الأطفال .

● كما يجب ألا نترك الطفل أمام جهاز التليفزيون الذى أصبح من أهم وسائل الاعلام والتعليم ، دون إشراف وتوجيه حتى يتلقى

كل ما يفيده ويتجنب كل ماله آثار سيئة على نفسه ووجدانه .

● حتى أوقات اللعب وممارسة الهوايات علينا دور فى توجيهها .

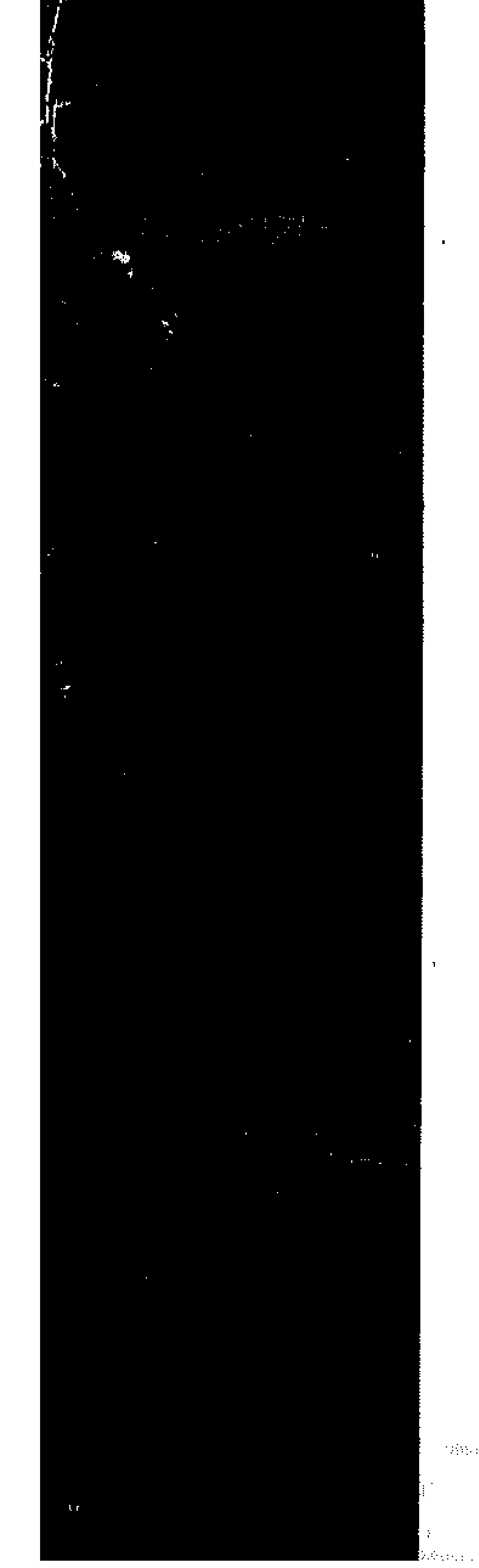
● إن الطفولة الجميلة لها تبعات ومسئوليات لدى الأسرة والمجتمع علينا أن نقوم بها خير قيام لنضمن مستقبلا أفضل وأجمل من الحاضر ، والله سبحانه المستعان .

فهرس الكتاب

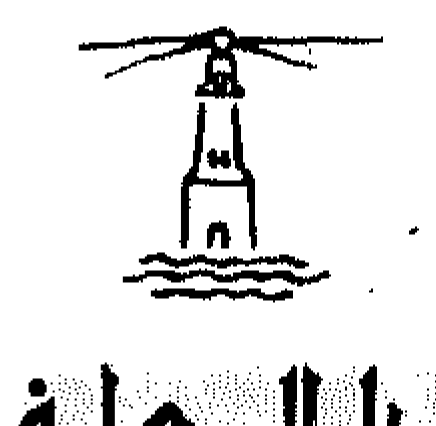
رقم الإيداع		١٩٩٦/٢٦٠٢
الترقيم الدولى	977 – 02 – 5234 – 4	ISBN

١/٩٥/٦٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



بحسٍّ إيمانيٍّ عميق ، وإدراك إسلاميٍّ دقيق تطوف بنا الدكتورة « ثريا العسيلى » ، من خلال صفحات هذا الكتاب بين الرياض الفيحاء للقرآن الكريم متوقفة أمام بعض آياته الطاهرة وقفة تأمل وتدبر ، كاشفة عما تتضمنه من قيم رفيعة ، وهدى قويم ، مستخلصة ما بها من دروس سامية تنفع الناس فى دنياهم وآخرتهم وتحدو خطاهم على دروب الخير والجمال .



دار المعارف

٠٣٢٢٦١٥

